

المسيران

في تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

الجزء العشرون

مجلد بیست و نهم

الميزان في تفسير القرآن

الجزء العشرون

تأليف: العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق و التصحيح الكامل
واضافات و تغييرات هامة من قبل المؤلف

ملاحظة: تم تطبيق الصفحات مع طبعة الأعلبي الثالثة المطبوعة في سنة ١٩٧٣ م

(٧٠) سورة المعارج مكية وهي أربع وأربعون آية (٤٤)

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ١ الى ١٨]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ② مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ③ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ⑤ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ⑦ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ⑧ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ⑨ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ⑩ يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ ⑪ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ⑫ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ⑬ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ⑭ كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى ⑮ نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ⑯ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ⑰ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ⑱}

(بيان)

الذي يعطيه سياق السورة أنها تصف يوم القيامة بما أعد فيه من أليم العذاب للكافرين. تبتدئ السورة فتذكر سؤال سائل سأل عذابا من الله للكافرين فتشير إلى أنه واقع ليس له دافع قريب غير بعيد كما يحسبونه ثم تصف اليوم الذي يقع فيه و العذاب الذي أعد لهم فيه و تستثني المؤمنين الذين قاموا بوظائف الاعتقاد الحق و العمل الصالح.

و هذا السياق يشبه سياق السور المكية غير أن المنقول عن بعضهم أن قوله: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ} مدني و الاعتبار يؤيده لأن ظاهره الزكاة و قد شرعت بالمدينة بعد الهجرة، و كون هذه الآية مدنية يستتبع كون الآيات الحافة بها الواقعة تحت الاستثناء و هي أربع عشرة آية قوله: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} - إلى قوله - {فِي}

جَنَاتٍ مُّكْرَمُونَ مدنية لما في سياقها من الاتحاد و استلزام البعض للبعض.

و مدنية هذه الآيات الواقعة تحت الاستثناء تستدعي ما استثنيت منه و هو على الأقل ثلاث آيات قوله: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا}** - إلى قوله - **{مَنْوعًا}**.

على أن قوله: **{فَمَا لِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَك مُهْطِعِينَ}** متفرع على ما قبله تفرعا ظاهرا و هو ما بعده إلى آخر السورة ذو سياق واحد فتكون هذه الآيات أيضا مدنية.

و من جهة أخرى مضامين هذا الفصل من الآيات تناسب حال المنافقين الحافين حول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن اليمين و عن الشمال عزيزين و هم الرادون لبعض ما أنزل الله من الحكم و خاصة قوله: **{أَيُّظْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ}** إلخ، و قوله: **{عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ}** إلخ على ما سيجيء، و موطن ظهور هذا النفاق المدينة لا مكة، و لا ضمير في التعبير عن هؤلاء بالذين كفروا فنظير ذلك موجود في سورة التوبة و غيرها.

على أنهم رووا أن السورة نزلت في قول القائل: **{اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** الأنفال: ٣٢ و قد تقدم في تفسير الآية أن سياقها و التي بعدها سياق مدني لا مكّي. لكن المروي عن الصادق (عليه السلام) أن المراد بالحق المعلوم في الآية حق يسميه صاحب المال في ماله غير الزكاة المفروضة.

و لا عبرة بما نسب إلى اتفاق المفسرين أن السورة مكية على أن الخلاف ظاهر و كذا ما نسب إلى ابن عباس أنها نزلت بعد سورة الحاقة.

قوله تعالى: **{سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}** السؤال بمعنى الطلب و الدعاء، و لذا عدي بالباء كما في قوله: **{يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ}** الدخان: ٥٥ و قيل: الفعل مضمن معنى الاهتمام و الاعتناء و لذا عدي بالباء، و قيل: الباء زائدة للتأكيد، و مآل الوجوه واحد و هو طلب العذاب من الله كفرا و عتوا.

و قيل: الباء بمعنى عن كما في قوله: **{فَسئَلْ بِهِ خَبِيرًا}** الفرقان: ٥٩، و فيه أن كونها في الآية المستشهد بها بمعنى عن ممنوع. على أن سياق الآيات التالية و خاصة قوله: **{فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا}** لا يلائم كون السؤال بمعنى الاستفسار و الاستخبار.

فالآية تحكي سؤال العذاب و طلبه عن بعض من كفر طغيانا و كفرا، و قد وصف العذاب المسئول من الأوصاف بما يدل على إجابة الدعاء بنوع من التهم و التحقير و هو قوله: **{وَاقِعٍ}**

و قوله: **{لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ}**.

و المعنى سأل سائل من الكفار عذابا للكافرين من الله سيصيبيهم و يقع عليهم لا محالة و لا دافع له أي أنه واقع عليهم سأل أو لم يسأل ففيه جواب تحقيري و إجابة لمسئله تهكما.

قوله تعالى: **{لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ}** للكافرين متعلق بعذاب و صفة له، و كذا قوله: **{لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ}** و قد مرت الإشارة إلى معنى الآية.

قوله تعالى: **{مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ}** الجار و المجرور متعلق بقوله: **{دَافِعٌ}** أي ليس له دافع من جانب الله و من المعلوم أنه لو اندفع لم يندفع إلا من جانب الله سبحانه، و من المحتمل أن يتعلق بقوله: **{بِعَذَابٍ}**.

و المعارج جمع معرج و فسروه بالمصاعد و هي الدرجات و هي مقامات الملكوت التي يعرج إليها الملائكة عند رجوعهم إلى الله سبحانه على ما يفسره قوله بعد: **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ}** إلخ فله سبحانه معارج الملكوت و مقاماتها المترتبة علوا و شرفا التي تعرج فيها الملائكة و الروح بحسب قربهم من الله و ليست بمقامات وهمية اعتبارية.

و قيل: المراد بالمعارج الدرجات التي يصعد فيها الاعتقاد الحق و العمل الصالح قال تعالى: **{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}** الفاطر ١٠، و قال: **{وَلَكِنَّ يَنَّا لَهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ}** الحج: ٣٧.

و قيل: المراد به مقامات القرب التي يعرج إليها المؤمنون بالإيمان و العمل الصالح قال تعالى: **{هُمُ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}** آل عمران: ١٦٣ و قال: **{لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ}** الأنفال: ٤ و قال: **{رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ}** المؤمن: ١٥.

و الحق أن مآل الوجهين إلى الوجه الأول، و الدرجات المذكورة حقيقية ليست بالوهمية الاعتبارية.

قوله تعالى: **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}** المراد بهذا اليوم يوم القيامة على ما يفيدته سياق الآيات التالية.

و المراد بكون مقدار هذا اليوم خمسين ألف سنة على ما ذكروا أنه بحيث لو وقع في الدنيا و انطبق على الزمان الجاري فيها كان مقداره من الزمان خمسين ألف سنة من سني الدنيا

و المراد بعروج الملائكة و الروح إليه يومئذ رجوعهم إليه تعالى عند رجوع الكل إليه فإن يوم القيامة يوم بروز سقوط الوسائط و تقطع الأسباب و ارتفاع الروابط بينها و بين مسبباتها و الملائكة و وسائط موكلة على أمور العالم و حوادث الكون فإذا تقطعت الأسباب عن مسبباتها و زيل الله بينهم و رجع الكل إلى الله عز اسمه رجعوا إليه و عرجوا معارجهم فحفوا من حول عرش ربهم و صفوا قال تعالى: **{وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ}** الزمر - ٧٥، و قال: **{يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا}** النبا: ٣٨.

و الظاهر أن المراد بالروح الروح الذي هو من أمره تعالى كما قال: **{قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}** إسرءاء: ٨٥ و هو غير الملائكة كما هو ظاهر قوله تعالى: **{يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ}** النحل: ٢.

فلا يعبا بما قيل: إن المراد بالروح جبرئيل و إن أطلق عليه الروح الأمين و روح القدس في قوله: **{نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ}** الشعراء: ١٩٤ و قوله: **{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ}** النحل: ١٠٣ فإن المقيد غير المطلق.

قوله تعالى: **{فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا}** لما كان سؤال السائل للعذاب عن تعنت و استكبار و هو مما يشق تحمله أمر نبيه (صلى الله عليه وآله و سلم) بالصبر و وصفه بالجميل و الجميل من الصبر ما ليس فيه شائبة الجزع و الشكوى، و عله بأن اليوم بما فيه من العذاب قريب.

قوله تعالى: **{إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَ تَرَاهُ قَرِيبًا}** ضميرا **{يَرَوْنَهُ}** و **{تَرَاهُ}** للعذاب أو ليوم القيامة بما فيه من العذاب الواقع و يؤيد الأول قوله فيما بعد: **{يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ}** إنلح.

و المراد بالرؤية الاعتقاد بنوع من العناية المجازية و رؤيتهم ذلك بعيدا ظنهم أنه بعيد من الإمكان فإن سؤال العذاب من الله سبحانه استكبارا عن دينه و ردا لحكمه لا يجامع الإيمان بالمعاد و إن تفوه به السائل، و رؤيته تعالى ذلك قريبا علمه بتحقيقه و كل ما هو آت قريب.

و في الآيتين تعليل أمره (صلى الله عليه وآله و سلم) بالصبر الجميل فإن تحمل الأذى و الصبر على المكاره يهون على الإنسان إذا استيقن أن الفرج قريب و تذكر ذلك فالكلام في معنى قولنا فاصبر على تعنتهم و استكبارهم في سؤالهم العذاب صبورا جميلا لا يشوبه جزع و شكوى فأنا نعلم أن

العذاب قريب على خلاف ما يستبعدونه، و علمنا لا يتخلف عن الواقع بل هو نفس الواقع.

قوله تعالى: **{يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ}** المهل المذاب من المعديات كالنحاس والذهب وغيرهما، وقيل: دردي الزيت، وقيل: عكر القطران^١.

و الظرف متعلق بقوله: **{وَأَقِيع}** على ما يفيدته السياق.

قوله تعالى: **{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ}** العهن مطلق الصوف، ولعل المراد المنفوش منه كما في قوله تعالى: **{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}** القارعة: ٥٥.

وقيل: هو الصوف الأحمر، وقيل: المصبوغ ألوانا لأن الجبال ذات ألوان مختلفة فمنها جدد بيض و حمر و غرايب سود^٢.

قوله تعالى: **{وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا}** الحميم القريب الذي تهتم بأمره و تشفق عليه.

إشارة إلى شدة اليوم فالإنسان يومئذ تشغله نفسه عن غيره حتى أن الحميم لا يسأل حميمه عن حاله لاشتغاله بنفسه.

قوله تعالى: **{يُبَصِّرُونَهُمْ}** الضميران للأحماء المعلوم من السياق و التبصير الإراءة و الإيضاح أي يرى و يوضح الأحماء للأحماء فلا يسألونهم عن حالهم اشتغالا بأنفسهم.

والجملة مستأنفة في معنى الجواب عن سؤال مقدر كأنه لما قيل: لا يسأل حميم حميما سئل فقيل: هل يرى الأحماء يومئذ أحماءهم؟ فأجيب: يبصرونهم و يمكن أن يكون **{يُبَصِّرُونَهُمْ}** صفة **{حَمِيمًا}**.

و من رديء التفسير قول بعضهم: إن معنى قوله: **{يُبَصِّرُونَهُمْ}** يبصر الملائكة الكفار، و ما قيل: إن المعنى يبصر المؤمنون أعداءهم من الكفار و ما هم فيه من العذاب فيشمتون بهم، و ما قيل: إن المعنى يبصر اتباع الضلالة رؤساءهم. و هي جميعا وجوه لا دليل عليها.

قوله تعالى: **{يَوْمَذُ الْمَجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِيذٍ بِنَيْهِ وَ صَاحِبَتِهِ وَ أَخِيهِ وَ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ}** قال في الجمع: المودة مشتركة بين التمني و بين المحبة يقال: وددت الشيء أي تمنيته و وددته أي أحببته أود فيهما جميعا. انتهى، و يمكن أن يكون استعماله بمعنى التمني من باب التضمين.

^١ أي ردية و خبيثه

^٢ كما في الآية من سورة فاطر

و قال: و الافتداء الضرر عن الشيء ببدل منه انتهى، و قال: الفصيلة الجماعة المنقطعة عن جملة القبيلة برجوعها إلى أبوة خاصة عن أبوة عامة. انتهى، و ذكر بعضهم أن الفصيلة عشيرته الأقربين الذين فصل عنهم كالآباء الأذنين.

و سياق هذه الآيات سياق الإضراب و الترقى بالنسبة إلى قوله: **{وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا}** فيفيد أن المجرم يبلغ به شدة العذاب إلى أن يتمنى أن يقتدي من العذاب بأحب أقاربه و أكرمهم عليه بنيه و صاحبتة و أخيه و فصيلته و جميع من في الأرض ثم ينجيهِ الافتداء فيود ذلك فضلا عن عدم سؤاله عن حال حميمه.

و المعنى **{يُودُّ}** و يتمنى **{الْمُجْرِمُ}** و هو المتلبس بالأجرام أعم من الكافر **{لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ}** و هذا هو الذي يتمناه، و الجملة قائمة مقام مفعول يود. **{بَيْنِيهِ}** الذين هم أحب الناس عنده **{وَصَاحِبِيهِ}** التي كانت سكا له و كان يحبها و ربما قدمها على أبويه **{وَأَخِيهِ}** الذي كان شقيقه و ناصره **{وَفَصِيلَتِيهِ}** من عشيرته الأقربين **{الَّتِي تُؤْوِيهِ}** و تضمه إليها **{وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}** من أولي العقل **{ثُمَّ يُنَجِّيهِ}** هذا الافتداء.

قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّهَا لَلْظَىٰ نَزَّاعَةٌ لِلشَّوَىٰ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ}** كلا للردع، و ضمير **{إِنَّهَا}** لجهنم أو للنار و سميت لظى لكونها تتلظى و تشتعل، و النزاعة اسم مبالغة من النزاع بمعنى الاقتلاع، و الشوى الأطراف كاليد و الرجل يقال: رماه فأشواه أي أصاب شواه كذا قال الراغب، و إيعاء المال إمساكه في وعاء.

فقوله: **{كَلَّا}** ردع لتمنيه النجاة من العذاب بالافتداء و قد علل الردع بقوله: **{إِنَّهَا لَلْظَىٰ}** إنلح و محصله أن جهنم نار مشتعلة محرقة للأطراف شأنها أنها تطلب المجرمين لتعذبهم فلا تصرف عنهم بافتداء كائنا ما كان.

فقوله: **{إِنَّهَا لَلْظَىٰ}** أي نار صفتها الاشتعال لا تتعزل عن شأنها و لا تتخذ، و قوله: **{نَزَّاعَةٌ لِلشَّوَىٰ}** أي صفتها إحراق الأطراف و اقتلاعها لا يبطل ما لها من الأثر فيمن تعذبه.

و قوله: **{تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ}** أي تطلب من أدبر عن الدعوة الإلهية إلى الإيمان بالله و أعرض عن عبادته تعالى و جمع المال فأمسكه في وعائه و لم ينفق منه للسائل و المحروم.

و هذا المعنى هو المناسب لسياق الاستثناء الآتي و ذكر الصلاة و الإنفاق فيه.

(بحث روائي)

في الجمع، حدثنا السيد أبو الحمد قال: حدثنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني و ساق السند عن جعفر بن محمد الصادق عن آبائه (عليهم السلام) قال: لما نصب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليا وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، طار ذلك في البلاد فقدم على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) النعمان بن الحارث الفهري. فقال: أمرت من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وأمرت بالجهاد والحج والصوم والصلاة والزكاة فقبلناها ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه، فهذا شيء منك أو أمر من عند الله؟ فقال: والله الذي لا إله إلا هو أن هذا من الله.

فولى النعمان بن الحارث وهو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فرماه الله بحجر على رأسه فقتله وأنزل الله تعالى: {سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ}.

أقول: وهذا المعنى مروى بغير طريق من طرق الشيعة، وقد رد الحديث بعضهم بأنه موضوع لكون سورة المعارج مكية، وقد عرفت الكلام في مكية السورة.

وفي الدر المنثور، أخرج الفاريايى و عبد بن حميد و النسائي و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: {سَأَلْ سَائِلٌ} قال هو النضر بن الحارث قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء.

و فيه، أخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله: {سَأَلْ سَائِلٌ} قال. نزلت بمكة في النضر بن الحارث و قد قال: {اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ} الآية و كان عذابه يوم بدر.

أقول: وهذا المعنى مروى أيضا عن غير السدي، و في بعض رواياتهم أن القائل: {اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ} الآية هو الحارث بن علقمة رجل من عبد الدار، و في بعضها أن سائل العذاب هو أبو جهل بن هشام سأله يوم بدر و لازمه مدينة السورة و المعتمد على أي حال نزول السورة بعد قول القائل: {اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ} الآية و قد تقدم كلام في سياق الآية.

و في أمالي الشيخ، بإسناده إلى أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث: ألا فحاسبوا أنفسكم قبل

أن تحاسبوا فإن في القيامة خمسين موقفا كل موقف مثل ألف سنة مما تعدون ثم تلا هذه الآية {فِي يَوْمٍ
كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}.

أقول: وروي هذا المعنى في روضة الكافي، عن حفص بن غياث عنه (عليه السلام).
وفي المجمع، روى أبو سعيد الخدري قال: قيل لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ما أطول هذا
اليوم فقال: والذي نفس محمد بيده إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلها في
الدنيا.

أقول: ورواه في الدر المنثور، عن عدة من الجوامع عن أبي سعيد عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).
وفي تفسير القمي في قوله تعالى: {يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ} قال: الرصاص الذائب والنحاس كذلك
تذوب السماء.

وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: {يُبَصَّرُونَهُمْ} يقول: يعرفونهم
ثم لا يتساءلون.

وفيه: في قوله تعالى: {نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى} قال: تنزع عينه و تسود وجهه.

وفيه: في قوله تعالى: {تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى} قال: تجره إليها.

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ١٩ الى ٣٥]

{إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى
صَلَاتِهِمْ دَائِبُونَ ۝٢٣ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝٢٥ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيْنَ الَّذِينَ ۝٢٦ وَالَّذِينَ
هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ۝٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۝٢٨ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ
مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنْ ابْتغى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٣١ وَالَّذِينَ

هُم لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَئِكَ

فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

(بيان)

تشير الآيات إلى السبب الأولي الذي يدعو الإنسان إلى رذيلة الإدبار و التولي و الجمع و الإيعاء التي تؤديه إلى دخول النار الخالدة التي هي لظى نزاعة للشوى على ما تذكره الآيات.

و ذلك السبب صفة الهلع التي اقتضت الحكمة الإلهية أن يخلق الإنسان عليها ليهتدي بها إلى ما فيه خيره و سعادته غير أن الإنسان يفسدها على نفسه و يبسيء استعمالها في سبيل سعادته فتسلك به إلى هلكة دائمة إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات فهم في جنات مكرمون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ الهلوع صفة مشتقة من الهلع بفتححتين و هو شدة الحرص، و ذكروا أيضا أن الهلوع تفسره الآياتان بعده فهو الجزوع عند الشر و المنوع عند الخير و هو تفسير شديد و السياق يناسبه.

و ذلك أن الحرص الشديد الذي جبل عليه الإنسان ليس حرصا منه على كل شيء خيرا كان أو شرا أو نافعا أو ضارا بل حرصا على الخير و النافع و لا حرصا على كل خير أو نافع سواء ارتبط به أو لم يرتبط و كان له أو لغيره بل حرصا منه على ما يراه خيرا لنفسه أو نافعا في سبيل الخير، و لازم هذا الحرص أن يظهر منه التزعزع و الاضطراب عند مس الشر و هو خلاف الخير و أن يمتنع عن ترك الخير عند مسه و يؤثر نفسه على غيره إلا أن يرى الترك أكثر خيرا و أنفع بحاله فالجزع عند مس الشر و المنع عند مس الخير من لوازم الهلع و شدة الحرص.

و ليس الهلع و شدة الحرص المجهول عليه الإنسان - و هو من فروع حب الذات - في حد نفسه من الرذائل المذمومة كيف؟ و هي الوسيلة الوحيدة التي تدعو الإنسان إلى بلوغ سعادته و كمال وجوده، وإنما تكون رذيلة مذمومة إذا أساء الإنسان في تدبيرها

فاستعملها فيما ينبغي و فيما لا ينبغي و بالحق و بغير حق كسائر الصفات النفسانية التي هي كريمة ما لزمتم حد الاعتدال و إذا انحرفت إلى جانب الإفراط أو التفريط عادت رذيلة ذميمة.

فالإنسان في بدء نشأته و هو طفل يرى ما يراه خيرا لنفسه أو شرا لنفسه بما جهز به من الغرائز العاطفة و هي التي تهواه نفسه و تشتهيه قواه من غير أن يحده بحد أو يقدره بقدر فيجزع إذا ألم أو أي مكروه، و يمنع من يزاحمه فيما أمسك به بكل ما يقدر عليه من بكاء و نحوه.

و هو على هذه الحال حتى إذا رزق العقل و الرشده أدرك الحق و الباطل و الخير و الشر و اعترفت نفسه بما أدرك و حينئذ يتبدل عنده كثير من مصاديق الحق و الباطل و الخير و الشر فعاد كثير مما كان يراه خيرا لنفسه شرا عنده و بالعكس.

فإن أقام على ما كان عليه من اتباع أهواء النفس و العكوف على المشتهيات و اشتغل بها عن اتباع الحق و غفل عنه، طبع على قلبه فلم يواجه حقا إلا دحضه و لا ذا حق إلا اضطهده و إن أدركته العناية الإلهية عاد ما كان عنده من الحرص على ما تهواه النفس حرصا على الحق فلم يستكبر على حق واجهه و لا منع ذا حق حقه.

فالإنسان في بادئ أمره و هو عهد الصبي قبل البلوغ و الرشده مجهز بالحرص الشديد على الخير و هو صفة كمالية له بحسب حاله بها ينبعث إلى جلب الخير و اتقاء الشر قال تعالى: **{وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}** العاديات: ٨. ثم إذا رزق البلوغ و الرشده زاد تجهيزا آخر و هو العقل الذي بها يدرك حقائق الأمور على ما هي عليها فيدرك ما هو الاعتقاد الحق و ما هو الخير في العمل، و يتبدل حرصه الشديد على الخير و كونه جزوعا عند مس الشر و منوعا عند مس الخير من الحرص الشديد على الخير الواقعي من الفزع و الخوف إذا مسه شر أخروي و هو المعصية و المسابقة إلى مغفرة ربه إذا مسه خير أخروي و هو مواجهة الحسنة، و أما الشر و الخير الدنيويان فإنه لا يتعدى فيهما ما حده الله له من الصبر عند المصيبة و الصبر على الطاعة و الصبر عن المعصية و هذه الصفة صفة كمالية لهذا الإنسان.

و أما إذا أعرض الإنسان عما يدركه عقله و يعترف به فطرته و عكف على اتباع الهوى و اعتنق الباطل و تعدى إلى حق كل ذي حق و لم يقف في حرصه على الخير على حد

فقد بدل نعمة الله نقمة و أخذ صفة غريزية خلقها الله وسيلة له يتوسل بها إلى سعادة الدنيا و الآخرة وسيلة إلى الشقوة و الهلكة تسوقه إلى الإدبار و التولي و الجمع و الإيعاء كما في الآيات.

و قد بان مما تقدم أنه لا ضير في نسبة هلع الإنسان في الآيات إلى الخلق و الكلام مسوق للذم و قد قال تعالى: **{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}** السجدة ٧، و ذلك أن ما يلحقه من الذم إنما هو من قبل الإنسان و سوء تدبيره لا من قبله تعالى فهو كسائر نعمه تعالى على الإنسان التي يصيرها نقما بسوء اختياره.

و ذكر الزمخشري فرارا من الإشكال أن في الكلام استعارة، و المعنى أن الإنسان لإيثاره الجزع و المنع و تمكنهما منه كأنه مجبول مطبوع عليهما، و كأنه أمر مخلوق فيه ضروري غير اختياري فالكلام موضوع على التشبيه لا لإفادة كونه مخلوقا لله حقيقة لأن الكلام مسوق للذم و الله سبحانه لا يذم فعل نفسه، و من الدليل عليه استثناء المؤمنين الذين جاهدوا أنفسهم فنجوا عن الجزع و المنع جميعا.

و فيه أن الصفة مخلوقة نعمة و فضيلة و الإنسان هو الذي يخرجها من الفضيلة إلى الرذيلة و من النعمة إلى النقمة و الذم راجع إلى الصفة من جهة سوء تدبيره لا من حيث إنها فعله تعالى.

و استثناء المؤمنين ليس لأجل أن الصفة غير مخلوقة فيهم بل لأجل أنهم أبقوها على كمالها و لم يبدلوها رذيلة و نقمة.

و أوجب أيضا عن الاستثناء بأنه منقطع و هو كما ترى.

قوله تعالى: **{إِلَّا الْمُصَلِّينَ}** استثناء من الإنسان الموصوف بالهلع، و في تقديم الصلاة على سائر الأعمال الصالحة المعدودة في الآيات التالية دلالة على شرفها و أنها خير الأعمال.

على أن لها الأثر البارز في دفع رذيلة الهلع المذموم و قد قال تعالى: **{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}** العنكبوت ٤٥.

قوله تعالى: **{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}** في إضافة الصلاة إلى الضمير دلالة على أنهم مداومون على ما يأتون به من الصلاة كائنة ما كانت لا أنهم دائما في الصلاة، و فيه إشارة إلى أن العمل إنما يكمل أثره بالمداومة.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}** فسره بعضهم بالزكاة المفروضة، و في الحديث عن الصادق (عليه السلام): أن الحق المعلوم ليس من الزكاة وإنما هو مقدار

معلوم ينفقونه للفقراء، و السائل هو الفقير الذي يسأل، و المحروم الفقير الذي يتعفف و لا يسأل و السياق لا يخلو من تأييده فإن للزكاة موارد مسماة في قوله: **{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْعَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ}** التوبة ٦٠ و ليست مختصة بالسائل و المحروم على ما هو ظاهر الآية.

قوله تعالى: **{وَ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ}** الذي يفيدته سياق عد الأعمال الصالحة أن المراد بتصديقهم يوم الدين التصديق العملي دون التصديق الاعتقادي و ذلك بأن تكون سيرتهم في الحياة سيرة من يرى أن ما يأتي به من عمل سيحاسب عليه فيجازي به إن خيرا فخييرا و إن شرا فشرا.

و في التعبير بقوله: **{يُصَدِّقُونَ}** دلالة على الاستمرار فهو المراقبة الدائمة بذكره تعالى عند كل عمل يواجهونه فيأتون بما يريد و يتركون ما يكرهه.

قوله تعالى: **{وَ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ}** أي خائفون، و الكلام في إشفاقهم من عذاب ربهم نظير الكلام في تصديقهم يوم الدين فهو الإشفاق العملي الظاهر من حالهم.

و لازم إشفاقهم من عذاب ربهم مع لزومهم الأعمال الصالحة و مجاهدتهم في الله أن لا يثقوا بما يأتون به من الأعمال الصالحة و لا يأمنوا عذاب الله فإن الأمن لا يجامع الخوف.

و الملاك في الإشفاق من العذاب أن العذاب على المخالفة فلا منجى منه إلا بالطاعة من النفس و لا ثقة بالنفس إذ لا قدرة لها في ذاتها إلا ما أقدرها الله عليه و الله سبحانه مالك غير مملوك، قال تعالى: **{قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا}** المائدة ١٧.

على أن الله سبحانه و إن وعد أهل الطاعة النجاة و ذكر أنه لا يخلف الميعاد لكن الوعد لا يقيد إطلاق قدرته فهو مع ذلك قادر على ما يريد و مشيئته نافذة فلا أمن بمعنى انتفاء القدرة على ما يخالف الوعد فالخوف على حاله و لذلك نرى أنه تعالى يقول في ملائكته: **{يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}** فيصنفهم بالخوف و هو يصرح بعصمتهم، و يقول في أنبيائه: **{وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ}** الأحزاب: ٣٩، و يصف المؤمنين في هذه الآية بالإشفاق و هو يعدهم في آخر الآيات بقول جازم فيقول: **{أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ}**.

قوله تعالى: **{إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ}** تعليل لإشفاقهم من عذاب ربهم فيتبين به أنهم مصيبون في إشفاقهم من العذاب و قد تقدم وجهه.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ هَادُونَ}** - إلى قوله - **{هُمُ الْعَادُونَ}** تقدم تفسير الآيات الثلاث في أول سورة المؤمنون.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ}** المتبادر من الأمانات أنواع الأمانة التي يؤتمنون عليها من المال و سائر ما يوصى به من نفس أو عرض و رعايتهم لها أن يحفظوها و لا يخونوها قيل: و لكثرة أنواعها جيء بلفظ الجمع بخلاف العهد.

و قيل: المراد بها جميع ما كلفهم الله من اعتقاد و عمل فتعم حقوق الله و حقوق الناس فلو ضيعوا شيئاً منها فقد خانوه.

و قيل: كل نعمة أعطاه الله عبده من الأعضاء و غيرها أمانة فمن استعمل شيئاً منها في غير ما أعطاه الله لأجله و أذن له في استعماله فقد خانته.

و ظاهر العهد عقد الإنسان مع غيره قولاً أو فعلاً على أمر و رعايته أن يحفظه و لا ينقضه من غير مجوز. و قيل: العهد كل ما التزم به الإنسان لغيره فإيمان العبد لربه عهد منه عاهد به ربه أن يطيعه في كل ما كلفه به فلو عصاه في شيء مما أمره به أو نهاه عنه فقد نقض عهده.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ}** الشهادة معروفة، و القيام بالشهادة عدم الاستنكاف عن تحملها و أداء ما تحمل منها كما تحمل من غير كتمان و لا تغيير، و الآيات في هذا المعنى كثيرة.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}** المراد بالمحافظة على الصلاة رعاية صفات كمالها على ما ندب إليه الشرع.

قيل: و المحافظة على الصلاة غير الدوام عليها فإن الدوام متعلق بنفس الصلاة و المحافظة بكيفية فلا تكرار في ذكر المحافظة عليها بعد ذكر الدوام عليها.

قوله تعالى: **{أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ}** الإشارة إلى المصلين في قوله: **{إِلَّا الْمُصَلِّينَ}** و تنكير جنات للتفخيم، و **{فِي جَنَّاتٍ}** خبر و **{مُكْرَمُونَ}** خبر بعد خبر أو ظرف لقوله: **{مُكْرَمُونَ}**.

(بحث روائي)

في تفسير القمي: **{إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا}** قال: الشر هو الفقر و الفاقة **{وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}** قال: الغنى و السعة.

و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **ثم استثنى فقال {إِلَّا الْمُصَلِّينَ} فوصفهم بأحسن أعمالهم {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}** يقول: إذا فرض على نفسه شيئاً من النوافل دام عليه.

أقول: قوله: إذا فرض على نفسه «إلخ» استفاد (عليه السلام) هذا المعنى من إضافة الصلاة إلى ضمير **{هُم}** و قد أشرنا إليه فيما مر.

و في الكافي، بإسناده إلى الفضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن قول الله عز و جل: **{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}** قال: هي الفريضة. قلت: **{الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}** قال: هي النافلة.

و في الجمع في قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ}** و روي عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: الحق المعلوم ليس من الزكاة و هو الشيء الذي تخرجه من مالك إن شئت كل جمعة و إن شئت كل يوم، و لكل ذي فضل فضله.

قال: و روي عنه أيضا أنه قال: هو أن تصل القرابة و تعطي من حرمك و تصدق على من عاداك.

أقول: و روي هذا المعنى في الكافي، عن أبي جعفر و أبي عبد الله (عليهما السلام) بعدة طرق و رواه في المحاسن عن أبي جعفر (عليه السلام).

و في الكافي، بإسناده عن صفوان الجمال عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز و جل **{لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}** قال: المحروم المحارف الذي قد حرم كد يمينه في الشراء و البيع.

قال: و في رواية أخرى عن أبي جعفر و أبي عبد الله (عليهما السلام) أنهما قالا: المحروم الرجل الذي ليس بعقله بأس و لم يبسط له في الرزق و هو محارف.

و في الجمع في قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}** روى محمد بن الفضيل

عن أبي الحسن (عليه السلام) أنه قال: **أولئك أصحاب الخمسين صلاة من شيعتنا.**
أقول: ولعله مبني على ما ورد عنهم (عليهم السلام) أن تشريع النوافل اليومية لتتميم الفرائض.

[سورة المعارج (٧٠): الآيات ٣٦ الى ٤٤]

{قَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكُمْ مَهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيْطَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ
جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا
مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرَهُمْ يَحْوِضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ
سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾}

(بيان)

لما ذكر سبحانه في الفصل الأول من آيات السورة في ذيل ما حكى من سؤالهم العذاب أن لهم عذابا واقعا ليس له دافع وهو النار المتلظية النزاعة للشوى التي تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى.
ثم بين في الفصل الثاني منها الملاك في ابتلائهم بهذه الشقوة وهو أن الإنسان مجهز بغريزة الهلع وحب خير نفسه ويؤديه اتباع الهوى في استعمالها إلى الاستكبار على كل حق يواجهه فيورده ذلك النار الخالدة، ولا ينجو من ذلك إلا الصالحون عملا المصدقون ليوم الدين المشفقون من عذاب ربهم.
انعطف في هذا الفصل من الآيات - وهو الفصل الثالث - على أولئك الكفار كالمتعجب

من أمرهم حيث يجتمعون على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): مهطعين عن اليمين وعن الشمال عزيزين مقبلين عليه بأبصارهم لا يفارقونه نخطبه (صلى الله عليه وآله وسلم): ما بالهم يحيطون بك مهطعين عليك يلازمونك؟ هل يريد كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم وهو كافر وقد قدر الله سبحانه أن لا يكرم بجنته إلا من استثناه من المؤمنين فهل يريدون أن يسبقوا الله ويعجزوه بنقض ما حكم به وإبطال ما قدره كلاً إن الله الذي خلقهم من نطفة مهينة قادر أن يبدهم خيراً منهم ويخلق مما خلقهم منه، غيرهم ممن يعبدوه ويدخل جنته. ثم أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقطع خصامهم ويذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

قوله تعالى: **{فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكُمْ مَهْطِعِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ}** قال في الجمع: قال الزجاج: المهطع المقبل ببصره على الشيء لا يزياله وذلك من نظر العدو، وقال أبو عبيدة الإهطاع الإسراع، وعزيز جماعات في تفرقة، واحدهم عزة. انتهى، وقبل الشيء بالكسر فالفتح الجهة التي تليه والفاء في «فما» فصيحة. والمعنى: إذا كان الإنسان بكفره واستكباره على الحق مصيره إلى النار إلا من استثنى من المؤمنين فما للذين كفروا عندك مقبلين عليك لا يرفعون عنك أبصارهم وهم جماعات متفرقة عن يمينك وشمالك أيطمعون أن يدخلوا الجنة فيعجزوا الله ويسبقوه فيما قضى به أن لا يدخل الجنة إلا الصالحاء من المؤمنين.

قوله تعالى: **{أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ}**، الاستفهام للإنكار - أي ما هو الذي يحملهم على أن يحتفوا بك ويهطعوا عليك؟ - هل يحملهم على ذلك طمع كل منهم أن يدخل جنة نعيم وهو كافر فلا طمع للكافر في دخول الجنة.

ونسب الطمع إلى كل امرئ منهم ولم ينسب إلى جماعتهم بأن يقال: أيطمعون أن يدخلوا «إلخ» كما نسب الإهطاع إلى جماعتهم فقيل: مهطعين لأن النافع من الطمع في السعادة والفلاح هو الطمع القائم بنفس الفرد الباعث له إلى الإيمان والعمل الصالح دون القائم بالجماعة بما أنها جماعة فطمع المجموع من حيث إنه مجموع لا يكفي في سعادة كل واحد واحد.

وفي قوله: **{أَنْ يُدْخَلَ}** مجهولاً من باب الإفعال إشارة إلى أن دخولهم في الجنة ليس منوطاً باختيارهم ومشيتهم بل لو كان فإنما هو إلى الله سبحانه فهو الذي يدخلهم الجنة

إن شاء ولن يدخل بما قدر أن لا يدخلها كافر.

قيل: إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يصلي عند الكعبة ويقرأ القرآن فكان المشركون يجتمعون حوله حلقة حلقة و فرقا يستمعون ويستهزئون بكلامه، ويقولون إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فلندخلها قبلهم فنزلت الآيات.

و هذا القول لا يلائمه سياق الآيات الظاهر في تفرع صنعهم ذلك على ما مر من حرمان الناس من دخول الجنة إلا من استثنى من المؤمنين إذ من الضروري على هذا أن اجتماعهم حوله (صلى الله عليه وآله وسلم) و إهطاعهم عليه إنما حملهم عليه إفراطهم في عداوته و مبالغتهم في إيذائه وإهانتته، و أن قولهم: سندخل الجنة قبل المؤمنين و هم مشركون مصرون على إنكار المعاد غير معترفين بنار و لا جنة إنما كان استهزاء و تهكما.

فلا مساغ لتفريع عملهم ذاك على ما تقدم من حديث النار و الجنة و السؤال - في سياق التعجيب - عن السبب الحامل لهم عليه ثم استفهام طمعهم في دخول الجنة و إنكاره عليهم.

فبما تقدم يتأيد أن يكون المراد بالذين كفروا في قوله: **{فَمَا لَ الَّذِينَ كَفَرُوا}** قوما من المنافقين آمنوا به (صلى الله عليه وآله وسلم) ظاهرا و لازموه ثم كفروا برد بعض ما نزل عليه كما يشير إليه أمثال قوله تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ}** المنافقون ٣، و قوله: **{لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ}** التوبة ٦٦، و قوله: **{فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ}** التوبة ٧٧.

فهؤلاء قوم كانوا قد آمنوا و دخلوا في جماعة المؤمنين و لازموا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مهطعين عليه عن اليمين و عن الشمال عزيزين ثم كفروا ببعض ما نزل إليه لا يبالون به فقرعهم الله سبحانه في هذه الآيات أنهم لا ينتفعون بملازمته و لا لهم أن يطمعوا في دخول الجنة فليسوا ممن يدخلها و ليسوا بسابقين و لا معجزين. و يؤيده قوله الآتي: **{إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ}** إنلح على ما سنشير إليه.

قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ}** ردع لهم عن الطمع في دخول الجنة مع كفرهم.

و قوله: **{إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ}** المراد بما يعلمون النطفة فإن الإنسان مخلوق منها. و الكلام مرتبط بما بعده و المجموع تعليل للردع، و محصل التعليل أنا خلقناهم من النطفة

- وهم يعلمون - به فلنا أن نذهب بهم و نخلق مكانهم قوما آخرين يكونون خيرا منهم مؤمنين غير رادين لشيء من دين الله، و لسنا بمسبوقين حتى يعجزنا هؤلاء الكفار و يسبقونا فندخلهم الجنة و ينتقض به ما قدرنا أن لا يدخل الجنة كافر.

و قيل: «من» في قوله: **{مِمَّا يَعْلَمُونَ}** تفيد معنى لام التعليل، و المعنى أنا خلقناهم لأجل ما يعلمون و هو الاستكمال بالإيمان و الطاعة فمن الواجب أن يتلبسوا بذلك حتى ندخلهم الجنة فكيف يطمعون في دخولها و هم كفار؟ وإنما علموا بذلك من طريق إخبار النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) .

و قيل: «من» لابتداء الغاية، و المعنى: أنا خلقناهم من نطفة قدرة لا تناسب عالم القدس و الطهارة حتى تتطهر بالإيمان و الطاعة و تتخلق بأخلاق الملائكة فتدخل و أنى لهم ذلك و هم كفار.

و قيل: المراد بما في **{مِمَّا يَعْلَمُونَ}** الجنس، و المعنى أنا خلقناهم من جنس الآدميين الذين يعلمون أو من الخلق الذين يعلمون لا من جنس الحيوانات التي لا تعقل و لا تفقه فالحجة لازمة لهم تامة عليهم، و الوجوه الثلاثة سخيفة.

قوله تعالى: **{فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}** المراد بالمشرق و المغرب مشارق الشمس و مغاربها فإن لها في كل يوم من أيام السنة الشمسية مشرقا و مغربا لا يعود إليهما إلى مثل اليوم من السنة القابلة، و من المحتمل أن يكون المراد بها مشارق جميع النجوم و مغاربها. و في الآية على قصرها ووجه من الالتفات ففي قوله: **{فَلَا أُقْسِمُ}** التفات من التكلم مع الغير في **{إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ}** إلى التكلم وحده، و الوجه فيه تأكيد القسم بإسناده إلى الله تعالى نفسه.

و في قوله: **{بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ}** التفات من التكلم وحده إلى الغيبة، و الوجه فيه الإشارة إلى صفة من صفاته تعالى هي المبدأ في خلق الناس جيلا بعد جيل و هي ربوبيته للمشرق و المغرب فإن الشروق بعد الشروق و الغروب بعد الغروب الملازم لمرور الزمان دخلا تاما في تكون الإنسان جيلا بعد جيل و سائر الحوادث الأرضية المقارنة له.

و في قوله: **{إِنَّا لَقَادِرُونَ}** التفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير، و الوجه فيه الإشارة

إلى العظمة المناسبة لذكر القدرة، وفي ذكر ربوبيته للمشارك والمغارب إشارة إلى تعليل القدرة فإن الذي ينتهي إليه تدبير الحوادث في تكونها لا يعجزه شيء من الحوادث التي هي أفعاله عن شيء منها ولا يمنعه شيء من خلقه من أن يبده خيرا منه وإلا شاركه المانع في أمر التدبير والله سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيته فافهم ذلك.

وقوله: **{إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ} {عَلَىٰ}** متعلق بقوله: **{لَقَادِرُونَ}** والمفعول الأول لنبدل ضمير محذوف راجع إليهم وإنما حذف للإشارة إلى هوان أمرهم وعدم الاهتمام بهم، و**{خَيْرًا}** مفعوله الثاني وهو صفة أقيمت مقام موصوفها، والتقدير إنا لقادرون على أن نبدلهم قوما خيرا منهم، وخيريتهم منهم أن يؤمنوا بالله ولا يكفروا به ويتبعوا الحق ولا يردوه.

وقوله: **{وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}** المراد بالسبق الغلبة على سبيل الاستعارة، وكونه تعالى مسبوقا هو أن يمنعه خلقهم أن يذهب بهم ويأتي بدلهم بقوم خير منهم.

وسياق الآية لا يخلو من تأييد ما لما تقدم من كون المراد بالذين كفروا قوما من المنافقين دون المشركين المعاندين للدين النافين لأصل المعاد فإن ظاهر قوله: **{خَيْرًا مِنْهُمْ}** لا يخلو من دلالة أو إشعار بأن فيهم شائبة خيرية والله أن يبذل خيرا منهم، والمشركون لا خير فيهم لكن هذه الطائفة من المنافقين لا يخلو تحفظهم على ظواهر الدين مما آمنوا به ولم يردوه من خير للإسلام.

فقد بان بما تقدم أن قوله: **{إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ}** إلى آخر الآيات الثلاث تعليل للردع بقوله: **{كَلَّا}**، و أن محصل مضمون الآيات الثلاث أنهم مخلوقون من نطفة - وهم يعلمون ذلك - وهي خلقة جارية والله الذي هو رب الحوادث الجارية التي منها خلق الإنسان جيلا بعد جيل والمدبر لها قادر أن يذهب بهم ويبدلهم خيرا منهم يعتنون بأمر الدين ويستأهلون لدخول الجنة، ولا يمنعه خلق هؤلاء أن يبدلهم خيرا منهم ويدخلهم الجنة بكامل إيمانهم من غير أن يضطر إلى إدخال هؤلاء الجنة فلا ينتقض تقديره أن الجنة للصالحين من أهل الإيمان.

قوله تعالى: **{فَدَرَّهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}** أمر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يتركهم وما هم فيه، ولا يلح عليهم بحجاج ولا يتعب نفسه فيهم بعظة، وقد سمي ما هم عليه بالخوض واللعب دلالة على أنهم لا ينتفعون به انتفاعا حقيقيا على ما لهم

فيه من الإمعان والإصرار كاللعب الذي لا نفع فيه وراء الخيال فليتركوا حتى يلاقوا اليوم الذي يوعدون
و هو يوم القيامة.

وفي إضافة اليوم إليهم إشارة إلى نوع اختصاص له بهم و هو الاختصاص بعذابهم.

قوله تعالى: **{يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ}** بيان ليومهم الذي يوعدون و هو يوم
القيامة.

و الأجداث جمع جدث و هو القبر، و سراحا جمع سريع، و النصب ما ينصب علامة في الطريق يقصده
السائرون للاهتمام به، و قيل: هو الصنم المنصوب للعبادة و هو بعيد من كلامه تعالى، و الإيفاض الإسراع و
المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}** الخشوع تأثر خاص في القلب عن
مشاهدة العظمة و الكبرياء، و يناظره الخضوع في الجوارح، و نسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور آثاره فيها، و
الرهق غشيان الشيء بقهر.

و قوله: **{ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}** الإشارة إلى ما مر من أوصافه من الخروج من الأجداث سراحا
و خشوع الأبصار و رهق الذلة.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد عن عبادة بن أنس قال: **دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) المسجد فقال: ما لي أراكم عزيزين حلقا حلقي الجاهلية قعد رجل خلف أخيه.**

أقول: و رواه عن ابن مردويه عن أبي هريرة و لفظه: **خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و أصحابه جلوس حلقا حلقا فقال: ما لي أراكم عزيزين، و روي هذا المعنى أيضا عن جابر بن سمرة.**

و في تفسير القمي: و قوله: **{كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ}** قال: من نطفة ثم علقة، و قوله: **{فَلَا أُقْسِمُ} أي**
أقسم {بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} قال: مشارق الشتاء و مشارق الصيف و مغارب الشتاء و مغارب الصيف.

و في المعاني، بإسناده إلى عبد الله بن أبي حماد رفعه إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: **لها ثلاثمائة و ستون مشرقا و ثلاثمائة و ستون مغربا فيومها الذي تشرق فيه لا تعود فيه إلا من قابل.**

و في تفسير القمي: و قوله: **{يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا}** قال: من القبر **{كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفُضُونَ}**
قال: إلى الداعي ينادون، و قوله: **{تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ}** قال: تصيبهم ذلة.

(٧١) سورة نوح مكية و هي ثمان و عشرون آية (٢٨)

[سورة نوح (٧١): الآيات ١ الى ٢٤]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ
إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا يُغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّضُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ
أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾
وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٦﴾ ثُمَّ إِنِّي
دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٨﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٩﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ
وَقَارًا ﴿١٢﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٣﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٤﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ
السَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٨﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿١٩﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ

إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿١١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿١٢﴾ وَقَالُوا لَا تَنْزِرُنَّ الْهَاطِكُمْ وَ لَا تَنْزِرُنَّ وَدًّا وَ لَا سُوعَاً وَ لَا يَعُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْرًا ﴿١٣﴾ وَ قَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿١٤﴾

(بيان)

تشير السورة إلى رسالة نوح (عليه السلام) إلى قومه و إجمال دعوته و عدم استجابتهم له ثم شكواه إلى ربه منهم و دعائه عليهم و استغفاره لنفسه و لوالديه و لمن دخل بيته مؤمنا و للمؤمنين و المؤمنات ثم حلول العذاب بهم و إهلاكهم بالإغراق و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** {أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ} إنلخ، تفسير لرسالته أي أوحينا إليه أن أنذر «إنلخ».

و في الكلام دلالة على أن قومه كانوا عرضة للعذاب بشركهم و معاصيهم كما يدل عليه ما حكي من قوله (عليه السلام) في الآية التالية: **{أَعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ}** و ذلك أن الإنذار تخويف و التخويف إنما يكون من خطر محتمل لا دافع له لو لا التحذر، و قد أفاد قوله: **{مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** إنه متوجه إليهم غير تاركهم لو لا تحذرهم منه.

قوله تعالى: **{قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ}** بيان لتبليغه رسالته إجمالاً بقوله: **{إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ}** و تفصيلاً بقوله: **{أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ}** إنلخ.

و في إضافته اليوم إلى نفسه إظهار إشفاق و رحمة أي أنكم قومي يجمعكم و إياي مجتمعنا القومي تسوؤني ما أساءكم فليست أريد إلا ما فيه خيركم و سعادتكم إنني لكم نذير إنلخ.

و في قوله: **{أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ}** دعوتهم إلى توحيدته تعالى في عبادته فإن القوم كانوا وثنيين يعبدون الأصنام، و الوثنية لا تجوز عبادة الله سبحانه لا وحده و لا مع غيره، و إنما يعبدون أرباب الأصنام بعبادة الأصنام ليكونوا شفعاء لهم عند الله، و لو جوزوا

عبادته تعالى لعبدوه وحده فدعوتهم إلى عبادة الله دعوة لهم إلى توحيده في العبادة.

وفي قوله: **{وَإِتَّقُوا}** دعوتهم إلى اجتناب معاصيه من كجائر الإثم و صغائره و هي الشرك فما دونه، و فعل الأعمال الصالحة التي في تركها معصية.

وفي قوله: **{وَ أَطِيعُونَ}** دعوة لهم إلى طاعة نفسه المستلزم لتصديق رسالته و أخذ معالم دينهم مما يعبد به الله سبحانه و يستن به في الحياة منه (عليه السلام) ففي قوله: **{أَعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوا وَ أَطِيعُونَ}** ندب إلى أصول الدين الثلاثة: التوحيد المشار إليه بقوله: **{أَعْبُدُوا اللَّهَ}** و المعاد الذي هو أساس التقوى^١ و التصديق بالنبوة المشار إليه بالدعوة إلى الطاعة المطلقة.

قوله تعالى: **{يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}** مجزوم في جواب الأمر و كلمة **{مِنْ}** للتبويض على ما هو المتبادر من السياق، و المعنى أن تعبدوه و تتقوه و تطيعوني يغفر لكم بعض ذنوبكم و هي الذنوب التي قبل الإيمان: الشرك فما دونه، و أما الذنوب التي لم تقترف بعد مما سيستقبل فلا معنى لمغفرتها قبل تحققها، و لا معنى أيضا للوعد بمغفرتها إن تحققت في المستقبل أو كلها تحققت لاستلزام ذلك إلغاء التكليف الدينية بإلغاء المجازاة على مخالفتها.

و يؤيد ذلك ظاهر قوله تعالى: **{يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}** الأحقاف ٣١، و قوله: **{يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}** إبراهيم ١٠ و قوله: **{قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ}** الأنفال ٣٨.

و أما قوله تعالى يخاطب المؤمنين من هذه الأمة: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ يُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ}** الصف ١٢ فهو و إن كان ظاهرا في مغفرة جميع الذنوب لكن رتبت المغفرة فيه على استمرار الإيمان و العمل الصالح و إدامتهما ما دامت الحياة فلا مغفرة فيه متعلقة بما لم يتحقق بعد من المعاصي و الذنوب المستقبلية و لا وعد بمغفرتها كلها تحققت.

و قد مال بعضهم اعتمادا على عموم المغفرة في آية الصف إلى القول بأن المغفور بسبب الإيمان في هذه الأمة جميع الذنوب و في سائر الأمم بعضها كما هو ظاهر قول نوح لأُمَّته:

^١ إذ لولا المعاد بما فيه من الحساب و الجزاء لم يكن للتقوى الديني وجه، منه.

{يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} و قول الرسل: كما في سورة إبراهيم **{يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}** و قول الجن كما في سورة الأحقاف لقومهم: **{يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَ آمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}**.

و فيه أن آية الصف موردها غير مورد المغفرة بسبب الإيمان فقط كما أشرنا إليه. على أن آية الأنفال صريحة في مغفرة ما قد سلف، و المخاطب به كفار هذه الأمة.

و ذهب بعضهم إلى كون **{مِنْ}** في قوله: **{مِنْ ذُنُوبِكُمْ}** زائدة، و لم تثبت زيادة «من» في الإثبات فهو ضعيف و مثله في الضعف قول من ذهب إلى أن **{مِنْ}** بيانية، و قول من ذهب إلى أنها لا ابتداء الغاية.

قوله تعالى: **{وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** تعليق تأخيرهم إلى أجل مسمى على عبادة الله و التقوى و طاعة الرسول يدل على أن هناك أجلين أجل مسمى يؤخرهم الله إليه إن أجابوا الدعوة، و أجل غيره يعجل إليهم لو بقوا على الكفر، و إن الأجل المسمى أقصى الأجلين و أبعدهما.

ففي الآية وعدهم بالتأخير إلى الأجل المسمى إن آمنوا و في قوله: **{إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ}** تعليل للتأخير إلى الأجل المسمى إن آمنوا فالمراد بأجل الله إذا جاء مطلق الأجل المقضي المتحتم أعم من الأجل المسمى و غير المسمى فلا راد لقضائه تعالى و لا معقب لحكمه.

و المعنى: أن اعبدوا الله و اتقوه و أطيعوني يؤخركم الله إلى أجل مسمى هو أقصى الأجلين فإنكم إن لم تفعلوا ذلك جاءكم الأجل غير المسمى بكفركم و لم تؤخروا فإن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ففي الكلام مضافا إلى وعد التأخير إلى الأجل المسمى إن آمنوا، تهديد بعذاب معجل إن لم يؤمنوا.

و قد ظهر بما تقدم عدم استقامة تفسير بعضهم لأجل الله بالأجل غير المسمى و أضعف منه تفسيره بالأجل المسمى.

و ذكر بعضهم: أن المراد بأجل الله يوم القيامة و الظاهر أنه يفسر الأجل المسمى أيضا بيوم القيامة فيرجع معنى الآية حينئذ إلى مثل قولنا: إن لم تؤمنوا عجل الله إليكم بعذاب الدنيا و إن آمنتم أخركم إلى يوم القيامة أنه إذا جاء لا يؤخر.

و أنت خبير بأنه لا يلائم التبشير الذي في قوله: **{يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ}**.

وقوله: **{لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** متعلق بأول الكلام أي لو كنتم تعلمون أن الله أجلين وأن أجله إذا جاء لا يؤخر استجبت دعوتي و عبدتم الله و اتقيتموه و أطعتموني هذا ففعل **{تَعْلَمُونَ}** محذوف يدل عليه سابق الكلام.

وقيل: إن **{تَعْلَمُونَ}** منزل منزلة الفعل اللازم، و جواب لو متعلق بأول الكلام، و المعنى: لو كنتم من أهل العلم لاستجبت دعوتي و آمنتم، أو متعلق بآخر الكلام، و المعنى: لو كنتم من أهل العلم لعلمتم أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر.

قوله تعالى: **{قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا}** القائل هو نوح (عليه السلام) و الذي دعا إليه هو عبادة الله و تقواه و طاعة رسوله، و الدعاء ليلا و نهارا كناية عن دوامه من غير فتور و لا توان.

وقوله: **{فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا}** أي من إجابة دعوتي فالمراد بالفرار التمدد و التأيي عن القبول استعارة، و إسناد زيادة الفرار إلى دعائه لما فيه من شائبة السببية لأن الخير إذا وقع في محل غير صالح قاومه المحل بما فيه من الفساد فأفسده فانقلب شرا، و قد قال تعالى في صفة القرآن: **{وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}** إسرء ٨٢.

قوله تعالى: **{وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ}** إنخ ذكر مغفرته تعالى غاية لدعوته و الأصل (دعوتهم ليؤمنوا فتغفر لهم) لأن الغرض الإشارة إلى أنه كان ناصحا لهم في دعوته و لم يرد إلا ما فيه خير دنياهم و عقباهم.

وقوله: **{جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ}** كناية عن استنكافهم عن الاستماع إلى دعوته، و قوله: **{وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ}** أي غطوا بها رؤوسهم و وجوههم لئلا يروني و لا يسمعوا كلامي و هو كناية عن التنفر و عدم الاستماع إلى قوله.

وقوله: **{وَاصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا}** أي و ألحوا على الامتناع من الاستماع و استكبروا عن قبول دعوتي استكبارا عجيبا.

قوله تعالى: **{ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا}** **{ثُمَّ}** للتراخي بحسب رتبة الكلام و الجهار النداء بأعلى الصوت.

قوله تعالى: **{ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ اسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا}** الإعلان و الإسرار متقابلان

وهما الإظهار والإخفاء، وظاهر السياق أن مرجع ضمير لهم في الموضعين واحد فالمعنى دعوتهم سرا و علانية فتارة علانية وتارة سرا سالكا في دعوتي كل مذهب ممكن و سائرا في كل مسير مرجو.

قوله تعالى: **{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا}** - إلى قوله - **{أَنْهَارًا}** علل أمرهم بالاستغفار بقوله: **{إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا}** دلالة على أنه تعالى كثير المغفرة وهي مضافا إلى كثرتها منه سنة مستمرة له تعالى.

و قوله: **{يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا}** مجزوم في جواب الأمر، والمراد بالسماء السحاب، والمدرار كثير الدور بالأقطار.

و قوله: **{وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنِينَ}** الأمداد إلحاق المدد وهو ما يتقوى به الممد على حاجته، والأموال والبنون أقرب الأعضاء الابتدائية التي يستعين بها المجتمع الإنساني على حوائج الحيوية.

و قوله: **{وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا}** هما من قسم الأموال غير أنهما لكونهما من أبسط ضروريات المعاش خصا بالذكر.

والآيات - كما ترى - تعد النعم الدنيوية وتحكي عنه (عليه السلام) أنه يعد قومه توافر النعم وتواترها عليهم أن استغفروا ربهم فلغفرة الذنوب أثر بالغ في رفع المصائب والنقمة العامة وانفتاح أبواب النعم من السماء والأرض أي إن هناك ارتباطا خاصا بين صلاح المجتمع الإنساني وفساده وبين الأوضاع العامة الكونية المربوطة بالحياة الإنسانية وطيب عيشه ونكده.

كما يدل عليه قوله تعالى: **{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}** الروم ٤١، و قوله: **{وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}** الشورى ٣٠، و قوله: **{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}** الأعراف ٩٤، وقد تقدم في تفسير الآيات ما لا يخلو من نفع في هذا المقام.

قوله تعالى: **{مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا}** استفهام إنكاري والوقار - كما في المجمع - بمعنى العظمة اسم من التوقير بمعنى التعظيم، والرجاء مقابل الخوف وهو الظن بما فيه مسرة، والمراد به في الآية مطلق الاعتقاد على ما قيل، وقيل: المراد به الخوف للملازمة بينهما.

والمعنى: أي سبب حصل لكم حال كونكم لا تعتقدون أو لا تخافون لله عظمة توجب أن تعبدوه.

والحق أن المراد بالرجاء معناه المعروف وهو ما يقابل الخوف ونفيه كناية عن اليأس فكثيرا ما يكنى به عنه يقال: لا أرجو فيه خيرا أي أنا آيس من أن يكون فيه خير، و الوقار الثبوت والاستقرار والتمكن وهو الأصل في معناه كما صرح به في المجمع، و وقاره تعالى ثبوته واستقراره في الربوبية المستتبع لألوهيته و معبوديته.

كان الوثنيين طلبوا ربا له وقار في الربوبية لعبدوه فيئسوا منه تعالى فعبدوا غيره وهو كذلك فإنهم يرون أنه تعالى لا يحيط به أفهامنا فلا سبيل للتوجه العبادي إليه، والعبادة أداء لحق الربوبية التي يتفرع عليها تدير الأمر وتدير أمور العالم مفوض إلى أصناف الملائكة والجن فهم أربابنا الذين يجب علينا عبادتهم ليكونوا شفعا لنا عند الله، وأما هو تعالى فليس له إلا الإيجاد وإيجاد الأرباب و مربوبيهم جميعا دون التدبير.

والآية أعني قوله: **{ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا }** وما يتلوها إلى تمام سبع آيات مسوقة لإثبات وقاره تعالى في الربوبية و حجة قاطعة في نفي ما لفقوه لوجوب عبادة غيره من الملائكة وغيرهم لاستناد تدير العالم إليهم، و يتبين به إمكان التوجه العبادي إليه تعالى.

و محصل الحجة: ما الذي دعاكم إلى نفي ربوبيته تعالى المستتبع للألوهية والمعبودية واليأس عن وقاره؟ و أنتم تعلمون أنه تعالى خلقكم و خلق العالم الذي تعيشون فيه طورا من الخلق لا ينفك عن هذا النظام الجاري فيه، و ليس تدير الكون و من فيه من الإنسان إلا التطورات المخلوقة في أجزائه و النظام الجاري فيه فكونه تعالى خالقا هو كونه مالكا مدبرا فهو الرب لا رب سواه فيجب أن يتخذ إلها معبودا.

و يتبين به صحة التوجه إليه تعالى بالعبادة فإننا نعرفه بصفاته الكريمة من الخلق و الرزق و الرحمة و سائر صفاته الفعلية فلنا أن نتوجه إليه بما نعرفه من صفاته¹.

¹ وإنما أخذناه بما نعرفه من صفاته الفعلية لأن من المنسوب إليهم أنهم يكون صفاته الذاتية ويفسرونها بسلب النقاخص فعنى كونه حيا قدرا عليما عندهم أنه ليس بميت ولا عاجز ولا جاهل على أن الآيات أيضا تصفه بالصفات الفعلية، منه.

قوله تعالى: **{وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}** حال من فاعل **{لَا تَرْجُونَ}** و الأطوار جمع طور و هو حد الشيء و حاله التي هو عليها.

و محصل المعنى - لا ترجون لله وقارا في ربوبية - و الحال أنه أنشأكم طورا بعد طور يستعقب طورا آخر فأنشأ الواحد منكم ترابا ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم جنينا ثم طفلا ثم شابا ثم شيخا و أنشأ جمعكم مختلفة الأفراد في الذكورة و الأنوثة و الألوان و الهيئات و القوة و الضعف إلى غير ذلك، و هل هذا إلا التدبير فهو مدبر أمركم فهو ربكم.

قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}** مطابقة السماوات السبع بعضها لبعض كون بعضها فوق بعض أو تطابقهن و تماثلهن على الاحتمالين المتقدمين في تفسير أوائل سورة الملك.

و المراد بالرؤية العلم، و توصيف السماوات السبع و الكلام مسوق سوق الحجة يدل على أنهم كانوا يرون كونها سبعا و يسلمون ذلك فاحتج عليهم بالمسلم عندهم.

و كيف كان فوق حديث السماوات السبع في كلام نوح دليل على كونه مأثورا من الأنبياء (عليهم السلام) من أقدم العهود.

قوله تعالى: **{وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَ جَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}** الآيات - كما يشهد به سياقها - مسوقة لبيان وقوع التدبير الإلهي على الإنسان بما يفيض عليه من النعم حتى تثبت ربوبيته فتجب عبادته.

و على هذا فكون الشمس سراجا هو كونها مضيئة لعالمنا و لولاها لانغمرنا في ظلمة ظلماء، و كون القمر نورا هو كونه منورا لأرضنا بنور مكتسب من الشمس فليس منورا بنفسه حتى يعد سراجا.

و أما أخذ السماوات ظرفا للقمر في قوله: **{وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا}** فالمراد به كما قيل كونه في حيزهن و إن كان في واحدة منها كما تقول: إن في هذه الدور لبثا و إن كانت في واحدة منها لأن ما كان في إحداهن كان فيهن و كما تقول: أتيت بني تميم و إنما أتيت بعضهم.

قوله تعالى: **{وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا}** أي أنبتكم إنبات النبات و ذلك أن

الإنسان تنتهي خلقته إلى عناصر أرضية تركبت تركيا خاصا به يغتذي وينمو ويولد المثل، وهذه حقيقة النبات، فالكلام مسوق سوق الحقيقة من غير تشبيه واستعارة.

قوله تعالى: **ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا** الإعادة فيها بالإماتة والإقبار، والإخراج للجزاء يوم القيامة فالآية والتي قبلها قريبتا المعنى من قوله تعالى: **فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ** الأعراف: ٢٥.

وفي قوله: **وَيُخْرِجُكُمْ** دون أن يقول: ثم يخرجكم إيماء إلى أن الإعادة والإخراج كالصنع الواحد والإعادة مقدمة للإخراج، والإنسان في حالتي الإعادة والإخراج في دار الحق كما أنه في الدنيا في دار الغرور.

قوله تعالى: **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا** أي كالبساط يسهل لكم التقلب من جانب إلى جانب، و الانتقال من قطر إلى قطر.

قوله تعالى: **لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا** السبل جمع سبيل بمعنى الطريق و الفجاج جمع فج بمعنى الطريق الواسعة، وقيل: الطريق الواقعة بين الجبلين.

قوله تعالى: **قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا** رجوع منه (عليه السلام) إلى شكواه من قومه إلى ربه بعد ما ذكر تفصيل دعوته لهم و ما ألقاه من القول إليهم من قوله: **ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا** إلى آخر الآيات.

و شكواه السابق له قوله: **فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا** بعد ما أخبر بإجمال دعوته بقوله: **رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا**.

وفي الآية دلالة على أن العظماء المترفين من قومه (عليه السلام) كانوا يصدون الناس عنه و يحرضونهم على مخالفته وإيذائه.

و معنى قوله: **لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا** و قد عد المال و الولد في سابق كلامه من النعم أن المال و الولد اللذين هما من نعمك و كان يجب عليهم شكرهما لم يزيداهم إلا كفرا و أورثهم ذلك خسرانا من رحمتك.

قوله تعالى: **وَوَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا** الكبار اسم مبالغة من الكبر.

قوله تعالى: **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** توصية منهم بالتمسك بألهتهم و عدم ترك عبادتها.

وود و سواع و يغوث و يعوق و نسر خمس من آلهتهم لهم اهتمام تام بعبادتهم و لذا خصوها بالذكر مع الوصية بمطلق الآلهة، و لعل تصدير ود و ذكر سواع و يغوث بلا المؤكدة للنفي لكونها أعظم أمرا عندهم من يعوق و نسر و الله أعلم.

قوله تعالى: **{وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا}** ضمير **{أَضَلُّوا}** للرؤساء المتبوعين و يتأيد به أنهم هم المحدث عنهم في قوله: **{وَمَكْرُوا}** **{وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ}** و قيل: الضمير للأصنام فهم المضلون، و لا يخلو من بعد.

و قوله: **{وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا}** دعاء من نوح على الظالمين بالضلال و المراد به الضلال مجازة دون الضلال الابتدائي فهو دعاء منه أن يجازيهم الله بكفرهم و فسقهم مضافا إلى ما سيحكي عنه من دعائه عليهم بالهلاك.

(بحث روائي)

في نهج البلاغة: **و قد جعل الله سبحانه الاستغفار سببا لدرور الرزق و رحمة الخلق فقال سبحانه: {اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ} فرحم الله امرأ استقبل توبته، و استقال خطيئته، و بادر منيته**

أقول: و الروايات في استفادة سببية الاستغفار لسعة الرزق و الأمداد بالأولاد من هذه الآيات كثيرة. و في الخصال، عن علي (عليه السلام) في حديث الأربعمائة: **أكثر الاستغفار تجلب الرزق.** و في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: **{لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا} قال؟ لا تخافون الله عظمة.**

أقول: و قد روي هذا المعنى من طرق أهل السنة عن ابن عباس.

و فيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: **{سَبَّحَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}** يقول بعضها **فوق بعض.**

و فيه في قوله تعالى: **{رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا}** قال: اتبعوا الأغنياء.

وفي الدر المنثور، أخرج البخاري و ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: صارت الأصنام و الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد.

أما ود فكانت لكلب في دومة الجندل، و أما سواع فكانت لهذيل، و أما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف عند سبأ، و أما يعوق فكانت لهمدان، و أما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع.

و كانوا أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم - أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا و سموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك و نسخ العلم عبت.

أقول: لعل المراد بصيرورة تلك الأصنام التي كانت لقوم نوح إلى العرب مطابقة ما عند العرب لما كان عندهم في الأسماء أو في الأوصاف و الأسماء، و أما انتقال تلك الأصنام بأشخاصهن إلى العرب فبعيد غاية.

و روي القصة أيضا في علل الشرائع، بإسناده عن جعفر بن محمد (عليه السلام) كما في الرواية.

و في روضة الكافي، بإسناده عن المفضل عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث: **فعمل نوح سفينته**

في مسجد الكوفة بيده فأتي بالخشب من بعد حتى فرغ منها.

قال: فالتفت عن يساره و أشار بيده إلى موضع دار الدارين و هو موضع دار ابن حكيم، و ذاك فرات

اليوم، فقال لي يا مفضل و هنا نصبت أصنام قوم نوح: يغوث و يعوق و نسر.

[سورة نوح (٧١): الآيات ٢٥ الى ٢٨]

{مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ

مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِيَوَالِدَيَّ وَ لِمَنْ دَخَلَ

بَيْتِي مُؤْمِنًا وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ لَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾}

(بيان)

تتضمن الآيات هلاك القوم وتمة دعاء نوح (عليه السلام) عليهم.

قوله تعالى: **{مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا}** إنح **{مِنْ}** لا ابتداء الغاية تفيد بحسب المورد التعليل و **{مِمَّا}** زائدة لتأكيد أمر الخطايا وتفخيمه، و الخطيئات المعاصي و الذنوب، و تنكير النار للتفخيم.

و المعنى: من أجل معاصيهم و ذنوبهم أغرقوا بالطوفان فأدخلوا أدخلهم الله نارا لا يقدر عذابها بقدر، و من لطيف نظم الآية الجمع بين الإغراق بالماء و إدخال النار.

و المراد بالنار نار البرزخ التي يعذب بها المجرمون بين الموت و البعث دون نار الآخرة، و الآية من أدلة البرزخ إذ ليس المراد أنهم أغرقوا و سيدخلون النار يوم القيامة، و لا يعاب بما قيل: إن من الجائز أن يراد بها نار الآخرة.

و قوله: **{فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا}** أي ينصرونهم في صرف الهلاك و العذاب عنهم. تعريض لأصنامهم و آلهتهم.

قوله تعالى: **{وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}** الديار نازل الدار، و الآية تمة دعائه (عليه السلام) عليهم، و كان قوله: **{مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا}** إنح معترضا واقعا بين فقرتي الدعاء للإشارة إلى أنهم أهلكوا لما عد نوح من خطيئاتهم و لتكون كالتمهيد لسؤاله الهلاك فيتبين أن إغراقهم كان استجابة لدعائه، و أن العذاب استوعبهم عن آخرهم.

قوله تعالى: **{إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}** تعليل لسؤال إهلاكهم عن آخرهم مفاده أن لا فائدة في بقائهم لا لمن دونهم من المؤمنين فإنهم يضلونهم، و لا فيمن يلدونه من الأولاد فإنهم لا يلدون إلا فاجرا كفارا و الفجور الفسق الشنيع و الكفار المبالغ في الكفر.

و قد استفاد (عليه السلام) ما ذكره من صفتهم من الوحي الإلهي على ما تقدم في تفسير قصة نوح من سورة هود.

قوله تعالى: **{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِرِجَالِي وَ لِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ}**

«إلخ» المراد بمن دخل بيته مؤمناً المؤمنون به من قومه، و بالمؤمنين و المؤمنات عامتهم إلى يوم القيامة.
و قوله: **{وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا}** التبار الهلاك، و الظاهر أن المراد بالتبار ما يوجب عذاب الآخرة و هو الضلال و هلاك الدنيا بالغرق، و قد تقدمت جميعاً في دعائه، و هذا الدعاء آخر ما نقل من كلامه (عليه السلام) في القرآن الكريم.

(٧٢) سورة الجن مكية و هي ثمان و عشرون آية (٢٨)

[سورة الجن (٧٢): الآيات ١ الى ١٧]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ سَمِعَ نَفْرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ① يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ② وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ④ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ⑤ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ⑥ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ⑦ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ⑧ وَأَنَا كُنَّا نَنقُذُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلْسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ أَلْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ⑨ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ⑩ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا

طَرِيقَ قَدَدًا ﴿١١﴾ وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَن لَن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَ أَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَ أَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَ أَنَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَ أَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ مَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

(بيان)

تشير السورة إلى قصة نفر من الجن استمعوا القرآن فآمنوا به و أقرأوا بأصول معارفه، و تتخلص منها إلى تسجيل نبوة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، و الإشارة إلى وحدانيته تعالى في ربوبيته و إلى المعاد، و السورة مكية بشهادة سياقها.

قوله تعالى: **{قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}** أمر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يقص القصة لقومه، و الموحى هو الله سبحانه، و مفعول **{اسْتَمَعَ}** القرآن حذف لدلالة الكلام عليه، و نفر الجماعة من ثلاثة إلى تسعة على المشهور، و قيل: بل إلى أربعين.

و العجب بفتحتين ما يدعو إلى التعجب منه لخروجه عن العادة الجارية في مثله، و إنما وصفوا القرآن بالعجب لأنه كلام خارق للعادة في لفظه و معناه أتى به رجل أمي ما كان يقرأ و لا يكتب. و الرشد إصابة الواقع و هو خلاف الغي، و هداية القرآن إلى الرشد دعوته إلى عقائد و أعمال تتضمن للمتلبس بها سعادته الواقعية.

و المعنى: يا أيها الرسول قل للناس: **{أُوْحِيَ}** - أي أوحى الله - إلي أنه استمع القرآن جماعة من الجن فقالوا - لقومهم لما رجعوا إليهم - إنا سمعنا كلاما مقروا خارقا للعادة يهدي إلى معارف من عقائد و أعمال في التلبس بها إصابة الواقع و الظفر بحقيقة السعادة.

كلام في الجن

الجن نوع من الخلق مستورون من حواسنا يصدق القرآن الكريم بوجودهم و يذكر أنهم بنوعهم مخلوقون قبل نوع الإنسان، وأنهم مخلوقون من النار كما أن الإنسان مخلوق من التراب قال تعالى: **{وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ}** الحجر ٢٧.

و أنهم يعيشون ويموتون ويعثون كالإنسان قال تعالى: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّهِمْ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ}** الأحقاف ١٨.

و أن فيهم ذكورا وإناثا يتكاثرون بالتوالد والتناسل قال تعالى: **{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنَّ}** الجن ٦.

و أن لهم شعورا وإرادة وأنهم يقدرون على حركات سريعة وأعمال شاقة كما في قصص سليمان (عليه السلام) و تسخير الجن له و قصة ملكة سبأ.

و أنهم مكلفون كالإنسان، منهم مؤمنون و منهم كفار، و منهم صالحون و آخرون طالحون، قال تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** الذاريات ٥٤ و قال تعالى: **{إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ}** الجن: ٢ و قال: **{وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ}** الجن ١٤ و قال: **{وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ}** الجن ١١ و قال تعالى: **{قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ}** الأحقاف ٣١ إلى غير ذلك من خصوصيات أحوالهم التي تشير إليها الآيات القرآنية.

و يظهر من كلامه تعالى أن إبليس من الجن و أن له ذرية و قبيلة قال تعالى: **{كَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ}** الكهف ٥٠ و قال تعالى: **{أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي}** الكهف: ٥٠ و قال تعالى: **{إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ}** الأعراف ٢٧.

[بيان]

قوله تعالى: **{فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}** إخبار عن إيمانهم بالقرآن و تصديقهم بأنه حق، و قوله: **{وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}** تأكيد لمعنى إيمانهم به أن إيمانهم بالقرآن إيمان بالله الذي أنزله فهو ربهم، و أن إيمانهم به تعالى إيمان توحيد لا يشركون به أحدا أبدا.

قوله تعالى: **{وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا}** فسر الجد بالعظمة و فسر بالحظ، و الآية في معنى التأكيد لقولهم: **{وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}**.

و القراءة المشهورة **{أَنَّهُ}** بالفتح، و قرئ بالكسر في هذه الآية و فيما بعدها من الآيات - اثنا عشر موردا - إلى قوله: **{وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا}** فبالفتح و هو الأرجح لظهور سياق الآيات في أنها مقولة قول الجن.

و أما قراءة الفتح فوجهها لا يخلو من خفاء، و قد وجهها بعضهم بأن الجملة **{وَأَنَّهُ}** «إنح» معطوفة على الضمير المجرور في قوله **{فَأَمَّنَّا بِهِ}** و التقدير و آمننا بأنه تعالى جد ربنا إنح فهو إخبار منهم بالإيمان بنفي الصاحبة و الولد منه تعالى على ما يقول به الوثنيون.

و هذا إنما يستقيم على قول الكوفيين من النحاة بجواز العطف على الضمير المتصل المجرور، و أما على قول البصريين منهم من عدم جوازه فقد وجهه بعضهم كما عن الفراء و الزجاج و الزمخشري بأنها معطوفة على محل الجار و المجرور و هو النصب فإن قوله: **{فَأَمَّنَّا بِهِ}** في معنى صدقناه، و التقدير و صدقنا أنه تعالى جد ربنا إنح، و لا يخفى ما فيه من التكلف.

و وجهه بعضهم بتقدير حرف الجر في الجملة المعطوفة و ذلك مطرد في أن و أن، و التقدير آمننا به و بأنه تعالى جد ربنا «إنح».

و يرد على الجميع أعم من العطف على الضمير المجرور أو على محله أو بتقدير حرف الجر أن المعنى إنما يستقيم حينئذ في قوله: **{وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا}** إنح، و قوله: **{وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا}** إنح، و أما بقية الآيات المصدرة بأن كقولها: **{وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ}** إنح، و قوله: **{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ}** إنح، و قوله: **{وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ}** فلا يصح قطعاً فلا معنى لأن يقال: آمننا أو صدقنا أنا ظننا أن لن نقول الإنس و الجن على الله شططا، أو يقال: آمننا أو صدقنا أنه كان رجال من الإنس يعوذون إنح، أو يقال: آمننا أو صدقنا أنا لمسنا السماء إنح.

و لا يندفع الإشكال إلا بالمصير إلى ما ذكره بعضهم أنه إذا وجه الفتح في الآيتين الأوليين بتقدير الإيمان أو التصديق فليوجه في كل من الآيات الباقية بما يناسبها من التقدير.

و وجه بعضهم الفتح بأن قوله: **{وَأَنَّهُ تَعَالَى}** إنح و سائر الآيات المصدرة بأن

معطوفة على قوله: **{أَنَّهُ اسْتَمَعَ}** إنلخ.

ولا يخفى فسادَه فإن محصله أن الآيات في مقام الإخبار عما أوحى إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أقوالهم وقد أخبر عن قولهم: إنا سمعنا قرآنا عجبا فآمنا به بعنوان أنه إخبار عن قولهم ثم حكى سائر أقوالهم بألفاظها فالمعنى أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا كذا وكذا وأوحى إلي أنه تعالى جد ربنا «إنلخ» وأوحى إلي أنه كان يقول سفيها إلى آخر الآيات.

فيرد عليه أن ما وقع في صدر الآيات من لفظة **{أَنَّهُ}** و **{أَنَّهُمْ}** و **{أَنَا}** إن لم يكن جزء من لفظهم المحكي كان زائدا مخللا بالكلام، وإن كان جزء من كلامهم المحكي بلفظه لم يكن المحكي من مجموع أن وما بعدها كلاما تاما واحتاج إلى تقدير ما يتم به كلاما حتى تصح الحكاية، ولم ينفع في ذلك عطفه على قوله: **{أَنَّهُ اسْتَمَعَ}** شيئا فلا تغفل.

قوله تعالى: **{وَأَنَّهُ كَانَ يَفْقَهُ لِكَلِمَةٍ مِّن سَفِيهَاتٍ مَّا يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا}** السفه - على ما ذكره الراغب - خفة النفس لنقصان العقل، والشطط القول البعيد من الحق.

والآية أيضا في معنى التأكيد لقولهم: **{لَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}** و مرادهم بسفيهم من سبقهم من مشركي الجن، وقيل: المراد إبليس وهو من الجن، وهو بعيد من سياق قوله: **{كَانَ يَقُولُ سَفِيهَاتٍ}** إنلخ.

قوله تعالى: **{وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}** اعتراف منهم بأنهم ظنوا أن الإنس والجن صادقون فيما يقولون ولا يكذبون على الله فلما وجدوهم مشركين وسمعوهم ينسبون إليه تعالى الصاحبة والولد أذعنوا به وقلدوهم فيما يقولون فأشركوا مثلهم حتى سمعوا القرآن فانكشف لهم الحق، وفيه تكذيب منهم للمشركين من الإنس والجن.

قوله تعالى: **{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}** قال الراغب: العوذ الالتجاء إلى الغير، وقال: رهقه الأمر غشيه بقهر انتهى. وفسر الرهق بالإثم، وبالطغيان، وبالخوف، وبالشر، وبالذلة والضعف، وهي تفاسير بلازم المعنى.

و المراد بعوذ الإنس بالجن - على ما قيل - : إن الرجل من العرب كان إذا نزل الوادي في سفره ليلا قال: أعوذ بعزير هذا الوادي من شر سفهاء قومه، ونقل عن مقاتل أن أول من تعوذ بالجن قوم من اليمن ثم بنو حنيفة ثم فشا في العرب.

ولا يبعد أن يكون المراد بالعوذ بالجن الاستعانة بهم في المقاصد من طريق الكهانة، وإليه يرجع ما نقل عن بعضهم أن المعنى كان رجال من الإنس يعوذون برجال من أجل الجن و من معرفتهم و أذاهم.

و الضميران في قوله: **{فَزَادُوهُمْ}** أولهما لرجال من الإنس و ثانيهما لرجال من الجن و المعنى فزاد رجال الإنس رجال الجن رهقا بالتجاءم إليهم فاستكبر رجال الجن و طغوا و أثموا، و يجوز العكس بأن يكون الضمير الأول لرجال الجن و الثاني لرجال الإنس، و المعنى فزاد رجال الجن رجال الإنس رهقا أي إثما و طغيانا أو ذلة و خوفا.

قوله تعالى: **{وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا}** ضمير «أنهم» لرجال من الإنس، و الخطاب في **{ظَنَنْتُمْ}** لقومهم من الجن، و المراد بالبعث بعث الرسول بالرسالة فالمشركون ينكرون ذلك، و قيل: المراد به الإحياء بعد الموت، و سياق الآيات التالية يؤيد الأول.

و عن بعضهم أن هذه الآية و التي قبلها ليستا من كلام الجن بل كلامه تعالى معترضا بين الآيات المتضمنة لكلام الجن، و عليه فضمير **{أَنَّهُمْ}** للجن و خطاب **{ظَنَنْتُمْ}** للناس، و فيه أنه بعيد من السياق.

قوله تعالى: **{وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَ شُهَبًا}** لمس السماء الاقتراب منها بالصعود إليها، و الحرس على ما قيل اسم جمع لحارس و لذا وصف بالمفرد و المراد بالحرس الشديد الحفاظ الأقوياء في دفع من يريد الاستراق منها و لذا شفع بالشهب و هي سلاحهم.

قوله تعالى: **{وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ أَلْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا}** يفيد انضمام صدر الآية إلى الآية السابقة أن ملء السماء بالحرس الشديد و الشهب مما حدث أخيرا و أنهم كانوا من قبل يقعدون من السماء مقاعد لاستماع كلام الملائكة و يفيد ذيل الآية بالتفريع على جميع ما تقدم أن من يستمع الآن منا بالعودة منها مقعدا للسمع يجد له

شهابا من صفته أنه راصد له يرميه به الحرس.

فيتحصل من مجموع الآيتين الإخبار بأنهم عثروا على حادثة سماوية جديدة مقارنة لنزول القرآن و بعثة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهي منع الجن من تلقي أخبار السماء باستراق السمع.

و من عجيب الاستدلال ما عن بعضهم أن في الآيتين ردا على من زعم أن الرجم حدث بعد مبعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لظهور قوله: **{مُلِئَتْ حَرَسًا}** في أن الحادث هو الملاء و كثرة الحرس لا أصل الحرس، و ظهور قوله: **{تَفْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ}** في أنا كنا نجد فيها بعض المقاعد خاليا من الحرس و الشهب، و الآن ملئت المقاعد كلها فن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا.

و يدفعه أنه لو كان المراد بالآيتين هو الإخبار عن ملء السماء بالحرس و تكثير عددهم بحيث لا يوجد فيها مقاعد خالية منهم و قد كانت توجد قبل ذلك كان الواجب أن يتوجه النفي في قوله: **{فَمَنْ يَسْتَمِعُ أَلَّ أَنْ يَجِدَ لَهُ شَهَابًا رَصْدًا}** إلى السمع عن جميع المقاعد قبال إثبات السمع من بعض تلك المقاعد لا نفي مجرد السمع.

سلمنا أن المراد نفي السمع على الإطلاق و هو يكفي في ذلك لكن تعلق الغرض في الكلام بالإخبار عن الامتلاء بالحرس مع كون بعض المقاعد خالية عنهم قبل ذلك، و كذا تقييد قوله: **{فَمَنْ يَسْتَمِعُ}** إنخ، بقوله: **{أَلَّ أَنْ}** يدل على حدوث أمر جديد في رجم الجن و هو استيعاب الرجم لهم في أي مقعد قعدوا و المنع من السمع مطلقا بعد ما كانوا يستمعون من بعض المقاعد من غير منع، و هذا المقدار كاف للمدعي فيما يدعيه.

وليتنبه أن مدلول الآية حدوث رجم الجن بشهاب رصد و هو غير حدوث الشهاب السماوي و هو ظاهر فلا ورود لما قيل: إن الشهب السماوية كانت من الحوادث الجوية الموجودة قبل زمن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و نزول القرآن.

وجه عدم الورد أن الذي يظهر من القرآن حدوث رجم الشياطين من الجن بالشهب من غير تعرض لحدوث أصل الشهب، و قد تقدم في تفسير أول سورة الصافات بعض ما يتعلق بهذا المقام.

قوله تعالى: **{وَ أَنَّا لَا نَذَرِي أَشْرًا أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشْدًا}**

الرشد بفتحين و الرشد بالضم فالسكون خلاف الغي و تنكير **{رَشْدًا}** لإفادة النوع أي نوعا من الرشد.

هذا منهم إظهار للجهد و التحير فيما شاهدوه من أمر الرجم و منع شياطين الجن من الاطلاع على أخبار السماء غير أنهم تنبهوا على أن ذلك لأمر ما يرجع إلى أهل الأرض إما خير أو شر و إذا كان خيرا فهو نوع هدى لهم و سعادة و لذا بدلوا الخير و هو المقابل للشر من الرشد، و يؤيده قولهم: **{أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ}** المشعر بالرحمة و العناية.

و قد صرحوا بالفاعل لإرادة الرشد و حذفوه في جانب الشر أدبا و لا يراد شر من جانبه تعالى إلا لمن استحقه.

قوله تعالى: **{وَأَنَا مِمَّنَ الصَّالِحِينَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا}** الصلاح مقابل الطلاح، و المراد بدون ذلك ما يقرب منه رتبة - على ما قيل -، و الظاهر أن دون بمعنى غير، و يؤيده قوله: **{كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا}** الدال على التفرق و التشتت و الطرائق جمع طريقة و هي الطريق المطروقة المسلوكة، و القدد القطع جمع قدة بمعنى قطعة من القد بمعنى القطع و صفت الطرائق بالقدد لأن كل واحدة منها مقطوعة عن غيرها تنتهي بسالكها إلى غاية غير ما ينتهي به إليه غيرها، و إلى هذا المعنى يرجع تفسير القدد بالطرائق المتفرقة المتشتتة.

و الظاهر أن المراد بقوله: **{الصَّالِحِينَ}** الصالحون بحسب الطبع الأولي في المعاشرة و المعاملة دون الصالحين بحسب الإيمان، و لو كان المراد صلاح الإيمان لكان الأنسب أن يذكر بعد ما سيحييء من حديث إيمانهم لما سمعوا الهدى.

و ذكر بعضهم أن قوله: **{طَرَائِقَ قَدَدًا}** منصوب على الظرفية أي في طرائق قدد و هي المذاهب المتفرقة المتشتتة، و قال آخرون إنه على تقدير مضاف أي ذوي طرائق، و لا يبعد أن يكون من الاستعارة بتشبيهم أنفسهم في الاختلاف و التباين بالطرق المقطوع بعضها من بعض الموصلة إلى غايات متشتتة.

و المعنى: و أنا من الصالحون طبعاً و منا غير ذلك كما في مذاهب مختلفة أو ذوي مذاهب مختلفة أو كالطرق المقطوعة بعضها عن بعض.

قوله تعالى: **{وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا}** الظن هو

العلم اليقيني، و الأنسب أن يكون المراد بقوله: **{لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ}** إعجازه تعالى بالغلبة عليه فيما يشاء فيها و ذلك بالإفساد في الأرض و إخلال النظام الذي يجري فيها فإن إفسادهم لو أفسدوا من القدر، و المراد بقوله: **{وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا}** إعجازه تعالى بالهرب منه إذا طلبهم حتى يفوتوه فلا يقدر على الظفر بهم.

وقيل: المعنى لن نعجزه تعالى كائين في الأرض ولن نعجزه هرباً إلى السماء أي لن نعجزه لا في الأرض ولا في السماء هذا و هو كما ترى.

قوله تعالى: **{وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَدَىٰ أَمْتًا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا}** المراد بالهدى القرآن باعتبار ما يتضمنه من الهدى، و البخس النقص على سبيل الظلم، و الرهق غشيان المكروه.

و الفاء في قوله: **{فَمَنْ يُؤْمِنُ}** للتفريع و هو من تفريع العلة على المعلول لإفادة الحجّة في إيمانهم بالقرآن من دون ريث و لا مهل.

و محصل المعنى: أنا لما سمعنا القرآن الذي هو الهدى بادرنا إلى الإيمان به من دون مكث لأن من آمن به فقد آمن بربه و من يؤمن بربه فلا يخاف نقصانا في خير أو غشيانا من مكروه حتى يكف عن المبادرة و الاستعجال و يتروى في الإقدام عليه لثلا يقع في بخس أو رهق.

قوله تعالى: **{وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا}** المراد بالإسلام تسليم الأمر لله تعالى فالمسلمون المسلمون له الأمر المطيعون له فيما يريده و يأمر به، و القاسطون هم المائلون إلى الباطل قال في الجمع: القاسط هو العادل عن الحق و المقسط العادل إلى الحق، انتهى.

و المعنى: أنا معشر الجن منقسمون إلى من يسلم لأمر الله مطيعين له، و إلى من يعدل عن التسليم لأمر الله و هو الحق.

و قوله: **{فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا}** تحري الشيء توخيه و قصده، و المعنى فالذين أسلموا فأولئك قصدوا إصابة الواقع و الظفر بالحق.

قوله تعالى: **{وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا}** فيعذبون بتسعرهم و اشتعالهم بأنفسهم كالقاسطين من الإنس قال تعالى: **{فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ}** البقرة ٢٦.

و قد عد كثير منهم قوله: **{فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ}** - إلى قوله - **{لِجَهَنَّمَ حَطَبًا}** تمة لكلام الجن يخاطبون به قومهم وقيل: إنه من كلامه تعالى يخاطب به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

قوله تعالى: **{وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا لَتَفْتِنَهُمْ فِيهِ}** **{أَنْ}** مخففة من الثقيلة، والمراد بالطريقة طريقة الإسلام، والاستقامة عليها لزومها والثبات على ما تقتضيه من الإيمان بالله وآياته.

و الماء الغدق الكثير منه، ولا يبعد أن يستفاد من السياق أن قوله: **{لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا}** مثل أريد به التوسعة في الرزق، ويؤيده قوله بعده: **{لَتَفْتِنَهُمْ فِيهِ}**.

و المعنى: وأنه لو استقاموا أي الجن والإنس على طريقة الإسلام لله لرزقناهم رزقا كثيرا لمتحنهم في رزقهم فالآية في معنى قوله: **{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}** الأعراف .٩٦

و الآية من كلامه تعالى معطوف على قوله في أول السورة: **{أَنَّهُ اسْتَمَعَ}** إلخ.

قوله تعالى: **{وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا}** العذاب الصعد هو الذي يتصعد على المعذب ويغلبه، وقيل: هو العذاب الشاق.

و الإعراض عن ذكر الله لازم عدم الاستقامة على الطريقة و هو الأصل في سلوك العذاب، ولذا وضع موضعه ليدل على السبب الأصلي في دخول النار.

و هو الوجه أيضا في الالتفات عن التكلم مع الغير إلى الغيبة في قوله: **{ذِكْرُ رَبِّهِ}** و كان مقتضى الظاهر أن يقال: ذكرنا و ذلك أن صفة الربوبية هي المبدأ الأصلي لتعذيب المعرضين عن ذكره تعالى فوضعت موضع ضمير المتكلم مع الغير ليدل على المبدأ الأصلي كما وضع الإعراض عن الذكر موضع عدم الاستقامة ليدل على السبب. قيل: وقوله: **{يَسْلُكْهُ}** مضمن معنى يدخله و لذا عدي إلى المفعول الثاني، و المعنى ظاهر.

بحث روائي

في المجمع، روى الواحدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على الجن و ما رآهم، انطلق رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في طائفة من أصحابه عامدين إلى

سوق عكاظ، و قد حيل بين الشياطين و بين خبر السماء فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم: قالوا: حيل بيننا و بين خبر السماء و أرسلت علينا الشهب قالوا: ما ذاك إلا من شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض و مغاريها.

فر نفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) عامدين إلى سوق عكاظ و هو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له و قالوا: هذا الذي حال بيننا و بين خبر السماء فرجعوا إلى قومهم و قالوا: **{إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}** فأوحى الله إلى نبيه (صلى الله عليه وآله و سلم): **{قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ}**.

و رواه البخاري و مسلم أيضا في الصحيح.

أقول: و روى القمي في تفسيره ما يقرب منه و قد أوردنا الرواية في تفسير سورة الأحقاف في ذيل قوله: **{وإذ صرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ} إلخ.**

لكن ظاهر روايته أن نفر الذين نزلت فيهم آيات سورة الأحقاف هم نفر الذين نزلت فيهم هذه السورة و ظاهر آيات السورتين لا يلائم ذلك فإن ظاهر قولهم المنقول في سورة الأحقاف: **{إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ}** الآية أنهم كانوا مؤمنين بموسى و مصدقين للتوراة و ظاهر آيات هذه السورة أنهم كانوا مشركين لا يرون النبوة و لازم ذلك تغاير الطائفتين اللهم إلا أن يمنع الظهور.

و فيه، عن علقمة بن قيس قال: قلت لعبد الله بن مسعود: من كان منكم مع النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ليلة الجن؟ فقال: ما كان منا معه أحد فقدناه ذات ليلة و نحن بمكة فقلنا: اغتيل رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) أو استطير فانطلقنا نطلبه من الشعاب فلقيناه مقبلا من نحو حراء فقلنا: يا رسول الله أين كنت؟ لقد أشفقنا عليك، و قلنا له: بتنا الليلة بشر ليلة بات بها قوم حين فقدناك، فقال لنا: **إنه أتاني داعي الجن فذهبت أقرئهم القرآن فذهب بنا و أرانا آثارهم و آثار نيرانهم فأما أن يكون صحبة منا أحد فلا.**

و فيه، و عن الربيع بن أنس قال: ليس لله تعالى جد و إنما قالته الجن بجهالة فحكاه الله سبحانه كما قالت، و روي ذلك عن أبي جعفر و أبي عبد الله (عليهما السلام).

أقول: المراد بالجد المنفي عنه تعالى الحظ و البخت.

و في الاحتجاج، عن علي (عليه السلام) في حديث: **فأقبل إليه الجن و النبي (صلى الله عليه وآله و سلم)**

ببطن

النخل فاعتذروا بأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً، ولقد أقبل إليه أحد و سبعون ألفاً منهم فبايعوه على الصوم و الصلاة و الزكاة و الحج و الجهاد و نصح المسلمين فاعتذروا بأنهم قالوا على الله شططا.

أقول: بيعتهم للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الصوم و الصلاة إلخ، يصدقها قولهم المحكي في أول السورة: **{فَآمَنَّا بِهِ}** و قولهم: **{وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ}**، و أما كيفية عملهم بها و خاصة بالزكاة و الجهاد فمجهولة لنا، و اعتذارهم الأول المذكور لا يخلو من خفاء.

و في تفسير القمي، بإسناده إلى زرارة قال: سألت أبا جعفر عن قول الله: **{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}** قال: كان الرجل ينطلق إلى الكاهن الذي يوحى إليه الشيطان فيقول: قل للشيطان: فلان قد عاذ بك.

و فيه في قوله تعالى: **{فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحْأَفُ بِجُنُوسٍ وَلَا رَهَقًا}** قال: البخس النقصان، و الرهق العذاب. و سئل العالم عن مؤمني الجن أ يدخلون الجنة؟ فقال: لا و لكن لله حظائر بين الجنة و النار يكون فيها مؤمنوا الجن و فساق الشيعة.

أقول: لعل المراد بهذه الحظائر هي بعض درجات الجنة التي هي دون جنة الصالحين. و اعلم أنه ورد في بعض الروايات من طرق أئمة أهل البيت (عليهم السلام) تطبيق ما في الآيات من الهدى و الطريقة على ولاية علي (عليه السلام) و هي من الجري و ليست من التفسير في شيء.

[سورة الجن (٧٢): الآيات ١٨ الى ٢٨]

{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} ١٨ و **{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} ١٩** قُلْ **{إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا} ٢٠** قُلْ **{إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا} ٢١** قُلْ **{إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} ٢٢**

إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿١٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَّاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿١٤﴾ قُلْ إِن أَدْرَىٰ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿١٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿١٦﴾ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿١٧﴾ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿١٨﴾

(بيان)

في الآيات تسجيل للنبوة وذكر وحدانيته تعالى والمعاد كلاستنتاج من القصة وتختتم بالإشارة إلى عصمة الرسالة.

قوله تعالى: **{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}** معطوف على قوله: **{أَنَّهُ اسْتَمَعَ}** إيلخ، وجملة **{أَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ}** في موضع التعليل لقوله: **{فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}** والتقدير لا تدعوا مع الله أحدا غيره لأن المساجد له.

و المراد بالدعاء العبادة وقد سماها الله دعاء كما في قوله: **{وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}** المؤمن ٥٦٠.

وقد اختلف في المراد من المساجد فقيل: المراد به الكعبة، وقيل المسجد الحرام، وقيل: المسجد الحرام وبيت المقدس، ويدفعها كون المساجد جمعا لا ينطبق على الواحد والاثنين.

وقيل: الحرم، وهو تهكم لا دليل عليه، وقيل: الأرض كلها لقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): جعلت لي الأرض مسجدا و طهورا، وفيه أنه لا يدل على مزيد من جواز العبادة في أي بقعة من

بقاع الأرض خلافا لما هو المعروف عن اليهود و النصارى من عدم جواز عبادته تعالى في غير البيع و الكائس، و أما تسمية بقاعها مساجد حتى يحمل عليها عند الإطلاق فلا.

وقيل: المراد به الصلوات فلا يصلى إلا لله، و هو تهكم لا دليل عليه.

و عن الإمام الجواد (عليه السلام): أن المراد بالمساجد الأعضاء السبعة التي يسجد عليها في الصلاة و هي الجبهة و الكفان و الركبتان و أصابع الرجلين، و ستوافيك روايته في البحث الروائي التالي إن شاء الله، و نقل ذلك أيضا عن سعيد بن جبير و الفراء و الزجاج.

و الأنسب على هذا أن يكون المراد بكون مواضع السجود من الإنسان لله اختصاصها به اختصاصا تشريعيًا، و المراد بالدعاء السجدة لكونها أظهر مصاديق العبادة أو الصلاة بما أنها تتضمن السجود لله سبحانه.

و المعنى: و أوحى إلي أن أعضاء السجود يختص بالله تعالى فاسجدوا له بها أو اعبدوه بها و لا تسجدوا أو لا تعبدوا أحدا غيره.

قوله تعالى: **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** اللبد بالكسر فالفتح جمع لبدة بالضم فالسكون المجتمعة المتراكمة، و المراد بعبد الله النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) كما تدل عليه الآية التالية، و التعبير بعبد الله كالتمهيد لقوله في الآية التالية: **{قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي}**. و الأنسب لسياق الآيات التالية أن يكون مرجع ضميري الجمع في قوله: **{كَادُوا يَكُونُونَ}** المشركين و قد كانوا يزدحمون عليه (صلى الله عليه وآله و سلم) إذا صلى و قرأ القرآن يستهزئون و يرفعون أصواتهم فوق صوته على ما نقل.

و المعنى: و أنه لما قام النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) يعبد الله بالصلاة كاد المشركون يكونون بازدحامهم لبدا مجتمعين متراكمين.

و قيل: الضميران للجن و أنهم اجتمعوا عليه و تراكموا ينظرون إليه متعجبين مما يشاهدون من عبادته و قراءته قرآنا لم يسمعوا كلاما يمثله.

و قيل: الضميران للمؤمنين بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) المجتمعين عليه اقتداء به في صلاته إذا صلى و إنصاتا لما يتلوه من كلام الله.

و الوجهان لا يلائمان سياق الآيات التالية تلك الملاءمة كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا}** أمر منه تعالى للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم)

أن يبين لهم وجه عبادته بيانا يزيل عنهم الحيرة حيث رأوا منه ما لم يكونوا رأوه من أحد غيره، و يتعجبون حاملين له على نوع من المكيدة و المكر بأصنامهم أو خدعة بهم لأغراض آخر دنيوية.

و محصل البيان: أني لست أريد بما آتي به من العمل شيئا من المقاصد التي تحسبونها و ترمونني بها وإنما أدعو ربي وحدة غير مشرك به أحدا و عبادة الإنسان لمن عرفه ربا لنفسه مما لا ينبغي أن يلام عليه أو يتعجب منه.

قوله تعالى: **{قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا}** الذي يفيد سياق الآيات الكريمة أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) يبين فيها بأمر من ربه موقع نفسه و بالنسبة إلى ربه و بالنسبة إلى الناس.

أما موقعه بالنسبة إلى ربه فهو أنه يدعوه و لا يشرك به أحدا و هو قوله: **{قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا}**.

و أما موقعه بالنسبة إليهم فهو أنه بشر مثلهم لا يملك لهم ضرا و لا رشدا حتى يضرهم بما يريد أن يرشدهم من الخير إلى ما يريد بما عنده من القدرة، و أنه مأمور من الله بدعوتهم أمرا ليس له إلا أن يمتثله فلا مجير يجيره منه و لا ملجأ يلتجئ إليه لو خالف و عصى كما ليس لهم إلا أن يطيعوا الله و رسوله و من يعص الله و رسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا، و سيعلمون إذا رأوا ما يوعدون.

و لازم هذا السياق أن يكون المراد بملك الضر القدرة على إيقاع الضر بهم فيوقعه بهم إذا أراد، و المراد بملك الرشd القدرة على إيصال النفع إليهم بإصابة الواقع أي إني لا أدعي أني أقدر أن أضركم أو أنفعكم، و قيل: المراد بالضر الغي المقابل للرشd تعبيرا باسم المسبب عن السبب.

قوله تعالى: **{قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ}** الإجارة إعطاء الجوار و حكمه حماية المجير للجار و منعه ممن يقصده بسوء، و الظاهر أن الملتحd اسم مكان و هو المكان الذي يعدل و ينحرف إليه للتحرز من الشر، و قيل: المدخل و يتعلق به قوله: **{مِنْ دُونِهِ}** و هو كالقيد التوضيحي و الضمير لله و البلاغ التبليغ.

و قوله: **{إِلَّا بَلَاغًا}** استثناء من قوله: **{مُلْتَحَدًا}** و قوله: **{مِنْ اللَّهِ}** متعلق بمقدر

أي كائنا من الله وليس متعلقا بقوله: **{بَلَاغًا}** لأنه يتعدى بعن لا بمن ولذا قال بعض من جعله متعلقا ببلاغا: إن «من» بمعنى عن، والمعنى على أي حال إلا تبليغ ما هو تعالى عليه من الأسماء والصفات.

وقوله: **{وَرِسَالَاتِهِ}** قيل: معطوف على **{بَلَاغًا}** والتقدير إلا بلاغا من الله وإلا رسالاته وقيل: معطوف على لفظ الجلالة ومن بمعنى عن، والمعنى إلا بلاغا عن الله وعن رسالاته.

وفيما استثنى منه بلاغا قول آخر وهو أنه مفعول **{لَا أَمْلِكُ}** والمعنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا إلا تبليغا من الله ورسالاته، ويبيده الفصل بين المستثنى والمستثنى منه بقوله: **{لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ}** إنلخ وهو كلام مستأنف.

ومعنى الآيتين على ما قدمنا: قل لن يجيرني من الله أحد فيمنعني منه ولن أجد من دونه مكانا التجيء إليه إلا تبليغا كائنا منه ورسالاته أي إلا أن أمثل ما أمرني به من التبليغ منه تعالى ببيان أسمائه وصفاته وإلا رسالاته في شرائع الدين.

قوله تعالى: **{وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}** إفراد ضمير **{اللَّهِ}** باعتبار لفظ **{مِنْ}** كما أن جمع **{خَالِدِينَ}** باعتبار معناها.

وعطف الرسول على الله في قوله: **{وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}** لكون معصيته معصية لله تعالى إذ ليس له إلا رسالة ربه فالرد عليه فيما أتى به رد على الله سبحانه وطاعته فيما يأمر به طاعة لله قال تعالى: **{مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ}** النساء ٨٠.

والمراد بالمعصية - كما يشهد به سياق الآيات السابقة - معصية ما أمر به من التوحيد أو التوحيد و ما يتفرع عليه من أصول الدين وفروعه فلا يشمل التهديد والوعيد بخلود النار إلا الكافرين بأصل الدعوة دون مطلق أهل المعصية المتخلفين عن فروع الدين فالاحتجاج بالآية على تخليد مطلق العصاة في النار في غير محله.

والظاهر أن قوله: **{وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ}** إلى آخر الآية من كلام الله سبحانه لا من تمة كلام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

قوله تعالى: **{حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفٌ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا}** لقوله: **{حَتَّىٰ}** دلالة على معنى مدخولها غاية له ومدخولها يدل على أنهم كانوا يستضعفون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد ناصريه - وهم المؤمنون - ضعفاء واستقلال عدده بعد عددهم قليلا

فالكلام يدل على معنى محذوف هو غايته كقولنا: لا يزالون يستضعفون ناصريك و يستقلون عددهم حتى إذا رأوا ما يوعدون إلخ.

و المراد بما يوعدون نار جهنم لأنها هي الموعودة في الآية، و الآية من كلامه تعالى يخاطب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و لو كانت من كلامه و هي مصدره بقوله تعالى **{قُل}** لكان من حق الكلام أن يقال: حتى إذا رأيتم ما توعدون فستعلمون إلخ.

قوله تعالى: **{قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا}** الأمد الغاية التي ينتهي إليها، و الآية بمنزلة دفع دخل تقتضيه حالهم كأنهم لما سمعوا الوعيد قالوا: متى يكون ذلك فقيل له: **{قُلْ إِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبٌ}** إلخ.

قوله تعالى: **{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا}** إظهار الشيء على الشيء إعانته و تسليطه عليه، و **{عَالِمُ الْغَيْبِ}** خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير هو عالم الغيب، و مفاد الكلمة بإعانة من السياق اختصاص علم الغيب به تعالى مع استيعاب علمه كل غيب، و لذا أضاف الغيب إلى نفسه ثانيا فقال: **{عَلَىٰ غَيْبِهِ}** بوضع الظاهر موضع المضمر ليفيد الاختصاص و لو قال: فلا يظهر عليه لم يفد ذلك.

و المعنى هو عالم كل غيب علما يختص به فلا يطالع على الغيب و هو مختص به أحدا من الناس فالمفاد سلب كلي و إن أصر بعضهم على كونه سلبا جزئيا محصل معناه لا يظهر على كل غيبه أحدا و يؤيد ما قلنا ظاهر ما سيأتي من الآيات.

قوله تعالى: **{إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ}** استثناء من قوله: **{أَحَدًا}** و **{مِنْ رَسُولٍ}** بيان لقوله **{مَنِ ارْتَضَىٰ}** فيفيد أن الله تعالى يظهر رسله على ما شاء من الغيب المختص به فالآية إذا انضمت إلى الآيات التي تخص علم الغيب به تعالى كقوله: **{وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}** الأنعام: ٥٩، و قوله: **{وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ}** النحل: ٧٧، و قوله: **{قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ}** النمل: ٦٥ أفاد ذلك معنى الأصالة و التبعية فهو تعالى يعلم الغيب لذاته و غيره يعلمه بتعليم من الله.

فهذه الآيات نظيرة الآيات المتعرضة للتوفي كقوله: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ}** الزمر: ٤٢ الدال على الحصر، و قوله: **{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ}** الم السجدة: ١١، و قوله: **{حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا}** الأنعام: ٦١ فالتوفي منسوب إليه تعالى على

نحو الأصالة و إلى الملائكة على نحو التبعية لكونهم أسبابا متوسطة مسخرة له تعالى.

قوله تعالى: **{فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا}** - إلى قوله - **{عَدَدًا}** ضمير **{فَإِنَّهُ}** لله تعالى، و ضميرا **{يَدَيْهِ}** و **{خَلْفِهِ}** للرسول، و الراصد المراقب للأمر الحارس له، و الرصد الراصد يطلق على الواحد و الجماعة و هو في الأصل مصدر، و المراد بما بين يدي الرسول ما بينه و بين الناس المرسل إليهم، و بما خلفه ما بينه و بين مصدر الوحي الذي هو الله سبحانه و قد اعتبر في هذا التصوير ما يوهمه معنى الرسالة من امتداد متوهم يأخذ من المرسل اسم فاعل و ينتهي إلى المرسل إليه يقطع الرسول حتى ينتهي إلى المرسل إليه فيؤدي رسالته، و الآية تصف طريق بلوغ الغيب إلى الرسول و هو الرسائل التي توحى إليه كما يشير إلى ذلك قوله: **{لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ}**.

و المعنى: فإن الله يسلك ما بين الرسول و من أرسل إليه و ما بين الرسول و مصدر الوحي مراقبين حارسين من الملائكة و من المعلوم أن سلوك الرصد من بين يديه و من خلفه لحفظ الوحي من كل تخليط و تغيير بالزيادة و النقصان يقع فيه من ناحية الشياطين بلا واسطة أو معها.

و قوله: **{لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ}** ضمير **{لِيَعْلَمَ}** لله سبحانه، و ضميرا **{قَدْ أَبْلَغُوا}** و **{رَبِّهِمْ}** لقوله: **{مَنْ}** باعتبار المعنى أو لرسول باعتبار الجنس، و المراد بعلمه تعالى بإبلاغهم رسالات ربهم العلم الفعلي و هو تحقق الإبلاغ في الخارج على حد قوله: **{فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لِيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}** العنكبوت: ٣ و هو كثير الورد في كلامه تعالى.

و الجملة تعليل لسلوك الرصد بين يدي الرسول و من خلفه، و المعنى ليتحقق إبلاغ رسالات ربهم أي لتبلغ الناس رسالاته تعالى على ما هي عليه من غير تغيير و تبدل.

و من المحتمل أن يرجع ضميرا **{بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ}** إلى **{غَيْبِهِ}** فيكون الرصد الحرس مسلوكين بين يدي الغيب النازل و من خلفه إلى أن يبلغ الرسول، و يضعفه أنه لا يلائم قوله: **{لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ}** بالمعنى الذي تقدم لعدم استلزام بلوغ الغيب للرسول سليما من تعرض الشياطين حصول العلم بإبلاغه إلى الناس. و إلى هذا المعنى يرجع قول بعضهم إن الضميرين يرجعان إلى جبريل حامل الوحي. و يضعفه مضافا إلى ما مر عدم سبق ذكره.

وقيل: ضمير يعلم للرسول و ضميرا **{قَدْ أَبْلَغُوا}** و **{رَبِّهِمْ}** للملائكة الرصد و المعنى يرصد الملائكة الوحي و يحرسونه ليعلم الرسول أن الملائكة قد أبلغوا إليه الوحي كما صدر فتطمئن نفسه أنه سليم من تعرض الشياطين فإن لازم العلم بإبلاغهم إياه العلم ببلوغه.

و يعده أن ظاهر السياق - و يؤيده سبق ذكر الرسول - أن المراد بالرسالات الرسالات التي حملها الرسول ليلبغها إلى الناس لا ما حملها ملك الوحي فضمير **{رَبِّهِمْ}** للرسول دون الملائكة، على أن الآية تشير إلى الملائكة بعنوان الرصد و هو غير عنوان الرسالة و شأن الرصد الحفظ و الحراسة دون الرسالة.

وقيل: المعنى ليعلم محمد (صلى الله عليه وآله و سلم) أن الرسل قبله قد أبلغوا رسالات ربهم، و هو وجه سخيف لا دليل عليه، و أسنف منه ما قيل: إن المعنى ليعلم مكذب الرسل أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم إليهم.

و قوله: **{وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ}** ضمير الجمع للرسول بناء على ما تقدم من المعنى و الظاهر أن الجملة متممة لمعنى الحراسة المذكورة سابقا فقوله: **{مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ}** يشير إلى رصد ما بين الرسول و المرسل إليهم، و قوله: **{وَمِنْ خَلْفِهِ}** إلى حفظ ما بينه و مصدر الوحي، و قوله: **{وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ}** يشير إلى ظرف نفس الرسول و الإحاطة إحاطة علمية فالوحي في أمن من تطرق التغيير و التبديل فيما بين مصدر الوحي و الرسول و في نفس الرسول و في ما بين الرسول و المرسل إليهم.

و يمكن أن يكون المراد بما لديهم جميع ما له تعلق ما بالرسول أعم من مسير الوحي أو أنفسهم كما أن قوله: **{وَأَخْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا}** مسوق لإفادة عموم العلم بالأشياء غير أنه العلم بعددها و تميز بعضها من بعض.

فقد تين مما مر في الآيات الثلاث:

أولا: أن اختصاصه تعالى بعلم الغيب على نحو الأصالة بالمعنى الذي أوضحناه فهو تعالى يعلم الغيب بذاته و غيره يعلمه بتعليم منه.

و به يظهر أن ما حكي في كلامه تعالى من إنكارهم العلم بالغيب أريد به نفي الأصالة و الاستقلال دون ما كان بوحى كقوله تعالى: **{قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا}**

أَعْلَمُ الْغَيْبِ} الأنعام: ٥٠، وقوله: {وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ} الأعراف: ١٨٨ وقوله: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ} الأحقاف: ٩.

و ثانيا: أن عموم قوله: {فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا} لما خصص بقوله: {إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ} عاد عاما مخصصا لا يأبي تخصيصا بمخصص آخر كما في مورد الأنبياء فإن الآيات القرآنية تدل على أنهم يوحى إليهم كقوله: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ} النساء: ١٦٣ و تدل على أن الوحي من الغيب فالنبي ينال الغيب كما يناله الرسول هذا على تقدير أن يكون المراد بالرسول في الآية ما يقابل النبي و أما لو أريد مطلق من أرسله الله إلى الناس و النبي ممن أرسله الله إليهم كما يشهد به قوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ} الآية: الحج: ٥٢، وقوله: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ} الأعراف: ٩٤ فالنبي خارج من عموم النفي من غير تخصيص جديد.

و كذا في مورد الإمام بالمعنى الذي يستعمله فيه القرآن فإنه تعالى يصفه بالصبر و اليقين كما في قوله: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} الم السجدة ٢٤ و يعرفهم بانكشاف الغطاء لهم كما في قوله: {وَ كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} الأنعام: ٧٥، وقوله: {كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ} التكاثر: ٦ و قد تقدم كلام في ذلك في بعض المباحث السابقة.

و أما الملائكة فما يحملونه من الوحي السماوي قبل نزوله و كذا ما يشاهدونه من عالم الملكوت شهادة بالنسبة إليهم و إن كان غيبا بالنسبة إلينا. على أن قوله: {فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا} إنما يشمل أهل الدنيا ممن يعيش على بساط الأرض و إلا لا تنتقض بالأموات المشاهدين لأمر الآخرة و هي من الغيب بنص القرآن فلم يبق تحت عموم النفي حتى فرد واحد إذ ما من أحد إلا و هو مبعوث ذلك يوم مجموع له الناس و ذلك يوم مشهود، و كما أن الأموات نشأتهم غير نشأة الدنيا كذلك نشأة الملائكة غير نشأة المادة.

و ثالثا: أن قوله: {فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِن خَلْفِهِ} إلى آخر الآيتين يدل على أن الوحي الإلهي محفوظ من لدن صدوره من مصدر الوحي إلى بلوغه الناس مصون في طريق نزوله إلى أن يصل إلى من قصد نزوله عليه.

أما مصونيته من حين صدوره من مصدره إلى أن ينتهي إلى الرسول فيكفي في الدلالة عليه قوله **{مِنْ خَلْفِهِ}** ¹ وأما مصونيته حين أخذ الرسول إياه وتلقيه من ملك الوحي بحيث يعرفه ولا يغلط في أخذه، و مصونيته في حفظه بحيث يعيه كما أوحى إليه من غير أن ينساه أو يغيره أو يبدله، و مصونيته في تبليغه إلى الناس من تصرف الشيطان فيه فالدليل عليه قوله: **{لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ}** حيث يدل على أن الغرض الإلهي من سلوك الرصد أن يعلم إبلاغهم رسالات ربهم أي أن يتحقق في الخارج إبلاغ الوحي إلى الناس، و لازمه بلوغه إياهم و لو لا مصونية الرسول في الجهات الثلاث المذكورة جميعا لم يتم الغرض الإلهي و هو ظاهر، و حيث لم يذكر تعالى للحصول على هذا الغرض طريقا غير سلوك الرصد دل ذلك على أن الوحي محروس بالملائكة و هو عند الرسول كما أنه محروس بهم في طريقه إلى الرسول حتى ينتهي إليه، و يؤكد قوله بعد: **{وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ}**.
و أما مصونيته في مسيره من الرسول حتى ينتهي إلى الناس فيكفي فيه قوله: **{مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ}** على ما تقدم من معناه.

أضف إلى ذلك دلالة قوله: **{لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ}** بما تقدم من تقريب دلالاته.

و يتفرع على هذا البيان أن الرسول مؤيد بالعصمة في أخذ الوحي من ربه و في حفظه و في تبليغه إلى الناس مصون من الخطأ في الجهات الثلاث جميعا لما مر من دلالة الآية على أن ما نزله الله من دينه على الناس من طريق الرسالة بالوحي مصون في جميع مراحلها إلى أن ينتهي إلى الناس و من مراحلها مرحلة أخذ الرسول للوحي و حفظه له و تبليغه إلى الناس.

و التبليغ يعم القول و الفعل فإن في الفعل تبليغا كما في القول فالرسول معصوم من المعصية باقتراف المحرمات و ترك الواجبات الدينية لأن في ذلك تبليغا لما يناقض الدين فهو معصوم من فعل المعصية كما أنه معصوم من الخطأ في أخذ الوحي و حفظه و تبليغه قولاً.

و قد تقدمت الإشارة إلى أن النبوة كالرسالة في دورانها مدار الوحي فالنبي كالرسول في خاصة العصمة، و يتحصل بذلك أن أصحاب الوحي سواء كانوا رسلا أو أنبياء

¹ هذا بناء على رجوع الضمير إلى الرسول و أما بناء على احتمال رجوع الضمير إلى الغيب فالدال عليه مجموع «من بين يديه و من خلفه» لكنه ضعيف كما تقدم.

معصومون في أخذ الوحي و في حفظ ما أوحى إليهم و في تبليغه إلى الناس قولاً و فعلاً.

و رابعاً: أن الذي استثنى في الآية من الإظهار على الغيب إظهار الرسول على ما يتوقف عليه تحقق إبلاغ رسالته أعم من أن يكون متن الرسالة كالمعارف الاعتقادية و شرائع الدين و القصص و العبر و الحكم و المواعظ أو يكون من آيات الرسالة و المعجزات الدالة على صدق الرسول في دعواه كالذي حكي عن بعض الرسل من الإخبار بالمغيبات كقول صالح لقومه: **{تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَكْذُوبٍ}** هود: ٦٥، و قول عيسى لبني إسرائيل: **{وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ}** آل عمران: ٤٩، و كذا ما ورد من مواعيد الرسل، و ما ورد في الكتاب العزيز من الملاحم كل ذلك من إظهارهم على الغيب.

بحث روائي

عن تفسير العياشي، عن أبي جعفر (عليه السلام): أنه سأله المعتصم عن السارق من أي موضع يجب أن يقطع؟ فقال: إن القلع يجب أن يكون من مفصل أصابع فترك الكف.

فقال: و ما الحجة في ذلك؟ قال: قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): السجود على سبعة أجزاء: الوجه و اليدين و الركبتين و الرجلين فإذا قطع من الكر سوع أو المرفق لم يدع له يدا يسجد عليها و قال الله: **{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ}** يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها **{فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}** و ما كان لله فلا يقطع. (الحديث).

و في الكافي، بإسناده عن حماد بن عيسى عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث: و يسجد يعني أبا عبد الله (عليه السلام) على ثمانية أعظم: الكفين و الركبتين و إبهامي الرجلين و الجبهة و الأنف، و قال: سبعة منها فرض يسجد عليها و هي التي ذكرها الله في كتابه فقال: **{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}** و هي الجبهة و الكفان و الركبتان و الإبهامان و وضع الأنف على الأرض سنة.

و عن الخرائج و الجرائح، روى محمد بن الفضل الهاشمي عن الرضا (عليه السلام): أنه نظر إلى ابن هذاب فقال: إن أنا أخبرتك أنك ستبتلى في هذه الأيام بدم ذي رحم لك لكنت مصدقاً لي؟ قال: لا فإن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى. قال: أ و ليس أنه يقول: **{عَالِمٌ}**

الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ { فرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عند الله مرتضى، ونحن ورثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على ما يشاء من غيبه فعلنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة.

أقول: والأخبار في هذا الباب فوق حد الإحصاء، ومدلولها أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أخذه بوحى من ربه وأنهم أخذوه بالوراثة منه (صلى الله عليه وآله وسلم).

(٧٣) سورة المزمل مكية وهي عشرون آية (٢٠)

[سورة المزمل (٧٣): الآيات ١ الى ١٩]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ① قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ④ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑤ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ⑥ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ⑦ وَ أَذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑧ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑨ وَ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ أَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ⑩ وَ ذَرْنِي وَ الْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَ مَهْلَهُمْ قَلِيلًا ⑪ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَ جَحِيمًا ⑫ وَ طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَ عَذَابًا أَلِيمًا ⑬ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبَالُ وَ كَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ⑭ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ⑮ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخَذًا وَبِيلاً ⑯ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ
إِنْ كَفَرْتُمْ

يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿٧﴾ السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اخْتَدِ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا

{١٧}

(بيان)

السورة تأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بقيام الليل والصلاة فيه ليستعد بذلك لتلقي ثقل ما سيلقى عليه من القول الثقيل والقرآن الموحى إليه، وتأمره أن يصبر على ما يقولون فيه أنه شاعر أو كاهن أو مجنون إلى غير ذلك ويهجرهم هجراً جميلاً، وفيها وعيد وإنذار للكفار وتعميم الحكم لسائر المؤمنين، وفي آخرها تخفيف ما للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنين.

والسورة مكية من عتائق السور النازلة في أول البعثة حتى قيل: إنها ثمانية السور النازلة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو ثلثتها.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الْمُرْمِلُ}** بتشديد الزاي والميم وأصله المتزمل اسم فاعل من التزمل بمعنى التلفف بالثوب لنوم ونحوه، وظاهره أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد تزمل بثوب للنوم فنزل عليه الوحي وخطب بالمزمل.

وليس في الخطاب به تهجين ولا تحسين كما توهمه بعضهم، نعم يمكن أن يستفاد من سياق الآيات أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان قد قوبل في دعوته بالهزء والسخرية والإيذاء فاغتم في الله فتزمل بثوب لينام دفعا لهم فخطب بالمزمل وأمر بقيام الليل والصلاة فيه والصبر على ما يقولون على حد قوله تعالى: **{اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ}** البقرة: ١٥٣ فأفيد بذلك أن عليه أن يقاوم الكرب العظام والنوائب المرة بالصلاة والصبر لا بالتزمل والنوم.

وقيل: المراد يا أيها المتزمل بعباءة النبوة أي المتحمل لأثقالها، ولا شاهد عليه من جهة اللفظ.

قوله تعالى: **{قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا}** المراد بقيام الليل القيام فيه إلى الصلاة فالليل مفعول به توسعا كما في قولهم: دخلت الدار، وقيل: معمول **{قُمِ}** مقدر و**{اللَّيْلَ}** منصوب على الظرفية والتقدير قم إلى الصلاة في الليل، وقوله: **{إِلَّا قَلِيلًا}** استثناء من الليل.

وقوله: **{نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ}** ظاهر السياق أنه بدل من **{الَلَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا}** المتعلق به تكليف القيام، و ضميرا **{مِنْهُ}** و **{عَلَيْهِ}** للنصف، و ضمير **{نِصْفَهُ}** لليل، و المعنى قم نصف الليل أو انقص من النصف قليلا أو زد على النصف قليلا، و الترديد بين الثلاثة للتخيير فقد خير بين قيام النصف و قيام أقل من النصف بقليل و قيام أكثر منه بقليل.

و قيل: **{نِصْفَهُ}** بدل من المستثنى أعني **{قَلِيلًا}** فيكون المعنى قم الليل إلا نصفه أو انقص من النصف قليلا فقم أكثر من النصف بقليل أو زد على النصف فقم أقل من النصف، و تكون جملة البدل رافعا لإبهام المستثنى بالمطابقة و لإبهام المستثنى منه بالالتزام عكس الوجه السابق.

و الوجهان و إن اتحدا في النتيجة غير أن الوجه السابق أسبق إلى الذهن لأن الحاجة إلى رفع الإبهام عن متعلق الحكم أقدم من الحاجة إلى رفع الإبهام عن توابعه و ملحقاته فكون قوله: «نصفه» إلخ بدلا من الليل و لازمه رفع إبهام متعلق التكليف بالمطابقة أسبق إلى الذهن من كونه بدلا من **{قَلِيلًا}**.

و قيل: إن نصفه بدل من الليل لكن المراد بالليل القليل من الليالي دون القليل من أجزاء الليل، و المعنى قم نصف الليل أو انقص منه قليلا أو زد عليه إلا قليلا من الليالي و هي ليالي العذر من مرض أو غلبة نوم أو نحو ذلك، و لا بأس بهذا الوجه لكن الوجه الأول أسبق منه إلى الذهن.

وقوله: **{وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا}** ترتيل القرآن تلاوته بتبيين حروفه على تواليها، و الجملة معطوفة على قوله: **{قُمِ اللَّيْلُ}** أي قم الليل و اقرأ القرآن بترتيل.

و الظاهر أن المراد بترتيل القرآن ترتيله في الصلاة أو المراد به الصلاة نفسها و قد عبر سبحانه عن الصلاة بنظير هذا التعبير في قوله: **{أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ قُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}** إسرائ: ٧٨، و قيل: المراد بإيجاب قراءة القرآن دون الصلاة.

قوله تعالى: **{إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا}** الثقل كيفية جسمانية من خاصته أنه يشق حمل الجسم الثقيل و نقله من مكان إلى مكان و ربما يستعار للمعاني إذا شق على النفس

تحملها أو لم تطبقها فربما أضيف إلى القول من جهة معناه فعد ثقيلًا لتضمنه معنى يشق على النفس إدراكه أو لا تطبق فهمه أو تخرج من تلقيه كدقائق الأنظار العلمية إذا أُلقيت على الأفهام العامة، أو لتضمنه حقائق يصعب التحقق بها أو تكاليف يشق الإتيان بها و المداومة عليها.

و القرآن قول إلهي ثقيل بكلام المعنيين: أما من حيث تلقي معناه فإنه كلام إلهي مأخوذ من ساحة العظمة والكبرياء لا يتلقاه إلا نفس طاهرة من كل دنس منقطع عن كل سبب إلا الله سبحانه، و كتاب عزيز له ظهر و بطن و تنزيل و تأويل تبيانًا لكل شيء، و قد كان ثقله مشهودًا من حال النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بما كان يأخذه من البرحاء و شبه الإغماء على ما وردت به الأخبار المستفيضة.

و أما من حيث التحقق بحقيقة التوحيد و ما يتبعها من الحقائق الاعتقادية فكفى في الإشارة إلى ثقله قوله تعالى: **{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}** الحشر: ٢١، و قوله تعالى: **{وَ لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ}** الرد

٠٣١

و أما من حيث القيام بما يشتمل عليه من أمر الدعوة و إقامة مراسم الدين الحنيف، و إظهاره على الدين كله فيشهد به ما لقي (صلى الله عليه وآله و سلم) من المصائب و المحن في سبيل الله و الأذى في جنب الله على ما يشهد به الآيات القرآنية الحاكية لما لقيه النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) من المشركين و الكفار و المنافقين و الذين في قلوبهم مرض من أنواع الإيذاء و الهزء و الجفاء.

فقوله: **{إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا}** المراد بالقول الثقيل القرآن العظيم على ما يسبق إلى الذهن من سياق هذه الآيات النازلة في أول البعثة، و به فسره المفسرون.

و الآية في مقام التعليل للحكم المدلول عليه بقوله: **{قُمْ اللَّيْلُ}** إلخ فتفيد بمقتضى السياق - و الخطاب خاص بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) - أن أمره بقيام الليل و التوجه فيه إليه تعالى بصلاة الليل تهيئة له و إعداد لكرامة القرب و شرف الحضور و إلقاء قول ثقيل بقيام الليل هي السبيل المؤدية إلى هذا الموقف الكريم و قد عد سبحانه صلاة الليل سبيلًا إليه في قوله الآتي: **{إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا}**.

و قد زاد سبحانه وعدًا على ما في هذه الآية في قوله: **{وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً}**

لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً} إسرء: ٧٩ و قد تقدم معنى المقام المحمود في تفسير الآية.

و إذ كان من ثقل القرآن ثقله من حيث التحقق بحقائقه و من حيث استجابته فيما يندب إليه من الشرائع و الأحكام فهو ثقيل على الأمة كما هو ثقيل عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) و معنى الآية إنا سنوحى إليك قولاً يثقل عليك و على أمتك أما ثقله عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) فلها في التحقق بحقائقه من الصعوبة و لما فيه من محنة الرسالة و ما يتبعها من الأذى في جنب الله و ترك الراحة و الدعة و مجاهدة النفس و الانقطاع إلى الله مضافاً إلى ما في تلقيه من مصدر الوحي من الجهد، و أما ثقله على أمتهم فلأنهم يشاركونه (صلى الله عليه وآله وسلم) في لزوم التحقق بحقائقه و اتباع أوامره و نواهيه و رعاية حدوده كل طائفة منهم على قدر طاقته.

و للقوم في معنى ثقل القرآن أقوال أخرى:

منها: أنه ثقيل بمعنى أنه عظيم الشأن متين رصين كما يقال: هذا كلام له وزن إذا كان واقعا موقعه.

و منها: أنه ثقيل في الميزان يوم القيامة حقيقة أو مجازاً بمعنى كثرة الثواب عليه.

و منها: أنه ثقيل على الكفار و المنافقين بما له من الإعجاز و بما فيه من الوعيد.

و منها: أن ثقله كناية عن بقاءه على وجه الدهر لأن الثقل من شأنه أن يبقى و يثبت في مكانه.

و منها: غير ذلك و الوجوه المذكورة و إن كانت لا بأس بها في نفسها لكن ما تقدم من الوجه هو الظاهر السابق إلى الذهن.

قوله تعالى: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَظَنًا وَأَقْوَمُ قِيلاً إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلًا} الآية الأولى في مقام التعليل لاختيار الليل وقتاً لهذه الصلاة، و الآية الثانية في مقام التعليل لترك النهار و الإعراض عنه كما أن الآية السابقة أعني قوله: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} في مقام التعليل لتشريع أصل هذه الصلاة.

فقوله: {إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَظَنًا وَأَقْوَمُ قِيلاً} الناشئة إما مصدر كالعاقبة و العافية بمعنى الناشئة و هي الحدوث و التكون، و إما اسم فاعل من الناشئة مضاف إلى موصوفه و كيف كان فالمراد بها الليل و إطلاق الحادثة على الليل كإطلاقها على سائر أجزاء

الخلقه وربما قيل: إنها الصلاة في الليل ووطء الأرض وضع القدم عليها، وكونها أشد وطأ كناية عن كونها أثبت قدما لصفاء النفس وعدم تكررها بالشواغل النهارية وقيل: الوطاء مواطاة القلب اللسان وأيد بقراءة **{أَشَدُّ وَطْأً}** والمراد بكونها أقوم قليلا كونها أثبت قولاً وأصوب لحضور القلب وهدوء الأصوات.

والمعنى أن حادثة الليل أو الصلاة في الليل هي أثبت قدما - أو أشد في مواطاة القلب اللسان وأثبت قولاً وأصوب لما أن الله جعل الليل سكناً يستتبع انقطاع الإنسان عن شواغل المعيشة إلى نفسه وفراغ باله.

وقوله: **{إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً}** السبح المشي السريع في الماء والسبح الطويل في النهار كناية عن الغور في مهمات المعاش وأنواع التقلب في قضاء حوائج الحياة.

والمعنى أن لك في النهار مشاغل كثيرة تشتغل بها مستوعبة لا تدع لك فراغاً تشتغل فيه بالتوجه التام إلى ربك والانتقطاع إليه بذكره فعليك بالليل والصلاة فيه.

وقيل: المعنى أن لك في النهار فراغاً لنومك وتدير أمر معاشك والتصرف في حوائجك فتجد في الليل.

وقيل: المعنى أن لك في النهار فراغاً فإن فاتك من الليل شيء أمكنك أن تتداركه في النهار وتقضيه فيه

فالآية في معنى قوله: **{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}** الفرقان: ٦٢.

والذي قدمناه من المعنى أنسب للمقام.

قوله تعالى: **{وَ أذْكُرْ إِسْمَ رَبِّكَ وَ تَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً}** الظاهر أنه يصف صلاة الليل فهو كالعطف التفسيري

على قوله: **{وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً}** وعلى هذا فالمراد بذكر اسم الرب تعالى الذكر اللفظي بمواطاة من القلب وكذا المراد بالتبتل التبتل مع اللفظ.

وقيل: الآية تعميم بعد التخصيص والمراد بالذكر دوام ذكره تعالى ليلاً ونهاراً على أي وجه كان من

تسبيح وتحميد وصلاة وقراءة قرآن وغير ذلك، وإنما فسر الذكر بالدوام لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم ينسه تعالى حتى يؤمر بذكره، والمراد الدوام العرفي دون الحقيقي لعدم إمكانه. انتهى.

وفيه أنه إن أراد بالذكر الذكر اللفظي فعدم نسيانه (صلى الله عليه وآله وسلم) ربه تعالى لا ينافي أمره

بالذكر اللفظي، وإن أراد ما يعم الذكر القلبي فهو ممنوع ولو سلم ففيه أولاً أن عدم نسيانه (صلى الله عليه وآله وسلم) ربه إلى حين الخطاب لا ينافي أمره بذكره بعده وثانياً أن عده الدوام الحقيقي غير ممكن و حمل الدوام على العرفي وهم ناش عن عدم تحصيل المعنى على ما هو عليه فالله جل ذكره مذكور للإنسان لا يغيب عنه ولا لحظة سواء تنبه عليه الإنسان أو غفل عنه. ومن الممكن أن يعرفه الله نفسه بحيث لا يغفل عنه ولا في حال قال تعالى: **{فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ}** حم السجدة: ٣٨ و قال: **{يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ}** الأنبياء: ٢٠ و قد تقدم في تفسير الآيتين و آخر سورة الأعراف أن ذلك لا يختص بالملائكة.

و بالجملة قوله: **{وَأُذَكِّرِ اسْمَ رَبِّكَ}** أمر بذكر اسم من أسمائه أو لفظ الجلالة خاصة و قيل: المراد به البسملة. و في قوله: **{رَبِّكَ}** التفات عن التكلم مع الغير في قوله: **{إِنَّا سَنُلْقِي}** إلى الغيبة و لعل الوجه فيه إيقاظ ذلة العبودية التي هي الرابطة بين العبد و ربه، بذكر صفة الربوبية.

و قوله **{وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً}** فسر التبتل بالانقطاع أي و انقطع إلى الله، و من المروي عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أن التبتل رفع اليد إلى الله و التضرع إليه، و هذا المعنى أنسب بناء على حمل الذكر على الذكر اللفظي كما تقدم.

و **{تَبْتِيلاً}** مفعول مطلق ظاهراً و كان مقتضى الظاهر أن يقال: و تبتل إليه تبتلاً فالعدول إلى التبتيل قيل: لتضمنين تبتل معنى بتل، و المعنى و قطع نفسك من غيره إليه تقطيعاً أو احمل نفسك على رفع اليد إليه و التضرع حملاً، و قيل: لمراعاة الفواصل.

قوله تعالى: **{رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}** و وصف مقطوع عن الوصفية و التقدير هو رب المشرق و المغرب، و رب المشرق و المغرب في معنى رب العالم كله فإن المشرق و المغرب جهتان نسبيتان تشملان جهات العالم المشهود كلها، وإنما اختص بالذكر لمناسبة ما تقدم من ذكر الليل و النهار المرتبطين بالشروق و الغروب.

و إنما لم يقتصر في الإشارة إلى ربوبيته تعالى بقوله السابق: **{رَبِّكَ}** للإيذان بأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) مأمور باتخاذ ربا لأنه ربه و رب العالم كله لا لأنه ربه وحده كما ربما كان الرجل

من الوثنيين يتخذ صنما لنفسه فحسب غير ما اتخذه غيره من الأصنام و لو كان اتخذه (صلى الله عليه وآله وسلم) له تعالى ربا من هذا القبيل أو احتمال ذلك لم تصح دعوته إلى التوحيد.

و ليكون قوله: **{رَبِّكَ {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} }** وهو في معنى رب العالم كله توطئة و تمهيدا لقوله بعده: **{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}** يعلل به توحيد الألوهية فإن الألوهية و هي المعبودية من فروع الربوبية التي هي الملك و التدبير كما تقدم مرارا فهو تعالى الإله وحده لا إله إلا هو لأنه الرب وحده لا رب إلا هو.

و قوله: **{فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}** أي في جميع أمورك، و توكل الوكيل هو إقامة الإنسان غيره مقام نفسه بحيث تقوم إرادته مقام إرادته و عمله مقام عمله فاتخذه تعالى وكيلا أن يرى الإنسان الأمر كله له و إليه تعالى أما في الأمور الخارجية و الحوادث الكونية فأن لا يرى لنفسه و لا لشيء من الأسباب الظاهرية استقلالاً في التأثير فلا مؤثر في الوجود بحقيقة معنى التأثير إلا الله فلا يتعلق بتأثير سبب من الأسباب برضى أو سخط أو سرور أو أسف و غير ذلك بل يتوسل إلى مقاصده و مآربه بما عرفه الله من الأسباب من غير أن يطمئن إلى استقلالها في التأثير و يرجع الظفر بالمطلوب إلى الله ليختار له ما يرتضيه.

و أما الأمور التي لها تعلق بالعمل من العبادات و المعاملات فأن يجعل إرادته تابعة لإرادة ربه التشريعية فيعمل على حسب ما يريد الله تعالى منه فيما شرع من الشريعة.

و من هنا يظهر أن لقوله: **{فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}** ارتباطا بقوله: **{وَ أذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ}** إنح و ما تقدم عليه من الأوامر التشريعية كما أن له ارتباطا بما تأخر عنه من قوله **{وَ اصْبِرْ}** و قوله **{أَهْجُرْهُمْ}** و قوله: **{وَ ذَرْنِي}**.

قوله تعالى: **{وَ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَ أَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}** معطوف هو و ما بعده على مدخول الفاء في قوله: **{فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}** فالمعنى اتخذه وكيلا و لازم اتخذه وكيلا أن تصبر على ما يقولون مما فيه إيذاءك و الاستهزاء بك و رميك بما ليس فيك كقولهم: افتري على الله، كاهن شاعر، مجنون، أساطير الأولين و غير ذلك مما يقصه القرآن.

و أن تهجرهم هجرا جميلا، و المراد بالهجر الجميل على ما يعطيه السياق أن يعاملهم بحسن الخلق و الدعوة إلى الحق بالمناسبة، و لا يواجه قولهم بما في وسعه من المقابلة بالمثل، و الآية لا تدافع آية القتال فلا وجه لقول من قال: إنها منسوخة بآية القتال.

قوله تعالى: **{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهَلُكُمْ قَلِيلًا}** تهديد للكفار يقال: دعني و فلانا و ذرني و فلانا أي لا تحل بيني و بينه حتى أنتقم منه.

و المراد بالمكذبين أولي النعمة الكفار المذكورون في الآية السابقة أو رؤسائهم المتبوعون، و الجمع بين توصيفهم بالمكذبين و توصيفهم بأولي النعمة للإشارة إلى علة ما يهددهم به من العذاب فإن تكذيبهم بالدعوة الإلهية و هم متنعمون بنعمة ربهم كفران منهم بالنعمة و جزاء الكفران سلب النعمة و تبديلها من النعمة.

و المراد بالقليل الذي يمهلونه الزمان القليل الذي يمكثون في الأرض حتى يرجعوا إلى ربهم فيحاسبهم و يجازيهم قال تعالى: **{إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا}** المعارج: ٧، و قال: **{مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ}** آل عمران ١٩٧.

و الآية بظاهاها عامة، و قيل: وعيد لهم بوقعة بدر و ليس بظاهر، و في الآية التفات عن الغيبة في **{رَبِّكَ}** إلى التكلم وحده في **{ذَرْنِي}** و لعل الوجه فيه تشديد التهديد بنسبة الأمر إليه سبحانه نفسه ثم التفت في قوله: **{إِنَّ لَدَيْنَا}** إلى التكلم مع الغير للدلالة على العظمة.

قوله تعالى: **{إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا}** تعليل لقوله **{ذَرْنِي}** إنح و الأنكال القيود، قال الراغب يقال: نكل عن الشيء ضعف و عجز، و نكلته قيدته و النكل - بالكسر فالسكون - قيد الدابة و حديدة اللجام لكونهما مانعين، و الجمع الأنكال انتهى، و قال: الجحمة شدة تأجج النار و منه الجحيم، انتهى.

قوله تعالى: **{وَ طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَ عَذَابًا أَلِيمًا}** قال في المجمع: الغصة تردد اللقمة في الحلق و لا يسيغها آكلها يقال: غص بريقه يغص غصصا، و في قلبه غصة من كذا و هي كاللدغة التي لا يسوغ معها الطعام و الشراب، انتهى.

و الآيتان تذكران نعم الآخرة التي بدلت منها نعم الدنيا جزاء لكفرانهم بنعم الله.

قوله تعالى: **{يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا}** ظرف للعذاب الموعود في الآيتين السابقتين، قال الراغب: الرجف الاضطراب الشديد يقال: رجفت الأرض و البحر انتهى. و في المجمع: الكثيب الرمل المجتمع الكثير، و هلت أهيله هيلا فهو مهيل إذا حرك أسفله فسال أعلاه انتهى، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا}** إنذار للمكذبين أولي النعمة من قومه (صلى الله عليه وآله وسلم) بعد ما أوعدهم مطلق المكذبين أولي النعمة بما أعد لهم من العذاب يوم القيامة بقياس حال فرعون المستكبر على الله ورسوله المستذل لرسول الله و من آمن معه من قومه ثم قرع أسماعهم بما انتهى إليه أمر فرعون من أخذ الله له أخذا وبيلا فليتعظوا وليأخذوا حذرهم.

وفي الآية التفات عن الغيبة إلى الخطاب كان المتكلم لما أوعدهم بالعذاب على الغيبة هاج به الوجد على أولئك المكذبين بما يلقون أنفسهم بأيديهم إلى الهلاك الأبدي لسفاهة رأيهم فشافهمم بالإنذار ليرتفع عن أنفسهم أي شك و ترديد وتم عليهم المحجة ولعلمهم يتقون، ولذا عقب قياسهم إلى فرعون وقياس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى موسى (عليه السلام) و الإشارة إلى عقابه أمر فرعون بقوله **{فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا}** إلخ.

فقوله: **{إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ}** إشارة إلى تصديق رسالة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من قبله تعالى و شهادته على أعمالهم بتحملها في الدنيا و تأديتها يوم القيامة، وقد تقدم البحث عن معنى شهادة الأعمال في الآيات المشتملة عليها مرارا، وفي الإشارة إلى شهادته (صلى الله عليه وآله وسلم) نوع زجر لهم عن عصيانه و مخالفته و تكذيبه.

و قوله: **{كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا}** هو موسى بن عمران (عليه السلام).

قوله تعالى: **{فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً}** أي شديدا ثقيلا. إشارة إلى عاقبة أمر فرعون في عصيانه موسى (عليه السلام)، و في التعبير عن موسى بالرسول إشارة إلى أن السبب الموجب لأخذ فرعون مخالفته أمر رسالته لا نفس موسى بما أنه موسى، وإذا كان السبب هو مخالفة الرسالة فليحذروا مخالفة رسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

كما أن وضع الظاهر موضع الضمير في قوله: **{فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ}** للإيماء إلى أن ما كان له من العزة و العلو في الأرض و التبجح بكثرة العدة و سعة المملكة و نفوذ المشية لم يغن عنه شيئا و لم يدفع عنه عذاب الله فما الظن بهؤلاء المكذبين؟ و هم كما قال الله: **{جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ}** ص ١١.

قوله تعالى: **{فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا}** نسبة الانتقاء إلى اليوم من المجاز العقلي و المراد اتقاء العذاب الموعود فيه، و عليه فيوما مفعول به لتتقون،

و قيل: مفعول **{تَتَّقُونَ}** محذوف و **{يَوْمًا}** ظرف له و التقدير فكيف يتمنون العذاب الكائن في يوم، و قيل: المفعول محذوف و **{يَوْمًا}** ظرف للاتقاء و قيل غير ذلك.

و قوله: **{يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا}** الشيب جمع أشيب مقابل الشاب، و جعل الولدان شيبا كناية عن شدة اليوم لا عن طوله.

قوله تعالى: **{السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا}** إشارة بعد إشارة إلى شدة اليوم، و الانفطار الانشقاق و تذكير الصفة لكون السماء جائز الوجهين يذكر و يؤنث، و ضمير **{بِهِ}** لليوم، و الباء بمعنى في أو للسببية، و المعنى السماء منشفة في ذلك اليوم أو بسبب ذلك اليوم أي بسبب شدته.

و قوله: **{كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا}** استئناف لتسجيل ما تقدم من الوعيد و أنه حتم مقضي و نسبة الوعد إلى ضميره تعالى لعله للإشعار بأن لا يصلح لهذا الوعد إلا الله تعالى فيكفي فيه الضمير من غير حاجة إلى ذكره باسمه.

قوله تعالى: **{إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا}** الإشارة بهذه إلى الآيات السابقة بما تشتمل عليه من القوارع و الزواجر، و التذكرة الموعظة التي يذكر بها ما يعمل عليه.

و قوله: **{فَمَنْ شَاءَ}** مفعول **{شَاءَ}** محذوف و المعروف في مثل هذا المورد أن يقدر المفعول من جنس الجواب و السياق يلائمه، و التقدير فمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا اتخذ إنخ، و قيل: المقدر الاتعاض، و المراد باتخاذ السبيل إليه اتخاذ السبيل إلى التقرب منه، و السبيل هو الإيمان و الطاعة هذا ما ذكره المفسرون.

و من الممكن أن تكون هذه إشارة إلى ما تقدم في صدر السورة من الآيات النادبة إلى قيام الليل و التهجد فيه، و الآية مسوقة لتوسعة الخطاب و تعميمه لغير النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) من المؤمنين بعد ما كان خطاب صدر الصورة مختصا به (صلى الله عليه وآله و سلم)، و الدليل على هذا التعميم قوله: **{فَمَنْ شَاءَ}** إنخ.

و يؤيد ما ذكرنا وقوع هذه الآية **{إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ}** إنخ بعينها في سورة الدهر بعد ما أشير إلى صلاة الليل بقوله تعالى: **{وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا}** ويستنتج من ذلك أن صلاة الليل سبيل خاصة تهدي العبد إلى ربه.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج البزار و الطبراني في الأوسط و أبو نعيم في الدلائل عن جابر قال: اجتمعت قريش في دار الندوة فقالوا: سمو هذا الرجل اسما يصدر الناس عنه فقالوا: كاهن. قالوا ليس بكاهن. قالوا: مجنون. قالوا: ليس بمجنون. قالوا ساحر. قالوا: ليس بساحر. قالوا: يفرق بين الحبيب و حبيبه فتفرق المشركون على ذلك. فبلغ ذلك النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فتزمل في ثيابه و تدثر فيها فأثاه جبريل فقال: يا أيها المزمّل يا أيها المدثر.

أقول: آخر الرواية لا يخلو من شيء حيث إن ظاهرها نزول السورتين معاً. على أن القرآن حتى في سورة المدثر يحكي تسميتهم له (صلى الله عليه وآله و سلم) بألقاب السوء كالكاهن و الساحر و المجنون و الشاعر و لم يذكر فيها قولهم: يفرق بين الحبيب و حبيبه.

و فيه، أخرج عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد و محمد بن نصر في كتاب الصلاة عن عائشة قالت: كان النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قلما ينام من الليل لما قال الله له: **{قُمِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا}**.

و في الكشف، عن عائشة: أنها سألت: ما كان تزميله؟ قالت: كان مرطاً طوله أربع عشرة ذراعاً نصفه علي و أنا نائمة و نصفه عليه و هو يصلي. فسئلت: ما كان؟ قالت: والله ما كان خزا و لا قزا و لا مرعزياً و لا إبريسماً و لا صوفاً. كان سداه شعراً و لحمته وبرا.

أقول: الرواية مرمية بالوضع فإن السورة من العتائق النازلة بمكة، و عائشة إنما بنى عليها النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بالمدينة بعد الهجرة.

و عن جوامع الجامع، روي: أنه قد دخل على خديجة و قد جئت فرقا¹ فقال: زملوني فينا هو على ذلك إذ ناداه جبريل: **{يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ}**.

و في الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر قال: لما نزلت **{يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ قُمِ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا}** مكث النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل كما أمره الله و كانت طائفة من أصحابه يقومون معه فأنزل الله بعد عشر سنين **{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ}** - إلى قوله - **{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}** نخفف الله عنهم بعد عشر سنين.

¹ جئت الرجل ثقل عند القيام أو عند حمل شيء ثقيل و الفرق: الفزع و الخوف.

أقول: وروي نزول آية التخفيف بعد سنة وروي أيضا نزولها بعد ثمانية أشهر، ولم يكن قيام الليل واجبا على غير النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما أشير إليه بقوله تعالى **{إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ}** الآية كما تقدم، ويؤيده ما في الرواية من قوله: «و طائفة من أصحابه».

وفي التهذيب، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **سألته عن قول الله تعالى: {قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا} قال: أمره الله أن يصلي كل ليلة إلا أن تأتي عليه ليلة من الليالي لا يصلي فيها شيئا.**
أقول: الرواية تشير إلى أحد الوجوه في الآية.

وفي المجمع: وقيل: إن نصفه بدل من القليل فيكون بيانا للمستثنى، ويؤيد هذا القول ما روي عن الصادق (عليه السلام) قال: **القليل النصف أو انقص من القليل قليلا أو زد على القليل قليلا.**

وفي الدر المنثور، أخرج العسكري في المواعظ عن علي (عليه السلام) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) سئل عن قول الله: **{وَرَوِّقِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا}** قال: بينه وبيننا، ولا تنثره نثر الدقل، ولا تهذه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة.

أقول: وروي هذا المعنى في أصول الكافي، بإسناده عن عبد الله بن سليمان عن الصادق عن علي (عليه السلام) ولفظ بينه وبيننا ولا تهذه هذ الشعر، ولا تنثره نثر الرمل، ولكن أفرغوا قلوبكم القاسية ولا يكن هم أحدكم آخر السورة.

وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن طاووس قال: **سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أي الناس أحسن قراءة قال الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله.**

وفي أصول الكافي، بإسناده عن علي بن أبي حمزة قال قال أبو عبد الله (عليه السلام): **إن القرآن لا يقرأ هذرمة^٢ ولكن يرتل ترتيلا فإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها واسأل الله عز وجل الجنة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوذ بالله من النار.**

وفي المجمع، في معنى الترتيل عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **هو أن تتمكث فيه و تحسن به صوتك.**

^١ أفرغ الإناء: أخلاه.

^٢ الهذرمة: الإسراع في القراءة.

و فيه روي عن أم سلمة أنها قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقطع قراءته آية آية.

و فيه عن أنس قال: كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يمد صوته مداً.

و فيه سأله الحارث بن هشام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي فيفصم¹ عني وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل الملك رجلاً فأعي ما يقول.

قالت عائشة: إنه كان ليوحي إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو على راحلته فتضرب بجرانها.

قالت: ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد - فيفصم عنه وإن جبينه ليرفض عرقاً.

و عن تفسير العياشي، بإسناده عن عيسى بن عبيد عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) قال: كان القرآن ينسخ بعضه بعضاً، وإنما يؤخذ من أمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بآخره.

و كان من آخر ما نزل عليه سورة المائدة نسخت ما قبلها ولم ينسخها شيء لقد نزلت عليه وهو على بغلة شهباء وثقل عليها الوحي حتى وقفت وتدلّى بطنها حتى رأيت سرتها تكاد تمس الأرض.

أقول: إن صحة الرواية كان ظهور أثر ثقل الوحي على الناقة أو البغلة من قبيل تجسم المعاني وكثيراً ما يوجد مثله فيما نقل من المعجزات وكرامات الأولياء، وأما اتصاف الوحي وهو كلام بالثقل المادي فغير معقول.

وفي التهذيب، بإسناده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: **﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَظَنًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾** قال: يعني بقوله: **﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾** قيام الرجل عن فراشه يريد به الله عز وجل لا يريد به غيره.

أقول: ورواه أيضاً بسندين آخرين في التهذيب والعلل عن هشام عنه (عليه السلام).

و في المجمع في قوله تعالى: **﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾** (الآية) و المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام) أنهما قالوا: هي القيام في آخر الليل.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن المنذر عن حسين بن علي أنه رأي يصلي بين المغرب والعشاء فقيل له في ذلك؟ فقال: **إنهما من الناشئة.**

وفي المجمع في قوله تعالى: **{وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً}** وروى محمد بن مسلم و زرارة و حمران عن أبي جعفر و أبي عبد الله (عليهما السلام) **أن التبتل هذا رفع اليدين في الصلاة.** وفي رواية أبي بصير قال: **هو رفع يدك إلى الله و تضرعك.**

أقول: و ينطبق على قنوت الصلاة، و في رواية هو رفع اليدين و تحريك السبابتين، و في رواية الإيماء بالإصبع و في رواية الدعاء بإصبع واحدة يشير بها.

و فيه في قوله تعالى: **{وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ}** (الآية) عن عبد الله بن عمر: أن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) سمع قارئاً يقرأ هذا فصعق.

و في تفسير القمي، في قوله: **{وَكَاثِرَ الْجِبَالِ كَثِيباً مَّهِيلاً}** قال: مثل الرمل ينحدر.

[سورة المزمل (٧٣): آية ٢٠]

{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ وَ طَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ وَ أقيموا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اقْرئُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَ مَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْراً وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾}

(بيان)

آية مبنية على التخفيف فيما أمر به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في صدر السورة من قيام الليل و الصلاة فيه ثم عمم الحكم لسائر المؤمنين بقوله: **{إِنَّ هَذِهِ تَذَكِرَةٌ}** الآية.

و لسان الآية هو التخفيف بما تيسر من القرآن من غير نسخ لأصل الحكم السابق بالمنع عن قيام ثلثي الليل أو نصفه أو ثلثه.

و قد ورد في غير واحد من الأخبار أن الآية مكية نزلت بعد ثمانية أشهر أو سنة أو عشر سنين من نزول آيات صدر السورة لكن يوهنه اشتمال الآية على قوله تعالى: **{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}** فإن ظاهره أن المراد بالزكاة - و قد ذكرت قبلها الصلاة و بعدها الإنفاق المستحب - هو الزكاة المفروضة وإنما فرضت الزكاة بالمدينة بعد الهجرة.

و قول بعضهم: إن الزكاة فرضت بمكة من غير تعيين الأنصاء والذي فرض بالمدينة تعيين الأنصاء، تحكم من غير دليل، و كذا قول بعضهم: إنه من الممكن أن تكون الآية مما تأخر حكمه عن نزوله.

على أن في الآية ذكرا من القتال إذ يقول: **{وَأَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** و لم يكن من مصلحة الدعوة الحقنة يومئذ ذاك و الظرف ذلك الظرف أن يقع في منها ذكر من القتال بأي وجه كان، فالظاهر أن الآية مدنية و ليست بمكية و قد مال إليه بعضهم.

قوله تعالى: **{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ}** إلى آخر الآية. الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و في التعبير بقوله: **{رَبَّكَ}** تلويح إلى شمول الرحمة و العناية الإلهية، و كذا في قوله: **{يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ}** إلخ مضافا إلى ما فيه من لائحة الشكر قال تعالى: **{وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا}** الدهر ٢٢.

و قوله: **{تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ}** أدنى اسم تفضيل من الدنو بمعنى القرب، و قد جرى العرف على استعمال أدنى فيما يقرب من الشيء و هو أقل فيقال: إن عدتهم أدنى من عشرة إذا كانوا تسعة مثلا دون ما لو كانوا أحد عشر فعنى قوله: **{أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ}** أقرب من ثلثيه و أقل بقليل.

و الواو العاطفة في قوله: **{وَنِصْفَهُ وَ ثُلُثُهُ}** لمطلق الجمع و المراد أنه يعلم أنك تقوم في بعض الليالي أدنى من ثلثي الليل و في بعضها نصفه و في بعضها ثلثه.

و قوله: **{وَ طَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ}** المراد المعية في الإيمان و **{مِنْ}** للتبعيض فالآية تدل على أن بعضهم كان يقوم الليل كما كان يقومه النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) . و قيل «من» بيانية، و هو كما ترى.

و قوله: **{وَ اللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ}** في مقام التعليل لقوله: **{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ}** و المعنى و كيف لا يعلم و هو الله الذي إليه الخلق و التقدير ففي تعيين قدر الليل و النهار تعيين ثلثهما و نصفهما و ثلثيهما، و نسبة تقدير الليل و النهار إلى اسم الجلالة دون اسم الرب و غيره لأن التقدير من شئون الخلق و الخلق إلى الله الذي إليه ينتهي كل شيء.

و قوله: **{عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}** الإحصاء تحصيل مقدار الشيء و عدده و الإحاطة به، و ضمير **{لَنْ تُحْصُوهُ}** للتقدير أو للقيام مقدار ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه، و إحصاء ذلك مع اختلاف الليالي طولاً و قصرًا في أيام السنة مما لا يتيسر لعامة المكلفين و يشتد عسرا لمن نام أول الليل و أراد القيام بأحد المقادير الثلاثة دون أن يحتاط بقيام جميع الليل أو ما في حكمه.

فالمراد بقوله: **{عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ}** علمه تعالى بعدم تيسر إحصاء المقدار الذي أمروا بقيامه من الليل لعامة المكلفين.

و المراد بقوله: **{فَتَابَ عَلَيْكُمْ}** توبته تعالى و رجوعه إليهم بمعنى انعطاف الرحمة الإلهية عليهم بالتخفيف فله سبحانه توبة على عباده ببسط رحمته عليهم و أثرها توفيقهم للتوبة أو لمطلق الطاعة أو رفع بعض التكليف أو التخفيف قال تعالى: **{ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا}** التوبة ١١٨ .

كما أن له توبة عليهم بمعنى الرجوع إليهم بعد توبتهم و أثرها مغفرة ذنوبهم، و قد تقدمت الإشارة إليه.

و المراد بقوله: **{فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}** التخفيف في قيام الليل من حيث المقدار لعامة المكلفين تفريرا على علمه تعالى أنهم لن يحصوه.

و لازم ذلك التوسعة في التكليف بقيام الليل من حيث المقدار حتى يسع لعامة المكلفين الشاق عليهم إحصاؤه دون النسخ بمعنى كون قيام الثلث أو النصف أو الأدنى من الثلثين

لمن استطاع ذلك بدعة محرمة و ذلك أن الإحصاء المذكور إنما لا يتيسر لمجموع المكلفين لا لجميعهم ولو امتنع لجميعهم و لم يتيسر لأحدهم لم يشرع من أصله و لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

على أنه تعالى يصدق لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) و طائفة من الذين معه قيام الثلث و النصف و الأدنى من الثلثين و ينسب عدم التمكن من الإحصاء إلى الجميع و هم لا محالة هم القائمون و غيرهم فالحكم إنما كان شاقا على المجموع من حيث المجموع دون كل واحد فوسع في التكليف بقوله: **{فَأَقْرُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}** و سهل الأمر بالتخفيف ليكون لعامة المكلفين فيه نصيب مع بقاء الأصل المشتمل عليه صدر السورة على حاله لمن تمكن من الإحصاء و إرادة، و الحكم استحبابي لسائر المؤمنين و إن كان ظاهر ما للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الخطاب الوجوب كما تقدمت الإشارة إليه.

و للقوم في كون المراد بقيام الليل الصلاة فيه أو قراءة القرآن خارج الصلاة، و على الأول في كونه واجبا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و المؤمنين أو مستحبا للجميع أو واجبا على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مستحبا لغيره ثم في نسخ الحكم بالتخفيف بما تيسر بهذه الآية أو تبديل الصلاة من قراءة ما تيسر من القرآن أقوال لا كثير جدوى في التعرض لها و البحث عنها.

و قوله: **{عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَ آخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَ آخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** إشارة إلى مصلحة أخرى مقتضية للتخفيف في أمر القيام ثلث الليل أو نصفه أو أدنى من ثلثيه، وراء كونه شاقا على عامة المكلفين بالصفة المذكورة أولا فإن الإحصاء المذكور للمريض و المسافر و المقاتل مع ما هم عليه من الحال شاق عسير جدا.

و المراد بالضرب في الأرض للابتغاء من فضل الله طلب الرزق بالمسافرة من أرض إلى أرض للتجارة. و قوله: **{فَأَقْرُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}** تكرار للتخفيف تأكيدا، و ضمير **{مِنْهُ}** للقرآن، و المراد الإتيان بالصلاة على ما يناسب سعة الوقت الذي قاموا فيه.

و المراد بالصلاة المأمور بإقامتها الفريضة فإن كانت الآية مدنية فالفرائض الخمس اليومية و إن كانت مكية فيحسب ما كانت مفروضة من الصلاة، و المراد بالزكاة الزكاة

المفروضة، و المراد بإقراضه تعالى غير الزكاة من الإنفاقات المالية في سبيل الله.

و عطف الأمر بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة و الإقراض للتلويح إلى أن التكليف الدينية على حالها في وجوب الاهتمام بها و الاعتناء بأمرها، فلا يتوهم متوهم سريان التخفيف و المسامحة في جميع التكليف فالآية نظيرة قوله في آية النجوى: **{فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ}** المجادلة: ١٣.

و قوله: **{وَ مَا تَقَدَّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا}** **{مِنْ خَيْرٍ}** بيان للموصول، و المراد بالخير مطلق الطاعة أعم من الواجبة و المندوبة، و **{هُوَ}** ضمير فصل أو تأكيد للضمير في «تجدوه». و المعنى: و الطاعة التي تقدمونها لأنفسكم - أي لتعيشوا بها في الآخرة - تجدونها عند الله - أي في يوم اللقاء - خيرا من كل ما تعملون أو تتركون و أعظم أجرا.

و قوله: **{وَ اسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** ختم الكلام بالأمر بالاستغفار، و في قوله: **{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** إشعار بوعد المغفرة و الرحمة، و لا يبعد أن يكون المراد بالاستغفار الإتيان بمطلق الطاعات لأنها وسائل يتوسل بها إلى مغفرة الله فالإتيان بها استغفار.

(بحث روائي)

في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: **{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَ نِصْفَهُ وَ ثُلُثَهُ}** ففعل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك و بشر الناس به فاشتد ذلك عليهم و **{عَلِمَ أَنْ لَنْ نُحْصُوهُ}** و كان الرجل يقوم و لا يدري متى ينتصف الليل و متى يكون الثلثان، و كان الرجل يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظه.

فأنزل الله **{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ}** - إلى قوله - **{عَلِمَ أَنْ لَنْ نُحْصُوهُ}** يقول: متى يكون النصف و الثلث نسخت هذه الآية **{فَاقْرَأْ مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}**، و اعلموا أنه لم يأت نبي قط إلا خلا بصلاة الليل، و لا جاء نبي قط بصلاة الليل في أول الليل.

أقول: محصل الرواية أن صدر السورة توجب صلاة الليل و ذيلها تنسخها، و روي ما يقرب منه من طرق أهل السنة عن ابن عباس و غيره، و قد تقدم ما يتعلق به في البيان السابق.

وفي المجمع، روى الحاكم أبو القاسم إبراهيم الحسكاني بإسناده عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى: **{وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ}** قال: علي و أبو ذر.

وفيه في قوله تعالى: **{فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ}** روي عن الرضا عن أبيه عن جده (عليه السلام) قال: **ما تيسر منه لكم فيه خشوع القلب و صفاء السر.**

وفي الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) **{فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ}** قال: **مائة آية.**

وفيه، أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال: **قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ما من جالب يجلب طعاما إلى بلد من بلاد المسلمين فيبيعه بسعريومه إلا كانت منزلته عند الله منزلة الشهيد.** ثم قرأ **رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) {وَآخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.}**

وفي تفسير القمي، بإسناده عن زرعة عن سماعة قال: **سألته عن قول الله: {وَاقْرُؤُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً} قال: هو غير الزكاة.**

وفي الخصال، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث الأربعمائة: **أكثرُوا الاستغفار تجلبوا الرزق، و قدموا ما استطعتم من عمل الخير تجدوه غدا.**

أقول: ذيله مأخوذ من قوله تعالى: **{وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْراً.}**

(٧٤) سورة المدثر مكية وهي ست و خمسون آية (٥٦)

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ١ الى ٧]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمُنْ بِتَسْتَكْبِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝}

(بيان)

تتضمن السورة أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالإنداز في سياق يلوح منه كونه من أوامر أوائل البعثة ثم الإشارة إلى عظم شأن القرآن الكريم و جلالة قدره، و الوعيد الشديد على من يواجهه بالإنكار و الرمي بالسحر، و ذم المعرضين عن دعوته.

و السورة مكية من العتائق النازلة في أوائل البعثة و ظهور الدعوة حتى قيل: إنها أول سورة نزلت من القرآن و إن كان يكذبه نفس آيات السورة الصريحة في سبق قراءته (صلى الله عليه وآله وسلم) القرآن على القوم و تكذيبهم به و إعراضهم عنهم و رميهم له بأنه سحر يؤثر.

و لذا مال بعضهم إلى أن النازل أولاً هي الآيات السبع الواقعة في أول السورة و لازمه كون السورة غير نازلة دفعة و هو و إن كان غير بعيد بالنظر إلى متن الآيات السبع لكن يدفعه سياق أول سورة العلق الظاهر في كونه أول ما نزل من القرآن.

و احتمال بعضهم أن تكون السورة أول ما نزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عند الأمر بإعلان الدعوة بعد إخفائها مدة في أول البعثة فهي في معنى قوله: **{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}** الحجر ٩٤، و بذلك جمع بين ما ورد من أنها أول ما نزل، و ما ورد أنها نزلت بعد سورة العلق، و ما ورد أن سورتي المزمل و المدثر نزلتا معاً، و هذا القول لا يتعدى طور الاحتمال.

و كيف كان فالمتيقن أن السورة من أوائل ما نزل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من السور القرآنية، و الآيات السبع التي نقلناها تتضمن الأمر بالإنداز و سائر الخصال التي تلزمه مما وصاه الله به.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ}** المدثر بتشديد الدال و الثاء أصله المتدثر اسم فاعل من التدثر بمعنى التغطي بالثياب عند النوم.

و المعنى: يا أيها المتغطي بالثياب للنوم خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و قد كان على هذه الحال فحطبت بوصف مأخوذ من حاله تأنيسا و ملاطفة نظير قوله: **{يَا أَيُّهَا الْمَرْمَلُ}**.

و قيل: المراد بالتدثر تلبسه (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنبوة بتشبيهها بلباس يتخلى به و يتزين و قيل: المراد به اعتزاله (صلى الله عليه وآله وسلم) و غيبته عن النظر فهو خطاب له بما كان عليه في غار حراء، و قيل: المراد به الاستراحة و الفراغ فكأنه قيل له (صلى الله عليه وآله وسلم): يا أيها المستريح الفراغ قد

انقضى زمن الراحة و أقبل زمن متاعب التكليف و هداية الناس.

و هذه الوجوه و إن كانت في نفسها لا بأس بها لكن الذي يسبق إلى الذهن هو المعنى الأول.

قوله تعالى: **{قُمْ فَأَنْذِرْ}** الظاهر أن المراد به الأمر بالإنذار من غير نظر إلى من ينذر فالمعنى افعل الإنذار، و ذكر بعضهم أن مفعول الفعل محذوف، و التقدير أنذر عشيرتك الأقربين لمناسبته لابتداء الدعوة كما ورد في سورة الشعراء.

و ذكر آخرون أن المفعول المحذوف عام و هو جميع الناس لقوله: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ}** سبأ: ٢٨.

و لم يذكر التبشير مع الإنذار مع أنهما كالملازمين في تمام الدعوة لأن السورة مما نزل في ابتداء الدعوة و الإنذار هو الغالب إذ ذاك.

قوله تعالى: **{وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ}** أي أنسب ربك إلى الكبرياء و العظمة اعتقادا و عملا قولاً و فعلاً و هو تنزيهه تعالى من أن يعادله أو يفوقه شيء فلا شيء يشاركه أو يغلبه أو يمانعه، و لا نقص يعرضه، و لا وصف يحده.

و لذا ورد عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أن معنى التكبير: الله أكبر من أن يوصف، فهو تعالى أكبر من كل وصف نصفه به حتى من هذا الوصف، و هذا هو المناسب للتوحيد الإسلامي الذي يفوق ما نجده من معنى التوحيد في سائر الشرائع السماوية.

و هذا الذي ذكرناه هو الفرق بين كلمتي التكبير و التسبيح الله أكبر و سبحان الله فسبحان الله تنزيه له تعالى عن كل وصف عدمي مبني على النقص كالموت و العجز و الجهل و غير ذلك، و الله أكبر تنزيه مطلق له تعالى عن كل وصف نصفه به أعم من أن يكون عدمياً أو وجودياً حتى من نفس هذا الوصف لما أن كل مفهوم محدود في نفسه لا يتعدى إلى غيره من المفاهيم و هو تعالى لا يحيط به حد، فافهم ذلك.

و قيل: المراد الأمر بالتكبير في الصلاة.

و التعبير عنه تعالى بربك لا يخلو من إشعار بأن توحيده تعالى يومئذ كان يختص به.

قال في الكشاف، في قوله: **{فَكَبِّرْ}** و دخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل: و ما كان فلا تدع تكبيره.

قوله تعالى: **{وَأَيُّابَكَ فَطَهَّرْنَا}** قيل: كناية عن إصلاح العمل، و لا يخلو من وجه فإن العمل بمنزلة الثياب للنفس بما لها من الاعتقاد فالظاهر عنوان الباطن، و كثيرا ما يكتفى في كلامهم عن صلاح العمل بطهارة الثياب. و قيل: كناية عن تزكية النفس و تنزيهها عن الذنوب و المعاصي.

و قيل: المراد تقصير الثياب لأنه أبعد من النجاسة و لو طالت و انجرت على الأرض لم يؤمن أن تتنجس. و قيل: المراد تطهير الأزواج من الكفر و المعاصي لقوله تعالى: **{هُنَّ لَيَّاسٌ لَكُمْ}** البقرة ١٨٧.

و قيل: الكلام على ظاهره و المراد تطهير الثياب من النجاسات للصلاة و الأقرب على هذا أن يجعل قوله: **{وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ}** إشارة إلى تكبير الصلاة و تكون الآيتان مسوقتين لتشريع أصل الصلاة مقارنة للأمر بالدعوة.

و لا يرد عليه ما قيل: إن نزول هذه الآيات كان حيث لا صلاة أصلا و ذلك أن تشريع الفرائض الخمس اليومية على ما هي عليها اليوم و إن كان في ليلة المعراج و هي جميعا عشر ركعات ثم زيد عليها سبع ركعات إلا أن أصل الصلاة كان منذ أوائل البعثة كما يشهد به ذكرها في هذه السورة و سورتي العلق و المزمل، و يدل عليه الروايات.

و قيل: المراد بتطهير الثياب التخلص بالأخلاق الحميدة و الملكات الفاضلة.

و في معنى تطهير الثياب أقوال أخر أغمضنا عن نقلها لإمكان إرجاعها إلى بعض ما تقدم من الوجوه، و أرحح الوجوه المتقدمة أولها و خامسها.

قوله تعالى: **{وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ}** قيل: الرجز بضم الراء و كسرهما العذاب، و المراد بهجره هجر سببه و هو الإثم و المعصية، و المعنى هجر الإثم و المعصية.

و قيل: الرجز اسم لكل قبيح مستقذر من الأفعال و الأخلاق فالأمر بهجره أمر بترك كل ما يكرهه الله و لا يرتضيه مطلقا، أو أمر بترك خصوص الأخلاق الرذيلة الذميمة على تقدير أن يكون المراد بتطهير الثياب ترك الذنوب و المعاصي.

و قيل: الرجز هو الصنم فهو أمر بترك عبادة الأصنام.

قوله تعالى: **{وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْبِرُ}** الذي يعطيه سياق الآيات و يناسب المقام أن يكون المراد بالمن تكدير الصنيعة بذكرها للنعم عليه كما في قوله تعالى: **{لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى}** البقرة: ٢٦٤، وقوله: **{يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا}** الحجرات ١٧ و المراد بالاستكثار رؤية الشيء و حسبانته كثيرا لا طلب الكثرة.

و المعنى: لا تمنن امتثالك لهذه الأوامر و قيامك بالإنذار و تكبيرك ربك و تطهيرك ثيابك و هجرك الرجز حال كونك ترى ذلك كثيرا و تعجبه - فإنما أنت عبد لا تملك من نفسك شيئا إلا ما ملكك الله و أقدرك عليه و هو المالك لما ملكك و القادر على ما عليه أقدرك فله الأمر و عليك الامتثال -.

و للقوم في الآية وجوه أخر من التفسير لا تلائم السياق تلك الملاءمة فقيل المعنى لا تعط عطية لتعطى أكثر منها.

وقيل: المعنى لا تمنن ما أعطاك الله من النبوة و القرآن على الناس مستكثرا به الأجر.

وقيل: أي لا تمنن إبلاغ الرسالة على أمتك.

وقيل: المعنى لا تضعف في عملك مستكثرا لطاعاتك.

وقيل: المعنى لا تمنن بعطائك على الناس مستكثرا له.

وقيل: أي إذا أعطيت عطية فأعطاها لربك و اصبر حتى يكون هو الذي يثيبك.

وقيل: هو نهى عن الربا المحرم أي لا تعط شيئا طالبا أن تعطى أكثر مما أعطيت.

قوله تعالى: **{وَلِرَبِّكَ فَاصِبِينَ}** أي لوجه ربك، و الصبر مطلق يشمل الصبر عند المصيبة و الصبر على الطاعة و الصبر عن المعصية، و المعنى و لوجه ربك فاصبر عند ما يصيبك من المصيبة و الأذى في قيامك بالإنذار و امتثالك هذه الأوامر و اصبر على طاعة الله و اصبر عن معصيته، و هذا معنى جامع لمتفرقات ما ذكره في تفسير الآية كقول بعضهم: إنه أمر بنفس الفعل من غير نظر إلى متعلقه، و قول بعضهم: إنه الصبر على أذى المشركين، و قول بعضهم: إنه الصبر على أداء الفرائض، إلى غير ذلك.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج الطيالسي و عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و الترمذي و ابن الضريس و ابن جرير و ابن المنذر و ابن مردويه و ابن الأنباري في المصاحف عن يحيى بن أبي كثير قال: سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال: يا أيها المدثر قلت: يقولون: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}**؟ فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك، قلت له مثل ما قلت. قال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

قال: جاورت بحراء فلما قضيت جوارى نوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فحُت منه رعباً فرجعت فقلت: دثروني دثروني فنزلت: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ}** - إلى قوله - **{وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}**.

أقول: الحديث معارض بالأحاديث الآخر الدالة على كون سورة اقرأ أول ما نزل من القرآن و يؤيدها سياق سورة اقرأ، على أن قوله: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» يشعر بنزول الوحي عليه قبلاً.

وفيه، أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة: قلنا: يا رسول الله كيف نقول إذا دخلنا في الصلاة؟ فأزل الله **{وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ}** فأمرنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن نفتح الصلاة بالتكبير.

أقول: وفي الرواية شيء فأبو هريرة ممن آمن بعد الهجرة بكثير و السورة مما نزل في أول البعثة فأين كان أبو هريرة أو الصحابة يومئذ؟.

وفي الخصال، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث الأربعمئة: **تشمير الثياب طهور لها قال الله تبارك و تعالی: {وَوَيْبَاكَ فَطَهِّرْ} يعني فشمرو.**

أقول: وفي المعنى عدة أخبار مروية في الكافي، والمجمع، عن أبي جعفر وأبي عبد الله. وأبي الحسن (عليهم السلام).

وفي الدر المنثور، أخرج الحاكم و صححه و ابن مردويه عن جابر قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: **{وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ}** برفع الراء، و قال: هي الأوثان.

أقول: وقوله: «هي الأوثان» من كلام جابر أو غيره من رجال السند.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: {وَلَا تَمُنُّنَ تَسْتَكْبِرُ} وفي رواية أبي الجارود يقول: لا تعط تلتمس أكثر

منها.

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٨ الى ٣١]

{فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ١٠ ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ١١ وَ
جَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً ١٢ وَبَنِينَ شُهُوداً ١٣ وَمَهْدُتٌ لَهُ تَمْهِيداً ١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً ١٦
سَأَرْهُقُهُ صُعُوداً ١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَفَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ
وَاسْتَكْبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ٢٤ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ٢٧ لَا تُبْقِي
وَلَا تَذَرُ ٢٨ لَوْأَحَهُ لِلْبَشَرِ ٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ٣٠ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً
لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَ
لِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا
يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ٣١}

في الآيات وعيد شديد للطاعنين في القرآن الرامين له بأنه سحر و المستهزئين لبعض ما فيه من الحقائق.

قوله تعالى: **{فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ}** النقر القرع و الناقور ما ينقر فيه للتصويت، و النقر في الناقور كالنفخ في الصور كناية عن بعث الموتى و إحضارهم لفصل القضاء يوم القيامة و الجملة شرطية جزاؤها قوله «فذلك» إلخ.

قوله تعالى: **{فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ}** الإشارة بقوله **{فَذَلِكَ}** إلى زمان نقر الناقور و لا يبعد أن يكون المراد بيومئذ يوم إذ يرجعون إلى الله للحساب و الجزاء أو يوم إذ يرجع الخلائق إلى الله فيكون ظرفا ليوم نقر الناقور فمن الجائز أن تعتبر قطعة من الزمان ظرفا لبعض أجزائه كالسنة تجعل ظرفا للشهر و الشهر يجعل ظرفا لليوم لنوع من العناية أو يعتبر زمان متعددًا مختلفًا باختلاف صفاته أو الحوادث الواقعة فيه ثم يجعل باعتبار بعض صفاته ظرفا لنفسه باعتبار صفة أخرى.

و المعنى فزمان نقر الناقور الواقع في يوم رجوع الخلائق إلى الله زمان عسير على الكافرين أو زمان نقر الناقور زمان عسير على الكافرين في يوم الرجوع بناء على كون قوله: **{يَوْمَئِذٍ}** قيدا لقوله: **{فَذَلِكَ}** أو لقوله: **{يَوْمٌ}**.

و قال في الكشاف: فإن قلت: بم انتصب إذا و كيف صح أن يقع يومئذ ظرفا ليوم عسير؟ قلت: انتصب إذا بما دل عليه الجزاء لأن المعنى إذا نقر في الناقور عسر الأمر على الكافرين، و الذي أجاز وقوع يومئذ ظرفا ليوم عسير أن المعنى فذلك وقت النقر وقوع يوم عسير لأن يوم القيامة يأتي ويقع حين ينقر في الناقور. انتهى.

و قال: و يجوز أن يكون يومئذ مبنيًا مرفوع المحل بدلا من ذلك، و يوم عسير خبر كأنه قيل: فيوم النقر يوم عسير. انتهى.

و قوله: **{غَيْرُ يَسِيرٍ}** وصف آخر ليوم مؤكد لعسره و يفيد أنه عسير من كل وجه من وجه دون وجه.

قوله تعالى: **{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}** كلمة تهديد و قد استفاض النقل أن الآية

و ما يتلوها إلى تمام عشرين آية نزلت في الوليد بن المغيرة، و ستأتي قصته في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

و قوله: **{وَحِيدًا}** حال من فاعل **{خَلَقْتُ}** و محصل المعنى: دعني و من خلقتك حال كوني وحيدا لا يشاركني في خلقه أحد ثم دبرت أمره أحسن التدبير، و لا تحل بيني و بينه فأنا أكفيه.

و من المحتمل أن يكون حالا من مفعول **{دَرَنِي}**. و قيل: حال من مفعول خلقت المحذوف و هو ضمير عائد إلى الموصول، و محصل المعنى دعني و من خلقتك حال كونه وحيدا لا مال له و لا بنون، و احتمال أيضا أن يكون **{وَحِيدًا}** منصوبا بتقدير «أذم» و أحسن الوجوه أولها.

قوله تعالى: **{وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا}** أي مبسوطا كثيرا أو ممدودا بمدد النماء.

قوله تعالى: **{وَوَبَّيْنَهُ شُهُودًا}** أي حضورا يشاهدهم و يتأيد بهم، و هو عطف على قوله: **{مَالًا}**.

قوله تعالى: **{وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا}** التمهيد التهيئة و يتجوز به عن بسطة المال و الجاه و انتظام الأمور.

قوله تعالى: **{ثُمَّ يَظْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا}** أي ثم يطمع أن أزيد فيما جعلت له من المال و البنين و مهدت له من التمهيد.

و قوله: **{كَلَّا}** ردع له، و قوله: **{إِنَّهُ كَانَ}** إلخ تعليل المردع، و العنيد المعاند المباهي بما عنده، قيل، ما زال الوليد بعد نزول هذه الآية في نقصان من ماله و ولده حتى هلك.

قوله تعالى: **{سَاءَ رَهَقُهُ صَعُودًا}** الإرهاق الغشيان بالعنف، و الصعود عقبة الجبل التي يشق مصعدا شبه ما سيناله من سوء الجزاء و مر العذاب بغشيانه عقبة وعر صعبة الصعود.

قوله تعالى: **{إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ}** التفكير معروف، و التقدير عن تفكير نظم معان و أوصاف في الذهن بالتقديم و التأخير و الوضع و الرفع لاستنتاج غرض مطلوب، و قد كان الرجل يهوى أن يقول في أمر القرآن شيئا يبطل به

دعوته ويرضى به قومه المعاندين ففكر فيه أيقول: شعر أو كهانة أو هذرة جنون أو أسطورة فقدر أن يقول: سحر من كلام البشر لأنه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه.

وقوله: **{فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ}** دعا عليه على ما يعطيه السياق نظير قوله: **{قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}** التوبة ٣٠ .
وقوله: **{ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ}** تكرر للدعاء تأكيدا.

قوله تعالى: **{ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ}** تمثيل لحاله بعد التكفير والتقدير وهو من اللفظ التمثيل وأبلغه.

فقوله: **{ثُمَّ نَظَرَ}** أي ثم نظر بعد التفكير والتقدير نظرة من يريد أن يقضي في أمر سئل أن ينظر فيه - على ما يعطيه سياق التمثيل - .

وقوله: **{ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ}** العبوس تقطيب الوجه، قال في المجمع: وعبس يعبس عبوسا إذا قبض وجهه والعبوس والتكليح والتقطيب نظائر وضدها الطلاقة والبشاشة، وقال: والبسور بدء التكره في الوجه انتهى، فالمعنى ثم قبض وجهه وأبدا التكره في وجهه بعد ما نظر.

وقوله: **{ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ}** الإدبار عن شيء الإعراض عنه، والاستكبار الامتناع كبرا وعتوا، والأمران أعني الإدبار والاستكبار من الأحوال الروحية، وإنما رتبا في التمثيل على النظر والعبوس والبسور وهي أحوال صورية محسوسة لظهورهما بقوله: **{إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ}** إنخ، ولذا عطف قوله: **{فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ}** بالفاء دون **{ثُمَّ}**.

وقوله: **{فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ}** أي أظهر إدباره واستكباره بقوله مفرعا عليه: **{إِنْ هَذَا}** أي القرآن **{إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ}** أي يروي ويتعلم من السحرة.

وقوله: **{إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ}** أي ليس بكلام الله كما يدعيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

قيل: إن هذه الآية كالتأكيد للآية السابقة وإن اختلفتا معنى لأن المقصود منهما نفي كونه قرآنا من كلام الله، وباعتبار الاتحاد في المقصود لم تعطف الجملة على الجملة.

قوله تعالى: **{سَأُصَلِّيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ لَوْ أِحَ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}** أي سأدخله سقر وسقر من أسماء جهنم في القرآن أو دركة من دركاتهما، وجملة

{سَأْضَلِيهِ سَقْرٌ} بيان أو بدل من قوله: **{سَأْرُهْفُهُ صَعُودًا}**.

وقوله: **{وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقْرٌ}** تفخيم لأمرها و تهويل.

وقوله: **{لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ}** قضية إطلاق النفي أن يكون المراد أنها لا تبقي شيئا ممن نالته إلا أحرقتة، و لا تدع أحدا ممن ألقى فيها إلا نالته بخلاف نار الدنيا التي ربما تركت بعض ما ألقى فيها و لم تحرقه، و إذا نالت إنسانا مثلا نالت جسمه و صفاته الجسمية و لم تنل شيئا من روحه و صفاته الروحية، و أما سقر فلا تدع أحدا ممن ألقى فيها إلا نالته قال تعالى: **{تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى}** المعارج ١٧، و إذا نالته لم تبق منه شيئا من روح أو جسم إلا أحرقتة قال تعالى: **{نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ}** الهمزة ٧.

و يمكن أن يراد أنها لا تبقيهم أحياء و لا تتركهم يموتون فيكون في معنى قوله تعالى: **{الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}** الأعلى: ١٣.

وقيل: المعنى لا تبقي شيئا يلقي فيها إلا أهلكتة، و إذا هلك لم تذر هالكا حتى يعاد فيعذب ثانيا.

وقيل: المراد أنها لا تبقي لهم لحما و لا تذر عظما، و قيل غير ذلك.

قوله تعالى: **{لَوَاحِةٌ لِلْبَشَرِ}** اللواحة من التلويح بمعنى تغيير اللون إلى السواد و قيل: إلى الحمرة، و البشر جمع بشرة بمعنى ظاهر الجلد.

قوله تعالى: **{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}** يتولون أمر عذاب المجرمين و قد أبهم و لم يصرح أنهم من الملائكة أو غيرهم غير أن المستفاد من آيات القيامة و تصرح به الآية التالية أنهم من الملائكة.

و قد استظهر بعضهم أن مميز قوله: **{تِسْعَةَ عَشَرَ}** ملكا ثم قال: أ لا ترى العرب و هم الفصحاء كيف فهموا منه ذلك فقد روي عن ابن عباس: أنها لما نزلت **{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}** قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أ سمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزانة النار تسعة عشر و أنتم الدهم أ يعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأسد بن أسيد بن كعدة الجمحي و كان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين انتهى، و أنت ترى أن لا دليل في كلامه على ما يدعيه. على أنه سمي الواحد من الخزانة رجلا و لا يطلق الرجل على الملك البتة و لا سيما عند المشركين الذين قال تعالى فيهم:

{وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا} الزخرف: ١٩.

قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً} إلى آخر الآية. سياق الآية يشهد على أنهم تكلموا فيما ذكر في الآية من عدد خزان النار فنزلت هذه الآية، ويتأيد بذلك ما ورد من سبب النزول و سيوافيك في البحث الروائي التالي.

فقوله: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً} المراد بأصحاب النار خزنتها الموكلون عليها المتولون لتعذيب المجرمين فيها كما يفيد قوله: {عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ} ويشهد بذلك قوله بعد: {وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمُ إِلَّا فِتْنَةً} إلخ.

و محصل المعنى: أنا جعلناهم ملائكة يقدرون على ما أمروا به كما قال: {عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} التحريم ٥٦. فليسوا من البشر حتى يرجوا المجرمون أن يقاوموهم و يطيقوهم.

و قوله: {وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمُ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} الفتنة المحنة و الاختبار. ذكروا أن المراد بالجعل الجعل بحسب الإخبار دون الجعل بحسب التكوين فالمعنى و ما أخبرنا عن عدتهم أنها تسعة عشر إلا ليكون فتنة للذين كفروا، و يؤيده ذيل الكلام: {لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} إلخ.

و قوله: {لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} الاستيقان وجدان اليقين في النفس أي ليقن أهل الكتاب بأن القرآن النازل عليك حق حيث يجدون ما أخبرنا به من عدة أصحاب النار موافقا لما ذكر فيما عندهم من الكتاب. و قوله: {وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا} أي بسبب ما يجدون من تصديق أهل الكتاب ذلك.

و قوله: {وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} اللام في {لِيَقُولَ} للعاقبة بخلاف اللام في {لَيْسَتَيْنِ} فالتعليل بالغاية، و الفرق أن قولهم: {مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} تحقير و تهكم و هو كفر لا يعد غاية لفعله سبحانه إلا بالعرض بخلاف الاستيقان الذي هو من الإيمان، و لعل اختلاف المعنيين هو الموجب لإعادة اللام في قوله: {وَلِيَقُولَ}.

و قد فسروا {الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} بالشك و الجحود بالمنافقين و فسروا الكافرين

بالمظاهرين بالكفر من المشركين و غيرهم.

و قولهم: **{مَا ذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا}** أرادوا به التحقير و التهكم يشيرون بهذا - إلى قوله - تعالى: **{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}** و المثل الوصف، و المعنى ما الذي يعنيه من وصف الخزنة بأنهم تسعة عشر؟ فهذه العدة القليلة كيف تقوى على تعذيب أكثر الثقلين من الجن و الإنس.

ذنابة لما تقدم من الكلام في النفاق

ذكر بعضهم أن قوله تعالى: **{وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}** الآية بناء على أن السورة بتمامها مكية، و أن النفاق إنما حدث بالمدينة إخبار عما سيحدث من المغييات بعد الهجرة انتهى.

أما كون السورة بتمامها مكية فهو المتعين من طريق النقل و قد ادعي عليه إجماع المفسرين، و ما نقل عن مقاتل أن قوله: **{وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً}** الآية مدني لم يثبت من طريق النقل، و على فرض الثبوت هو قول نظري مبني على حدوث النفاق بالمدينة و الآية تخبر عنه.

و أما حديث حدوث النفاق بالمدينة فقد أصر عليه بعضهم محتجا عليه بأن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و المسلمين لم يكونوا قبل الهجرة من القوة و نفوذ الأمر و سعة الطول بحيث يهابهم الناس أو يرجى منهم خير حتى يتقوهم و يظهروا لهم الإيمان و يلحقوا بجمعهم مع إبطان الكفر و هذا بخلاف حالهم بالمدينة بعد الهجرة.

و المحجة غير تامة - كما أشرنا إليه في تفسير سورة المنافقون في كلام حول النفاق - فإن علل النفاق ليست تنحصر في المخافة و الاتقاء أو الاستدرار من خير معجل فن علله الطمع و لو في نفع مؤجل و منها العصبية و الحمية و منها استقرار العادة و منها غير ذلك.

و لا دليل على انتفاء جميع هذه العلال عن جميع من آمن بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بمكة قبل الهجرة و قد نقل عن بعضهم أنه آمن ثم رجع أو آمن عن ريب ثم صلح.

على أنه تعالى يقول: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي}**

صُدُورِ الْعَالَمِينَ وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ { العنكبوت: ١١ .

و الآيتان في سورة مكية و هي سورة العنكبوت، و هما ناطقتان بوجود النفاق فيها و مع الغض عن كون السورة مكية فاشتمال الآية على حديث الإيذاء في الله و الفتنة أصدق شاهد على نزول الآيتين بمكة فلم يكن بالمدينة إيذاء في الله و فتنة، و اشتمال الآية على قوله: **{وَلَيْنِ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ}** إخل لا يدل على النزول بالمدينة فلنصر مصاديق أخرى غير الفتح المعجل.

و احتمال أن يكون المراد بالفتنة ما وقعت بمكة بعد الهجرة غير ضائر فإن هؤلاء المفتونين بمكة بعد الهجرة إنما كانوا من الذين آمنوا بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قبل الهجرة و إن أودوا بعدها.

و على مثل ذلك ينبغي أن يحمل قوله تعالى: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ}** الحج: ١١ إن كان المراد بالفتنة العذاب و إن كانت السورة مدنية.

[بيان]

و قوله: **{كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}** الإشارة بذلك إلى مضمون قوله: **{وَ مَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً}** إخل.

و قوله: **{وَ مَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}** علق تعالى العلم المنفي بالجنود و هي الجموع الغليظة التي خلقهم و سائط لإجراء أوامره لا بخصوص عدتهم فأفاد بإطلاقه أن العلم بحقيقتهم و خصوصيات خلقهم و عدتهم و ما يعملونه من عمل و دقائق الحكمة في جميع ذلك يختص به تعالى لا يشاركه فيه أحد، فليس لأحد أن يستقل عدتهم أو يستكثر أو يطعن في شيء مما يرجع إلى صفاتهم و هو جاهل بها.

و قوله: **{وَ مَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ}** الضمير راجع إلى ما تقدم من قوله: **{عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ}** و تأنيثه لتأنيث الخبر، و المعنى أن البشر لا سبيل لهم إلى العلم بجنود ربك و إنما أخبرنا عن خزنة النار أن عدتهم تسعة عشر ليكون ذكرى لهم يتعظون بها.

و قيل: الضمير للجنود، و قيل: لسقر، و قيل: للسورة، و قيل: لنار الدنيا و هو

أسخف الأقوال.

وفي الآية دلالة على أن الخطابات القرآنية لعامة البشر.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{فَإِذَا نُفِرَ فِي النَّاقُورِ}** - إلى قوله - **{وَجِيداً}** فإنها نزلت في الوليد بن المغيرة و كان شيخا كبيرا مجربا من دهاة العرب، و كان من المستهزئين برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

و كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقعد في الحجر و يقرأ القرآن فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة فقالوا: يا أبا عبد شمس ما هذا الذي يقول محمد؟ أ شعر هو أم كهانة أم خطب؟ فقال دعوني أسمع كلامه فدنا من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا محمد أنشدني من شعرك قال: **ما هو شعر و لكنه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته و أنبيائه و رسله** فقال: اتل علي منه شيئا!

فقرأ عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حم السجدة فلما بلغ قوله: **{فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ}** قال: فاقشعر الوليد و قامت كل شعرة في رأسه و لحيته، و مر إلى بيته و لم يرجع إلى قريش من ذلك.

فمشوا إلى أبي جهل فقالوا: يا أبا الحكم إن أبا عبد شمس صبا إلى دين محمد أ ما تراه لم يرجع إلينا فغدا أبو جهل إلى الوليد فقال: يا عم نكست رءوسنا و فضحتنا و أشمت بنا عدونا و صبوت إلى دين محمد، فقال: ما صبوت إلى دينه و لكني سمعت كلاما صعبا تقشعر منه الجلود فقال له أبو جهل: أ خطب هو؟ قال: لا إن الخطب كلام متصل و هذا كلام منثور و لا يشبه بعضه بعضا. قال: أ فشعر هو؟ قال: لا أما إني لقد سمعت أشعار العرب بسيطة و مديدها و رملها و رجزها و ما هو بشعر. قال: فما هو؟ قال: دعني أفكر فيه.

فلما كان من الغد قالوا له: يا أبا عبد شمس ما تقول فيما قلناه؟ قال: قولوا: هو سحر فإنه آخذ بقلوب الناس فأنزل على رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك: **{ذَرْنِي وَ مَنْ خَلَقْتُ وَجِيداً}**.

و إنما سمي وحيدا لأنه قال لقريش: أنا أتوحد لكسوة البيت سنة و عليكم في جماعتكم

سنة، و كان له مال كثير و حقائق، و كان له عشر بنين بمكة، و كان له عشرة عبيد عند كل عبد ألف دينار يتجر بها - و تلك القنطار في ذلك الزمان، و يقال: إن القنطار جلد ثور مملوء ذهباً.

و في الدر المنثور، أخرج الحاكم و صححه و البيهقي في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجعلوا لك مالا ليعطوه لك فإنك أتيت محمدا لتصيب مما عنده. قال: قد علمت قريش أنني من أكثرها مالا.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك منكر أو إنك كاره له، قال: و ما ذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه و لا بقصيده و لا بأشعار الجن و الله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، و والله إن لقوله الذي يقوله حلاوة و إن عليه لطاوة، و إنه لمثمر أعلاه، و مغدق أسفله، و إنه ليعلو و لا يعلى، و إنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال: دعني حتى أفكر فلها فكر قال ما هو إلا سحر يؤثر يآثره عن غيره فنزلت: **{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}**.

و في المجمع، روى العياشي بإسناده عن زرارة و حمران و محمد بن مسلم عن أبي عبد الله و أبي جعفر (عليهما السلام) أن الوحيد ولد الزنا. قال زرارة: ذكر لأبي جعفر (عليه السلام) عن أحد بني هشام أنه قال في خطبته: أنا ابن الوحيد فقال: ويله لو علم ما الوحيد ما نخر بها فقلنا له، و ما هو؟ قال، من لا يعرف له أب.

و في الدر المنثور، أخرج أحمد و ابن المنذر و الترمذي و ابن أبي الدنيا في صفة النار و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن حبان و الحاكم و صححه و البيهقي في البعث عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قال: الصعود جبل في النار يصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوي و هو كذلك فيه أبداً.

و في تفسير القمي في قوله تعالى، **{ثُمَّ عَبَسَ}** قال، عبس وجهه **{وَبَسَرَ}** قال، ألقى شدة.

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٣٢ الى ٤٨]

{كَلَّا وَالْقَمَرَ ٣٢ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ٣٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ٣٤ إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبَرِ ٣٥ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ٣٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ٣٧ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينَةٌ ٣٨ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ٤٠ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ٤٤ وَكُنَّا نَحْوُضَ مَعَ الْخَائِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ٤٦ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ٤٧ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ٤٨}

(بيان)

في الآيات تنزيه للقرآن الكريم عما رموه به، وتسجيل أنه إحدى الآيات الإلهية الكبرى فيه إنذار البشر كافة وفي اتباعه فك نفوسهم عن رهانة أعمالهم التي تسوقهم إلى سقر.

قوله تعالى: {كَلَّا} ردع وإنكار لما تقدم قال في الكشف: إنكار بعد أن جعلها ذكرى أن يكون لهم ذكرى لأنهم لا يتذكرون، أو ردع لمن ينكر أن يكون إحدى الكبر نذيرا. انتهى. فعلى الأول إنكار لما تقدم وعلى الثاني ردع لما سيأتي، وهناك وجه آخر سيوافيك.

قوله تعالى: {وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ} قسم بعد قسم، وإدبار الليل مقابل إقباله، وإسفار الصبح انجلاؤه وانكشافه.

قوله تعالى: {إِنَّهَا لِإِحْدَى الْكُبَرِ} ذكروا أن الضمير لسقر، والكبر جمع كبري،

و المراد بكون سقر إحدى الكبر أنها إحدى الدواهي الكبر لا يعادها غيرها من الدواهي كما يقال: هو أحد الرجال أي لا نظير له بينهم، والجملة جواب للقسم.

و المعنى أقسم بكذا و كذا أن سقر لإحدى الدواهي الكبر أكبرها إنذارا للبشر.

و لا يبعد أن يكون **{كَلَّا}** ردعا لقوله في القرآن: **{إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ}** ويكون ضمير **{إِنَّهَا}** للقرآن بما أنه آيات أو من باب مطابقة اسم إن خبرها.

و المعنى: ليس كما قال أقسم بكذا و كذا أن القرآن آياته لإحدى الآيات الإلهية الكبرى إنذارا للبشر. و قيل: الجملة **{إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُتُبِ}** تعليل للردع، و القسم معترض للتأكيد لا جواب له أو جوابه مقدر يدل عليه كلا.

قوله تعالى: **{نَذِيرًا لِلْبَشَرِ}** مصدر بمعنى الإنذار منصوب للتمييز، و قيل: حال مما يفهم من سياق قوله: **{إِنَّهَا لِأَحَدَى الْكُتُبِ}** أي كبرت و عظمت حال كونها إنذارا أي منذرة.

و قيل فيه وجوه أخر لا يعبا بها كقول بعضهم: أنه صفة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و الآية متصلة بأول السورة و التقدير قم نذيرا للبشر فأندر، و قول بعضهم: صفة له تعالى.

قوله تعالى: **{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ}** تعميم للإنذار و **{لِمَنْ شَاءَ}** بدل من البشر، و **{أَنْ يَتَّقَدَّمَ}** إلخ مفعول **{شَاءَ}** و المراد بالتقدم و التأخر: الاتباع للحق و مصداقه الإيمان و الطاعة، و عدم الاتباع و مصداقه الكفر و المعصية.

و المعنى: نذيرا لمن اتبع منكم الحق و لمن لم يتبع أي لجميعكم من غير استثناء.

و قيل: **{أَنْ يَتَّقَدَّمَ}** في موضع الرفع على الابتداء و **{لِمَنْ شَاءَ}** خبره كقولك لمن توضحاً أن يصلي، و المعنى مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر أن يتقدم أو يتأخر، و هو كقوله. **{فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ}** و المراد بالتقدم و التأخر السبق إلى الخير و التخلف عنه انتهى.

قوله تعالى: **{كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ}** الباء بمعنى مع أو للسببية أو للمقابلة و **{رَهِينَةٌ}**

بمعنى الرهن على ما ذكره الزمخشري قال في الكشاف: رهينة ليست بتأنيث رهين في قوله: **{كُلُّ إِمْرِي بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}** لتأنيث النفس لأنه لو قصدت لقييل: رهين لأن فعلا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، وإنما هي اسم بمعنى الرهن كالثبيمة بمعنى الشتم كأنه قيل: كل نفس بما كسبت رهن. انتهى.

و كان العناية في عد كل نفس رهينة أن الله عليها حق العبودية بالإيمان والعمل الصالح فهي رهينة محفوظة محبوسة عند الله حتى توفي دينه وتؤدي حقه تعالى فإن آمنت و صلحت فكت وأطلقت، وإن كفرت وأجرت و ماتت على ذلك كانت رهينة محبوسة دائما، وهذا غير كونها رهين عملها ملازمة لما اكتسبت من خير و شر كما تقدم في قوله تعالى: **{كُلُّ إِمْرِي بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ}** الطور ٢١.

و الآية في مقام بيان وجه التعميم المستفاد من قوله: **{نَذِيرًا لِلْبَشَرِ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ}** فإن كون النفس الإنسانية رهينة بما كسبت يوجب على كل نفس أن تتقي النار التي ستحبس فيها إن أجرت و لم تتبع الحق.

قوله تعالى: **{إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ}** هم الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم يوم الحساب و هم أصحاب العقائد الحقة و الأعمال الصالحة من متوسطي المؤمنين، و قد تكرر ذكرهم و تسميتهم بأصحاب اليمين في مواضع من كلامه تعالى، و على هذا فالاستثناء متصل.

و المتحصل من مجموع المستثنى منه و المستثنى انقسام النفوس ذوات الكسب إلى نفوس رهينة بما كسبت و هي نفوس المجرمين، و نفوس مفكوكة من الرهن مطلقة و هي نفوس أصحاب اليمين، و أما السابقون المقربون و هم الذين ذكرهم الله في مواضع من كلامه و عددهم ثلاثة الطائفتين و غيرهما كما في قوله تعالى: **{وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً}** إلى أن قال **{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}** الواقعة: ١١، فهؤلاء قد استقروا في مستقر العبودية لا يملكون نفوسا و لا عمل نفس فنفسهم لله و كذلك أعمالهم فلا يحضرون و لا يحاسبون قال تعالى: **{فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عَبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ}** الصافات: ١٢٨، فهم خارجون عن المقسم رأسا.

و عن بعضهم تفسير أصحاب اليمين بالملائكة، و عن بعضهم التفسير بأطفال المسلمين و عن بعضهم أنهم الذين كانوا عن يمين آدم يوم الميثاق، و عن بعضهم أنهم الذين سبقت

لهم من الله الحسنى، وهي وجوه ضعيفة غير خفية الضعف.

قوله تعالى: **{ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ } { فِي جَنَّاتٍ }** خبر لمبتدأ محذوف و تنوين جنات للتعظيم، و التقدير هم في جنات لا يدرك وصفها، و يمكن أن يكون حالا من أصحاب اليمين.

و قوله: **{ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ }** أي يتساءل جمعهم عن جمع المجرمين.

و قوله: **{ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ }** أي ما أدخلكم في سقر بيان لتساؤلهم من بيان الجملة بالجملة، أو بتقدير القول أي قائلين ما سلككم في سقر.

قوله تعالى: **{ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ }** ضمير الجمع للمجرمين، و المراد بالصلاة التوجه العبادي الخاص إلى الله سبحانه فلا يضره اختلاف الصلاة كما و كيفا باختلاف الشرائع السماوية الحقة.

قوله تعالى: **{ وَ لَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمَسْكِينِ }** المراد بإطعام المسكين الإنفاق على فقراء المجتمع بما يقوم به صلهم و يرتفع به حاجتهم، و إطعام المسكين إشارة إلى حق الناس عملا كما أن الصلاة إشارة إلى حق الله كذلك.

قوله تعالى: **{ وَ كُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ }** المراد بالتحوض الاشتغال بالباطل قولاً أو فعلاً و الغور فيه.

قوله تعالى: **{ وَ كُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ }** و هو يوم الجزاء فهذه خصال أربع من طبع المجرم أن يبتلي بها كلا أو بعضاً، و لما كان الحبيب عن التساؤل جمع المجرمين صحت نسبة الجميع إلى الجميع و إن كان بعضهم مبتلى ببعضها دون بعض.

قوله تعالى: **{ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ }** قيد للتكذيب، و فسروا اليقين بالموت لكونه مما لا شك فيه فالمعنى و كما في الدنيا نكذب بيوم الجزاء حتى أتانا الموت فانقطعت به الحياة الدنيا أي كما نكذب به ما دامت الحياة.

و قيل: المراد به اليقين الحاصل بحقية يوم الجزاء بمشاهدة آيات الآخرة و معاينة الحياة البرزخية حين الموت و بعده، و هو معنى حسن.

قوله تعالى: **{ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ }** تقدم في بحث الشفاعة أن في الآية دلالة

على أن هناك شافعين يشفعون فيشفعون لكن لا تنفع هؤلاء شفاعتهم لأنهم محرومون من نيلها.
وقد أوردنا جملة من أخبار الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب.

[سورة المدثر (٧٤): الآيات ٤٩ الى ٥٦]

{فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى
صُحُفًا مُنشَرَّةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ أَلْ آخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ
أَهْلُ التَّقْوَى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾}

(بيان)

في معنى الاستنتاج مما تقدم من الوعيد والوعد أورد في صورة التعجب من إعراضهم عن تذكرة القرآن
وتفهمهم عن الحق الصريح كأنه قيل: فإذا كان كذلك فعليهم أن يجيئوا دعوة الحق ويتذكروا بالتذكرة فن العجب
أنهم معرضون عن ذلك كلا بل لا يؤمنون بالرسالة ويريد كل امرئ منهم أن ينزل عليه كتاب من الله. كلا بل
لا يخافون الآخرة فلا يرتدعون عن وعيد.

ثم يعرض عليهم التذكرة عرضاً فهم على خيرة من القبول والرد فإن شاءوا قبلوا وإن شاءوا ردوا، لكن
عليهم أن يعلموا أنهم غير مستقلين في مشيتهم وليسوا بمعجزين لله سبحانه فليس لهم أن يذكروا إلا أن يشاء الله،
وحكم القدر جار فيهم البتة.

قوله تعالى: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ} تفریع على ما تقدم من التذكرة و الموعظة، و الاستفهام
للتعجب، و {لَهُمْ} متعلق بمحذوف و التقدير فما كان لهم: و {مُعْرِضِينَ} حال من ضمير {لَهُمْ} و {عَنِ التَّذِكْرِ}
متعلق بمعرضين.

و المعنى: فإذا كان كذلك فأى شيء كان عرض للمشركين الذين يكذبون بتذكرة القرآن حال كونهم معرضين عنها أي كان من الواجب عليهم أن يصدقوا ويؤمنوا لكنهم أعرضوا عنها وهو من العجب.

قوله تعالى: **{كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}** تشبيه لهم من حيث حالهم في الإعراض عن التذكرة، والحمير جمع حمار، والمراد الحمير الوحشية والاستنفار بمعنى النفرة والقسورة الأسد والصائد، وقد فسر بكل من المعنيين.

و المعنى: معرضين عن التذكرة كأنهم حمير وحشية نفرت من أسد أو من الصائد.

قوله تعالى: **{بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَّةً}** المراد بالصحف المنشرة الكتاب السماوي المشتمل على الدعوة الحقة.

وفي الكلام إضراب عما ذكر من إعراضهم، والمعنى ليس إعراضهم عن التذكرة لمجرد النفرة بل يريد كل امرئ منهم أن ينزل عليه كتاب من عند الله مشتمل على ما تشتمل عليه دعوة القرآن.

وهذه النسبة إليهم كناية عن استكبارهم على الله سبحانه أنهم إنما يقبلون دعوته ولا يردونها لو دعا كل واحد منهم بإنزال كتاب سماوي إليه مستقلا وأما الدعوة من طريق الرسالة فليسوا يستجيبونها وإن كانت حقة مؤيدة بالآيات البينة.

فالآية في معنى ما حكاه الله سبحانه من قولهم: **{لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ}** الأنعام ١٢٤، وفي معنى قول الأمم لرسولهم: **{إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا}** على ما قررنا من حجتهم على نفي رسالة الرسل.

وقيل: إن الآية في معنى قولهم للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي حكاه الله في قوله: **{وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ}** إسرائ ٩٣.

ويدفعه أن مدلول الآية أن ينزل على كل واحد منهم صحف منشرة غير ما ينزل على غيره لا نزول كتاب واحد من السماء على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقرؤه الجميع كما هو مدلول آية الإسرائ.

وقيل: المراد نزول كتب من السماء عليهم بأسمائهم أن آمنوا بحمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

وقيل: المراد أن ينزل عليهم كتب من السماء بالبراءة من العذاب وإسباغ النعمة حتى

يؤمنوا وإلا بقوا على كفرهم وقيل غير ذلك.

وهي جميعا معان بعيدة من السياق والتعويل على ما تقدم.

قوله تعالى: **{كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ أَلْ آخِرَةَ}** ردع لهم بما يريدونه من نزول كتاب سماوي على كل واحد منهم فإن دعوة الرسالة مؤيدة بآيات بينة و حجج قاطعة لا تدع ريبا لمرتاب فالحجة تامة قائمة على الرسول و غيره على حد سواء من غير حاجة إلى أن يؤتى كل واحد من الناس المدعويين صحفا منشرة.

على أن الرسالة تحتاج من طهارة الذات و صلاحية النفس إلى ما يفقده نفوس سائر الناس كما هو مدلول جوابه تعالى في سورة الأنعام عن قولهم: **{لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ}** بقوله: **{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}**.

و قوله: **{بَلْ لَا يَخَافُونَ أَلْ آخِرَةَ}** إضراب عن قوله: **{يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ}** إلخ، و المراد أن اقتراحهم نزول كتاب على كل امرئ منهم قول ظاهري منهم يريدون به صرف الدعوة عن أنفسهم، و السبب الحقيقي لكفرهم و تكذيبهم بالدعوة أنهم لا يخافون الآخرة، و لو خافوها لآمنوا و لم يقترحوا آية بعد قيام الحججة بظهور الآيات البينات.

قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ}** ردع ثان لاقتراحهم نزول كتاب سماوي لكل امرئ منهم، و المعنى لا تنزل كتابا كذلك أن القرآن تذكرة و موعظة نعظهم به لا نزيد به أزيد من ذلك، و أثر ذلك ما أعد للمطيع و العاصي عندنا من الجزاء.

قوله تعالى: **{فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ}** أي فمن شاء اتعظ به فإنما هي دعوة في ظرف الاختيار من غير إكراه.

قوله تعالى: **{وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ}** دفع لما يمكن أن يتوهموه من قوله تعالى: **{فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ}** أن الأمر إليهم و أنهم مستقلون في إرادتهم و ما يترتب عليها من أفعالهم فإن لم يشاءوا الذكر و لم يذكروا غلبوه تعالى فيما أراد و أعجزوه فيما شاء من ذكرهم.

و المحصل من الدفع أن حكم القدر جاء في أفعالهم كغيرها من الحوادث، و تذكرهم إن تذكروا و إن كان فعلا اختياريا صادرا عنهم باختيارهم من غير إكراه فالمشية الإلهية متعلقة به بما هو اختياري بمعنى أن الله تعالى يريد بإرادة تكوينية أن يفعل الإنسان

الفعل الفلاني بإرادته و اختياره فالفعل اختياري ممكن بالنسبة إلى الإنسان و هو بعينه متعلق الإرادة الإلهية ضروري التحقق بالنسبة إليها و لولاها لم يتحقق.

و قوله: **{هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ}** أي أهل لأن يتقى منه لأن له الولاية المطلقة على كل شيء، و بيده سعادة الإنسان و شقاوته، و أهل لأن يغفر لمن اتقاه لأنه غفور رحيم.

و الجملة أعني قوله: **{هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ}** صالحة لتعليل ما تقدم من الدعوة في قوله: **{لِنَّهُ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ}** و هو ظاهر، و لتعليل قوله: **{وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}** فإن كونه تعالى أهل التقوى و أهل المغفرة لا يتم إلا بكونه ذا إرادة نافذة فيهم سارية في أعمالهم فليسوا بخليين و ما يهوونه و هم معجزون لله بتردهم و استكبارهم.

بحث روائي

في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى: **{بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً}** و ذلك أنهم قالوا: يا محمد قد بلغنا أن الرجل من بني إسرائيل كان يذنب الذنب فيصبح و ذنبه مكتوب عند رأسه و كفارته.

فنزل جبرئيل على رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و قال: يسألك قومك سنة بني إسرائيل في الذنوب فإن شاءوا فعلنا ذلك بهم و أخذناهم بما كفا نأخذ بني إسرائيل فزعموا أن رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) كره ذلك لقومه.

أقول: و القصة لا تلائم لحن الآية و الرواية لا تخلو من إيماء إلى ضعف القصة.

و في الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن السدي عن أبي صالح قال: قالوا: إن كان محمد (صلى الله عليه وآله و سلم) ادقا فليصبح تحت رأس كل رجل منا صحيفة فيها براءته و أمنته من النار فنزلت: **{بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً}**.

أقول: سياق الآيات و ما فيها من الردع لا يلائم القصة.

و فيه، أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن مجاهد **{بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً}** قال: إلى فلان بن فلان من رب العالمين يصبح عند رأس كل رجل صحيفة موضوعة يقرأها.

أقول: ما في الرواية يقبل الانطباق على الرواية السابقة و على ما قدمناه من معنى الآية.

وفيه، أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن قتادة في قوله تعالى: **{بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً}** قال: قد قال قائلون من الناس لمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) إن شرك أن نتابعك فأتنا بكتاب خاصة يأمرنا بتابعك.

أقول: الرواية قابلة التطبيق لما في تفسير الآية من القول بأن الآية في معنى قوله تعالى: **{وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْبِكَ}** الآية و قد تقدم ما فيه.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ}** قال: هو أهل أن يتقى و أهل أن يغفر.

و في التوحيد، بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز و جل: **{هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ}** قال: قال الله عز و جل: أنا أهل أن أتقى و لا يشرك بي عبدي شيئاً و أنا أهل إن لم يشرك بي عبدي شيئاً أن أدخله الجنة.

و قال: إن الله تبارك و تعالى أقسم بعزته و جلاله أن لا يعذب أهل توحيده بالنار.

و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن دينار قال: سمعت أبا هريرة و ابن عمر و ابن عباس يقولون: سئل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عن قول الله: **{هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَ أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ}** قال: يقول الله: أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي شريك فإذا اتقيت و لم يجعل معي شريك فأنا أهل أن أغفر ما سوى ذلك. أقول: و في معناه غير واحد من الروايات عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

(٧٥) سورة القيامة مكية و هي أربعون آية (٤٠)

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ١ الى ١٥]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا أُفْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَ لَا أُفْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۝٥ يَسْئَلُ

أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ٦ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصْرُ ٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ٩ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ١٢ يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ١٥

(بيان)

يطوف بيان السورة حول القيامة الكبرى فتنبيء بوقوع يوم القيامة أولاً ثم تصفه ببعض أشراته تارة، و بإجمال ما يجري على الإنسان أخرى، و ينبئ أن المساق إليه يبدأ من يوم الموت، و تحتتم بالاحتجاج على القدرة على الإعادة بالقدرة على الابتداء.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: **{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ}** إقسام بيوم القيامة سواء قيل بكون **{لَا أُقْسِمُ}** كلمة قسم أو بكون لا زائدة أو نافية على اختلاف الأقوال.

قوله تعالى: **{وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}** إقسام ثان على ما يقتضيه السياق و مشاكلة اللفظ فلا يعبأ بما قيل: إنه نفي الأقسام و ليس بقسم، و المراد أقسم بيوم القيامة و لا أقسم بالنفس اللوامة. و المراد بالنفس اللوامة نفس المؤمن التي تلومه في الدنيا على المعصية و الثاقل في الطاعة و تنفعه يوم القيامة.

و قيل: المراد به النفس الإنسانية أعم من المؤمنة الصالحة و الكافرة الفاجرة فإنها تلوم الإنسان يوم القيامة أما الكافرة فإنها تلومه على كفره و فجوره، و أما المؤمنة فإنها تلومه على قلة الطاعة و عدم الاستكثار من الخير.

و قيل. المراد نفس الكافر الذي تلومه يوم القيامة على ما قدمت من كفر و معصية قال تعالى: **{وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ}** يونس ٥٤.

و لكل من الأقوال وجه.

و جواب القسم محذوف يدل عليه الآيات التالية، و التقدير ليعثن، و إنما حذف للدلالة على تفخيم اليوم و عظمة أمره قال تعالى: **{ثَقُلْتُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً}** الأعراف ١٨٧ و قال: **{إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ}** طه ١٥ و قال: **{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ}** النبأ: ١.

قوله تعالى: **{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعِ عِظَامَهُ}** الحسبان الظن، و جمع العظام كناية عن الإحياء بعد الموت، و الاستفهام للتوبيخ، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ}** أي بلى نجعلها و **{قَادِرِينَ}** حال من فاعل مدخول بلى المقدر، و البنان أطراف الأصابع و قيل: الأصابع و تسوية البنان تصويرها على ما هي عليها من الصور، و المعنى بلى نجعلها و الحال أنا قادرون على أن نصور بنانه على صورها التي هي عليها بحسب خلقنا الأول.

و تخصيص البنان بالذكر - لعله - للإشارة إلى عجب خلقها بما لها من الصور و خصوصيات التركيب و العدد تترتب عليها فوائد جملة لا تكاد تحصى من أنواع القبض و البسط و الأخذ و الرد و سائر الحركات اللطيفة و الأعمال الدقيقة و الصنائع الظريفة التي يمتاز بها الإنسان من سائر الحيوان مضافا إلى ما عليها من الهيئات و الخطوط التي لا يزال ينكشف للإنسان منها سر بعد سر.

و قيل: المراد بتسوية البنان جعل أصابع اليدين و الرجلين مستوية شيئا واحدا من غير تفريق تكحف البعير و حافر الحمار، و المعنى قادرين على أن نجعلها شيئا واحدا فلا يقدر الإنسان حينئذ على ما يقدر عليه مع تعدد الأصابع من فنون الأعمال، و الوجه المتقدم أرجح.

قوله تعالى: **{بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ}** قال الراغب: الفجر شق الشيء شقا واسعا. قال: و الفجور شق ستر الديانة يقال: فجر فجورا فهو فاجر و جمعه فجار و فجرة. انتهى، و أمام ظرف مكان أستعير لمستقبل الزمان، و المراد من فجوره أمامه فجوره مدى عمره و ما دام حيا، و ضمير **{أَمَامَهُ}** للإنسان.

و قوله: **{لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ}** تعليل ساد مسد معله و هو التكذيب بالبعث و الإحياء بعد الموت، و **{بَلْ}** إضراب عن حسبانته عدم البعث و الإحياء بعد الموت.

و المعنى: أنه لا يحسب أن لن نجمع عظامه بل يريد أن يكذب بالبعث ليفجر مدى عمره إذ لا موجب للإيمان و التقوى لو لم يكن هناك بعث للحساب و الجزاء.

هذا ما يعطيه السياق في معنى الآية، و لهم وجوه أخر ذكروها في معنى الآية بعيدة لا تلائم السياق أغمضنا عن ذكرها.

و ذكر الإنسان في الآية من وضع الظاهر موضع الضمير و النكتة فيه زيادة التوبيخ و المبالغة في التقرير، و قد كرر ذلك في الآية و ما يتلوها من الآيات أربع مرات.

قوله تعالى: **{يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** الظاهر أنه بيان لقوله: **{بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ}** فيفيد التعليل و أن السائل في مقام التكذيب و السؤال سؤال تكذيب إذ من الواجب على من دعي إلى الإيمان و التقوى، و أندر بهذا النبا العظيم مع دلالة الآيات البينة و قيام الحجج القاطعة أن يتخذ حذره و يتجهز بالإيمان و التقوى و يتهبأ للقاء اليوم قريبا كان أو بعيدا فكل ما هو آت قريب لا أن يسأل متى تقوم الساعة؟ و أيان يوم القيامة؟ فليس إلا سؤال مكذب مستهزئ.

قوله تعالى: **{فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَ خَسَفَ الْقَمَرُ وَ جُمِعَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ}** ذكر جملة من أشرط الساعة، و بريق البصر تحيره في إبطاره و دهشته، و خسوف القمر زوال نوره.

قوله تعالى: **{يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيِنَّ الْمَقَرِّ}** أي أين موضع الفرار، و قوله: **{أَيِنَّ الْمَقَرِّ}** مع ظهور السلطنة الإلهية له و علمه بأن لا مفر و لا فرار يومئذ من باب ظهور ملكاته يومئذ فقد كان في الدنيا يسأل عن المفر إذا وقع في شدة أو هددته مهلكة و ذلك كإنكارهم الشرك يومئذ و حلفهم كذبا قال تعالى: **{ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَ اللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}** الأنعام: ٢٣، و قال: **{يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ}** {المجادلة: ١٨}.

قوله تعالى: **{كَلَّا لَا وَزَرَ}** ردع عن طلبهم المفر، و الوزر الملجأ من جبل أو حصن أو غيرهما، و هو من كلامه تعالى لا من تمام كلام الإنسان.

قوله تعالى: **{إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ}** انخراط للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ، و تقديم **{إِلَى رَبِّكَ}** و هو متعلق بقوله: **{الْمُسْتَقَرُّ}** يفيد الحصر فلا مستقر إلى غيره فلا وزر و لا ملجأ يلتجأ إليه فيمنع عنه.

وذلك أن الإنسان سائر إليه تعالى كما قال: **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}** الانشقاق: ٦ وقال: **{إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ}** العلق: ٨ وقال: **{وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ}** النجم: ٤٢، فهو ملاقي ربه راجع ومنتته إليه لا حاجب يحجبه عنه ولا مانع يمنعه منه وأما الحجاب الذي يشير إليه قوله: **{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَّحُجُوبُونَ}** المطففين: ١٥ فسياق الآيتين يعطي أن المراد به حجاب الحرمان من الكرامة لا حجاب الجهل أو الغيبة.

ويمكن أن يكون المراد بكون مستقره إليه رجوع أمر ما يستقر فيه من سعادة أو شقاوة وجنة أو نار إلى مشيته تعالى فمن شاء جعله في الجنة وهم المتقون ومن شاء جعله في النار وهم المجرمون قال تعالى: **{يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ}** المائدة: ٤٠.

ويمكن أن يراد به أن استقرارهم يومئذ إلى حكمه تعالى فهو النافذ فيهم لا غير قال تعالى: **{كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** القصص: ٨٨.

قوله تعالى: **{يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ يَوْمِئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ}** المراد بما قدم و أخر ما عمله من حسنة أو سيئة في أول عمره و آخره أو ما قدمه على موته من حسنة أو سيئة و ما أخر من سنة حسنة سنه أو سنة سيئة فيثاب بالحسنات ويعاقب على السيئات.

وقيل: المراد بما قدم ما عمله من حسنة أو سيئة فيثاب على الأول ويعاقب على الثاني، و بما أخر ما تركه من حسنة أو سيئة فيعاقب على الأول و يثاب على الثاني، وقيل، المراد ما قدم من المعاصي و ما أخر من الطاعات، وقيل، ما قدم من طاعة الله و أخر من حقه فضيعه، وقيل: ما قدم من ماله لنفسه و ما ترك لورثته و هي وجوه ضعيفة بعيدة عن الفهم.

قوله تعالى: **{بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ}** إضراب عن قوله، **{يُنَبِّئُوا الْإِنْسَانَ}** إنح، و البصيرة رؤية القلب و الإدراك الباطني و إطلاقها على الإنسان من باب زيد عدل أو التقدير الإنسان ذو بصيرة على نفسه.

وقيل: المراد بالبصيرة الحجة كما في قوله تعالى، **{مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَايِرٍ}** إسراء، ١٠٢ و الإنسان نفسه حجة على نفسه يومئذ حيث يسأل عن سمعه و بصره و فؤاده و يشهد عليه سمعه و بصره و جلده و يتكلم يده و رجلاه، قال تعالى:

{إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} إسرء ٣٦، و قال {شَهِدَ عَلَيْهِم سَمْعُهُمْ وَ أَبْصَارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ} حم السجدة، ٢٠. و قال، {وَ تَكَلَّمْنَا أَيْدِيَهُمْ وَ نَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ} يس: ٦٥.

و قوله: {وَ لَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ} المعاذير جمع معذرة و هي ذكر موانع تقطع عن الفعل المطلوب، و المعنى هو ذو بصيرة على نفسه و لو جادل عن نفسه و اعتذر بالمعاذير لصرف العذاب عنها.

و قيل: المعاذير جمع معذار و هو الستر، و المعنى و إن أرخى الستور ليخفي ما عمل فإن نفسه شاهدة عليه و مآل الوجهين واحد.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: {وَ لَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} قال: نفس آدم التي عصت فلامها الله عز و جل.

أقول: و في انطباقها على الآية خفاء.

و فيه في قوله: {بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} قال: يقدم الذنب و يؤخر التوبة و يقول: سوف أتوب.

و فيه في قوله: {فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ} قال: يبرق البصر فلا يقدر أن يطرف.

و فيه في قوله تعالى: {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَ لَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ} قال: يعلم ما صنع و إن اعتذر.

و في الكافي، بإسناده عن عمر بن يزيد قال: إني لأتعشى مع أبي عبد الله (عليه السلام) و تلا هذه الآية

{بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَ لَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرُهُ}، ثم قال: يا أبا حفص ما يصنع الإنسان أن يعتذر إلى الناس بخلاف ما يعلم الله منه؟ إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقول: من أسر سريرة ألبسه الله رداها إن خيرا نخير و إن شرا فشر.

و في المجمع، و روى العياشي بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: ما يصنع

أحدكم أن يظهر حسنا و يستر سيئا؟ أ ليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنه

ليس كذلك؟ و الله سبحانه يقول: {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} إن السريرة إذا صلحت قويت العلانية.

أقول: و رواه في أصول الكافي، بإسناده عن فضل أبي العباس عنه (عليه السلام).

وفيه، عن العياشي عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) ما حد المرض الذي يفطر صاحبه؟

قال، {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} هو أعلم بما يطيق.

أقول: و رواه في الفقيه، أيضا.

[سورة القيامة (٧٥): الآيات ١٦ الى ٤٠]

{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ١٧ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ١٩ كَلَّا
بَلْ تُحِيبُونَ الْعَاجِلَةَ ٢٠ وَتَذَرُونَ آلَ آخِرَةٍ ٢١ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ٢٤ تَظُنُّ أَنْ
يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ٢٥ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ٢٨ وَالْتَقَّتِ السَّمَاءُ بِالسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ
يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ٣٠ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَ لَكِنَّ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ٣٤ ثُمَّ
أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ٣٥ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْفَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨
فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ٣٩ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ٤٠}

(بيان)

تمة صفة يوم القيامة باعتبار حال الناس فيه و انقسامهم إلى طائفة ناضرة الوجوه مبتهجين و أخرى باسرة الوجوه عابسين آيسين من النجاة، و الإشارة إلى أن هذا المساق تبتدئ من حين نزول الموت ثم الإشارة إلى أن الإنسان لا يترك سدى فالذي خلقه أولا قادر على أن يحييه ثانيا و به تختتم السورة.

قوله تعالى: **{لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}** - إلى قوله - **{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}** الذي يعطيه سياق الآيات الأربع بما يحفها من الآيات المتقدمة و المتأخرة الواصفة ليوم القيامة أنها معترضة متضمن أدبا إلهيا كلف النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يتأدب به حينما يتلقى ما يوحى إليه من القرآن الكريم فلا يبادر إلى قراءة ما لم يقرأ بعد و لا يحرك به لسانه و ينصت حتى يتم الوحي.

فالآيات الأربع في معنى قوله تعالى: **{وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ}** طه: ١١٤.

فالكلام في هذه الآيات يجري مجرى قول المتكلم منا أثناء حديثه لمخاطبه إذا بادر إلى تتميم بعض كلام المتكلم باللفظة و اللفظتين قبل أن يلفظ بها المتكلم و ذلك يشغله عن التجرد للانصات فيقطع المتكلم حديثه و يعترض و يقول لا تعجل بكلامي و أنصت لتفقه ما أقول لك ثم يمضي في حديثه.

فقوله: **{لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ}** الخطاب فيه للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، و الضميران للقرآن الذي يوحى إليه أو للوحي، و المعنى لا تحرك بالوحي لسانك لتأخذه عاجلا فتسبقنا إلى قراءة ما لم نقرأ بعد فهو كما مر في معنى قوله: **{وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ}** طه: ١١٤.

و قوله: **{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}** القرآن هاهنا مصدر كالفرقان و الرحان، و الضميران للوحي، و المعنى لا تعجل به إذ علينا أن نجتمع ما نوحيه إليك بضم بعض أجزائه إلى بعض و قراءته عليك فلا يفوتنا شيء منه حتى يحتاج إلى أن تسبقنا إلى قراءة ما لم نوحه بعد.

وقيل: المعنى إن علينا أن نجمعه في صدرك بحيث لا يذهب عليك شيء من معانيه وأن نثبت قراءته في لسانك بحيث تقرأه متى شئت ولا يخلو من بعد.

وقوله: **{فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}** أي فإذا أتممنا قراءته عليك وحيًا فاتبع قراءتنا له وقرأ بعد تمامها.

وقيل: المراد باتباع قرآنه اتباعه ذهنًا بالإنصات والتوجه التام إليه وهو معنى لا بأس به.

وقيل: المراد فاتبع في الأوامر والنواهي قرآنه، وقيل: المراد اتباع قراءته بالتكرار حتى يرسخ في الذهن و هما معنيان بعيدان.

وقوله: **{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}** أي علينا إيضاحه عليك بعد ما كان علينا جمعه وقرآنه فثم للتأخير الرتبي لأن البيان مترتب على الجمع والقراءة رتبة.

وقيل، المعنى ثم إن علينا بيانه للناس بلسانك نحفظه في ذهنك عن التغير والزوال حتى تقرأه على الناس.

وقال بعضهم في معنى هذه الآيات إن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يحرك لسانه عند الوحي بما ألقى إليه من القرآن مخافة أن ينساه فنهى عن ذلك بالآيات وأمر بالإنصات حتى يتم الوحي فضمير **{لَا تُحْرِكْ بِهِ}** للقرآن أو الوحي باعتبار ما قرأ عليه منه لا باعتبار ما لم يقرأ بعد.

وفيه أنه لا يلائم سياق الآيات، تلك الملاءمة نظراً إلى ما فيها من النهي عن العجل والأمر باتباع قرآنه تعالى بعد ما قرأ، وكذا قوله، **{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}** فذلك كله أظهر فيما تقدم منها في هذا المعنى.

وعن بعضهم في معنى هذه الآيات، الذي اختاره أنه لم يرد القرآن، وإنما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة يدل على ذلك ما قبله وما بعده، وليس فيه شيء يدل على أنه القرآن ولا شيء من أحكام الدنيا.

وفي ذلك تبرير وتوبيخ له حين لا تنفعه العجلة يقول: لا تحرك لسانك بما تقرأه من صحيفتك التي فيها أعمالك يعني اقرأ كتابك ولا تعجل فإن هذا الذي هو على نفسه بصيرة إذا رأى سيئاته ضجر واستعجل فيقال له تويخاً: لا تعجل و تثبت لتعلم الحجة عليك

فإننا نجعلها لك فإذا جمعناه فاتبع ما جمع عليك بالانقياد لحكمه و الاستسلام للتبعة فيه فإنه لا يمكنك إنكاره ثم إن علينا بيانه لو أنكرت. انتهى.

و يدفعه أن المعترضة لا تحتاج في تمام معناها إلى دلالة مما قبلها و ما بعدها عليه على أن مشاكلة قوله: **{وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ}** في سياقه لهذه الآيات تؤيد مشاكلتها له في المعنى.

و عن بعضهم أن الآيات الأربع متصلة بما تقدم من حديث يوم القيامة، و خطاب **{لَا تَحْرِكْ}** للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ، و ضمير **{بِهِ}** ليوم القيامة، و المعنى لا تتفوه بالسؤال عن وقت القيامة أصلا و لو كنت غير مكذب و لا مستهزئ **{لِتَعْجَلْ بِهِ}** أي بالعلم به **{إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}** أي من الواجب في الحكمة أن نجعل من نجمعه فيه و نوحى شرح وصفه إليك في القرآن **{فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}** أي إذا قرأنا ما يتعلق به فاتبع ذلك بالعمل بما يقتضيه من الاستعداد له **{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}** أي إظهار ذلك بالنفخ في الصور انتهى ملخصا و هو كما ترى.

و قد تقدم في تفسير قوله: **{وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ}** إن هذا النهي عن العجل بالقرآن يؤيد ما ورد في الروايات أن للقرآن نزولا على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) دفعة غير نزوله تدريجا.

قوله تعالى: **{كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَ تَذَرُونَ الْآخِرَةَ}** خطاب للناس و ليس من تعميم الخطاب السابق في شيء لأن خطاب **{لَا تَحْرِكْ}** اعتراضى غير مرتبط بشيء من طرفيه.

و قوله: **{كَلَّا}** ردع عن قوله السابق: **{يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ}** و قوله: **{بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ}** - أي الحياة العاجلة و هي الحياة الدنيا - **{وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ}** أي تتركون الحياة الآخرة، و ما في الكلام من الإضراب إضراب عن حسابان عدم الإحياء بعد الموت نظير الإضراب في قوله: **{بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ}**.

قوله تعالى: **{وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ}** وصف ليوم القيامة بانقسام الوجوه فيه إلى قسمين: ناضرة و باسرة، و نضرة الوجه و اللون و الشجر و نحوها و نضارتها حسنها و بهجتها.

و المعنى: نظرا إلى ما يقابله من قوله: **{وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ}** إنح وجوه يوم إذ تقوم القيامة حسنة متهللة ظاهرة المسرة و البشاشة قال تعالى: **{تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ}**

النَّعِيمِ {المطففين: ٢٤}، وقال: **{وَلَقَاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا}** الدهر: ١١.

وقوله: **{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** خبر بعد خبر لوجوه، و **{إِلَى رَبِّهَا}** متعلق بناظرة قدم عليها لإفادة الحصر أو الأهمية.

والمراد بالنظر إليه تعالى ليس هو النظر الحسي المتعلق بالعين الجسمانية المادية التي قامت البراهين القاطعة على استحالته في حقه تعالى بل المراد النظر القلبي ورؤية القلب بحقيقة الإيمان على ما يسوق إليه البرهان ويدل عليه الأخبار المأثورة عن أهل العصمة (عليه السلام) وقد أوردنا شطرا منها في ذيل تفسير قوله تعالى: **{قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ}** الأعراف: ١٤٣، وقوله تعالى: **{مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}** النجم: ١١.

فهؤلاء قلوبهم متوجهة إلى ربهم لا يشغلهم عنه سبحانه شاغل من الأسباب لتقطع الأسباب يومئذ، و لا يقفون موقفا من مواقف اليوم و لا يقطعون مرحلة من مراحلها إلا و الرحمة الإلهية شاملة لهم **{وَهُمْ مِنْ فَرَجِ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ}** النمل: ٨٩ و لا يشهدون مشهدا من مشاهد الجنة و لا يتمتعون بشيء من نعيمها إلا و هم يشاهدون ربهم به لأنهم لا ينظرون إلى شيء و لا يرون شيئا إلا من حيث إنه آية لله سبحانه و النظر إلى الآية من حيث إنها آية و رؤيتها نظر إلى ذي الآية و رؤية له.

و من هنا يظهر الجواب عما أورد على القول بأن تقديم **{إِلَى رَبِّهَا}** على **{نَاظِرَةٌ}** يفيد الحصر و الاختصاص، إن من الضروري أنهم ينظرون إلى غيره تعالى كنعم الجنة.

و الجواب أ لما لم يجربوا عن ربهم كان نظرهم إلى كل ما ينظرون إليه إنما هو بما أنه آية، و الآية بما أنها آية لا تحجب ذا الآية و لا تحول بينه و بين الناظر إليه فالنظر إلى الآية نظر إلى ذي الآية فهؤلاء لا ينظرون في الحقيقة إلا إلى ربهم.

و أما ما أجيب به عنه أن تقديم **{إِلَى رَبِّهَا}** لرعاية الفواصل و لو سلم أنه للاختصاص فالنظر إلى غيره في جنب النظر إليه لا يعد نظرا، و لو سلم فالنظر إليه تعالى في بعض الأحوال لا في جميعها.

فلا يخلو من تكلف التقييد من غير مقيد على أنه أسند النظر إلى الوجوه لا إلى العيون أو الأبصار و وجوه أهل الجنة إلى ربهم دائما من غير أن يواجهوا بها غيره.

قوله تعالى: **{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ}** فسر البسور بشدة

العبوس و الظن بالعلم و **{فَاقِرَةٌ}** صفة محذوفة الموصوف أي فعله فاقرة، و الفاقرة من فقره إذا أصاب فقار ظهره، و قيل: من فقرت البعير إذا وسمت أنفه بالنار.

و المعنى: و وجوه يومئذ شديدة العبوس تعلم أنه يفعل بها فعلة تقصم ظهورها أو تسم أنوفها بالنار، و احتمال أن يكون تظن خطابا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بما أنه سامع و الظن بمعناه المعروف.

قوله تعالى: **{كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ}** ردع عن حبهيم العاجلة و إثارتها على الآخرة كأنه قيل: ارتدعوا عن ذلك فليس يدوم عليكم و سينزل عليكم الموت فتساقون إلى ربكم و فاعل **{بَلَغَتِ}** محذوف يدل عليه السياق كما في قوله تعالى: **{فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ}** الواقعة: ٨٣ و التقدير إذا بلغت النفس التراقي.

و التراقي العظام المكتنفة للنحر عن يمين و شمال جمع ترقوة، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{وَوَقِيلَ مَنْ رَاقٍ}** اسم فاعل من الرقى أي قال من حضره من أهله و أصدقائه من يرقيه و يشفيه؟ كلمة يأس، و قيل: المعنى قال بعض الملائكة لبعض: من يرقى بروحه من الملائكة أ ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ قوله تعالى: **{وَوَظَنَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ}** أي و علم الإنسان المحتضر من مشاهدة هذه الأحوال أنه مفارقتها للعاجلة التي كان يحبها و يؤثرها على الآخرة.

قوله تعالى: **{وَوَالْتَقَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ}** ظاهره أن المراد به التفاف ساق المحتضر بساقه ببطلان الحياة السارية في أطراف البدن عند بلوغ الروح التراقي.

و قيل: المراد به التفاف شدة أمر الآخرة بأمر الدنيا، و قيل: التفاف حال الموت بحال الحياة، و قيل: التفاف ساق الدنيا و هي شدة كرب الموت بساق الآخرة و هي شدة هول المطلع.

و لا دليل من جهة اللفظ على شيء من هذه المعاني نعم من الممكن أن يقال: إن المراد بالتفاف الساق بالساق غشيان الشدائد و تعاقبها عليه واحدة بعد أخرى من حينه ذلك إلى يوم القيامة فينطبق على كل من المعاني.

قوله تعالى: **{إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ}** المساق مصدر ميمي بمعنى السوق، و المراد بكون السوق يومئذ إليه تعالى أنه الرجوع إليه، و عبر بالمساق للإشارة إلى أن لا خيرة للإنسان في هذا المسير و لا مناص له عنه فهو مسوق مسير من يوم موته و هو قوله، **{إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ}** حتى يرد على ربه يوم القيامة و هو قوله: **{إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ}**

ولو كان تقديم **{إِلَى رَبِّكَ}** لإفادة الحصر أفاد انحصار الغاية في الرجوع إليه تعالى.

وقيل: الكلام على تقدير مضاف و تقديم **{إِلَى رَبِّكَ}** لإفادة الحصر و التقدير إلى حكم ربك يومئذ المساق أي يساق ليحكم الله و يقضي فيه بحكمه، أو التقدير إلى موعد ربك و هو الجنة و النار، و قيل: المراد برجوع المساق إليه تعالى أنه تعالى هو السائق لا غير، و الوجه ما تقدم.

قوله تعالى: **{فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ وَلَكِنَّ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ}** الضمائر راجعة إلى الإنسان المذكور في قوله: **{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ}** إنح، و المراد بالتصديق المنفي تصديق الدعوة الحقّة التي يتضمّنهما القرآن الكريم، و بالتصليّة المنفية التوجه العبادي إليه تعالى بالصلاة التي هي عمود الدين.

و التمطي - على ما في الجمع - تمدد البدن من الكسل و أصله أن يلوي مطاه أي ظهره، و المراد بتمطيه في ذهابه التبخر و الاختيال استعارة.

و المعنى: فلم يصدق هذا الإنسان الدعوة فيما فيها من الاعتقاد و لم يصل لربه أي لم يتبعها فيما فيها من الفروع و ركنها الصلاة و لكن كذب بها و تولى عنها ثم ذهب إلى أهله يتبختر و يختال مستكبرا.

قوله تعالى: **{أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ}** لا ريب أنه كلمة تهديد كررت لتأكيد التهديد، و لا يبعد - و الله أعلم - أن يكون قوله: **{أُولَىٰ لَكَ}** خبرا لمبتدأ محذوف هو ضمير عائد إلى ما ذكر من حال هذا الإنسان و هو أنه لم يصدق و لم يصل و لكن كذب و تولى ثم ذهب إلى أهله متبخترا مختالا، و إثبات ما هو فيه من الحال له كناية عن إثبات ما هو لازمه من التبعة و العقاب.

فيكون الكلام و هي كلمة ملقاة من الله تعالى إلى هذا الإنسان كلمة طبع طبع الله بها على قلبه حرم بها الإيمان و التقوى و كتب عليه أنه من أصحاب النار، و الآيات تشبهان بوجه قوله تعالى: **{فَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَىٰ لَهُمْ}** سورة محمد .٢٠

و المعنى: ما أنت عليه من الحال أولى و أرجح لك فأولى ثم أولى لك فأولى لتذوق وبال أمرك و يأخذك ما أعد لك من العذاب.

و قيل: أولى لك اسم فعل مبني و معناه وليك شر بعد شر.

و قيل: أولى فعل ماض دعائي من الولي بمعنى القرب و فاعل الفعل ضمير مستتر عائد إلى الهلاك و اللام مزيدة و المعنى أولاك الهلاك.

وقيل: الفاعل ضمير مستتر راجع إليه تعالى و اللام مزيدة، و المعنى أولاك الله ما تكرهه، أو غير مزيدة و المعنى أدناك الله مما تكرهه.

وقيل: معناه الذم أولى لك من تركه إلا أنه حذف و كثر في الكلام حتى صار بمنزلة الويل لك و صار من المحذوف الذي لا يجوز إظهاره.

وقيل: المعنى أهلكك الله هلاكاً أقرب لك من كل شر و هلاك.

وقيل: أولى أفعل تفضيل بمعنى الأخرى، و خبر لمبتدأ محذوف يقدر كما يليق بمقامه فالتقدير هنا النار أولى لك أي أنت أحق بها و أهل لها فأولى.

و هي وجوه ضعيفة لا تخلو من تكلف و الوجه الأخير قريب مما قدمنا و ليس به.

قوله تعالى: **{أَيُّحَسْبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً}** محتتم فيه رجوع إلى ما في مفتتح السورة من قوله: **{أَيُّحَسْبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ}**.

و الاستفهام للتوبيخ، و السدى المهمل، و المعنى أ يظن الإنسان أن يترك مهملاً لا يعنى به فلا يبعث بإحيائه بعد الموت و لازمه أن لا يكلف و لا يجزى.

قوله تعالى: **{أَلَمْ يَكْ نُظْفَةً مِنْ مَنِيِّ يُمْنِي}** اسم كان ضمير راجع إلى الإنسان، و إماء المني صبه في الرحم.

قوله تعالى: **{ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَخَلَقَ فَسَوَى}** أي ثم كان الإنسان أو المني قطعة من دم منعقد فقدره فصوره بالتعديل و التكميل.

قوله تعالى: **{فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثَى}** أي فجعل من الإنسان الصنفين: الذكر و الأنثى.

قوله تعالى: **{أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى}** احتجاج على البعث الذي ينكرونه استبعاداً له بعموم القدرة و ثبوتها على الخلق الابتدائي و الإعادة لا تزيد على الابتداء مؤونة بل هي أهون، و قد تقدم الكلام في تقريب هذه الحجة في تفسير الآيات المتعرضة لها مراراً.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج الطيالسي و أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن الأنباري في المصاحف و الطبراني و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقي معا في الدلائل عن ابن عباس قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يعالج

من التنزيل شدة، و كان يحرك به لسانه و شفثيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله **{لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ}** قال: إن علينا أن نجعله في صدرك ثم نقرأه **{فَإِذَا قَرَأْتَهُ}** يقول: إذا أنزلناه عليك **{فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ}** فاستمع له و أنصت **{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}** بينه بلسانك، و في لفظ علينا أن نقرأه فكان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق و في لفظ استمع فإذا ذهب قرأ كما وعده الله.

و فيه، أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) إذا أنزل عليه القرآن تعجل بقراءته ليحفظه فنزلت هذه الآية **{لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ}**.

و كان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) لا يعلم ختم سورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم. أقول: و روي ما في معنى صدر الحديث في المجمع، عن ابن جبير و في معناه غير واحد من الروايات، و قد تقدم أن في انطباق هذا المعنى على الآيات خفاء.

و في تفسير القمي: قوله تعالى: **{كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ}** قال: الدنيا الحاضرة **{وَتَذُرُونَ آلَ الْآخِرَةِ}** قال: تدعون **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ}** أي مشرقة **{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** قال: ينظرون إلى وجه الله أي رحمة الله و نعمته.

و في العيون، في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) من أخبار التوحيد بإسناده إلى إبراهيم بن أبي محمود قال: **قال علي بن موسى الرضا (عليه السلام) في قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} يعني مشرقة تنتظر ثواب ربها.**

أقول: و رواه في التوحيد، و الاحتجاج، و المجمع، عن علي (عليه السلام)، و قد اعترض على أخذ ناظرة بمعنى منتظرة بأن الانتظار لا يتعدى إلى بل هو متعد بنفسه، و رد عليه في مجمع البيان بالاستشهاد بقول جميل بن معمر:

وإذا نظرت إليك من ملك * و البحر دونك جدتني نعماً**

و قول الآخر:

إني إليك لما وعدت لناظر * نظر الفقير إلى الغني الموسر**

و عد في الكشاف إطلاق النظر في الآية بمعنى الانتظار استعمالاً ككأياً و هو معنى حسن.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و الترمذي و ابن جرير و ابن المنذر و الآجري في الشريعة و الدارقطني في الرؤية و الحاكم و ابن مردويه و اللالكائي في السنة و البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **إن أدنى أهل الجنة منزلاً لمن ينظر إلى جنانه و أزواجه و نعيمه و خدمه و سرره مسيرة ألف سنة و أكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة و عشية.**

ثم قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ} قال: البياض و الصفاء {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} قال: ينظر كل يوم في وجهه.

أقول: الرواية تقبل الانطباق على المعنى الذي أوردناه في تفسير الآية، و مع الغض عنه تقبل الحمل على رحمته و فضله و كرمه تعالى و سائر صفاته الفعلية فإن وجه الشيء ما يستقبل به الشيء غيره و ما يستقبل به الله سبحانه خلقه هو صفاته الكريمة فالنظر إلى رحمة الله و فضله و كرمه و صفاته الكريمة نظر إلى وجه الله الكريم.

وفيه، أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: **قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) في قول الله: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ} إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} قال: ينظرون إلى ربهم بلا كيفية و لا حد محدود و لا صفة معلومة.**

أقول: و الرواية تؤيد ما قدمنا في تفسير الآية أن المراد به النظر القلبي و رؤية القلب دون العين الحسية، و هي تفسر ما ورد في عدة روايات من طرق أهل السنة مما ظاهره التشبيه و أن الرؤية بالعين الحسية التي لا تفارق المحدودية.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ} قال: يعني النفس إذا بلغت الترقوة {وَوَقِيلَ مَنْ رَاقٍ} قال: يقال له: من يريقك {وَوَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ} علم أنه الفراق**

و في الكافي، بإسناده إلى جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **سألته عن قول الله عز و جل {وَوَقِيلَ مَنْ رَاقٍ} وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ} قال: فإن ذلك ابن آدم إذا حل به الموت قال: هل من طيبب {وَوَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ} أيقن بمفارقة الأحبة {وَوَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} قال: التفت الدنيا بالآخرة {إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} قال: المسير إلى رب العالمين.**

و في تفسير القمي: **{وَوَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ} قال: التفت الدنيا بالآخرة {إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ} قال: يساقون إلى الله.**

وفي العيون، بإسناده عن عبد العظيم الحسيني قال: سألت محمد بن علي الرضا (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: **{أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ}** قال: يقول الله عز وجل بعدا لك من خير الدنيا وبعدا لك من خير الآخرة.

أقول: يمكن إرجاعه إلى ما قدمناه من معنى الآيتين، وكذا إلى بعض ما قيل فيه.

وفي المجمع، وجاءت الرواية: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أخذ بيد أبي جهل ثم قال له: أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى. فقال أبو جهل: بأي شيء تهددني لا تستطيع أنت وربك أن تفعل بي شيئا، وإني لأعز أهل هذا الوادي، فأنزله الله سبحانه كما قال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

أقول: وروي ما في معناه في الدر المنثور، عن عدة عن قتادة قال: ذكر لنا وساق الحديث.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: **{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى}** قال: لا يحاسب ولا يعذب ولا يسأل

عن شيء.

وفي العلل، بإسناده إلى مسعدة بن زياد قال: قال رجل لجعفر بن محمد (عليه السلام)، يا أبا عبد الله إنا خلقنا للعجب قال: وما ذلك لله أنت؟ قال: خلقنا للفناء فقال يا ابن أخ خلقنا للبقاء، وكيف يفنى جنة لا تبديد ونار لا تتخمد؟ ولكن قل: إنما تتحول من دار إلى دار.

وفي المجمع، وجاء في الحديث عن البراء عن عازب قال: لما نزلت هذه الآية **{أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ}** قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **سبحانك اللهم و بلى**. وروي ذلك عن أبي جعفر و أبي عبد الله (عليهما السلام).

أقول: وروي في الدر المنثور، عن أبي هريرة وغيره: أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا قرأ الآية قال: سبحانك اللهم و بلى، وكذا في العيون، عن الرضا (عليه السلام): أنه كان إذا قرأ السورة قال عند الفراغ سبحانك اللهم بلى.

(٧٦) سورة الدهر مدنية و هي إحدى و ثلاثون آية (٣١)

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ١ الى ٢٢]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُوراً ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً ﴿٤﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيراً ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ﴿١١﴾ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ﴿١٢﴾ مُتَّكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيراً ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلُكًا كَبِيراً ﴿٢٠﴾

عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٣١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٣٢﴾

(بيان)

تذكر السورة خلق الإنسان بعد ما لم يكن شيئاً مذكوراً ثم هدايته السبيل إما شاكراً وإما كفوراً وأن الله اعتد للكافرين أنواع العذاب وللأبرار ألوان النعم وقد فصل القول في وصف نعيمهم في ثمان عشرة آية وهو الدليل على أنه المقصود بالبيان .

ثم تذكر مخاطبا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن القرآن تنزيل منه تعالى عليه وتذكرة فليصبر لحكم ربه ولا يتبع الناس في أهوائهم وليذكر اسم ربه بكرة وعشيا وليسجد له من الليل وليسبحه ليلا طويلا .

و السورة مدنية بتمامها أو صدرها وهي اثنتان - وعشرون آية من أولها - مدني، و ذيلها - وهي تسع آيات من آخرها - مكّي وقد أطبقت روايات أهل البيت (عليهم السلام) على كونها مدنية، واستفاضت بذلك روايات أهل السنة .

وقيل بكونها مكية بتمامها، و سيوافيك تفصيل القول في ذلك في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى . **{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَّذْكُورًا}** الاستفهام للتقرير فيفيد ثبوت معنى الجملة و تحققة أي قد أتى على الإنسان «إلخ» ولعل هذا مراد من قال من قدماء المفسرين: إن **{هَلْ}** في الآية بمعنى قد، لا على أن ذلك أحد معاني «هل» كما ذكره بعضهم .

و المراد بالإنسان الجنس . و أما قول بعضهم: إن المراد به آدم (عليه السلام) فلا يلائمه قوله في الآية التالية: **{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ}** .

و الحين قطعة من الزمان محدودة قصيرة كانت أو طويلة، و الدهر الزمان الممتد من دون تحديد ببداية أو نهاية .

و قوله: **{شَيْئاً مَّذْكُورًا}** أي شيئاً يذكر باسمه في المذكورات أي كان يذكر مثلا الأرض و السماء و البر و البحر و غير ذلك و لا يذكر الإنسان لأنه لم يوجد بعد حتى وجد

فقيل: الإنسان فكونه مذكورا كناية عن كونه موجودا بالفعل فالنفي في قوله: **{لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً}** متوجه إلى كونه شيئا مذكورا لا إلى أصل كونه شيئا فقد كان شيئا ولم يكن شيئا مذكورا ويؤيده قوله: **{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ}** إنح فقد كان موجودا بمادته ولم يتكون بعد إنسانا بالفعل والآية وما يتلوها من الآيات واقعة في سياق الاحتجاج يبين بها أن الإنسان حادث يحتاج في وجوده إلى صانع يصنعه وخالق يخلقه، وقد خلقه ربه و جهزه التدبير الربوبي بأدوات الشعور من السمع والبصر يهتدي بها إلى السبيل الحق الذي من الواجب أن يسلكه مدى حياته فإن كفر فقصيره إلى عذاب أليم وإن شكر فإلى نعيم مقيم.

و المعنى هل أتى قد أتى على الإنسان قطعة محدودة من هذا الزمان الممتد غير المحدود والحال أنه لم يكن موجودا بالفعل مذكورا في عداد المذكورات.

قوله تعالى: **{إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً}** النطفة في الأصل بمعنى الماء القليل غلب استعماله في ماء الذكور من الحيوان الذي يتكون منه مثله، وأمشاج جمع مشيج أو المشج بفتح تحتين أو بفتح فكسر بمعنى المختلط الممتزج، ووصفت بها النطفة باعتبار أجزائها المختلفة أو اختلاط ماء الذكور والإناث.

و الابتلاء نقل الشيء من حال إلى حال و من طور إلى طور كابتلاء الذهب في البوتقة، و ابتلاؤه تعالى الإنسان في خلقه من النطفة هو ما ذكره في مواضع من كلامه أنه يخلق النطفة فيجعلها علقة و العلقة مضغعة إلى آخر الأطوار التي تتعاقبها حتى ينشئه خلقا آخر.

و قيل: المراد بابتلائه امتحانه بالتكليف، و يدفعه تفريع قوله: **{فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً}** على الابتلاء و لو كان المراد به التكليف كان من الواجب تفريعه على جعله سميعا بصيرا لا بالعكس، و الجواب عنه بأن في الكلام تقديما وتأخيرا و التقدير إنا خلقناه من نطفة أمشاج فجعلناه سميعا بصيرا لنبتيه، لا يصغي إليه.

و قوله: **{فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً}** سياق الآيات و خاصة قوله: **{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ}** إنح يفيد أن ذكر جعله سميعا بصيرا للتوسل به في التدبير الربوبي إلى غايته وهي أن يرى آيات الله الدالة على المبدأ و المعاد و يسمع كلمة الحق التي تأتيه من جانب ربه بإرسال الرسل و إنزال الكتب فيدعوه البصر و السمع إلى سلوك سبيل الحق و السير في مسير الحياة بالإيمان و العمل الصالح فإن لزم السبيل الذي هدي إليه أداه إلى نعيم الأبد و إلا فإلى عذاب مخلد.

و ذكر الإنسان في الآية من وضع الظاهر موضع الضمير و النكتة فيه تسجيل أنه تعالى هو خالقه و مدير أمره.

و المعنى: إنا خلقنا الإنسان من نطفة هي أجزاء مختلطة ممتزجة و الحال أنا ننقله من حال إلى حال و من طور إلى طور فجعلناه سميعا بصيرا لسمع ما يأتيه من الدعوة الإلهية، و يبصر الآيات الإلهية الدالة على وحدانيته تعالى و النبوة و المعاد.

قوله تعالى: **{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}** الهداية بمعنى إراءة الطريق دون الإيصال إلى المطلوب و المراد بالسبيل السبيل بحقيقة معنى الكلمة و هو المؤدي إلى الغاية المطلوبة و هو سبيل الحق.

و الشكر استعمال النعمة بإظهار كونها من منعمها و قد تقدم في تفسير قوله تعالى: **{وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}** آل عمران: ١٤٤ إن حقيقة كون العبد شاكرًا لله كونه مخلصًا لربه، و الكفران استعمالها مع ستر كونها من المنعم.

و قوله: **{إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}** حالان من ضمير **{هَدَيْنَاهُ}** لا من **{السَّبِيلِ}** كما قاله بعضهم، و **{إِمَّا}** يفيد التقسيم و التنوع أي إنا هديناه السبيل حال كونه منقسمًا إلى الشاكر و الكفور أي أنه مهدي سواء كان كذا أو كذلك.

و التعبير بقوله: **{إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}** هو الدليل أولاً: على أن المراد بالسبيل السنة و الطريقة التي يجب على الإنسان أن يسلكها في حياته الدنيا لتوصله إلى سعادته في الدنيا و الآخرة و تسوقه إلى كرامة القرب و الزلفى من ربه و محصله الدين الحق و هو عند الله الإسلام.

و به يظهر أن تفسير بعضهم السبيل بسبيل الخروج من الرحم غير سديد.

و ثانياً: أن السبيل المهدي إليه سبيل اختياري و أن الشكر و الكفر اللذين يترتبان على الهداية المذكورة واقعان في مستقر الاختيار للإنسان أن يتلبس بأيهما شاء من غير إكراه و إجبار كما قال تعالى: **{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ}** عبس: ٢٠، و ما في آخر السورة من قوله تعالى: **{فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}** إنما يفيد تعلق مشيئته تعالى بمشيئة العبد لا بفعل العبد الذي تعلقت به مشيئة العبد حتى يفيد نفي تأثير مشيئة العبد المتعلقة بفعله، و قد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى في هذا الكتاب مراراً.

و الهداية التي هي نوع إيدان وإعلام منه تعالى للإنسان هداية فطرية هي تنبيه بسبب نوع خلقته و ما جهز به وجوده بإلهام من الله سبحانه على حق الاعتقاد و صالح العمل قال تعالى: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}** الشمس: ٨ و أوسع مدلولاً منه قوله تعالى: **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}** الروم: ٣٠.

و هداية قولية من طريق الدعوة يبعث الأنبياء و إرسال الرسل و إنزال الكتب و تشريع الشرائع الإلهية، و لم يزل التدبير الربوبي تدعم الحياة الإنسانية بالدعوة الدينية القائم بها أنبياءه و رسله، و يؤيد بذلك دعوة الفطرة كما قال: **{إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالتَّيِّبِينَ مِنْ بَعْدِهِ}** إلى أن قال **{رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ لِقَلًّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}** النساء: ١٦٥.

و من الفرق بين الهدايتين أن الهداية الفطرية عامة بالغة لا يستثني منها إنسان لأنها لازم الحلقة الإنسانية و هي في الأفراد بالسوية غير أنها ربما تضعف أو يلغو أثرها لعوامل و أسباب تشغل الإنسان و تصرفه عن التوجه إلى ما يدعو إليه عقله و يهديه إليه فطرته أو ملكات و أحوال رديئة سيئة تمنعه عن إجابة نداء الفطرة كالعناد و اللجاج و ما يشبه ذلك قال تعالى: **{أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِهِ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ}** الجاثية: ٢٣، و الهداية المنفية في الآية بمعنى الإيصال إلى المطلوب دون إراءة الطريق بدليل قوله: **{وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِهِ}**.

و أما الهداية القولية و هي التي تتضمنها الدعوة الدينية فإن من شأنها أن تبلغ المجتمع فتكون في معرض من عقول الجماعة فيرجع إليها من أثر الحق على الباطل و أما بلوغها لكل واحد واحد منهم فإن العلل و الأسباب التي يتوسل بها إلى بيان أمثال هذه المقاصد ربما لا تساعد على ذلك على ما في الظروف و الأزمنة و البيئات من الاختلاف و كيف يمكن لإنسان أن يدعو كل إنسان إلى ما يريد بنفسه أو بوسائط من نوعه؟ فن المتعذر ذلك جدا.

و إلى المعنى الأول أشار تعالى بقوله: **{وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}** فاطر: ٢٤، و إلى الثاني بقوله: **{لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}** يس: ٠٦.

فمن بلغته الدعوة و انكشف له الحق فقد تمت عليه الحججة و من لم تبلغه الدعوة بلوغاً ينكشف به له الحق فقد أدركه الفضل الإلهي بعده مستضعفاً أمره إلى الله إن يشأ يغفر

له وإن يشأ يعذبه قال تعالى: **{إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَّا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا}** النساء: ٥٨.

ثم من الدليل على أن الدعوة الإلهية و هي الهداية إلى السبيل حق يجب على الإنسان أن يتبعها فطرة الإنسان و خلقته المجهزة بما يهدي إليها من الاعتقاد والعمل، و وقوع الدعوة خارجا من طريق النبوة و الرسالة فإن سعادة كل موجود و كماله في الآثار و الأعمال التي تناسب ذاته و تلائمها بما جهزت به من القوى و الأدوات فسعادة الإنسان و كماله في اتباع الدين الإلهي الذي هو سنة الحياة الفطرية و قد حكم به العقل و جاءت به الأنبياء و الرسل عليهم السلام.

قوله تعالى: **{إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَ سَعِيرًا}** الاعتاد التهيئة، و سلاسل جمع سلسلة و هي القيد الذي يقاد به المجرم، و أغلال جمع غل بالضم قيل هي القيد الذي يجمع اليدين على العنق، و قال الراغب: فالغل مختص بما يقيد به فيجعل الأعضاء وسطه. انتهى. و السعير النار المشتعلة، و المعنى ظاهر.

و الآية تشير إلى تبعة الإنسان الكفور المذكور في قوله: **{إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}** و قدم بيان تبعته على بيان جزاء الإنسان الشاكر لاختصار الكلام فيه.

قوله تعالى: **{إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}** الكأس إناء الشراب إذا كان فيه شراب، و المزاج ما يمزج به كالحزام لما يحزم به، و الكافور معروف يضرب به المثل في البرودة و طيب الرائحة، و قيل: هو اسم عين في الجنة.

و الأبرار جمع بر بفتح الباء صفة مشبهة من البر و هو الإحسان و يتحصل معناه في أن يحسن الإنسان في عمله من غير أن يريد به نفعا يرجع إليه من جزاء أو شكور فهو يريد الخير لأنه خير لا لأن فيه نفعا يرجع إلى نفسه و إن كرهت نفسه ذلك فيصبر على مر مخالفة نفسه فيما يريده و يعمل العمل لأنه خير في نفسه كالوفاء بالندى أو لأن فيه خيرا لغيره كإطعام الطعام للمستحقين من عباد الله.

و إذ لا خير في عمل و لا صلاح إلا بالإيمان بالله و رسوله و اليوم الآخر كما قال تعالى: **{أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ}** الأحزاب: ١٩ إلى غير ذلك من الآيات.

فالأبرار مؤمنون بالله و رسوله و اليوم الآخر، و إذ كان إيمانهم إيمان رشد و بصيرة فهم يرون أنفسهم عبدا مملوكين لربهم، له خلقهم و أمرهم، لا يملكون لأنفسهم نفعا و لا ضرا

عليهم أن لا يريدوا إلا ما أَرَادَهُ رَبُّهُمْ ولا يفعلوا إلا ما يَرْضِيهِ فَقَدِمُوا إِرَادَتَهُ عَلَى إِرَادَةِ أَنْفُسِهِمْ وَعَمِلُوا لَهُ فَصَبَرُوا عَلَى مَخَالَفَةِ أَنْفُسِهِمْ فِيمَا تَهَوَّاهُ وَتَحَبُّهُ وَكَلْفَةَ الطَّاعَةِ، وَعَمِلُوا مَا عَمَلُوهُ لَوَجْهِ اللَّهِ، فَأَخْلَصُوا الْعِبَادِيَّةَ فِي مَرَحَلَةِ الْعَمَلِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ.

وهذه الصفات هي التي عرف سبحانه الأبرار بها كما يستفاد من قوله: **{يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ}** وقوله: **{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ}** وقوله: **{وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا}** وهي الاستفادة من قوله في صفتهم: **{لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ}** الخ: البقرة: ١٧٧ وقد مر بعض الكلام في معنى البر في تفسير الآية و سيأتي بعضه في قوله: **{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ}** المطففين: ١٨.

والآية أعني قوله: **{إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ}** إِنْخ بما يتبادر من معناها من حيث مقابلتها لقوله: **{إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ}** إِنْخ المبين لحال الكافرين في الآخرة، تين حال الأبرار في الآخرة في الجنة، وأنهم يشربون من شراب ممزوج بالكافور باردا طيب الرائحة.

قوله تعالى: **{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}** **{عَيْنًا}** منصوب بنزع الخافض و التقدير من عين أو بالاختصاص و التقدير أخص عينا، و الشرب - على ما قيل - يتعدى بنفسه و بالباء فشرب بها و شربها واحد، و التعبير عنهم بعباد الله للإشارة إلى تحليمهم بحلية العبودية و قيامهم بلوازمها على ما يفيدته سياق المدح.

و تفجير العين شق الأرض لإجرائها، و ينبغي أن يحمل تفجيرهم العين على إرادتهم جريانها لأن نعم الجنة لا تحتاج في تحققها و التمتع بها إلى مزيد من مشية أهلها قال تعالى: **{لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا}** ق: ٣٥.

و الآيتان - كما تقدمت الإشارة إليه - تصفان تنعم الأبرار بشراب الجنة في الآخرة، و بذلك فسرت الآيتان.

ولا يبعد أن تكون الآيتان مسوقتين على مسلك تجسم الأعمال تصفان حقيقة عملهم الصالح من الإيفاء بالنذر و إطعام الطعام لوجه الله، و أن أعمالهم المذكورة بحسب باطنها شرب من كأس مزاجها كافور من عين لا يزالون يفجرونها بأعمالهم الصالحة و ستظهر لهم بحقيقتها في جنة الخلد و إن كانت في الدنيا في صورة الأعمال فتكون الآيتان في مجرى أمثال قوله تعالى: **{إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ}** يس: ٨.

و يؤيد ذلك ظاهر قوله **{يَشْرَبُونَ}** و **{يَشْرَبُ بِهَا}** و لم يقل: يشربون و يشرب بها، و وقوع قوله: يشربون و يوفون و يخافون و يطعمون متعاقبة في سياق واحد، و ذكر التفجير في قوله: **{يَفْجَرُونَهَا تَفْجِيرًا}** الظاهر في استخراج العين و إجرائها بالتوسل بالأسباب.

و لهم في مفردات الآيتين و إعرابها أقاويل كثيرة مختلفة مذكورة في المطولات فليراجعها من أراد الوقوف عليها.

قوله تعالى: **{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا}** المستطير اسم فاعل من استطار إذا فشا و انتشر في الأقطار غاية الانتشار و هو أبلغ من طار كما قيل: يقال: استطار الحريق و استطار الفجر إذا اتسعا غايته، و المراد باستطارة شر اليوم و هو يوم القيامة بلوغ شدائده و أهواله و ما فيه من العذاب غايته.

و المراد بالإيفاء بالندر ما هو ظاهره المعروف من معناه، و قول القائل: إن المراد به ما عقدوا عليه قلوبهم من العمل بالواجبات أو ما عقدوا عليه القلوب من اتباع الشارع في جميع ما شرعه خلاف ظاهر اللفظ من غير دليل يدل عليه.

قوله تعالى: **{وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}** ضمير **{عَلَىٰ حُبِّهِ}** للطعام على ما هو الظاهر، و المراد بحبه توقان النفس إليه لشدة الحاجة، و يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: **{لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}** آل عمران: ٩٢.

و قيل: الضمير لله سبحانه أي يطعمون الطعام حبا لله لا طمعا في الثواب، و يدفعه أن قوله تعالى حكاية منهم: **{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ}** يغني عنه.

و يليه في الضعف ما قيل: إن الضمير للإطعام المفهوم من قوله: **{وَيُطْعَمُونَ}** وجه الضعف أنه إن أريد بحب الإطعام حقيقة معناه فليس في حب الإطعام في نفسه فضل حتى يمدحوا به، و إن أريد به كون الإطعام بطيب النفس و عدم التكلف فهو خلاف الظاهر، و رجوع الضمير إلى الطعام هو الظاهر.

و المراد بالمسكين و اليتيم معلوم، و المراد بالأسير ما هو الظاهر منه و هو المأخوذ من أهل دار الحرب. و قول بعضهم: إن المراد به أسارى بدر أو الأسير من أهل القبلة في دار الحرب

بأيدي الكفار أو المحبوس أو المملوك من العبيد أو الزوجة كل ذلك تكلف من غير دليل يدل عليه.
والذي يجب أن يتنبه له أن سياق هذه الآيات سياق الاقتصار تذكر قوما من المؤمنين تسميهم الأبرار
وتكشف عن بعض أعمالهم وهو الإيفاء بالنذر وإطعام مسكين و يتيم وأسير و تمدحهم وتعددهم الوعد الجميل.
فما تشير إليه من القصة سبب النزول، وليس سياقها سياق فرض موضوع و ذكر آثارها الجميلة، ثم الوعد
الجميل عليها، ثم إن عد الأسير فيمن أطعمه هؤلاء الأبرار نعم الشاهد على كون الآيات مدنية فإن الأسر إنما كان
بعد هجرة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و ظهور الإسلام على الكفر و الشرك لا قبلها.

قوله تعالى: **{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا}** وجه الشيء هو ما يستقبل به غيره،
و وجهه تعالى صفاته الفعلية الكريمة التي يفيض بها الخير على خلقه من الخلق و التدبير و الرزق و بالجملة الرحمة
العامة التي بها قيام كل شيء، و معنى كون العمل لوجه الله على هذا كون الغاية في العمل هي الاستفادة من
رحمة الله و طلب مرضاته بالاعتصار على ذلك و الإعراض عما عند غيره من الجزاء المطلوب، و لذا ذيلوا قولهم:
{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ} بقولهم {لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا}.

و وراء ذلك صفاته الذاتية الكريمة التي هي المبدأ لصفاته الفعلية و لما يترتب عليها من الخير في العالم، و
مرجع كون العمل لوجه الله على هذا هو الإتيان بالعمل حبا لله لأنه الجميل على الإطلاق، و إن شئت فقل:
عبادته تعالى لأنه أهل للعبادة.

و ابتغاء وجه الله بجعله غاية داعية في الأعمال المذكور في مواضع من كلامه تعالى كقوله: **{وَإِصْبِرْ نَفْسَكَ
مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}** الكهف: ٢٨، و قوله: **{وَمَا تَنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ}**
البقرة: ٢٧٢، و في هذا المعنى قوله: **{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}** البينة: ٥، و قوله: **{فَادْعُوهُ
مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}** المؤمن: ٦٥، و قوله: **{أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ}** الزمر: ٣.

و قوله: **{لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا}** الجزاء مقابلة العمل بما يعادله إن خيرا نخبيرا و إن شرا فشرأ،
و يعم الفعل و القول لكن المراد به في الآية بقرينة مقابله الشكور مقابلة إطعامهم عملا لا لسانا.

و الشكر و الشكور ذكر النعمة و إظهارها قلبا أو لسانا أو عملا، و المراد به في الآية و قد قوبل بالجزاء الثناء الجميل لسانا.

و الآية أعني قوله: **{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ}** إنلخ خطاب منهم لمن أطعموه من المسكين و اليتيم و الأسير إما بلسان المقال فهي حكاية قولهم أو بتقدير القول و كيف كان فقد أرادوا به تطيب قلوبهم أن يأمنوا المن و الأذى، و إما بلسان الحال و هو ثناء من الله عليهم لما يعلم من الإخلاص في قلوبهم.

قوله تعالى: **{إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيرًا}** عد اليوم و هو يوم القيامة عبوسا من الاستعارة، و المراد بعبوسه ظهوره على المجرمين بكال شدته، و القمطير الصعب الشديد على ما قيل.

و الآية في مقام التعليل لقولهم المحكي: **{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ}** إنلخ ينبون بقولهم هذا أن قصرهم العمل في ابتغاء وجه الله تعالى إخلاصا للعبودية لمخافتهم ذاك اليوم الشديد، و لم يكتفوا بنسبة المخافة إلى اليوم حتى نسبوها من النسبة إلى ربهم فقالوا: **{نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا}** إنلخ لأنهم لما لم يريدوا إلا وجه ربهم فهم لا يخافون غيره كما لا يرجون غيره و إنما يخافون و يرجون ربهم فلا يخافون يوم القيامة إلا لأنه من ربهم يحاسب فيه عباده على أعمالهم فيجزئهم بها.

و أما قوله قبلا: **{وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا}** حيث نسب خوفهم إلى اليوم فإن الواصف فيه هو الله سبحانه و قد نسب اليوم بشدائده إلى نفسه قبلا حيث قال: **{إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا}** إنلخ.

و بالجملة ما ذكروه من الخوف مخافة في مقام العمل لما يحاسب العبد على عمله فالعبودية لازمة للإنسان لا تفارقه و إن بلغ ما بلغ قال تعالى: **{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}** الغاشية: ٢٦.

قوله تعالى: **{فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا}** الوقاية الحفظ و المنع من الأذى و لقي بكذا يلقيه أي استقبله به و النضرة البهجة و حسن اللون و السرور مقابل المساءة و الحزن.

و المعنى: حفظهم الله و منع عنهم شر ذلك اليوم و استقبلهم بالنضرة و السرور، فهم ناضرة الوجوه مسرورون يومئذ كما قال: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ}** القيامة: ٢٢.

قوله تعالى: **{وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا}** المراد بالصبر صبرهم عند المصيبة و على الطاعة و عن المعصية فإنهم ابتغوا في الدنيا وجه ربهم و قدموا إرادته على إرادتهم فصبروا على ما قضى به فيهم و أرادته من المحن و مصائب الدنيا في حقهم، و صبروا على امتثال ما أمرهم به و صبروا على ترك ما نهاهم عنه و إن كان مخالفا لأهواء أنفسهم فبدل الله ما لقوه من المشقة و الكلفة نعمة و راحة.

قوله تعالى: **{مُتَّكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا}** الأرائك جمع أريكة و هو ما يتكأ عليه، و الزمهرير البرد الشديد، و المعنى حال كونهم متكئين في الجنة على الأرائك لا يرون فيها شمسا حتى يتأذوا بحرما و لا زمهريرا حتى يتأذوا ببرده.

قوله تعالى: **{وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا}** الظلال جمع ظل، و دنو الظلال عليهم قربها منهم بحيث تنبسط عليهم فكان الدنو مضمن معنى الانبساط و قطوف جمع قطف بالكسر فالسكون و هو الثمرة المقطوفة المجتناة، و تذليل القطوف لهم جعلها مسخرة لهم يقطفونها كيف شاءوا من غير مانع أو كلفة.

قوله تعالى: **{وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا}** الآنية جمع إناء كأكسية جمع كساء و هو الوعاء، و أكواب جمع كوب و هو إناء الشراب الذي لا عروة له و لا خرطوم و المراد طواف الولدان الخلدن عليهم بالآنية و أكواب الشراب كما سيأتي في قوله: **{وَيُطَوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ}** الآية.

قوله تعالى: **{قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا}** بدل من قوارير في الآية السابقة، و كون القوارير من فضة مبني على التشبيه البليغ أي إنها في صفاء الفضة و إن لم تكن منها حقيقة، كذا قيل. و احتمال أن يكون بحذف مضاف و التقدير من صفاء الفضة.

و ضمير الفاعل في **{قَدَّرُوهَا}** للأبرار و المراد بتقديرهم الآنية و الأكواب كونها على ما شاءوا من القدر ترويههم بحيث لا تزيد و لا تنقص كما قال تعالى: **{لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا}** ق: ٣٥ و قد قال تعالى قبل: **{يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}**.

و يحتمل رجوع الضمير إلى الطائفتين المفهوم من قوله: **{يُطَافُ عَلَيْهِمْ}** و المراد بتقديرهم الآنية و الأكواب إتيانهم بها على قدر ما أرادوا محتوية على ما اشتهاوا قدر ما اشتهاوا.

قوله تعالى: **{وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا}** قيل: إنهم كانوا يستطيعون الزنجبيل في الشراب فوجد الأبرار بذلك وزنجبيل الجنة أطيب وأذ.

قوله تعالى: **{عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلاً}** أي من عين أو التقدير أعني أو أخص عيناء قال الراغب: وقوله: **{سَلْسِيلاً}** أي سهلا لذيذا سلسا حديد الجرية.

قوله تعالى: **{وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا}** أي ولدان دائمون على ما هم عليه من الطراوة والبهاء و صباحة المنظر، وقيل: أي مقرطون بخلدة وهي ضرب من القرط.

و المراد بحسبانهم لؤلؤا منثورا أنهم في صفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانعكاس أشعة بعضهم على بعض و انبثاثهم في مجالسهم كاللؤلؤ المنثور.

قوله تعالى: **{وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا}** **{ثَمَّ}** ظرف مكان محض في الظرفية، ولذا قيل: إن معنى **{رَأَيْتَ}** الأول: رميت ببصرك، والمعنى وإذا رميت ببصرك ثم يعني الجنة رأيت نعيما لا يوصف و ملكا كبيرا لا يقدر قدره.

وقيل: **{ثَمَّ}** صلة محذوفة الموصول و التقدير وإذا رأيت ما ثم من النعيم و الملك، وهو كقوله: **{لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ}** الأنعام: ٩٤ و الكوفيون من النحاة يجوزون حذف الموصول وإبقاء الصلة وإن منعه البصريون منهم.

قوله تعالى: **{عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ}** إنح الظاهر أن **{عَالِيَهُمْ}** حال من الأبرار الراجعة إليه الضمائر و **{ثِيَابٌ}** فاعله، و السندس كما قيل ما رق نسجه من الحرير، و الخضر صفة ثياب و الإستبرق ما غلظ نسجه من ثياب الحرير، وهو معرب كالسندس.

وقوله: **{وَ حُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ}** التحلية التزيين، و أساور جمع سوار و هو معروف، و قال الراغب: هو معرب دستواره.

وقوله: **{وَ سَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا}** أي بالغاً في التطهير لا تدع قذارة إلا أزالها و من القذارة قذارة الغفلة عن الله سبحانه و الاحتجاب عن التوجه إليه فهم غير محجوبين عن ربهم و لذا كان لهم أن يحمدا ربهم كما قال: **{وَ آخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** يونس: ١٠ و قد تقدم في تفسير سورة الحمد إن الحمد وصف لا يصلح له إلا المخلصون من عباد الله تعالى لقوله: **{سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ}** الصافات:

و قد أسقط تعالى في قوله: **{وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ}** الوسائط كلها ونسب سقيهم إلى نفسه، وهذا أفضل ما ذكره الله تعالى من النعيم الموهوب لهم في الجنة، ولعله من المزيد المذكور في قوله: **{لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}** ق: ٣٥.

قوله تعالى: **{إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا}** حكاية ما يخاطبون به من عنده تعالى عند توفيته أجرهم أو بحذف القول والتقدير ويقال لهم: إن هذا كان لكم جزاء «إلخ».

وقوله: **{وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا}** إنشاء شكر لمساعيهم المرضية وأعمالهم المقبولة، ويا لها من كلمة طيبة تطيب بها نفوسهم.

واعلم أنه تعالى لم يذكر فيما ذكر من نعيم الجنة في هذه الآيات نساء الجنة من الحور العين وهي من أهم ما يذكره عند وصف نعم الجنة في سائر كلامه ويمكن أن يستظهر منه أنه كانت بين هؤلاء الأبرار الذين نزلت فيهم الآيات من هي من النساء.

وقال في روح المعاني: و من اللطائف على القول بنزول السورة فيهم يعني في أهل البيت إنه سبحانه لم يذكر فيها الحور العين وإنما صرح عز وجل بولدان مخلدين رعاية لحمة البتول وقررة عين الرسول، انتهى.

(بحث روائي)

في إتيان السيوطي، عن البيهقي في دلائل النبوة بإسناده عن عكرمة والحسن بن أبي الحسن قالا: أنزل الله من القرآن بمكة اقرأ باسم ربك ون والمزمل إلى أن قالا وما نزل بالمدينة ويل للمطففين، والبقرة، وآل عمران، والأنفال، والأحزاب، والمائدة، والمنتحنة، والنساء، وإذا زلزلت، والحديد، ومحمد، والرعد، والرحمن، وهل أتى على الإنسان. (الحديث).

وفيه، عن ابن الضريس في فضائل القرآن بإسناده عن عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن ابن عباس قال: كان إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما شاء.

و كان أول ما أنزل من القرآن اقرأ باسم ربك، ثم ن، ثم يا أيها المزمل - إلى أن قال -

ثم أنزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء ثم إذا زلزلت ثم الحديد ثم القتال ثم الرعد ثم الرحمن ثم الإنسان. (الحديث).

وفيه، عن البيهقي في الدلائل بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس أنه قال: إن أول ما أنزل الله على نبيه من القرآن اقرأ باسم ربك، وذكر مثل حديث عكرمة والحسين وفيه ذكر ثلاث من السور المكية التي سقطت من روايتهما وهي الفاتحة والأعراف وكهيعص.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة الإنسان بالمدينة. وفيه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى: **{وَيُطْعَمُونََ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ}** (الآية) قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

أقول: الآية تشارك سائر آيات صدر السورة مما تقدم عليها أو تأخر عنها في سياق واحد متصل فنزلها فيهما (عليهما السلام) لا ينفك نزولها جميعا بالمدينة.

وفي الكشاف: وعن ابن عباس أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت علي ولدك (ولديك ظ) فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما إن برء مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا وما معهم شيء.

فاستقرض علي من شمعون الخبيري اليهودي ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعا واختبرت نحسة أقراص على عددهم فوضعها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل وقال: السلام عليكم أهل بيت محمد مسكين من مساكين المسلمين أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة فأثروه وبتوا لم يذوقوا إلا الماء وأصبحوا صياما.

فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فأثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك. فلما أصبحوا أخذ علي بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع قال: ما أشد ما يسوءني ما أرى بكم فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها و غارت عيناها فسأه ذلك فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك فأقرأه السورة.

أقول: الرواية مروية بغير واحد من الطرق عن عطاء عن ابن عباس ونقلها البحراني في غاية المرام، عن أبي المؤيد الموفق بن أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس، و عنه بإسناد آخر عن الضحاك عن ابن عباس و عن الحموي في كتاب فرائد السمطين بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس، و عن الثعلبي بإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس، و رواه في المجمع، عن الواحدي في تفسيره.

و في المجمع، بإسناده عن الحاكم بإسناده عن سعيد بن المسيب عن علي بن أبي طالب أنه قال: سألت النبي عن ثواب القرآن: فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء.

فأول ما نزل عليه بمكة فاتحة الكتاب ثم اقرأ باسم ربك، ثم ن إلى أن قال و أول ما نزل بالمدينة سورة البقرة ثم الأنفال ثم آل عمران ثم الأحزاب ثم الممتحنة ثم النساء ثم إذا زلزلت ثم الحديد ثم سورة محمد ثم الرد ثم سورة الرحمن ثم هل أتى. (الحديث).

و فيه، عن أبي حمزة الثمالي في تفسيره قال: حدثني الحسن بن الحسن أبو عبد الله بن الحسن: أنها مدنية نزلت في علي و فاطمة السورة كلها.

و في تفسير القمي، عن أبيه عن عبد الله بن ميمون عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: كان عند فاطمة (عليها السلام) شعير فجعلوه عصيدة¹ فلها أنضجوها و وضعوها بين أيديهم جاء مسكين فقال: مسكين رحمكم الله فقام علي (عليه السلام) فأعطاه ثلثا فلم يلبث أن جاء يتيم فقال: اليتيم رحمكم الله فقام علي (عليه السلام) فأعطاه الثلث ثم جاء أسير فقال: الأسير رحمكم الله فأعطاه علي (عليه السلام) الثلث و ما ذاقوها فأنزل الله سبحانه الآيات فيهم و هي جارية في كل مؤمن فعل ذلك لله عز و جل.

أقول: القصة كما ترى ملخصة في الرواية و روى ذلك البحراني في غاية المرام، عن المفيد في الاختصاص، مسندا و عن ابن بابويه في الأمالي، بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس، و بإسناده عن سلمة بن خالد عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليه السلام)، و عن محمد بن العباس بن ماهيار في تفسيره بإسناده عن أبي كثير الزبير عن عبد الله بن عباس، و في المناقب، أنه مروى عن الأصبغ بن نباتة.

¹ العصيدة: شعير يلت بالسمن و يطبخ.

و في الاحتجاج، عن علي (عليه السلام): في حديث يقول فيه للقوم بعد موت عمر بن الخطاب: **نشدتكم بالله هل فيكم أحد نزل فيه وفي ولده {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا}** إلى آخر السورة غيري؟ قالوا: لا.

و في كتاب الخصال، في احتجاج علي على أبي بكر قال: **أنشدك بالله أنا صاحب الآية {يُؤْفُونَ بِالتَّذْرِبِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا}** أم أنت؟ قال: بل أنت.

و في الدر المنثور، أخرج الطبراني و ابن مردويه و ابن عساكر عن ابن عمر قال: جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): سل و استفهم فقال: يا رسول الله فضلتنا بالألوان و الصور و النبوة أفرأيت إن آمنت بما آمنت به و عملت بمثل ما عملت به إني لكائن معك في الجنة؟ قال: نعم و الذي نفسي بيده إنه ليرى بياض الأسود في الجنة من مسيرة ألف عام. ثم قال: من قال لا إله إلا الله كان له عهد عند الله و من قال: سبحان الله و بحمده كتبت له مائة ألف حسنة و أربعة و عشرون ألف حسنة و نزلت عليه السورة {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ} - إلى قوله - {مُلْكًا كَبِيرًا}.

فقال الحبشي: و إن عيني لترى ما ترى عينك في الجنة؟ قال: نعم فاشتكى حتى فاضت نفسه. قال عمر: فلقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يديه في حفرتيه بيده.

و فيه، أخرج أحمد في الزهد عن محمد بن مطرف قال: حدثني الثقة: أن رجلا أسود كان يسأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن التسبيح و التهليل فقال له عمر بن الخطاب: مه أكثرت على رسول الله فقال: مه يا عمر و أنزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ} حتى إذا أتى على ذكر الجنة زفر الأسود زفرة خرجت نفسه فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): مات شوقا إلى الجنة.

و فيه، أخرج ابن وهب عن ابن زيد أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ هذه السورة {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ} و قد أنزلت عليه و عنده رجل أسود فلما بلغ صفة الجنان زفر زفرة فخرجت نفسه فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **أخرج نفس صاحبكم الشوق إلى الجنة.**

أقول: و هذه الروايات الثلاث على تقدير صحتها لا تدل على أزيد من كون نزول السورة مقارنا لقصة الرجل و أما كونها سببا للنزول فلا، و هذا المعنى في الرواية الأخيرة أظهر و بالجملة لا تنافي الروايات الثلاث نزول السورة في أهل البيت (عليهم السلام).

على أن رواية ابن عمر للقصة الظاهرة في حضوره القصة و قد هاجر إلى المدينة و هو ابن إحدى عشرة سنة من شواهد وقوع القصة بالمدينة.

و في الدر المنثور، أيضا أخرج النحاس عن ابن عباس قال: نزلت سورة الإنسان بمكة.

أقول: هو تلخيص حديث طويل أورده النحاس في كتاب النسخ و المنسوخ، و قد نقله في الإتيان و هو معارض لما تقدم نقله مستفيضا عن ابن عباس من نزول السورة بالمدينة و أنها نزلت في أهل البيت (عليهم السلام).

على أن سياق آياتها و خاصة قوله **{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ}** و **{يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ}** إنح سياق قصة واقعة و ذكر الأسير فيمن أطعموهم نعم الشاهد على نزول الآيات بالمدينة إذ لم يكن للمسلمين أسير بمكة كما تقدمت الإشارة إلى ذلك. قال بعضهم ما ملخصه: أن الروايات مختلفة في مكة هذه السورة و مدينتها و الأرح أنها مكة بل الظاهر من سياقها أنها من عتائق السور القرآنية النازلة بمكة في أوائل البعثة يؤيد ذلك ما ورد فيها من صور النعم الحسية المفصلة الطويلة و صور العذاب الغليظ كما يؤيده ما ورد فيها من أمر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بالصبر لحكم ربه و أن لا يطيع منهم آثما أو كفورا و يثبت على ما نزل عليه من الحق و لا يداهن المشركين من الأوامر التي كانت تنزل بمكة عند اشتداد الأذى على الدعوة و أصحابها بمكة كما في سورة القلم و المزمل و المدثر فلا عبرة باحتمال مدينة السورة.

و هو فاسد أما ما ذكره من اشتمال السورة على صور النعم الحسية المفصلة الطويلة و صور العذاب الغليظ فليس ذلك مما يختص بالسور المكية حتى يقضى بها على كون السورة مكية فهذه سورة الرحمن و سورة الحج مدينتان على ما تقدمت في الروايات المشتملة على ترتيب نزول السور القرآنية و قد اشتملتا من صور النعم الحسية المفصلة الطويلة و صور العذاب الغليظ على ما يربو و يزيد على هذه السورة بكثير.

و أما ما ذكره من اشتمال السورة على أمر النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بالصبر و أن لا يطيع منهم آثما أو كفورا و لا يداهنهم و يثبت على ما نزل عليه من الحق ففيه أن هذه الأوامر واقعة في الفصل الثاني من آيات السورة و هو قوله: **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا}** إلى آخر السورة و من المحتمل جدا أن يكون هذا الفصل من الآيات - و هو ذو سياق تام مستقل -

نازلا بمكة، ويؤيده ما في كثير من الروايات المتقدمة أن الذي نزل في أهل البيت بالمدينة هو الفصل الأول من الآيات، وعلى هذا أول السورة مدني وآخرها مكّي.

ولو سلم نزولها دفعة واحدة فأمره (صلى الله عليه وآله وسلم) بالصبر لا اختصاص له بالسور المكية فقد ورد في قوله: **{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}** الكهف: ٢٨ والآية على ما روي مدنية والآية كما ترى متحدة المعنى مع قوله: **{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ}** إنخ وهي في سياق شبيه جدا بسياق هذه الآيات فراجع وتأمل.

ثم الذي كان يلقاه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من أذى المنافقين والذين في قلوبهم مرض والجفاة من ضعفاء الإيمان لم يكن بأهون من أذى المشركين بمكة يشهد بذلك أخبار سيرته.

ولا دليل أيضا على انحصار الإثم والكفور في مشركي مكة فهناك غيرهم من الكفار وقد أثبت القرآن الإثم لجمع من المسلمين في موارد كقوله: **{لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ}** النور: ١١، وقوله: **{وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا}** النساء: ١١٢.

وفي الجمع، وروى العياشي بإسناده عن عبد الله بن بكير عن زرارة قال: **سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن قوله: {لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} قال: كان شيئا ولم يكن مذكورا.**

أقول: وروي فيه، أيضا عن عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبد الله (عليه السلام): مثله.

وفيه، أيضا عن العياشي بإسناده عن سعيد الخذاء عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **كان مذكورا في العلم ولم يكن مذكورا في الخلق.**

أقول: يعني أنه كان له ثبوت في علم الله ثم خلق بالفعل فصار مذكورا فيمن خلق.

وفي الكافي، بإسناده عن مالك الجهني عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال: **كان مقدرًا غير مذكور.**

أقول: هو في معنى الحديث السابق.

وفي تفسير القمي في الآية قال: **لم يكن في العلم ولا في الذكر، وفي حديث آخر: كان في العلم ولم يكن في الذكر.**

أقول: معنى الحديث الأول أنه لم يكن في علم الناس و لا فيمن يذكرونه فيما بينهم، و معنى الثاني أنه كان في علم الله و لم يكن مذكورا عند الناس.

و في تفسير القمي، أيضا في رواية أبي الجارود **عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله تعالى {أَمْشَاجِ نَبْتَلِيهِ} قال: ماء الرجل و المرأة اختلطا جميعا.**

و في الكافي، بإسناده عن حمران بن أعين قال: **سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قوله عز و جل، {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} قال: إما آخذ فهو شاكر و إما تارك فهو كافر.**

أقول: و رواه القمي في تفسيره، بإسناده عن ابن أبي عمير عن أبي جعفر (عليه السلام) مثله. و في التوحيد، بإسناده إلى حمزة بن الطيار عن أبي عبد الله (عليه السلام) ما يقرب منه و لفظه: **عرفناه إما آخذا و إما تاركا.**

و في الدر المنثور، أخرج أحمد و ابن المنذر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه فإذا عبر عنه لسانه إما شاكرا و إما كفورا و الله تعالى أعلم.**

و في أمالي الصدوق، بإسناده عن الصادق عن أبيه (عليه السلام) في حديث: **{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} قال: هي عين في دار النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) يفجر إلى دور الأنبياء و المؤمنين {يُؤْفُونَ بِالْتَّذْرِ} يعني عليا و فاطمة و الحسن و الحسين (عليه السلام) و جاريتهم {و يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} يقول عابسا كلوحا {و يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ} يقول: على شهوتهم للطعام و إيثارهم له {مِسْكِينًا} من مساكين المسلمين {و يَتِيمًا} من يتامى المسلمين {وَأَسِيرًا} من أسارى المشركين.**

و يقولون إذا أطعموهم: **{إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَ لَا شُكْرًا} قال: و الله ما قالوا هذا لهم و لكنهم أضمره في أنفسهم فأخبر الله بإضمارهم يقولون: لا نريد جزاء تكافؤنا به و لا شكورا تشنون علينا به، و لكنا إنما أطعمناكم لوجه الله و طلب ثوابه.**

و في الدر المنثور، أخرج سعيد بن منصور و ابن أبي شيبة و ابن المنذر و ابن مردويه عن الحسن قال: كان الأسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية **{و يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَ يَتِيمًا وَأَسِيرًا}.**

أقول: مدلول الرواية نزول الآية بالمدينة، ونظيرها ما رواه عن عبد بن حميد عن قتادة، وما رواه عن ابن المنذر عن ابن جريج، وما رواه عن عبد الرزاق وابن المنذر عن ابن عباس.

وفيه، أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله: **{يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا}** قال: **يقبض ما بين الأبصار.**

وفي روضة الكافي، بإسناده عن محمد بن إسحاق المدني عن أبي جعفر (عليه السلام) في صفة الجنة قال: **والثمار دانية منهم وهو قوله عز وجل: {وَ دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَ ذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا}** من قربها منهم يتناول المؤمن - من النوع الذي يشتهي من الثمار بفيه وهو متكئ وإن الأنواع من الفاكهة ليقلن لولي الله: يا ولي الله كلني قبل أن تأكل هذه قبلي.

وفي تفسير القمي في قوله: **{وَلَدَانٌ مُّخَلَّدُونَ}** قال: مسورون.

وفي المعاني، بإسناده عن عباس بن يزيد قال: **قلت لأبي عبد الله (عليه السلام) و كنت عنده ذات يوم: أخبرني عن قول الله عز وجل: {وَ إِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا}** ما هذا الملك الذي كبر الله عز وجل حتى سماه كبيراً؟ قال: إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة أرسل رسولا إلى ولي من أوليائه فيجد المحبة على بابه فتقول له: قف حتى نستأذن لك، فما يصل إليه رسول ربه إلا بإذن فهو قوله عز وجل: **{وَ إِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا}**.

وفي الجمع: **{وَ إِذَا رَأَيْتَ نَعِيمًا وَ مُلْكًا كَبِيرًا}** لا يزول ولا يفنى، عن الصادق (عليه السلام).

وفيه: **{عَالِيَهُمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ}** وروي عن الصادق (عليه السلام) في معناه: **تعلوهم الثياب فيلبسونها.**

كلام في هوية الإنسان على ما يفيدده القرآن

لا ريب أن في هذا الهيكل المحسوس الذي نسميه إنساناً مبدأ للحياة ينتسب إليه الشعور والإرادة، وقد عبر تعالى عنه في الكلام في خلق الإنسان آدم بالروح وفي سائر المواضع من كلامه بالنفس قال تعالى: **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ**

سَاجِدِينَ} الحجر: ٢٩ ص: ٧٢، و قال: {ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ} الم السجدة: ٠٩

و الذي يسبق من الآيتين إلى النظر البادئ أن الروح و البدن حقيقتان اثنتان متفارقتان نظير العجين المركب من الماء و الدقيق و الإنسان مجموع الحقيقتين فإذا قارنت الروح الجسد كان إنسانا حيا و إذا فارقت فهو الموت.

لكن يفسرها قوله تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} الم السجدة: ١١ حيث يفيد أن الروح التي يتوفاها و يأخذها قابض الأرواح هي التي يعبر عنها بلفظة «كم» و هو الإنسان بتمام حقيقته لا جزء من مجموع فالمراد بنفخ الروح في الجسد جعل الجسد بعينه إنسانا لا ضم واحد إلى واحد آخر يغيره في ذاته و آثار ذاته فالإنسان حقيقة واحدة حين تعلق روحه ببدنه و بعد مفارقة روحه البدن.

و يفيد هذا المعنى قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} المؤمنون: ١٤ فالذي أنشأه الله خلقا آخر هو النطفة التي تكونت علقة ثم مضغة ثم عظاما بعينها.

و في معناها قوله تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً} فتنقيد الشيء المنفي بالمذكور يعطي أنه كان شيئا لكن لم يكن مذكورا فقد كان أرضا أو نطفة مثلا لكن لم يكن مذكورا أنه الإنسان الفلاني ثم صار هو هو.

ففناد كلامه تعالى أن الإنسان واحد حقيقي هو المبدأ الوحيد لجميع آثار البدن الطبيعية و الآثار الروحية كما أنه مجرد في نفسه عن المادة كما يفيد أمثال قوله تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ} و قوله: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا} الزمر: ٤٢ و قوله: {ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ} و قد تقدم بيانه.

[سورة الإنسان (٧٦): الآيات ٢٣ الى ٣١]

{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً} ٢٣ {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَ لَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كُفُوراً} ٢٤ {وَ اذْكُرْ إِسْمَ رَبِّكَ

بُكْرَةً وَ أَصِيلاً} ٢٥

وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٣٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٣٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٣٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٣٩﴾ وَمَا تَشَاوُرْنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤١﴾

(بيان)

لما وصف جزاء الأبرار وما قدر لهم من النعم المقيم والملك العظيم بما صبروا في جنب الله وجه الخطاب إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأمره بالصبر لحكم ربه وأن لا يطيع هؤلاء الآثمين والكفار المحبين للعاجلة المتعلقين بها المعرضين عن الآخرة من المشركين وسائر الكفار والمنافقين وأهل الأهواء، وأن يذكر اسم ربه و يسجد له ويسبحه مستمرا عليه ثم عمم الحكم لأمته بقوله: **{إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا}**.

فهذا وجه اتصال الآيات بما قبلها وسياقها مع ذلك لا يخلو من شبه بالسياقات المكية و على تقدير مكيتها فصدر السورة مدني و ذيلها مكّي.

قوله تعالى: **{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا}** تصدير الكلام بأن و تكرار ضمير المتكلم مع الغير و الإتيان بالمفعول المطلق كل ذلك للتأكيد، و لتسجيل أن الذي نزل من القرآن نجوما متفرقة هو من الله سبحانه لم يداخله نفث شيطاني و لا هو نفساني.

قوله تعالى: **{فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كُفُورًا}** تفرّيع على ما هو لازم مضمون الآية السابقة فإن لازم كون الله سبحانه هو الذي نزل القرآن عليه أن يكون ما في القرآن من الحكم حكم ربه يجب أن يطاع فالمعنى إذا كان تنزيله منا فما فيه من الحكم حكم ربك فيجب عليك أن تصبر له فاصبر لحكم ربك.

وقوله **{وَلَا تُطْع مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا}** ورود التردد في سياق النهي يفيد عموم الحكم فالنهي عن طاعتها سواء اجتماعاً أو افتراقاً، والظاهر أن المراد بالإثم المتلبس بالمعصية و بالكفور المبالغ في الكفر فتشمل الآية الكفار والفساق جميعاً.

وسبق النهي عن طاعة الإثم والكفور بالأمر بالصبر لحكم ربه يفيد كون النهي مفسراً للأمر بفقد النهي أن لا تطع منهم آثماً إذا دعاك إلى إثمه ولا كفوراً إذا دعاك إلى كفره لأن إثم الآثم منهم وكفر الكافر مخالفان لحكم ربك وأما تعليق الحكم بالوصف المشعر بالعلية فإنما يفيد علية الإثم والكفر للنهي عن الطاعة مطلقاً لا عليتهما للنهي إذا دعا الآثم إلى خصوص إثمه والكافر إلى خصوص كفره.

قوله تعالى: **{وَأذْكَرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** أي داوم على ذكر ربك وهو الصلاة في كل بكرة وأصيل وهما الغدو والعشي.

قوله تعالى: **{وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا}** من للتبويض والمراد بالسجود له الصلاة، ويقبل ما في الآيتين من ذكر اسمه بكرة وأصيلاً والسجود له بعض الليل الانطباق على صلاة الصبح والعصر والمغرب والعشاء وهذا يؤيد نزول الآيات بمكة قبل فرض الفرائض الخمس بقوله في آية الإسراء: **{أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}** إسراء: ٧٨.

فالآيتان كقوله تعالى: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ}** هود: ١١٤، وقوله **{وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ}** طه: ١٣٠.

نعم قيل: على أن الأصيل يطلق على ما بعد الزوال فيشمل قوله **{وَأَصِيلًا}** وقتي صلاتي الظهر والعصر جميعاً، ولا يخلو من وجه.

وقوله: **{وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا}** أي في ليل طويل و وصف الليل بالطويل توضيحي لا احترازي، والمراد بالتسبيح صلاة الليل، واحتمل أن يكون طويلاً صفة لمفعول مطلق محذوف، والتقدير سبحه في الليل تسبيحاً طويلاً.

قوله تعالى: **{إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا}** تعليل لما تقدم من الأمر والنهي و الإشارة بهؤلاء إلى جمع الإثم والكفور المدلول عليه بوقوع النكرة في

سياق النهي، و المراد بالعاجلة الحياة الدنيا، و عد اليوم ثقيلًا من الاستعارة، و المراد بثقله شدته كأنه محمول ثقيل يشق حمله، و اليوم يوم القيامة.

و كون اليوم وراءهم تقررره أمامهم لأن وراء تفيد معنى الإحاطة، أو جعلهم إياه خلفهم و وراء ظهورهم بناء على إفادة **{يَذْرُونَ}** معنى الإعراض.

و المعنى: فاصبر لحكم ربك و أقم الصلاة و لا تطع الآثمين و الكفار منهم لأن هؤلاء الآثمين و الكفار يحبون الحياة الدنيا فلا يعملون إلا لها و يتركون أمامهم يوما شديدا أو يعرضون فيجعلون خلفهم يوما شديدا سيلقونه.

قوله تعالى: **{نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَ شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا}** الشد خلاف الفك، و الأسر في الأصل الشد و الربط و يطلق على ما يشد و يربط به فعنى شددنا أسرهم أحكمنا ربط مفاصلهم بالرباطات و الأعصاب و العضلات أو الأسر بمعنى المأسور و المعنى أحكمنا ربط أعضائهم المختلفة المشدودة بعضها ببعض حتى صار الواحد منهم بذلك إنسانا واحدا.

و قوله: **{وَ إِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا}** أي إذا شئنا بدلناهم أمثالهم فذهبنا بهم و جئنا بأمثالهم مكانهم و هو أماته قرن و إحياء آخرين، و قيل المراد به تبديل نشأتهم الدنيا من نشأة القيامة و هو بعيد من السياق.

و الآية في معنى دفع الدخل كان متوهما يتوهم أنهم بحبهم للدنيا و إعراضهم عن الآخرة يعجزونه تعالى و يفسدون عليه إرادته منهم أن يؤمنوا و يطيعوا فأجيب بأنهم مخلوقون لله خلقهم و شد أسرهم و إذا شاء أذهبهم و جاء بآخرين فكيف يعجزونه و خلقهم و أمرهم و حياتهم و موتهم بيده؟

قوله تعالى: **{إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا}** تقدم تفسيره في سورة المزمل و الإشارة بهذه إلى ما ذكر في السورة.

قوله تعالى: **{وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}** الاستثناء من النفي يفيد أن مشية العبد متوقفة في وجودها على مشيته تعالى فلمشيته تعالى تأثير في فعل العبد من طريق تعلقها بمشية العبد، و ليست متعلقة بفعل العبد مستقلا و بلا واسطة حتى تستلزم بطلان تأثير إرادة العبد و كون الفعل جبريا و لا أن العبد مستقل في إرادة يفعل ما يشاؤه شاء الله أو لم يشأ، فالفعل اختياري لاستناده إلى اختيار العبد، و أما

اختيار العبد فليس مستندا إلى اختيار آخر، و قد تكرر توضيح هذا البحث في مواضع مما تقدم.

و الآية مسوقة لدفع توهم أنهم مستقلون في مشيتهم منقطعون من مشية ربهم، و لعل تسجيل هذا التنبيه عليهم هو الوجه في الالتفات إلى الخطاب في قوله **{وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}** كما أن الوجه في الالتفات من التكلم بالغير إلى الغيبة في قوله: **{يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ}** هو الإشارة إلى علة الحكم فإن مسمى هذا الاسم الجليل يبتدئ منه كل شيء و ينتهي إليه كل شيء فلا تكون مشية إلا بمشيته و لا تؤثر مشية إلا بإذنه.

و قوله: **{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}** توطئة لبيان مضمون الآية التالية.

قوله تعالى: **{يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}** مفعول **{يَشَاءُ}** محذوف يدل عليه الكلام، و التقدير يدخل في رحمته من يشاء دخوله في رحمته، و لا يشاء إلا دخول من آمن و اتقى، و أما غيرهم و هم أهل الإثم و الكفر فبين حالهم بقوله: **{وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}**.

و الآية تين سنته تعالى الجارية في عباده من حيث السعادة و الشقاء، و قد علل ذلك بما في ذيل الآية السابقة من قوله **{إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}** فأفاد به أن سنته تعالى ليست سنة جزافية مبنية على الجهالة بل هو يعامل كلا من الطائفتين بما هو أهل له و سينبئهم حقيقة ما كانوا يعملون.

(بحث روائي)

و في الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: **{وَلَا تُطْعَمُنَّهُمْ أَيْمًا أَوْ كُفُورًا}** قال: حدثنا أنها نزلت في عدو الله أبي جهل.

أقول: و هو أشبهه بالتطبيق.

و في المجمع في قوله تعالى: **{وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا}** روي عن الرضا (عليه السلام): **أنه سأله أحمد بن محمد عن هذه الآية و قال: ما ذلك التسبيح؟ قال: صلاة الليل.**

و في الخرائج و الجرائح، عن القائم (عليه السلام) في حديث يقول لكامل بن إبراهيم المدني: **و جئت تسأل عن مقالة المفوضة كذبوا بل قلوبنا أوعية لمشية الله عز و جل فإذا شاء شئنا، و الله يقول {وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}**.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن مردويه من طريق ابن شهاب عن سالم عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يقول إذا خطب: كل ما هو آت قريب، لا بعد لما يأتي، ولا يعجل الله لعجلة أحد، ما شاء الله لا ما شاء الناس، يريد الناس أمراً ويريد الله أمراً، ما شاء الله كان ولو كره الناس، لا مباحد لما قرب الله، ولا مقرب لما باعد الله، لا يكون شيء إلا بإذن الله.

أقول: وفي بعض الروايات من طرق أهل البيت (عليهم السلام) تطبيق الحكم في قوله: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} والرحمة في قوله: {يُدْخِلْ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ} على الولاية وهو من الجري أو البطن وليس من التفسير في شيء.

(٧٧) سورة المرسلات مكية وهي خمسون آية (٥٠)

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ١ الى ١٥]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَ الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ١ فَالْعاصِفَاتِ عَصْفًا ٢ وَ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا ٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرَقًا ٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ ٧ فَإِذَا التُّجُومُ طُمِسَتْ ٨ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ٩ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ١٠ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِتَتْ ١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ١٢ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ١٣ وَ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمِ الْفَصْلِ ١٤ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١٥}

(بيان)

تذكر السورة يوم الفصل وهو يوم القيامة وتؤكد الإخبار بوقوعه وتشفعه بالوعيد الشديد للمكذبين به و الإنذار والتبشير لغيرهم ويربو فيها جانب الوعيد على غيره فقد كرر فيها قوله: {وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} عشر مرات.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: **{وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا}** الآية و ما يتلوها إلى تمام ست آيات إقسام منه تعالى بأمر يعبر عنها بالمرسلات فالعاصفات و الناشرات فالفارقات فالملقيات ذكرا أو نذرا، و الأوليان أعني المرسلات عرفا و العاصفات عصفا لا تخلوان لو خلتا و نفسها مع الغض عن السياق من ظهور ما في الرياح المتعاقبة الشديدة الهبوب لكن الأخيرة أعني الملقيات ذكرا أو نذرا كالصريحة في الملائكة النازلين على الرسل الحاملين لوجي الرسالة الملقين له إليهم إتماما للحجة أو إنذارا و بقية الصفات لا تأتي الحمل على ما يناسب هذا المعنى.

و حمل جميع الصفات الخمس على إرادة الرياح كما هو ظاهر المرسلات و العاصفات - على ما عرفت - يحتاج إلى تكلف شديد في توجيه الصفات الثلاث الباقية و خاصة في الصفة الأخيرة.

و كذا حمل المرسلات و العاصفات على إرادة الرياح و حمل الثلاث الباقية أو الأخيرتين أو الأخيرة فحسب على ملائكة الوحي إذ لا تناسب ظاهرا بين الرياح و بين ملائكة الوحي حتى يقارن بينها في الأقسام و ينظم الجميع في سلك واحد، و ما وجهه من مختلف التوجيهات معان بعيدة عن الذهن لا ينتقل إليها في مفتتح الكلام من غير تنبيه سابق.

فالوجه هو الغض عن هذه الأقاويل و هي كثيرة جدا لا تكاد تنضبط، و حمل المذكورات على إرادة ملائكة الوحي كتنظيرتها في مفتتح سورة الصافات **{وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا}** و في معناها قوله تعالى: **{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ}** الجن: ٢٨.

فقوله: **{وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا}** إقسام منه تعالى بها و العرف بالضم فالسكون الشعر النابت على عنق الفرس و يشبه به الأمور إذا تتابعت يقال: جاءوا كعرف الفرس، و يستعار فيقال: جاء القطا عرفا أي متتابعة و جاءوا إليه عرفا واحدا أي متتابعين، و العرف أيضا المعروف من الأمر و النهي و **{عُرْفًا}** حال بالمعنى الأول مفعول له بالمعنى الثاني، و الإرسال خلاف الإمساك، و تأنيث المرسلات باعتبار الجماعات أو باعتبار الروح التي

تنزل بها الملائكة قال تعالى: **{يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}** النحل: ٢ و قال: **{يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}** المؤمن: ١٥.

و المعنى أقسم بالجماعات المرسلات من ملائكة الوحي.

وقيل: المراد بالمرسلات عرفا الرياح المتتابعة المرسلّة وقد تقدمت الإشارة إلى ضعفه، ومثله في الضعف القول بأن المراد بها الأنبياء (عليهم السلام) فلا يلائمه ما يتلوها.

قوله تعالى: **{فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا}** عطف على المرسلات والمراد بالعصف سرعة السير استعارة من عصف الرياح أي سرعة هبوبها إشارة إلى سرعة سيرها إلى ما أرسلت إليه، والمعنى أقسم بالملائكة الذين يرسلون متتابعين فيسرعون في سيرهم كالرياح العاصفة.

قوله تعالى: **{وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا}** إقسام آخر، ونشر الصحيفة و الكتاب و الثوب و نحوها: بسطه، والمراد بالنشر نشر صحف الوحي كما يشير إليه قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ فِي صُحُفٍ مُكْرَمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ}** عبس: ١٦ و المعنى وأقسم بالملائكة الناشرين للصحف المكتوبة عليها الوحي للنبي ليتلقاه. وقيل: المراد بها الرياح ينشرها الله تعالى بين يدي رحمته وقيل: الرياح الناشرة للسحاب، وقيل: الملائكة الناشرين لصحائف الأعمال، وقيل: الملائكة نشروا أجنحتهم حين النزول وقيل: غير ذلك.

قوله تعالى: **{فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا}** المراد به الفرق بين الحق و الباطل و بين الحلال و الحرام، و الفرق المذكور صفة متفرعة على النشر المذكور.

قوله تعالى: **{فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا}** المراد بالذكر القرآن يقرءونه على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أو مطلق الوحي النازل على الأنبياء المقرو عليهم.

و الصفات الثلاث أعني النشر و الفرق و إلقاء الذكر مترتبة فإن الفرق بين الحق و الباطل و الحلال و الحرام يتحقق بنشر الصحف و إلقاء الذكر فبالنشر يشرع الفرق في التحقق و بالتلاوة يتم تحققه فالنشر يترتب عليه مرتبة من وجود الفرق و يترتب عليها تمام وجوده بالإلقاء.

وقوله: **{عُذْرًا أَوْ نُذْرًا}** هما من المفعول له و**{أَوْ}** للتنويع قيل: هما مصدران بمعنى الإعذار والإنذار، و الإعذار الإتيان بما يصير به معذورا والمعنى أنهم يلقون الذكر لتكون عذرا لعباده المؤمنين بالذكر و تخويفا لغيرهم. وقيل: ليكون عذرا يعتذر به الله إلى عباده في العقاب أنه لم يكن إلا على وجه الحكمة، و يؤول إلى إتمام الحجّة، فحصل المعنى عليه أنهم يلقون الذكر ليكون إتماما للحجة على المكذبين و تخويفا لغيرهم، و هو معنى حسن. قوله تعالى: **{إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ}** جواب القسم، و ما موصولة و الخطاب لعامة البشر، و المراد بما توعدون يوم القيامة بما فيه من العقاب و الثواب و الواقع أبلغ من الكائن لما فيه من شائبة الاستقرار، و المعنى أن الذي وعدكم الله به من البعث و العقاب و الثواب سيتحقق لا محالة.

كلام في إقسامه تعالى في القرآن

من لطيف صنعة البيان في هذه الآيات الست أنها مع ما تتضمن الإقسام لتأكيد الخبر الذي في الجواب تتضمن الحجّة على مضمون الجواب و هو وقوع الجزاء الموعود فإن التدبير الربوبي الذي يشير إليه القسم أعني إرسال الرسائل العاصفات و نشرها الصحف و فرقها و إلقاءها الذكر للنبي تدبير لا يتم إلا مع وجود التكليف الإلهي و التكليف لا يتم إلا مع تحتم وجود يوم معد للجزاء يجازى فيه العاصي و المطيع من المكلفين. فالذي أقسم تعالى به من التدبير لتأكيد وقوع الجزاء الموعود هو بعينه حجة على وقوعه كأنه قيل: أقسم بهذه الحجّة أن مدلولها واقع.

و إذا تأملت الموارد التي أورد فيها القسم في كلامه تعالى و أمعنت فيها وجدت المقسم به فيها حجة دالة على حقية الجواب كقوله تعالى في الرزق: **{فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ}** الذاريات: ٢٣ فإن ربوبية السماء و الأرض هي المبدأ لرزق المرزوقين، و قوله: **{لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}** الحجر: ٧٢ فإن حياة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) الطاهرة المصونة بعصمة من الله دالة على سكرهم و عمههم، و قوله: **{وَ الشَّمْسِ وَ ضُحَاهَا}** - إلى أن قال - **{وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَ قَدْ خَابَ مَنْ**

دَسَّاهَا الشمس: ١٠ فإن هذا النظام المتقن المنتهي إلى النفس الملهمة المميزة لفجورها و تقواها هو الدليل على فلاح من زكاها و خيبة من دساها.

و على هذا النسق سائر ما ورد من القسم في كلامه تعالى و إن كان بعضها لا يخلو من خفاء يحوج إلى إمعان من النظر كقوله: **{وَالَّتَيْنِ وَ الزَّيْتُونَ وَ طُورِ سَيْنِينَ}** التين: ٢ و عليك بالتدبر فيها.

[بيان]

قوله تعالى: **{فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ}** - إلى قوله - **{أُفَّتَتْ}** بيان لليوم الموعود الذي أخبر بوقوعه في قوله: **{إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ}** و جواب إذا محذوف يدل عليه قوله: **{لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ}** - إلى قوله - **{لِلْمُكَذِّبِينَ}**.

و قد عرف سبحانه اليوم الموعود بذكر حوادث واقعة تلازم انقراض العالم الإنساني و انقطاع النظام الدنيوي كأنطماس النجوم و انشقاق الأرض و اندكك الجبال و تحول النظام إلى نظام آخر يغيره، و قد تكرر ذلك في كثير من السور القرآنية و خاصة السور القصار كسورة النبا و النازعات و التكوير و الانفطار و الانشقاق و الفجر و الزلزال و القارعة، و غيرها، و قد عدت الأمور المذكورة فيها في الأخبار من أشرط الساعة.

و من المعلوم بالضرورة من بيانات الكتاب و السنة أن نظام الحياة في جميع شئونها في الآخرة غير نظامها في الدنيا فالدار الآخرة دار أبدية فيها محض السعادة لساكنيها لهم فيها ما يشاءون أو محض الشقاء و ليس لهم فيها إلا ما يكرهون و الدار الدنيا دار فناء و زوال لا يحكم فيها إلا الأسباب و العوامل الخارجية الظاهرية مخلوط فيها الموت بالحياة، و فقدان بالوجدان، و الشقاء بالسعادة، و التعب بالراحة، و المساءة بالسرور، و الآخرة دار جزاء و لا عمل و الدنيا دار عمل و لا جزاء، و بالجملة النشأة غير النشأة.

فتعريفه تعالى نشأة البعث و الجزاء بأشرطها التي فيها انطواء بساط الدنيا بخراب بنيان أرضها و انتساف جبالها و انشقاق سمائها و انطماس نجومها إلى غير ذلك من قبيل تحديد نشأة بسقوط النظام الحاكم في نشأة أخرى قال تعالى: **{وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ}** الواقعة: ٦٢.

فقوله: **{فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ}** أي محي أثرها من النور وغيره، وطمس إزالة الأثر بالمحو قال تعالى: **{وَ إِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ}** التكويز: ٠٢.

وقوله: **{وَ إِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ}** أي انشقت، و الفرج و الفرجة الشق بين الشئين قال تعالى: **{إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ}** الانشقاق: ٠١.

وقوله: **{وَ إِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ}** أي قلعت و أزيلت من قولهم: نسفت الريح الشيء أي اقتلعته و أزالته قال تعالى: **{وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا}** طه: ٠١٠٥.

وقوله: **{وَ إِذَا الرُّسُلُ أُقِيتَتْ}** أي عين لها الوقت الذي تحضر فيه للشهادة على الأمم أو بلغت الوقت الذي تنتظره لأداء شهادتها على الأمم من التأقيت بمعنى التوقيت، قال تعالى: **{فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ}** الأعراف: ٦، و قال: **{يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ}** المائدة: ٠١٠٩.

قوله تعالى: **{لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ}** - إلى قوله - **{لِلْمُكَذِّبِينَ}** الأجل المدة المضروبة للشيء، و التأجيل جعل الأجل للشيء، و يستعمل في لازمه و هو التأخير كقولهم: دين مؤجل أي له مدة بخلاف الحال و هذا المعنى هو الأنسب للآية، و الضمير في **{أُجِّلَتْ}** للأمر المذكورة قبلا من طمس النجوم و فرج السماء و نسف الجبال و تأقيت الرسل، و المعنى لأي يوم أخرت يوم أخرت هذه الأمور.

و احتمال أن يكون **{أُجِّلَتْ}** بمعنى ضرب الأجل للشيء و أن يكون الضمير المقدر فيه راجعا إلى الرسل، أو إلى ما يشعر به الكلام من الأمور المتعلقة بالرسل مما أخبروا به من أحوال الآخرة و أهوالها و تعذيب الكافرين و تنعيم المؤمنين فيها، و لا يخلو كل ذلك من خفاء.

و قد سيقت الآية و التي بعدها أعني قوله: **{لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ}** في صورة الاستفهام و جوابه للتعظيم و التهويل و التعجيب و أصل المعنى أخرت هذه الأمور ليوم الفصل.

و هذا النوع من الجمل الاستفهامية في معنى تقدير القول، و المعنى أن من عظمة هذا اليوم و هوله و كونه عجا أنه يسأل فيقال: لأي يوم أخرت هذه الأمور العظيمة الهائلة العجيبة فيجاب: ليوم الفصل.

وقوله: **{لِيَوْمِ الْفَصْلِ}** هو يوم الجزاء الذي فيه فصل القضاء قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** الحج: ٠١٧.

وقوله: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفُضْلِ}** تعظيم لليوم و تفخيم لأمره.

وقوله: **{وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}** الويل الهلاك، والمراد بالمكذبين المكذبون بيوم الفصل الذي فيه ما يوعدون فإن الآيات مسوقة لبيان وقوعه و قد أقسم على أنه واقع.

وفي الآية دعاء على المكذبين، و قد استغنى به عن ذكر جواب إذا في قوله: **{فَإِذَا الْتُجُومٌ طُمِسَتْ}** إلخ و التقدير فإذا كان كذا و كذا وقع ما توعدون من العذاب على التكذيب أو التقدير فإذا كان كذا و كذا كان يوم الفصل و هلك المكذبون به.

(بحث روائي)

في الخصال، عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: أسرع الشيب إليك يا رسول الله قال (صلى الله عليه وآله وسلم): **شيبتي هود و الواقعة و المرسلات و عم يتساءلون.**

و في الدر المنثور، أخرج البخاري و مسلم و النسائي و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: بينما نحن مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في غار بمنى إذ نزلت عليه سورة و المرسلات عرفا فإنه يتلوها و إني لألقاها من فيه و إن فاه لرطب بها إذ وثبت عليه حية فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **اقتلوها فابتدرناها فذهبت فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و قيت شرما كما و قيت شرها.** أقول: و رواها أيضا بطريقتين آخرين.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا}** قال: آيات تتبع بعضها بعضا.

و في الجمع: في الآية و قيل: إنها الملائكة أرسلت بالمعروف من أمر الله و نهيته. في رواية الهروي عن ابن مسعود، و عن أبي حمزة الثمالي عن أصحاب علي عنه (عليه السلام).

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{فَإِذَا الْتُجُومٌ طُمِسَتْ}** قال: يذهب نورها و تسقط.

و فيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله: **{فَإِذَا الْتُجُومٌ طُمِسَتْ}** فطمسها ذهاب ضوءها **{وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ}** قال: تفرج و تنشق **{وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِتَتْ}** قال: بعثت في أوقات مختلفة.

و في الجمع، قال الصادق (عليه السلام): **{أُقِتَتْ}** أي بعثت في أوقات مختلفة.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{لَأَيَّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ}** قال: أخرت.

[سورة المرسلات (٧٧): الآيات ١٦ الى ٥٠]

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُنْبِئُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَآمَوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَايِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعَنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَغُيُوبٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلُومُنِي لَمَكِّدِيْنَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

(بيان)

حجج دالة على توحيد الربوبية تقضي بوجود يوم الفصل الذي فيه جزاء المكذبين به، وإشارة إلى ما فيه من الجزاء المعد لهم الذي كانوا يكذبون به، وإلى ما فيه من النعمة والكرامة للمتقين، وتختتم بتوبيخهم وذمهم على استكبارهم عن عبادته تعالى والإيمان بكلامه.

قوله تعالى: **{أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُنْبِئُهُمُ الْآخِرِينَ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ}** الاستفهام للإنكار، والمراد بالأولين أمثال قوم نوح وعاد وثمود من الأمم القديمة عهدا، وبالآخرين الملحقون بهم من الأمم الغابرة، والإتيان جعل الشيء أثر الشيء.

وقوله: **{ثُمَّ نُنْبِئُهُمُ}** برفع تتبع على الاستيناف وليس بمعطوف على **{نُهْلِكِ}** وإلا لجزم.

والمعنى قد أهلكنا المكذبين من الأمم الأولين ثم إنا نهلك الأمم الآخرين على أثرهم.

وقوله: **{كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ}** في موضع التعليل لما تقدمه ولذا أورد بالفصل من غير عطف كان قائلا قال: لما ذا أهلكوا؟ فقل: كذلك نفعل بالمجرمين. والآيات - كما ترى - إنذار وإرجاع للبيان إلى الأصل المضروب في السورة أعني قوله: **{وَيَلُومُنِي لَمَكِّدِيْنَ}** وهي بعينها حجة على توحيد الربوبية فإن إهلاك المجرمين من الإنسان تصرف في العالم الإنساني وتديير، وإذ ليس المهلك إلا الله وقد اعترف به المشركون فهو الرب لا رب سواه ولا إله غيره.

على أنها تدل على وجود يوم الفصل لأن إهلاك قوم لإجرامهم لا يتم إلا بعد توجه تكليف إليهم يعصونه ولا معنى للتكليف إلا مع مجازاة المطيع بالثواب والعاصي بالعقاب فهناك يوم يفصل فيه القضاء فيثاب فيه المطيع ويعاقب فيه العاصي وليس هو الثواب والعقاب الدنيويين لأنهما لا يستوعبان في هذه الدار فهناك يوم يجازى فيه كل بما عمل، وهو يوم الفصل ذلك يوم مجموع له الناس.

قوله تعالى: **{أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}** - إلى قوله - **{فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ}** الاستفهام للإنكار و الماء المهين الحقير قليل الغناء و المراد به النطفة، و المراد بالقرار المكين الرحم و بقوله: **{قَدَرٍ مَعْلُومٍ}** مدة الحمل.

و قوله: **{فَقَدَرْنَا}** من القدر بمعنى التقدير، و الفاء لتفريع القدر على الخلق أي خلقناكم فقدرنا ما سيجري عليكم من الحوادث و ما يستقبلكم من الأوصاف و الأحوال من طول العمر و قصره و هيئة و جمال و صحة و مرض و رزق إلى غير ذلك.

و احتمال أن يكون **{فَقَدَرْنَا}** من القدرة مقابل العجز و المراد فقدرنا على جميع ذلك، و ما تقدم أوجه.

و المعنى: قد خلقناكم من ماء حقير هو النطفة فجعلنا ذلك الماء في قرار مكين هي الرحم إلى مدة معلومة هي مدة الحمل فقدرنا جميع ما يتعلق بوجودكم من الحوادث و الصفات و الأحوال فنعم المقدرون نحن.

و يجري في كون مضمون هذه الآيات حجة على توحيد الربوبية نظير البيان السابق في الآيات المتقدمة، و كذا في كونه حجة على تحقق يوم الفصل فإن الربوبية تستوجب خضوع المربوبين لساحتها و هو الدين المتضمن للتكليف، و لا يتم التكليف إلا بجعل جزاء على الطاعة و العصيان، و اليوم الذي يجازى فيه بالأعمال هو يوم الفصل.

قوله تعالى: **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءَ وَ أَمْواتًا}** - إلى قوله - **{فُرَاتًا}** الكفت و الكفات بمعنى الضم و الجمع أي أ لم نجعل الأرض كفاتا يجمع العباد أحياء و أمواتا، و قيل: الكفات جمع كفت بمعنى الوعاء، و المعنى أ لم نجعل الأرض أوعية تجمع الأحياء و الأموات.

و قوله: **{وَ جَعَلْنَا فِيهَا رَواسِيًّ شَامِخَاتٍ}** الرواسي الثابتات من الجبال، و الشامخات العاليات، و كان في ذكر الرواسي توطئة لقوله: **{وَ أَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا}** لأن الأنهار و العيون الطبيعية تنفجر من الجبال فتجري على السهول، و الفرات الماء العذب.

و يجري في حجة الآيات نظير البيان السابق في الآيات المتقدمة.

قوله تعالى: **{انظُرُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكذِّبُونَ}** حكاية لما يقال لهم يوم الفصل و القائل هو الله سبحانه بقرينة قوله في آخر الآيات: **{فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونَ}** و المراد بما كانوا

به يكذبون: جهنم، و الانطلاق الانتقال من مكان إلى مكان من غير مكث، و المعنى يقال لهم: انتقلوا من المحشر من غير مكث إلى النار التي كنتم تكذبون به.

قوله تعالى: **{انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ}** ذكروا أن المراد بهذا الظل ظل دخان نار جهنم قال تعالى: **{وِظِلِّ مِنْ يَحْمُومٍ}** الواقعة: ٤٣.

و ذكروا أن في ذكر انشعابه إلى ثلاث شعب إشارة إلى عظم الدخان فإن الدخان العظيم يتفرق يتفرق الدوائب.

قوله تعالى: **{لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ}** الظل الظليل هو المانع من الحر و الأذى بستره على المستظل فكون الظل غير ظليل كونه لا يمنع ذلك، و اللهب ما يعلو على النار من أحمر و أصفر و أخضر.

قوله تعالى: **{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهَ جِمَالَتٌ صُفْرٌ}** ضمير أنها للنار المعلومة من السياق، و الشرر ما يتطاير من النار، و القصر معروف، و الجمالة جمع جمل و هو البعير. و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ}** الإشارة إلى يوم الفصل، و المراد بالإذن الإذن في النطق أو في الاعتذار.

و قوله: **{فَيَعْتَذِرُونَ}** معطوف على **{يُؤْذَنُ}** منتظم معه في سلك النفي، و المعنى هذا اليوم يوم لا ينطقون فيه أي أهل المحشر من الناس و لا يؤذن لهم في النطق أو في الاعتذار فلا يعتذرون، و لا ينافي نفي النطق ها هنا إثباته في آيات أخر لأن اليوم ذو مواقف كثيرة مختلفة يسألون في بعضها فينطقون و يختم على أفواههم في آخر فلا ينطقون.

و قد تقدم في تفسير قوله تعالى: **{يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ}** هود: ١٠٥ فليراجع.

قوله تعالى: **{هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعًاكُمْ وَالْأُولِينَ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونَ}** سمي يوم الفصل لما أن الله تعالى يفصل و يميز فيه بين أهل الحق و أهل الباطل بالقضاء بينهم قال تعالى: **{إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}** السجدة: ٢٥، و قال: **{إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}** يونس: ٩٣.

و الخطاب في قوله: **{جَمْعًاكُمْ وَالْأُولِينَ}** لمكذبي هذه الأمة بما أنهم من الآخرين و لذا قولوا بالأولين قال تعالى: **{ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ}** هود: ١٠٣ و قال: **{وَحَشَرْنَاَهُمْ}**

فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا { الكهف: ٥٦٧.

وقوله: {فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا} أي إن كانت لكم حيلة تحتالون بي في دفع عذابي عن أنفسكم فاحتالوا، وهذا خطاب تعجيزي منبئ عن انسلاب القوة والقدرة عنهم يومئذ بالكلية بظهور أن لا قوة إلا لله عز اسمه قال تعالى: {وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} البقرة: ١٦٦.

والآية أعني قوله: {فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا} أوسع مدلولاً من قوله: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطْعَمْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} الرحمن: ٣٣ لاختصاصه بنفي القدرة على الفرار بخلاف الآية التي نحن فيها وفي قوله: {فَكِيدُوا} التفات من التكلم مع الغير إلى التكلم وحده والنكته فيه أن متعلق هذا الأمر التعجيزي إنما هو الكيد لمن له القوة والقدرة فحسب وهو الله وحده ولو قيل: فكيدونا فأت الإشعار بالتوحد.

قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ} - إلى قوله - {الْمُحْسِنِينَ} الظلال والعيون ظلال الجنة وعيونها التي يتعمون بالاستظلال بها وشربها، والفواكه جمع فاكهة وهي الثمرة.

وقوله: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} مفاده الإذن والإباحة، وكان الأكل والشرب كناية عن مطلق التمتع بنعم الجنة والتصرف فيها وإن لم يكن بالأكل والشرب، وهو شائع كما يطلق أكل المال على مطلق التصرف فيه.

وقوله: {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} تسجيل لسعادتهم.

قوله تعالى: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ} الخطاب من قبيل قولهم: افعل ما شئت فإنه لا ينفكك، وهذا النوع من الأمر إياس للمخاطب أن ينتفع بما يأتي به من الفعل للحصول على ما يريد، ومنه قوله: {فَأَقْصِرْ مَا أَنْتَ قَاصِرٌ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا} طه: ٧٢، وقوله: {اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} حم السجدة:

٥٤٠

فقوله: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا} أي تمتعوا قليلاً أو زماناً قليلاً إياس لهم من أن ينتفعوا بمثل الأكل والتمتع في دفع العذاب عن أنفسهم فليأكلوا وليتمتعوا قليلاً فليس يدفع عنهم شيئاً.

وإنما ذكر الأكل و التمتع لأن منكري المعاد لا يرون من السعادة إلا سعادة الحياة الدنيا و لا يرون لها من السعادة إلا الفوز بالأكل و التمتع كالحيوان العجم قال تعالى: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ}** سورة محمد: ١٢.

و قوله: **{إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ}** تعليل لما يستفاد من الجملة السابقة المشتملة على الأمر أي لا ينفعكم الأكل و التمتع قليلا لأنكم مجرمون بتكذيبكم بيوم الفصل و جزاء المكذبين به النار لا محالة.
قوله تعالى: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ}** المراد بالركوع الصلاة كما قيل و لعل ذلك باعتبار اشتغالها على الركوع.

و قيل: المراد بالركوع المأمور به الخشوع و الخضوع و التواضع له تعالى باستجابة دعوته و قبول كلامه و اتباع دينه، و عبادته.

و قيل: المراد بالركوع ما يؤمرون بالسجود يوم القيامة كما يشير إليه قوله تعالى **{وَيُذْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ}** القلم: ٤٢ و الوجهان لا يخلوان من بعد.

و وجه اتصال الآية بما قبلها أن الكلام كان مسوقا لتهديد المكذبين بيوم الفصل و بيان تبعه تكذيبهم به و تم ذلك في هذه الآية بأنهم لا يعبدون الله إذا دعوا إلى عبادته كما ينكرون ذلك اليوم فلا معنى للعبادة مع نفي الجزاء، و ليكون كالتوطئة لقوله الآتي: **{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}**.

و نسب إلى الزمخشري أن الآية متصلة بقوله في الآية السابقة: **{لِلْمُكَذِّبِينَ}** كأنه قيل: ويل يومئذ للذين كذبوا و الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون.

و في الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ}** إنلخ وجهه الإعراض عن مخاطبتهم بعد تركهم و أنفسهم يفعلون ما يشاءون بقوله: **{كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا}**.

قوله تعالى: **{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}** أي إذا لم يؤمنوا بالقرآن و هو آية معجزة إلهية، و قد بين لهم أن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له و أن أمامهم يوم الفصل بأوضح البيان و ساطع البرهان فبأي كلام بعد القرآن يؤمنون.

و هذا إيثار من إيمانهم بالله و رسوله و اليوم الآخر و كالتنبيه على أن رفع اليد عن دعوتهم إلى الإيمان بإلقاء قوله: **{كُلُوا وَ تَمَتَّعُوا}** إليهم في محله فليسوا بمؤمنين و لا فائدة في دعوتهم غير أن فيها إتماما للحجة.

(بحث روائي)

في تفسير القمي، وقوله: **{أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ}** قال: منتن **{فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ}** قال: في الرحم، وأما قوله: **{إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ}** يقول: منتهى الأجل.

أقول: وفي أصول الكافي، في رواية عن أبي الحسن الماضي (عليه السلام): تطبيق قوله: **{أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ}** على مكذبي الرسل في طاعة الأوصياء، وقوله: **{ثُمَّ نُنْبِئُهُمُ الْآخِرِينَ}** على من أجرم إلى آل محمد (عليهم السلام). على اضطراب في متن الخبر، وهو من الجري دون التفسير.

وفيه: وقوله: **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءَ وَآمُوتَاتٍ}** قال الكفات المساكن

وقال: **نظر أمير المؤمنين (عليه السلام) في رجوعه من صفين إلى المقابر فقال: هذه كفات الأموات أي مساكنهم ثم نظر إلى بيوت الكوفة فقال: هذه كفات الأحياء.** ثم تلا قوله: **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَاءَ وَآمُوتَاتٍ}**.

أقول: وروي في المعاني، بإسناده عن حماد عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه نظر إلى المقابر. وذكر مثل الحديث السابق.

وفيه: وقوله: **{وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَايِخَاتٍ}** قال: جبال مرتفعة.

وفيه: وقوله: **{انْظِرُّوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ}** قال فيه ثلاث شعب من النار وقوله: **{إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ}** قال: شر النار مثل القصور والجبال.

وفيه: وقوله **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَغُيُونٍ}** قال: في ظلال من نور أنور من الشمس.

وفي الجمع في قوله: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ}** قال مقاتل: نزلت في ثقيف حين أمرهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالصلاة فقالوا: لا ننحني. والرواية لا ننحني فإن ذلك سبة علينا. فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): **لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود.**

أقول: وفي انطباق القصة - وقد وقعت بعد الهجرة - على الآية خفاء.

وفي تفسير القمي في الآية السابقة قال: وإذا قيل لهم «تولوا الإمام لم يتولوه».

أقول: وهو من الجري دون التفسير.

(٧٨) سورة النبا مكية و هي أربعون آية (٤٠)

[سورة النبا (٧٨): الآيات ١ الى ١٦]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ١ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا ١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ١٦}

(بيان)

تتضمن السورة الإخبار بمجيء يوم الفصل و صفته و الاحتجاج على أنه حق لا ريب فيه، فقد افتتحت بذكر تساؤلهم عن نبئه ثم ذكر في سياق الجواب و لحن التهديد أنهم سيعلمون ثم احتج على ثبوته بالإشارة إلى النظام المشهود في الكون بما فيه من التدبير الحكيم الدال بأوضح الدلالة على أن وراء هذه النشأة المتغيرة الدائرة نشأة ثابتة باقية، و أن عقيب هذه الدار التي فيها عمل و لا جزء دارا فيها جزء و لا عمل فهناك يوم يفصح عنه هذا النظام.

ثم تصف اليوم بما يقع فيه من إحضار الناس و حضورهم و انقلاب الطاغين إلى عذاب أليم و المتقين إلى نعيم مقيم و يختم الكلام بكلمة في الإنذار، و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ} {عَمَّ} أصله عما و ما استفهامية تحذف الألف منها

اطرادا إذا دخل عليها حرف الجر نحو لم و مم و على م و إلى م، و التساؤل سؤال القوم بعضهم بعضا عن أمر أو سؤال بعضهم بعد بعض عن أمر و إن كان المسئول غيرهم، فهم كان يسأل بعضهم بعضا عن أمر أو كان بعضهم بعد بعض يسأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن أمر و حيث كان سياق السورة سياق جواب يغلب فيه الإنذار و الوعيد تأيد به أن المتسائلين هم كفار مكة من المشركين النافين للنبوّة و المعاد دون المؤمنين و دون الكفار و المؤمنين جميعا.

فالتساؤل من المشركين و الإخبار عنه في صورة الاستفهام للإشعار بهوانه و حقارته لظهور الجواب عنه ظهورا ما كان ينبغي معه أن يتساءلوا عنه.

قوله تعالى: **{عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}** جواب عن الاستفهام السابق أي يتساءلون عن النبيا العظيم، و لا يخفى ما في توصيف النبيا المتسائل عنه بالعظيم من تعظيمه و تفخيم أمره.

و المراد بالنبيا العظيم نبأ البعث و القيامة الذي يهتم به القرآن العظيم في سورة المكية و لا سيما في العتائق النازلة في أوائل البعثة كل الاهتمام.

و يؤيد ذلك سياق آيات السورة بما فيه من الاقتصار على ذكر صفة يوم الفصل و ما تقدم عليها من الحجّة على أنه حق واقع.

و قيل: المراد به نبأ القرآن العظيم، و يدفعه كون السياق بحسب مصبه أجنبيا عنه و إن كان الكلام لا يخلو من إشارة إليه استلزاما.

و قيل: النبأ العظيم ما كانوا يختلفون فيه من إثبات الصانع و صفاته و الملائكة و الرسل و البعث و الجنة و النار و غيرها، و كان القائل به اعتبر فيه ما في السورة من الإشارة إلى حقيقة جميع ذلك مما تتضمنه الدعوة الحقّة الإسلامية.

و يدفعه أن الإشارة إلى ذلك كله من لوازم صفة البعث المتضمنة لجزاء الاعتقاد الحق و العمل الصالح و الكفر و الاجرام، و قد دخل فيما في السورة من صفة يوم الفصل تبعا و بالقصد الثاني.

على أن المراد بهؤلاء المتسائلين - كما تقدم - المشركون و هم يثبتون الصانع و الملائكة و ينفون ما وراء ذلك مما ذكر.

و قوله: **{الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}** إنما اختلفوا في نحو إنكاره و هم متفقون في نفيه

فمنهم من كان يرى استحالته فينكره كما هو ظاهر قولهم على ما حكاه الله: **{هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّتُمْ كُلٌّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}** سبأ: ٧، و منهم من كان يستبعده فينكره و هو قولهم: **{أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَاباً وَ عِظَاماً أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ}** المؤمنون: ٣٦، و منهم من كان يشك فيه فينكره قال تعالى: **{بَلْ إِذَارَكَ عِلْمُهُمْ فِي آلِ آخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا}** النمل ٦٦، و منهم من كان يوقن به لكنه لا يؤمن عنادا فينكره كما كان لا يؤمن بالتوحيد و النبوة و سائر فروع الدين بعد تمام الحجّة عنادا قال تعالى: **{بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَ نُفُورٍ}** الملك: ٢١.

و المحصل من سياق الآيات الثلاث و ما يتلوها أنهم لما سمعوا ما ينذرهم به القرآن من أمر البعث و الجزاء يوم الفصل ثقل عليهم ذلك فغدوا يسأل بعضهم بعضا عن شأن هذا النبا العجيب الذي لم يكن مما قرع أسماعهم حتى اليوم، و ربما راجعوا النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و المؤمنين و سألوهم عن صفة اليوم و أنه متى هذا الوعد إن كنتم صادقين و ربما كانوا يراجعون في بعض ما قرع سمعهم من حقائق القرآن و احتوته دعوته الجديدة أهل الكتاب و خاصة اليهود و يستمدونهم في فهمه.

و قد أشار تعالى في هذه السورة إلى قصة تساؤلهم في صورة السؤال و الجواب فقال: **{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ}** و هو سؤال عما يتساءلون عنه. ثم قال: **{عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ}** و هو جواب السؤال عما يتساءلون عنه. ثم قال: **{كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}** إلخ، و هو جواب عن تساؤلهم.

و للمفسرين في مفردات الآيات الثلاث و تقرير معانيها و جوه كثيرة تركها لعدم ملاءمتها السياق و الذي أوردناه هو الذي يعطيه السياق.

قوله تعالى: **{كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}** ردع عن تساؤلهم عنه بانين ذلك على الاختلاف في النفي أي ليرتدعوا عن التساؤل لأنه سينكشف لهم الأمر بوقوع هذا النبا فيعلمونه، و في هذا التعبير تهديد كما في قوله: **{وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}** الشعراء: ٢٢٧.

و قوله: **{ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}** تأكيد للردع و التهديد السابقين و لحن التهديد هو القرينة على أن المتسائلين هم المشركون النافون للبعث و الجزاء دون المؤمنين و دون المشركين و المؤمنين جميعا.

قوله تعالى: **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا}** الآية إلى تمام إحدى عشرة آية مسوق سوق الاحتجاج على ثبوت البعث والجزاء وتحقق هذا النبأ العظيم ولازم ثبوته صحة ما في قوله: **{سَيَعْلَمُونَ}** من الإخبار بأنهم سيشهدونه فيعملون.

تقرير الحجة: أن العالم المشهود بأرضه وسمائه وليله ونهاره والبشر المتناسلين والنظام الجاري فيها والتدبير المتقن الدقيق لأموها من المحال أن يكون لعبا باطلا لا غاية لها ثابتة باقية فمن الضروري أن يستعقب هذا النظام المتحول المتغير الدائر إلى عالم ذي نظام ثابت باق، وأن يظهر فيه أثر الصلاح الذي تدعو إليه الفطرة الإنسانية والفساد الذي ترتدع عنه، ولم يظهر في هذا العالم المشهود أعني سعادة المتقين وشقاء المفسدين، ومن المحال أن يودع الله الفطرة دعوة غريزية أو ردعا غريزيا بالنسبة إلى ما لا أثر له في الخارج ولا حظ له من الوقوع فهناك يوم يلقاه الإنسان ويجزي فيه على عمله إن خيرا نخبيرا وإن شرا فشرًا.

فالآيات في معنى قوله تعالى **{وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}** ص: ٠٢٨

وبهذا البيان يثبت أن هناك يوما يلقاه الإنسان ويجزي فيه بما عمل إن خيرا نخبيرا وإن شرا فشرًا فليس للمشركين أن يختلفوا فيه فيشك فيهم ويستبعده طائفة، ويحيله قوم، ولا يؤمن به مع العلم به عنادا آخرون، فالיום ضروري الوقوع والجزاء لا ريب فيه.

ويظهر من بعضهم أن الآيات مسوقة لإثبات القدرة وأن العود يماثل البدء والقادر على الإبداء قادر على الإعادة، وهذه الحجة وإن كانت تامة وقد وقعت في كلامه تعالى لكنها حجة على الإمكان دون الوقوع والسياق فيما نحن فيه سياق الوقوع دون الإمكان فالأنسب في تقريرها ما تقدم.

و كيف كان فقوله: **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا}** الاستفهام للإنكار، والمهاد الوطاء والقرار الذي يتصرف فيه، ويطلق على البساط الذي يجلس عليه والمعنى قد جعلنا الأرض قرارا لكم تستقرون عليها وتتصرفون فيها.

قوله تعالى: **{وَالْجِبَالُ أَوْتَادًا}** الأوتاد جمع وتد وهو المسمار إلا أنه أغلظ منه كما في المجمع، ولعل عد الجبال أوتادا مبني على أن عمدة جبال الأرض من عمل البركانات بشق الأرض فتخرج منه مواد أرضية مذابة تنتصب على فم الشقة متراكمة كهيئة الوتد المنسوب على الأرض تسكن به فورة البركان الذي تحته فيرتفع به ما في الأرض من الاضطراب والميدان.

و عن بعضهم: أن المراد بجعل الجبال أوتادا انتظام معاش أهل الأرض بما أودع فيها من المنافع ولولاها لمادت الأرض بهم أي لما تهيأت لانتفاعهم. وفيه أنه صرف اللفظ عن ظاهره من غير ضرورة موجبة.

قوله تعالى: **{وَوَخَّلَفْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}** أي زوجا زوجا من ذكر وأنثى لتجري بينكم سنة التناسل فيدوم بقاء النوع إلى ما شاء الله.

وقيل: المراد به الإشكال أي كل منكم شكل للآخر. وقيل: المراد به الأصناف أي أصنافا مختلفة كالأبيض والأسود والأحمر والأصفر إلى غير ذلك، وقيل: المراد به خلق كل منهم من منين مني الرجل و مني المرأة وهذه وجوه ضعيفة.

قيل: الالتفات في الآية من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في الإلزام والتبكيث.

قوله تعالى: **{وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا}** السبات الراحة والدعة فإن في المنام سكوتا وراحة للقوى الحيوانية البدنية مما اعتراها في اليقظة من التعب والكلال بواسطة تصرفات النفس فيها.

وقيل: السبات بمعنى القطع وفي النوم قطع التصرفات النفسانية في البدن، وهو قريب من سابقه.

وقيل: المراد بالسبات الموت، وقد عد سبحانه النوم من الموت حيث قال: **{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ}** الأنعام: ٦٠ وهو بعيد، وأما الآية فإنه تعالى عد النوم توفيا ولم يعده موتا بل القرآن يصرح بخلافه قال تعالى: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا}** الزمر: ٤٢.

قوله تعالى: **{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا}** أي ساترا يستر الأشياء بما فيه من الظلمة الساترة للمبصرات كما يستر اللباس البدن وهذا سبب إلهي يدعو إلى ترك التقلب والحركة والميل إلى السكن والدعة والرجوع إلى الأهل والمنزل.

و عن بعضهم أن المراد بكون الليل لباسا كونه كاللباس للنهار يسهل إخراجه منه وهو كما ترى.

قوله تعالى: **{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ مَعَاشًا}** العيش هو الحياة على ما ذكره الراغب غير أن العيش يختص بحياة الحيوان فلا يقال: عيشه تعالى و عيش الملائكة و يقال حياته تعالى و حياة الملائكة، و المعاش مصدر ميمي و اسم زمان و اسم مكان، و هو في الآية بأحد المعنيين الأخيرين، و المعنى و جعلنا النهار زمانا لحياتكم أو موضعا لحياتكم تبتغون فيه من فضل ربكم، و قيل: المراد به المعنى المصدرى بحذف مضاف، و التقدير و جعلنا النهار طلب معاش أي مبتغي معاش.

قوله تعالى: **{وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}** أي سبع سماوات شديدة في بنائها.

قوله تعالى: **{وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا}** الوهاج شديد النور و الحرارة و المراد بالسراج الوهاج: الشمس.

قوله تعالى: **{وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً مُّجَّاجًا}** المعصرات السحب الماطرة و قيل: الرياح التي تعصر السحب لتمطر و الثجاج الكثير الصب للماء، و الأولى على هذا المعنى أن تكون **{مِنْ}** بمعنى الباء.

قوله تعالى: **{الْخُرُوجِ بِهِ حَبًّا وَ نَبَاتًا}** أي حبا و نباتا يقيتان بهما الإنسان و سائر الحيوان.

قوله تعالى: **{وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}** معطوف على قوله: **{حَبًّا}** و جنات ألفاف أي ملتفة أشجارها بعضها ببعض. قيل: إن الألفاف جمع لا واحد له من لفظه.

(بحث روائي)

في بعض الأخبار: أن النبا العظيم علي (عليه السلام) و هو من البطن.

عن الخصال، عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: **يا رسول الله أسرع إليك الشيب.** قال: **شيبتي**

هود و الواقعة و المرسلات و عم يتساءلون.

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا}** قال: يمهد فيها الإنسان **{وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا}** أي أوتاد الأرض.

وفي نهج البلاغة، قال (عليه السلام): **ووتد بالصخور ميدان أرضه.**

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا}** قال: يلبس على النهار.

أقول: ولعل المراد به أنه يخفي ما يظهره النهار ويستر ما يكشفه.

وفيه في قوله تعالى: **{وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا}** قال: الشمس المضيئة **{وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ}** قال: من السحاب **{مَاءً مُتَجَاً}** قال: صبا على صبا.

و عن تفسير العياشي، عن أبي عبد الله (عليه السلام): **{عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}** بالياء **يمطرون.**

ثم قال: أ ما سمعت قوله: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً مُتَجَاً}.

أقول: المراد أن **{يَعْصِرُونَ}** بضم الياء بصيغة المجهول و المراد به أنهم يمطرون و استشهاده (عليه السلام) بقوله: **{وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ}** دليل على أنه (عليه السلام) أخذ المعصرات بمعنى الممطرات من أعصرت السحابة إذا أمطرت.

و روى العياشي مثل الحديث عن علي بن معمر عن أبيه عن أبي عبد الله (عليه السلام) و روى القمي في تفسيره: مثله عن أمير المؤمنين.

[سورة النبأ (٧٨): الآيات ١٧ الى ٤٠]

{إِنَّ يَوْمَ الْفُضْلِ كَانَ مِيقَاتًا ١٧ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ١٨ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ١٩ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ٢١ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ٢٢ لَا يَبْتَئِنَ فِيهَا أَحْقَابًا ٢٣ لَا يَدُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ٢٥ جَزَاءً وَفَاقًا ٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَزْجُونَ حِسَابًا ٢٧ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ٢٨ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ٢٩}

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٢﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٠﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٢٩﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٢٨﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٤﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

(بيان)

تصف الآيات يوم الفصل الذي أخبر به إجمالاً بقوله: **{كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}** ثم تصف ما يجري فيه على الطاغين والمتقين، وتختتم بكلمة في الإنذار وهي كالنتيجة.

قوله تعالى: **{إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا}** قال في الجمع: الميقات منتهى المقدار المضروب لحدوث أمر من الأمور وهو من الوقت كما أن الميعاد من الوعد والمقدار من القدر، انتهى.

شروع في وصف ما تضمنه النبأ العظيم الذي أخبر بوقوعه وهددهم به في قوله: **{كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}** ثم أقام الحجة عليه بقوله: **{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا}**، إنح، وقد سماه يوم الفصل ونبه به على أنه يوم يفصل فيه القضاء بين الناس فينال كل طائفة ما يستحقه بعمله فهو ميقات و حد مضروب لفصل القضاء بينهم والتعبير بلفظ **{كَانَ}** للدلالة على ثبوته وتعيينه في العلم الإلهي على ما ينطق به الحجة السابقة الذكر، ولذا أكد الجملة بإن.

و المعنى: أن يوم فصل القضاء الذي نبأه نبأ عظيم كان في علم الله يوم خلق السماوات و الأرض و حكم فيها النظام الجاري حدا مضروبا ينتهي إليه هذا العالم فإنه تعالى كان يعلم أن هذه النشأة التي أنشأها لا تتم إلا بالانتهاء إلى يوم يفصل فيه القضاء بينهم.

قوله تعالى: **{يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا}** قد تقدم الكلام في معنى نفخ الصور كرارا، و الأفواج جمع فوج و هي الجماعة المارة المسرعة على ما ذكره الراغب.

و في قوله: **{فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا}** جري على الخطاب السابق الملتفت إليه قضاء لحق الوعيد الذي يتضمنه قوله: **{كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}** و كان الآية ناظرة إلى قوله تعالى: **{يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ}** إسرء: ٧١.

قوله تعالى: **{وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا}** فاتصل به عالم الإنسان بعالم الملائكة.

و قيل: التقدير فكانت ذات أبواب، و قيل: صار فيها طرق و لم يكن كذلك من قبل، و لا يخلو الوجهان من تحكم فليتدبر.

قوله تعالى: **{وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}** السراب هو الموهوم من الماء اللامع في المفاوز و يطلق على كل ما يتوهم ذا حقيقة و لا حقيقة له على طريق الاستعارة.

و لعل المراد بالسراب في الآية هو المعنى الثاني.

بيان ذلك: أن تسيير الجبال و دكها ينتهي بالطبع إلى تفرق أجزاءها و زوال شكلها كما وقع في مواضع من كلامه تعالى عند وصف زلزلة الساعة و آثارها إذ قال: **{وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا}** الطور: ١٠ و قال: **{وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً}** الحاقة: ١٤، و قال: **{وَوَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً}** المزل ١٤، و قال: **{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}** القارة: ٥، و قال: **{وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا}** الواقعة: ٥، و قال: **{وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ}** المرسلات: ١٠.

فتسيير الجبال و دكها ينتهي بها إلى بسها و نسفها و صيرورتها كثيبا مهيلا و كالعهن المنفوش كما ذكره الله تعالى و أما صيرورتها سرابا بمعنى ما يتوهم ماء لامعا فلا نسبة بين التسيير و بين السراب بهذا المعنى.

نعم ينتهي تسييرها إلى انعدامها و بطلان كينونها و حقيقتها بمعنى كونها جبلا فالجبال الراسيات التي كانت ترى حقائق ذوات كينونة قوية لا تحركه العواصف تتبدل بالتسيير

سرابا باطلا لا حقيقة له، ونظيره من كلامه تعالى قوله في أقوام أهلكتهم و قطع دابرههم، **{فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ}** سبأ: ١٩ وقوله: **{فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَ جَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ}** المؤمنون: ٤٤، وقوله في الأصنام **{إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ}** النجم: ٢٣.

فالآية بوجه كقوله تعالى **{وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَ هِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}** النمل: ٨٨ - بناء على كونه ناظرا إلى صفة زلزلة الساعة .

قوله تعالى: **{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا}** قال في المفردات: الرصد الاستعداد للترقب - إلى أن قال - والمرصد موضع الرصد قال تعالى: **{وَ أُقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مِرْصِدٍ}** و المرصاد نحوه لكن يقال للمكان الذي اختص بالرصد قال تعالى: **{إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا}** تنبيها على أن عليها مجاز الناس، و على هذا قوله تعالى: **{وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا}** انتهى.

قوله تعالى: **{لِلطَّاغِينَ مَآبًا}** الطاغون المتبسون بالطغيان و هو الخروج عن الحد، و المآب اسم مكان من الأوب بمعنى الرجوع، و العناية في عدها مآبا للطاغين أنهم هيئوها مأوى لأنفسهم و هم في الدنيا ثم إذا انقطعوا عن الدنيا آبوا و رجعوا إليها.

قوله تعالى: **{الْأَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}** الأحقاب الأزمنة الكثيرة و الدهور الطويلة من غير تحديد.

و هو جمع اختلفوا في واحده فقيل: واحده حقب بالضم فالسكون أو بضمتين، و قد وقع في قوله تعالى: **{أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا}** الكهف: ٦٠، و قيل: حقب بالفتح فالسكون و واحد الحقب حقة بالكسر فالسكون قال الراغب: و الحق أن الحقة مدة من الزمان مبهمه. انتهى.

و حد بعضهم الحقب بثمانين سنة أو ببضع و ثمانين سنة و زاد آخرون أن السنة منها ثلاثمائة و ستون يوما كل يوم يعدل ألف سنة، و عن بعضهم أن الحقب أربعون سنة و عن آخرين أنه سبعون ألف سنة إلى غير ذلك و لا دليل من الكتاب يدل على شيء من هذه التحديدات و لم يثبت من اللغة شيء منها.

و ظاهر الآية أن المراد بالطاغين المعاندون من الكفار و يؤيده قوله ذيلًا: **{إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا}**.

وقد فسروا **{أَحْقَابًا}** في الآية بالحقب بعد الحقب فالمعنى حال كون الطاغين لا يثين في جهنم حقبا بعد حقب بلا تحديد و لا نهاية فلا تنافي الآية ما نص عليه القرآن من خلود الكفار في النار.

وقيل: إن قوله: **{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا}** إنح صفة **{أَحْقَابًا}** والمعنى لا يثين فيها أحقابا هي على هذه الصفة و هي أنهم لا يذوقون فيها بردا و لا شرابا إلا حميما و غساقا، ثم يكونون على غير هذه الصفة إلى غير النهاية. و هو حسن لو ساعد السياق.

قوله تعالى: **{لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا}** ظاهر المقابلة بين البرد و الشراب أن المراد بالبرد مطلق ما يتبرد به غير الشراب كالظل الذي يستراح إليه بالاستئصال فالمراد بالذوق مطلق النيل و المس.

قوله تعالى: **{إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا}** الحميم الماء الحار شديد الحر، و الغساق صديد أهل النار.

قوله تعالى: **{جَزَاءً وَفَاقًا}** - إلى قوله - **{كِتَابًا}** المصدر بمعنى اسم الفاعل و المعنى يجزون جزاء موافقا لما عملوا أو بتقدير مضاف أي جزاء ذا وفاق أو إطلاق الوفاق على الجزاء للمبالغة كزيد عدل.

و قوله: **{إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا}** أي تكذبا عجيبا يصرون عليه، تعليل يوضح موافقة جزائهم لعملهم، و ذلك أنهم لم يرجوا الحساب يوم الفصل فأيسوا من الحياة الآخرة و كذبوا بالآيات الدالة عليها فأنكروا التوحيد و النبوة و تعدوا في أعمالهم طور العبودية فنسوا الله تعالى فنسيهم و حرم عليهم سعادة الدار الآخرة فلم يبق لهم إلا الشقاء و لا يجدون فيها إلا ما يكرهون، و لا يواجهون إلا ما يتعذبون به و هو قوله: **{فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا}**.

و في الآية أعني قوله: **{جَزَاءً وَفَاقًا}** دلالة على المطابقة التامة بين الجزاء و العمل فالإنسان لا يريد بعمله إلا الجزاء الذي بإزائه و التلبس بالجزاء تلبس بالعمل بالحقيقة قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** التحريم: ٥٧.

و قوله: **{وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا}** أي كل شيء و منه الأعمال ضبطناه و بيناه في

كتاب جليل القدر فالآية في معنى قوله تعالى: **{ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ }** يس: ١٣.

أو المراد و كل شيء حفظناه حال كونه مكتوبا أي في اللوح المحفوظ أو في صحائف الأعمال، و جوز أن يكون الإحصاء بمعنى الكتابة أو الكتاب بمعنى الإحصاء فإن الإحصاء و الكتابة يتشاركان في معنى الضبط و المعنى كل شيء أحصيناه إحصاء أو كل شيء كتبناه كتابا.

و الآية على أي حال متمم للتعليل السابق، و المعنى الجزاء موافق لأعمالهم لأنهم كانوا على حال كذا و كذا و قد حفظناها عليهم فجزيناهم بها جزاء وفاقا.

قوله تعالى: **{ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا }** تفریع على ما تقدم من تفصیل عذابهم مسوق لإيئاسهم من أن يرجو نجاة من الشقوة و راحة ينالونها.

و الالتفات إلى خطابهم بقوله: **{ فَذُوقُوا }** تقدير لحضورهم ليخاطبوا بالتوبيخ و التقریر بلا واسطة.

و المراد بقوله: **{ فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا }** أن ما تذوقونه بعد عذاب ذقتموه عذاب آخر فهو عذاب بعد عذاب و عذاب على عذاب فلا تزالون يضاف عذاب جديد إلى عذابكم القديم فاقنطوا من أن تنالوا شيئا مما تطلبون و تحبون.

و الآية لا تخلو من ظهور في كون المراد بقوله: **{ لِأَيِّبَيْنَ فِيهَا أَحْقَابًا }** الخلود دون الانقطاع.

قوله تعالى: **{ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَارًا }** - إلى قوله - **{ كَذَابًا }** الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة - على ما قاله الراغب - ففيه معنى النجاة و التخلص من الشر و الحصول على الخير، و المفاز مصدر ميمي أو اسم مكان من الفوز و الآية تحتل الوجهين جميعا.

و قوله: **{ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا }** الحدائق جمع حديقة و هي البستان المحوط، و الأعناب جمع عنب و هو ثمرة شجرة الكرم و ربما يطلق على نفس الشجرة.

و قوله: **{ وَكَوَاعِبَ }** جمع كاعب و هي الفتاة التي تكعب ثديها و استدار مع ارتفاع يسير، و الترائب جمع ترب و هي المماثلة لغيرها من اللذات.

و قوله: **{ وَكَأْسًا دِهَاقًا }** أي ممتلئة شرابا مصدر بمعنى اسم الفاعل.

وقوله: **{لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا}** أي لا يسمعون في الجنة لغوا من القول لا يترتب عليه أثر مطلوب ولا تكذيبا من بعضهم لبعضهم فيما قال فقولهم حق له أثره المطلوب وصدق مطابق للواقع.

قوله تعالى: **{جَزَاءٌ مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا}** أي فعل بالمتقين ما فعل حال كونه جزاء من ربك عطية محسوبة فقوله: **{جَزَاءٌ}** حال و كذا **{عَطَاءٌ}** و **{حِسَابًا}** بمعنى اسم المفعول صفة لعطاء، ويحتمل أن يكون عطاء تمييزا أو مفعولا مطلقا.

قيل: إضافة الجزاء إلى الرب مضافا إلى ضميره (صلى الله عليه وآله وسلم) تشریف له، ولم يضيف جزاء الطاغين إليه تعالى تنزها منه تعالى فليس يغشاهم شر إلا من عند أنفسهم قال تعالى: **{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}** الأنفال: ٥١.

و وقوع لفظ الحساب في ذيل جزاء الطاغين و المتقين معا لتثبيت ما يلوح إليه يوم الفصل الواقع في أول الكلام.

قوله تعالى: **{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ}** بيان لقوله: **{رَبِّكَ}** أريد به أن ربوبيته تعالى عامة لكل شيء و أن الرب الذي يتخذه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ربا و يدعو إليه رب كل شيء لا كما كان يقول المشركون: إن لكل طائفة من الموجودات ربا و الله سبحانه رب الأرباب أو كما كان يقول بعضهم: أنه رب السماء.

و في توصيف الرب بالرحمن - صيغة مبالغة من الرحمة - إشارة إلى سعة رحمته و أنها سمة ربوبية لا يحرم منها شيء إلا أن يمتنع منها شيء بنفسه لقصوره و سوء اختياره فمن شقوة هؤلاء الطاغين أنهم حرموها على أنفسهم بالخروج عن طور العبودية.

قوله تعالى: **{لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا}** وقوع صدر الآية في سياق قوله: **{رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ}** - و شأن الربوبية هو التدبير و شأن الرحمانية بسط الرحمة - دليل على أن المراد بخطابه تعالى تكليمه في بعض ما فعل من الفعل بنحو السؤال عن السبب الداعي إلى الفعل كان يقال: لم فعلت هذا؟ و لم لم تفعل كذا؟ كما يسأل الفاعل منا عن فعله فتكون الجملة **{لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا}** في معنى قوله تعالى: **{لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ}** الأنبياء: ٢٣ و قد تقدم الكلام في معنى الآية.

لكن وقوع قوله: **{يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا}** بعد قوله: **{لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا}** الظاهر في اختصاص عدم الملك بيوم الفصل مضافا إلى وقوعه في سياق تفصيل جزاء الطاغين و المتقين منه تعالى يوم الفصل يعطي أن يكون المراد به أنهم لا يملكون أن يخاطبوه فيما يقضي ويفعل بهم باعتراض عليه أو شفاعاة فيهم لكن الملائكة وهم ممن لا يملكون منه خطابا منزهون عن وصمة الاعتراض عليه تعالى وقد قال فيهم: **{عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}** الأنبياء: ٢٧ وكذلك الروح الذي هو^١ كلمته وقوله، وقوله^٢ حق، وهو تعالى^٣ الحق المبين والحق لا يعارض الحق ولا يناقضه.

و من هنا يظهر أن المراد بالخطاب الذي لا يملكونه هو الشفاعاة وما يجري مجراها من وسائل التخلص من الشر كالعدل و البيع و الخلة و الدعاء و السؤال قال تعالى: **{مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ}** البقرة: ٢٥٤، وقال: **{وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ}** البقرة: ١٢٣، وقال: **{يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ}** هود: ١٠٥.

و بالجملة قوله: **{لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا}** ضمير الفاعل في **{لَا يَمْلِكُونَ}** لجميع المجموعين ليوم الفصل من الملائكة و الروح و الإنس و الجن كما هو المناسب للسياق الحاكي عن ظهور العظمة و الكبرياء دون خصوص الملائكة و الروح لعدم سبق الذكر و دون خصوص الطاغين كما قيل لكثرة الفصل، و المراد بالخطاب الشفاعاة و ما يجري مجراها كما تقدم.

و قوله: **{يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا}** ظرف لقوله: **{لَا يَمْلِكُونَ}** وقيل: لقوله: **{لَا يَتَكَلَّمُونَ}** و هو بعيد مع صلاحية ظرفيته لما سبقه.

و المراد بالروح المخلوق الأمري الذي يشير إليه قوله تعالى: **{قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}** إسراء: ٨٥. وقيل: المراد به أشرف الملائكة، وقيل حفظة الملائكة وقيل: ملك موكل على الأرواح. ولا دليل على شيء من هذه الأقوال.

١ النحل: ٤٠.

٢ الأنعام: ٧٣.

٣ النور: ٢٥.

وقيل: المراد به جبريل، وقيل: أرواح الناس وقيامها مع الملائكة صفاً إنما هو بين النفختين قبل أن تلج الأجساد، وقيل: القرآن والمراد من قيامه ظهور آثاره يومئذ من سعادة المؤمنين به و شقاوة الكافرين.

و يدفعها أن هذه الثلاثة وإن أطلق على كل منها الروح في كلامه تعالى لكنه مع التقييد كقوله: **{وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}** الحجر: ٢٩، وقوله: **{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}** الشعراء: ١٩٣، وقوله: **{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ}** النحل: ١٠٢، وقوله: **{فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا}** مريم: ١٧، وقوله: **{وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا}** الشورى: ٥٢ و الروح في الآية التي نحن فيها مطلق، على أن في القولين الأخيرين تحكما ظاهرا.

و **{صَفًّا}** حال من الروح و الملائكة و هو مصدر أريد به اسم الفاعل أي حال كونهم صافين، وربما استفيد من مقابلة الروح للملائكة أن الروح وحده صف و الملائكة جميعا صف.

و قوله: **{لَا يَتَكَلَّمُونَ}** بيان لقوله: **{لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً}** و ضمير الفاعل لأهل الجمع من الروح و الملائكة و الإنس و الجن على ما يفيد السياق.

وقيل: الضمير للروح و الملائكة، وقيل: للناس و وقوع **{لَا يَمْلِكُونَ}** بما مر من معناه و **{لَا يَتَكَلَّمُونَ}** في سياق واحد لا يلائم شيئا من القولين.

و قوله: **{إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ}** بدل من ضمير الفاعل في **{لَا يَتَكَلَّمُونَ}** أريد به بيان من له أن يتكلم منهم يومئذ بإذن الله فالجمله في معنى قوله: **{يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ}** هود: ١٠٥ على ظاهر إطلاقه.

و قوله: **{وَقَالَ صَوَاباً}** أي قال قولاً صواباً لا يشوبه خطأ و هو الحق الذي لا يداخله باطل، و الجملة في الحقيقة قيد للإذن كأنه قيل: إلا من أذن له الرحمن و لا يأذن إلا لمن قال صواباً فالآية في معنى قوله تعالى: **{وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** الزخرف: ٨٦.

وقيل: **{إِلَّا مَنْ أَدْنَى}** إنح استثناء ممن يتكلم فيه و المراد بالصواب التوحيد و قول لا إله إلا الله و المعنى لا يتكلمون في حق أحد إلا في حق شخص أذن له الرحمن و قال

ذلك الشخص في الدنيا صوابا أي أقر بالوحدانية و شهد أن لا إله إلا الله فالآية في معنى قوله تعالى: **وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى** {الأنبياء: ٢٨}.

و يدفعه أن العناية الكلامية في المقام متعلقة بنفي أصل الخطاب و التكلم يومئذ من كل متكلم لا بنفي التكلم في كل أحد مع تسليم جواز أصل التكلم فالمستثنون هم المتكلمون المأذون لهم في أصل التكلم من دون تعرض لمن يتكلم فيه.

كلام فيما هو الروح في القرآن

تكررت كلمة الروح و المتبادر منه ما هو مبدأ الحياة في كلامه تعالى و لم يقصرها في الإنسان أو في الإنسان و الحيوان فحسب بل أثبتها في غيرهما كما في قوله: **فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا** {مریم: ١٧}، و قوله: **وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا** {الشورى: ٥٢} إلى غير ذلك فلروح مصداق في الإنسان و مصداق في غيره.

و الذي يصلح أن يكون معرفا لها في كلامه تعالى ما في قوله: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** {إسراء: ٨٥} حيث أطلقها إطلاقا و ذكر معرفا لها أنها من أمره و قد عرف أمره بقوله: **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ** {يس: ٨٣} فبين أنه كلمة الإيجاد التي هي الوجود من حيث انتسابه إليه تعالى و قيامه به لا من حيث انتسابه إلى العلل و الأسباب الظاهرية.

و بهذه العناية عد المسيح (عليه السلام) كلمة له و روحا منه إذ قال: **وَكَلِمَتُهُ أُلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ** {النساء: ١٧١} لما وهبه لمريم (عليه السلام) من غير الطرق العادية و يقرب منه في العناية قوله تعالى: **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** {آل عمران: ٥٩}.

و هو تعالى و إن ذكرها في أغلب كلامه بالإضافة و التقييد كقوله: **وَوَفَّخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي** {الحجر: ٢٩} و قوله: **وَوَفَّخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي** {السجدة: ٩}، و قوله: **فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا** {مریم: ١٧}، و قوله: **وَرُوحٌ مِنْهُ** {النساء: ١٧١} و قوله: **وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ** {البقرة: ٨٧} إلى غير ذلك إلا أنه أوردها في بعض كلامه مطلقة من غير تقييد كقوله: **تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَ الرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ** {القدر: ٤}.

و ظاهر الآية أنها موجود مستقل و خلق سماوي غير الملائكة، و نظير الآية بوجه قوله تعالى: **{تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}** المعارج: ٥٤.

و أما الروح المتعلقة بالإنسان فقد عبر عنها بمثل قوله: **{وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}** **{وَوَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِهِ}** و أتى بكلمة **{مِنْ}** الدالة على المبدئية و سماه نفخا و عبر عن الروح التي خصها بالمؤمنين بمثل قوله: **{وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ}** المجادلة: ٢٢ فأتى بالباء الدالة على السببية و سماه تأييدا و تقوية، و عبر عن الروح التي خصها بالأنبياء بمثل قوله: **{وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ}** البقرة: ٨٧ فأضاف الروح إلى القدس و هو النزاهة و الطهارة و سماه أيضا تأييدا.

و بانضمام هذه الآيات إلى مثل آية سورة القدر يظهر أن نسبة الروح المضافة التي في هذه الآيات إلى الروح المطلقة المذكورة في سورة القدر نسبة الإفاضة إلى المفيض و الظل إلى ذي الظل بإذن الله.

و كذلك الروح المتعلقة بالملائكة من إفاضات الروح بإذن الله، و إنما لم يعبر في روح الملك بالنفخ و التأييد كالإنسان بل سماه روحا كما في قوله تعالى: **{فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا}**، و قوله: **{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُّسِ}** النحل: ١٠٢، و قوله: **{نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ}** الشعراء: ١٩٣ لأن الملائكة أرواح محضة على اختلاف مراتبهم في القرب و البعد من ربهم، و ما يتراءى من الأجسام لهم تمثلات كما يشير إليه قوله تعالى: **{فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}** مريم: ١٧ و قد تقدم الكلام في معنى التمثل في ذيل الآية بخلاف الإنسان المخلوق مؤلفا من جسم ميت و روح حية فيناسبه التعبير بالنفخ كما في قوله **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}** الحجر: ٢٩.

و كما أوجب اختلاف الروح في خلق الملك و الإنسان اختلاف التعبير بالنفخ و عدمه كذلك اختلاف الروح من حيث أثرها و هو الحياة شرفا و خسة أوجب اختلاف التعبير بالنفخ و التأييد و عد الروح ذات مراتب مختلفة باختلاف أثر الحياة.

فمن الروح الروح المنفوخة في الإنسان قال: **{وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}**.

و من الروح الروح المؤيد بها المؤمن قال: **{أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ أَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ}** المجادلة: ٢٢ و هي أشرف وجودا و أعلى مرتبة و أقوى أثرا من الروح

الإنسانية العامة كما يفيد قوله تعالى و هو في معنى هذه الآية: **{أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا}** الأنعام: ١٢٢ فقد عد المؤمن حيا ذا نور يمشي به و هو أثر الروح و الكافر ميتا و هو ذو روح منفوخة فلهؤمن روح ليست للكافر ذات أثر ليس فيه.

و من ذلك يظهر أن من مراتب الروح ما هو في النبات لما فيه من أثر الحياة يدل على ذلك الآيات المتضمنة لإحياء الأرض بعد موتها.

و من الروح الروح المؤيد بها الأنبياء قال: **{وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ}** البقرة ٨٧ و سياق الآيات يدل على كون هذه الروح أشرف و أعلى مرتبة من غيرها مما في الإنسان.

و أما قوله: **{يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ}** المؤمن: ١٥، و قوله: **{وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا}** الشورى ٥٢ فيقبل الانطباق على روح الإيمان و على روح القدس و الله أعلم.

و قد تقدم بعض ما ينفع من الكلام في المقام في ذيل هذه الآيات الكريمة.

[بيان]

قوله تعالى: **{ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ}** إشارة إلى يوم الفصل المذكور في السورة الموصوف بما مر من الأوصاف و هو في الحقيقة خاتمة الكلام المنعطفة إلى فاتحة السورة و ما بعده أعني قوله: **{فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا}** إنح فضل تفرع على البيان السابق.

و الإشارة إليه بالإشارة البعيدة للدلالة على نفامة أمره و المراد بكونه حقا ثبوته حتما مقضيا لا يتخلف عن الوقوع.

قوله تعالى: **{فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا}** أي مرجعا إلى ربه ينال به ثواب المتقين و ينجو به من عذاب الطاغين، و الجملة كما أشرنا إليه تفرع على ما تقدم من الإخبار بيوم الفصل و الاحتجاج عليه و وصفه، و المعنى إذا كان كذلك فمن شاء الرجوع إلى ربه فليرجع.

قوله تعالى: **{إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا}** إنح المراد به عذاب الآخرة، و كونه قريبا لكونه حقا لا ريب في إتيانه و كل ما هو آت قريب.

على أن الأعمال التي سيجزي بها الإنسان هي معه أقرب ما يكون منه.

و قوله: **{يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ}** أي ينتظر المرء جزاء أعماله التي قدمتها يداه بالاكتساب، و قيل: المعنى ينظر المرء إلى ما قدمت يداه من الأعمال لحضورها عنده قال

تعالى: **{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ}** آل عمران: ٣٠.

وقوله: **{وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}** أي يتمنى من شدة اليوم أن لو كان ترابا فاقتدا للشعور والإرادة فلم يعمل ولم يجز.

(بحث روائي)

في تفسير القمي وقوله: **{وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا}** قال: تفتح أبواب الجنان، وقوله: **{وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا}** قال: تصير الجبال مثل السراب الذي يلمع في المفازة.

وفيه وقوله: **{لَا بَيْتِينَ فِيهَا أَحْقَابًا}** قال: الأحقاب السنين والحقب سنة والسنة عددتها ثلاثمائة وستون يوما واليوم كآلف سنة مما تعدون.

وفي المجمع، روى نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **لا يخرج من النار من دخلها حتى يمكث فيها أحقابا والحقب بضع وستون سنة والسنة ثلاثمائة وستون يوما كل يوم كآلف سنة مما تعدون فلا يتكلن أحد على أن يخرج من النار.**

أقول: وأورد الرواية في الدر المنثور، وفيها ثمانون مكان ستون ولفظ آخرها، قال ابن عمر: فلا يتكلن أحد إنج، وأورد أيضا رواية أخرى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم): أن الحقب أربعون سنة.

وفيه، وروى العياشي بإسناده عن حمران قال: **سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن هذه الآية فقال: هذه في الذين يخرجون من النار، وروي عن الأحول مثله.**

وفي تفسير القمي وقوله: **{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا}** قال: يفوزون، وقوله: **{وَكَوَاعِبُ أُنْرَابًا}** قال: جوار وأتراب لأهل الجنة.

وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) قال في قوله: **{إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا}** قال: هي الكرامات **{وَكَوَاعِبُ أُنْرَابًا}** أي الفتيات النواهد.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **الروح جند من جنود الله ليسوا بملائكة لهم رءوس وأيد وأرجل ثم قرأ: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا} قال: هؤلاء جند وهؤلاء جند.**

أقول: وقد تقدمت الرواية في ذيل الآيات المشتملة على الروح عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أن الروح خلق أعظم من جبرائيل وميكائيل، وتقدمت الرواية أيضا عن علي (عليه السلام): أن الروح غير الملائكة واستدل (عليه السلام) عليه بقوله تعالى: **{يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}** (الآية).

نعم في رواية القمي عن حمران أنه ملك أعظم من جبرائيل وميكائيل و كان مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو مع الأئمة (عليهم السلام)، ولعل المراد بالملك مطلق الموجود السماوي أو هو من وهم بعض الرواة في النقل بالمعنى ولا دليل على انحصار الموجودات الأمرية السماوية في الملائكة بل الدليل على خلافه كما يستفاد من قوله تعالى لإبليس حين أبى عن السجود لآدم وقد سجد له الملائكة كلهم أجمعون: **يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ** {ص: ٧٥} وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في تفسير الآية.

وفي أصول الكافي، بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن الماضي (عليه السلام) قال: **قلت: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالمَلَأِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ} (الآية) قال: نحن والله المأذون لهم يوم القيامة والقائلون صواباً. قلت: ما تقولون إذا تكلمتم؟ قال: نحمد ربنا ونصلي على نبينا ونشفع لشيعتنا ولا يردنا ربنا (الحديث).**

أقول: ورواه في المجمع، عن العياشي مرفوعاً عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله (عليه السلام).
والرواية من قبيل ذكر بعض المصاديق فهناك شفاء أخر من الملائكة والأنبياء والمؤمنين مأذون لهم في التكلم، وهناك شهداء من الأمم مأذون لهم في التكلم على ما ينص عليه القرآن والحديث.

(٩) سورة النازعات مكية وهي ست وأربعون آية (٤٦)

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ١ الى ٤١]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَ النَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَ النَّاشِطَاتِ دُخَانًا ۝ وَ السَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝ يَقُولُونَ أِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۝ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝ فَإِنَّمَا

هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿٣٧﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٣٨﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿٣٩﴾ إِذْ هَبَّ
 إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٠﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴿٤١﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿٤٢﴾ فَأَرَاهُ آيَةَ الْكُبْرَى ﴿٤٣﴾ فَكَذَّبَ وَ
 عَصَى ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٤٥﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٤٦﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٤٧﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ آلِ آخِرَةٍ وَالْأُولَى ﴿٤٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٤٩﴾ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٥٠﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٥١﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٥٢﴾
 وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٥٣﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٥٤﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٥٥﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٥٦﴾ فَإِذَا
 جَاءتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴿٥٧﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٥٨﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ﴿٥٩﴾ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٦٠﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ
 الدُّنْيَا ﴿٦١﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٦٢﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٦٣﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٦٤﴾

(بيان)

في السورة أخبار مؤكدة بوقوع البعث والقيامة، واحتجاج عليه من طريق التدبير

الربوبي المنتج أن الناس سينقسمون يومئذ طائفتين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم و تختتم السورة بالإشارة إلى سؤالهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن وقت قيام الساعة والجواب عنه.
و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: **{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَ السَّاجِدَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا}** اختلف المفسرون في تفسير هذه الآيات الخمس اختلافا عجبيا مع اتفاقهم على أنها إقسام، و قول أكثرهم بأن جواب القسم محذوف، و التقدير أقسم بكذا و كذا لتبعثن.

فقوله: **{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}** قيل: المراد بها ملائكة الموت تنزع الأرواح من الأجساد، و **{غَرْقًا}** مصدر مؤكّد بحذف الزوائد أي إغراقا و تشديدا في النزاع.

و قيل: المراد بها الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم بشدة، و قيل: هو الموت ينزع الأرواح من الأبدان نزعا بالغا.

و قيل: المراد بها النجوم تنزع من أفق لتغيب في أفق أي تطلع من مطالعها لتغرب في مغاربها، و قيل: المراد بها القسي تنزع بالسهم أي تمد بجذب وترها إغراقا في المد فالإقسام بقسي المجاهدين في سبيل الله أو بالمجاهدين أنفسهم، و قيل: المراد بها الوحش تنزع إلى الكلا.

و قوله: **{وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}** النشط الجذب و الخروج و الإخراج برفق و سهولة و حل العقدة، قيل: المراد بها الملائكة الذين يخرجون الأرواح من الأجساد، و قيل المراد بها خصوص الملائكة يخرجون أرواح المؤمنين من أجسادهم برفق و سهولة، كما أن المراد بالنازعات غرقا الملائكة الذين ينزعون أرواح الكفار من أجسادهم، و قيل: هم الملائكة الذين ينشطون أرواح الكفار من أجسادهم، و قيل: المراد بها أرواح المؤمنين أنفسهم، و قيل: هي النجوم تنشط و تذهب من أفق إلى أفق، و قيل:

هي السهام تنشط من قسيها في الغزوات، و قيل: هو الموت ينشط و يخرج الأرواح من الأجساد، و قيل: هي الوحش تنشط من قطر إلى قطر.

و قوله: **{وَالسَّاجِدَاتِ سَبْحًا}** قيل: المراد بها الملائكة تقبض الأرواح فتسرع بروح المؤمن إلى الجنة و بروح الكافر إلى النار، و السبح الإسراع في الحركة كما يقال للفرس ساجح

إذا أسرع في جريه، وقيل: المراد بها الملائكة يقبضون أرواح المؤمنين يسلمونها من الأبدان سلا رقيقا ثم يدعونها حتى يستريح كالساج بالشيء في الماء يرمي، وقيل: هي الملائكة ينزلون من السماء مسرعين، وقيل: هي النجوم تسبح في فلكها كما قال تعالى: **{وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}**.

وقيل: هي خيل الغزاة تسبح في عدوها وتسرع، وقيل: هي المنايا تسبح في نفوس الحيوان، وقيل: هي السفن تسبح في المياه، وقيل: السحاب، وقيل: دواب البحر.

وقوله: **{فَالسَّابِقَاتِ سَبَقًا}** قيل المراد بها مطلق الملائكة لأنها سبقت ابن آدم بالخير والإيمان والعمل الصالح، وقيل ملائكة الموت تسبق بروح المؤمن إلى الجنة وروح الكافر إلى النار، وقيل الملائكة القابضون لروح المؤمن تسبق بها إلى الجنة، وقيل، ملائكة الوحي تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء، وقيل أرواح المؤمنين تسبق إلى الملائكة التي يقبضونها شوقا إلى لقاء الله سبحانه، وقيل هي النجوم تسبق بعضها بعضا في السير، وقيل هي خيل الغزاة تسبق بعضها بعضا في الحرب، وقيل هي المنايا تسبق الآمال.

وقوله: **{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا}** قيل: المراد بها مطلق الملائكة المدبرين للأمر، كذا فسر الأكثرون حتى ادعى بعضهم اتفاق المفسرين عليه، وقيل المراد بها الملائكة الأربعة المدبرون لأمر الدنيا: جبرائيل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل، فجبرائيل يدبر أمر الرياح والجنود والوحي، وميكائيل يدبر أمر القطر والنبات، وعزرائيل موكل بقبض الأرواح، وإسرافيل ينزل بالأمر عليهم وهو صاحب الصور، وقيل: إنها الأفلاك يقع فيها أمر الله فيجري بها القضاء في الدنيا.

و هناك قول بأن الإقسام في الآيات بمضاف محذوف والتقدير ورب النازعات نزعا إنلخ.

و أنت خبير بأن سياق الآيات الخمس سياق واحد متصل متشابه الأجزاء لا يلائم كثيرا من هذه الأقوال القاضية باختلاف المعاني المقسم بها ككون المراد بالنازعات الملائكة القابضين لأرواح الكفار، وبالناشطات الوحش، وبالساجات السفن، وبالسابقات المنايا تسبق الآمال وبالمدبرات الأفلاك.

مضافا إلى أن كثيرا منها لا دليل عليها من جهة السياق إلا مجرد صلاحية اللفظ

بحسب اللغة للاستعمال فيه أعم من الحقيقة و المجاز.

على أن كثيرا منها لا تناسب سياق آيات السورة التي تذكروم البعث و تحتج على وقوعه على ما تقدم في سورة المرسلات من حديث المناسبة بين ما في كلامه تعالى من الإقسام و جوابه.

و الذي يمكن أن يقال - و الله أعلم - أن ما في هذه الآيات من الأوصاف المقسم بها يقبل الانطباق على صفات الملائكة في امتثالها للأوامر الصادرة عليهم من ساحة العزة المتعلقة بتدبير أمور هذا العالم المشهود ثم قيامهم بالتدبير بإذن الله.

و الآيات شديدة الشبه سياقاً بآيات مفتتح سورة الصافات: **{وَأَلصَّافَاتِ صَفًا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا}** و آيات مفتتح سورة المرسلات: **{وَأَلْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالعَاصِمَاتِ عَصْفًا وَ النَّاشِرَاتِ نَشْرًا فَالفَارِقَاتِ فَرَقًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا}** و هي تصف الملائكة في امتثالهم لأمر الله غير أنها تصف ملائكة الوحي، و الآيات في مفتتح هذه السورة تصف مطلق الملائكة في تدبيرهم أمر العالم بإذن الله.

ثم إن أظهر الصفات المذكورة في هذه الآيات الخمس في الانطباق على الملائكة قوله: **{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا}** و قد أطلق التدبير و لم يقيد بشيء دون شيء فالمراد به التدبير العالمي بإطلاقه، و قوله **{أَمْرًا}** تمييز أو مفعول به للمدبرات و مطلق التدبير شأن مطلق الملائكة فالمراد بالمدبرات مطلق الملائكة.

و إذ كان قوله: **{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا}** مفتتحا بفاء التفرع الدالة على تفرع صفة التدبير على صفة السبق، و كذا قوله: **{فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا}** مقرونا بفاء التفرع الدالة على تفرع السبق على السبح دل ذلك على مجانسة المعاني المرادة بالآيات الثلاث: **{وَأَلسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا}** فدلواها أنهم يدبرون الأمر بعد ما سبقوا إليه و يسبقون إليه بعد ما سبحوا أي أسرعوا إليه عند النزول فالمراد بالسابحات و السابقات هم المدبرات من الملائكة باعتبار نزولهم إلى ما أمروا بتدبيره.

فآيات الثلاث في معنى قوله تعالى: **{لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}** الرعد: ١١ على ما تقدم من توضيح معناه فالملائكة ينزلون على الأشياء و قد تجمعت عليها الأسباب و تنازعت فيها وجودا و عدما و بقاء و زوالا و في مختلف أحوالها

فما قضاه الله فيها من الأمر و أبرم قضاءه أسرع إليه الملك المأمور به - بما عين له من المقام - و سبق غيره و تتم السبب الذي يقتضيه فكان ما أراده الله فافهم ذلك.

وإذا كان المراد بالآيات الثلاث الإشارة إلى إسراع الملائكة في النزول على ما أمروا به من أمر و سبقهم إليه و تدييره تعين حمل قوله: **{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا}** على انتزاعهم و خروجهم من موقف الخطاب إلى ما أمروا به فنزعهم غرقاً شروعهم في النزول نحو المطلوب بشدة و جد، و نشطهم خروجهم من موقفهم نحوه كما أن سبحهم إسرعهم إليه بعد الخروج و يتعقب ذلك سبقهم إليه و تدير الأمر بإذن الله.

فالآيات الخمس أقسام بما يتلبس به الملائكة من الصفات عند ما يؤمرون بتدير أمر من أمور هذا العالم المشهود من حين يأخذون في النزول إليه إلى تمام التدير.

و فيها إشارة إلى نظام التدير الملكوتي عند حدوث الحوادث كما أن الآيات التالية أعني قوله: **{هَلْ أَتَاكَ}** إتح إشارة إلى التدير الربوبي الظاهر في هذا العالم.

و في التدير الملكوتي حجة على البعث و الجزاء كما أن في التدير الدنيوي المشهود حجة عليه على ما سيوافيك إن شاء الله بيانه.

هذا ما يعطيه التدير في سياق الآيات الكريمة و يؤيده بعض التأييد ما سيأتي من الأخبار في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

كلام في أن الملائكة وسائط في التدير

الملائكة وسائط بينه تعالى و بين الأشياء بدءاً و عوداً على ما يعطيه القرآن الكريم بمعنى أنهم أسباب للحوادث فوق الأسباب المادية في العالم المشهود قبل حلول الموت و الانتقال إلى نشأة الآخرة و بعده.

أما في العود أعني حال ظهور آيات الموت و قبض الروح و إجراء السؤال و ثواب القبر و عذابه و إمامة الكل بنفخ الصور و إحيائهم بذلك و الحشر و إعطاء الكتاب و وضع الموازين و الحساب و السوق إلى الجنة و النار فوساطتهم فيها غني عن البيان، و الآيات الدالة على ذلك كثيرة لا حاجة إلى إيرادها، و الأخبار الماثورة فيها عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم)

و أئمة أهل البيت (عليهم السلام) فوق حد الإحصاء.

و كذا وساطتهم في مرحلة التشريع من النزول بالوحي و دفع الشياطين عن المداخلة فيه و تسديد النبي و تأييد المؤمنين و تطهيرهم بالاستغفار.

و أما وساطتهم في تدبير الأمور في هذه النشأة فيدل عليها ما في مفتح هذه السورة من إطلاق قوله: **{و النَّازِعَاتِ غَرْقًا وَ النَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَ السَّاجِدَاتِ سَجْدًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا}** بما تقدم من البيان.

و كذا قوله تعالى: **{جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ}** فاطر: ١ الظاهر بإطلاقه - على ما تقدم من تفسيره في أنهم خلقوا و شأنهم أن يتوسطوا بينه تعالى و بين خلقه و يرسلوا لإنفاذ أمره الذي يستفاد من قوله تعالى في صفتهم: **{بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}** الأنبياء: ٢٧، و قوله: **{يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}** النحل: ٥٠ و في جعل الجناح لهم إشارة ذلك.

فلا شغل للملائكة إلا التوسط بينه تعالى و بين خلقه بإنفاذ أمره فيهم و ليس ذلك على سبيل الاتفاق بأن يجري الله سبحانه أمرا بأيديهم ثم يجري مثله لا بتوسطهم فلا اختلاف و لا تخلف في سنته تعالى: **{إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** هود: ٥٦، و قال **{فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}** فاطر: ٤٣.

و من الوساطة كون بعضهم فوق بعض مقاما و أمر العالي منهم السافل بشيء من التدبير فإنه في الحقيقة توسط من المتبوع بينه تعالى و بين تابعه في إيصال أمر الله تعالى كتوسط ملك الموت في أمر بعض أعوانه بقبض روح من الأرواح، قال تعالى حاكيا عن الملائكة: **{وَ مَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ}** الصافات: ١٦٤، و قال: **{مُطَاعِ ثَمَّ أَمِينٍ}** التكوير: ٢١، و قال: **{حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ}** سبأ: ٢٣.

و لا ينافي هذا الذي ذكر من توسطهم بينه تعالى و بين الحوادث أعني كونهم أسبابا تستند إليها الحوادث استناد الحوادث إلى أسبابها القريبة المادية فإن السببية طويلة لا عرضية أي إن السبب القريب سبب للحدث و السبب البعيد سبب للسبب.

كما لا ينافي توسطهم و استناد الحوادث إليهم استناد الحوادث إليه تعالى و كونه هو السبب الوحيد لها جميعا على ما يقتضيه توحيد الربوبية فإن السببية طويلة كما سمعت لا عرضية و لا يزيد استناد الحوادث إلى الملائكة استنادها إلى أسبابها الطبيعية القريبة و قد صدق القرآن الكريم استناد الحوادث إلى الحوادث الطبيعية كما صدق استنادها إلى الملائكة.

و ليس لشيء من الأسباب استقلال قبالة تعالى حتى ينقطع عنه فيمنع ذلك استناد ما استند إليه إلى الله سبحانه على ما يقول به الوثنية من تفويضه تعالى تدبير الأمر إلى الملائكة المقربين فالتوحيد القرآني ينفي الاستقلال عن كل شيء من كل جهة: لا يملكون لأنفسهم نفعا و لا ضرا و لا موتا و لا حياة و لا نشورا.

فمثل الأشياء في استنادها إلى أسبابها المترتبة القريبة و البعيدة و انتهائها إلى الله سبحانه بوجه بعيد كمثل الكتابة يكتبها الإنسان بيده و بالقلم فلكل كتابة استناد إلى القلم ثم إلى اليد التي توصلت إلى الكتابة بالقلم، و إلى الإنسان الذي توصل إليها باليد و بالقلم، و السبب بحقيقة معناه هو الإنسان المستقل بالسببية من غير أن ينافي سببته استناد الكتابة بوجه إلى اليد و إلى القلم.

و لا منافاة أيضا بين ما تقدم أن شأن الملائكة هو التوسط في التدبير و بين ما يظهر من كلامه تعالى أن بعضهم أو جميعهم مداومون على عبادته تعالى و تسبيحه و السجود له كقوله: **﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾** الأنبياء: ٢٠، و قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ﴾** الأعراف: ٢٠٦.

و ذلك لجواز أن تكون عبادتهم و سجودهم و تسبيحهم عين عملهم في التدبير و امتثالهم الأمر الصادر عن ساحة العزة بالتوسط كما ربما يومئ إليه قوله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ هُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾** النحل: ٤٩.

[بيان]

قوله تعالى: **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ﴾** فسرت الراجفة بالصيحة العظيمة التي فيها تردد و اضطراب و الرادفة بالمتأخرة التابعة، و عليه تنطبق الآيتان على نفختي الصور التي يدل عليهما قوله تعالى: **﴿وَوُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾** الزمر: ٦٨.

وقيل: الراجعة بمعنى المحركة تحريكا شديدا فإن الرجف يستعمل لازما بمعنى التحرك الشديد، و متعديا بمعنى التحريك الشديد و المراد بها أيضا النفخة الأولى المحركة للأرض و الجبال، و بالرادفة النفخة الثانية المتأخرة عن الأولى.

وقيل: المراد بالراجعة الأرض و بالرادفة السماوات و الكواكب التي ترجف و تضطرب و تنشق، و تتلاشى و الوجهان لا يخلوان من بعد و لا سيما الأخير.

و الأنسب بالسياق على أي حال كون قوله: **{يَوْمَ تَرْجُفُ}** إنح ظرفا لجواب القسم المحذوف للدلالة على نجاته و بلوغه الغاية في الشدة و هو لتبعثن، و قيل: إن **{يَوْمَ}** منصوب على معنى قلوب يومئذ و اجفة يوم ترجف الراجعة، و لا يخلو من بعد.

قوله تعالى: **{قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ}** تنكير **{قُلُوبٌ}** للتنويع و هو مبتدأ خبره **{وَاجِفَةٌ}** و الوجيف الاضطراب، و **{يَوْمَئِذٍ}** ظرف متعلق بواجفة و الجملة استئناف مبين لصفة اليوم.

و قوله: **{أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ}** ضمير **{أَبْصَارُهَا}** للقلوب و نسبة الأبصار و إضافتها إلى القلوب لمكان أن المراد بالقلوب في أمثال هذه المواضع التي تضاف إليها الصفات الإدراكية كالعلم و الخوف و الرجاء و ما يشبهها هي النفوس، و قد تقدمت الإشارة إليها.

و نسبة الخشوع إلى الأبصار و هو من أحوال القلب إنما هي لظهور أثره الدال عليه في الأبصار أقوى من سائر الأعضاء.

قوله تعالى: **{يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ}** إخبار و حكاية لقولهم في الدنيا استبعادا منهم لوقوع البعث و الجزاء و إشارة إلى أن هؤلاء الذين لقلوبهم و جيف و لأبصارهم خشوع يوم القيامة هم الذين ينكرون البعث و هم في الدنيا و يقولون كذا و كذا.

و الحافرة - على ما قيل - أول الشيء و مبتداه، و الاستفهام للإنكار استبعادا، و المعنى يقول: هؤلاء أنا لمرودون بعد الموت إلى حالتنا الأولى و هي الحياة.

وقيل: الحافرة بمعنى المحفورة و هي أرض القبر، و المعنى أ نرد من قبورنا بعد موتنا أحياء، و هو كما ترى.

وقيل: الآية تخبر عن اعترافهم بالبعث يوم القيامة، و الكلام كلامهم بعد الإحياء و الاستفهام للاستغراب كأنهم لما بعثوا و شاهدوا ما شاهدوا يستغربون ما شاهدوا

فيستفهمون عن الرد إلى الحياة بعد الموت.

و هو معنى حسن لو لم يخالف ظاهر السياق.

قوله تعالى: **{أِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً}** تكرر للاستفهام لتأكيد الاستبعاد فلو كانت الحياة بعد الموت مستبعدة فهي مع فرض نخر العظام و تفتت الأجزاء أشد استبعادا، و النخر بفتح التين البلى و التفتت يقال: نخر العظم ينخر نخرا فهو ناخر و نخر.

قوله تعالى: **{قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ}** الإشارة بتلك إلى معنى الرجعة المفهوم من قوله **{أِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ}** و الكرة الرجعة و العطفة، و عد الكرة خاسرة إما مجاز و الخاسر بالحقيقة صاحبها، أو الخاسرة بمعنى ذات خسران، و المعنى قالوا: تلك الرجعة - و هي الرجعة إلى الحياة بعد الموت - رجعة متلبسة بالخسران.

و هذا قول منهم أوردوه استهزاء على أن يكون قولهم: **{أِنَّا لَمَرْدُودُونَ}** إنلخ مما قالوه في الدنيا و لذا غير السياق و قال **{قَالُوا تِلْكَ إِذًا}** إنلخ بعد قوله **{يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ}** إنلخ و أما على تقدير أن يكون مما سيقولونه عند البعث فهو قول منهم على سبيل التشؤم و التحسر.

قوله تعالى: **{فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}** ضمير **{هِيَ}** للكرة و قيل: للرادفة و المراد بها النفخة الثانية، و الزجر طرد بصوت و صياح عبر عن النفخة الثانية بالزجرة لما فيها من نقلهم من نشأة الموت إلى نشأة الحياة و من بطن الأرض إلى ظهرها، و **{فَإِذَا}** فجائية، و الساهرة الأرض المستوية أو الأرض الخالية من النبات. و الآيتان في محل الجواب عما يدل عليه قولهم **{أِنَّا لَمَرْدُودُونَ}** «إنلخ» من استبعاد البعث و استصعابه و المعنى لا يصعب علينا أحياءهم بعد الموت و كرتهم فإنما كرتهم - أو الرادفة التي هي النفخة الثانية - زجرة واحدة فإذا هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتا في بطنها.

فالآيتان في معنى قوله تعالى: **{وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ}** النحل: ٧٧.

قوله تعالى: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى}** الآية إلى تمام اثنتي عشرة آية إشارة إلى إجمال قصة موسى و رسالته إلى فرعون و رده دعوته إلى أن أخذه الله نكال الآخرة و الأولى.

و فيها عظة و إنذار للمشركين المنكرين للبعث و قد توسلوا به إلى رد الدعوة الدينية إذ لا معنى لتشريع الدين لو لا المعاد، و فيها مع ذلك تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) من تكذيب

قومه، و تهديد لهم كما يؤيده توجيه الخطاب في قوله: **{هَلْ أَتَاكَ}**.

وفي القصة مع ذلك كله حجة على وقوع البعث و الجزاء فإن هلاك فرعون و جنوده تلك الهلكة الهائلة دليل على حقية رسالة موسى من جانب الله إلى الناس و لا تتم رسالته من جانبه تعالى إلا برؤية منه تعالى للناس على خلاف ما يزعمه المشركون أن لا ربوبية له تعالى بالنسبة إلى الناس و أن هناك أربابا دونه و أنه سبحانه رب الأرباب لا غير.

ففي قوله **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى}** استفهام بداعي ترغيب السامع في استماع الحديث ليتسلى به هو و يكون للمنكرين إنذارا بما فيه من ذكر العذاب و إتماما للحجة كما تقدم.

و لا ينافي هذا النوع من الاستفهام تقدم علم السامع بالحديث لأن الغرض توجيه نظر السامع إلى الحديث دون السؤال و الاستعلام حقيقة فمن الممكن أن تكون الآيات أول ما يقصه الله من قصة موسى أو تكون مسبقة بذكر قصته كما في سورة المزمل إجمالا - و هي أقدم نزولا من سورة النازعات - و في سورة الأعراف و طه و غيرهما تفصيلا.

قوله تعالى: **{إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى}** ظرف للحديث و هو أول ما أوحى الله إليه فقلده الرسالة، و طوى اسم للوادي المقدس.

قوله تعالى: **{أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}** تفسير للنداء، و قيل: الكلام على تقدير القول أي قائلا اذهب «إنح» أو بتقدير أن المفسرة أي أن اذهب «إنح» و في الوجهين أن التقدير مستغنى عنه، و قوله: **{إِنَّهُ طَغَى}** تعليل للأمر.

قوله تعالى: **{فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى} متعلق {إِلَى} محذوف و التقدير هل لك ميل إلى أن تزكى أو ما في معناه، و المراد بالتزكي التطهر من قذارة الطغيان.**

قوله تعالى: **{وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} عطف على قوله: {تَزَكَّى} و المراد بهدايته إياه إلى ربه كما قيل تعريفه له و إرشاده إلى معرفته تعالى و تترتب عليه الخشية منه الرادعة عن الطغيان و تعدي طور العبودية قال تعالى: **{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} فاطر: ٢٨.****

و المراد بالتزكي إن كان هو التطهر عن الطغيان بالتوبة و الرجوع إلى الله تعالى كانت الخشية مترتبة عليه و المراد بها الخشية الملازمة للإيمان الداعية إلى الطاعة و الرادعة عن المعصية، و إن كان هو التطهر بالطاعة و تجنب المعصية كان قوله: **{وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} مفسرا لما قبله و العطف عطف تفسيري.**

قوله تعالى: **{فَأَرَاهُ آيَةَ الْكُبْرَى}** الفاء فصيحة وفي الكلام حذف وتقدير والأصل فأراه فدعا فأراه **{إِلْح}**.

و المراد بالآية الكبرى على ما يظهر من تفصيل القصة آية العصا، وقيل: المراد بها مجموع معجزاته التي أراها فرعون وملاه وهو بعيد.

قوله تعالى: **{فَكَذَّبَ وَعَصَى}** أي كذب موسى فجحد رسالته وسماه ساحرا وعصاه فيما أمره به أو عصى الله.

قوله تعالى: **{ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى}** الإدبار التولي والسعي هو الجد والاجتهاد أي ثم تولى فرعون يجد ويجهد في إبطال أمر موسى ومعارضته.

قوله تعالى: **{فَحَشَرَ فَنَادَى}** الحشر جمع الناس بإزعاج والمراد به جمعه الناس من أهل مملكته كما يدل عليه تفریع قوله: **{فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** عليه فإن كان يدعي الربوبية لأهل مملكته جميعا لا لطائفة خاصة منهم.

وقيل: المراد بالحشر جمع السحرة لقوله تعالى: **{فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ}** الشعراء: ٥٣، وقوله: **{فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَنَى}** طه: ٦٠ وفيه أنه لا دليل على كون المراد بالحشر في هذه الآية هو عين المراد بالحشر والجمع في تينك الآيتين.

قوله تعالى: **{فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** دعوى الربوبية و ظاهره أنه يدعي أنه أعلى في الربوبية من سائر الأرباب التي كان يقول بها قومه الوثنيون فيفضل نفسه على سائر آلهتهم.

ولعل مراده بهذا التفضيل مع كونه وثنيا يعبد الآلهة كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عن ملئه يخاطبونه: **{أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}** الأعراف: ١٢٧ إنه أقرب الآلهة منهم تجري بيده أرزاقهم وتصلح بأمره شئون حياتهم ويحفظ بمشيئته شرفهم وسؤددهم، وسائر الآلهة ليسوا على هذه الصفة.

وقيل: مراده بما قال تفضيل نفسه على كل من يلي أمورهم ومحصله دعوى الملك وأنه فوق سائر أولياء أمور المملكة من حكام وعمال فيكون في معنى قوله فيما حكاه الله عنه إذ قال: **{وَوَدَّعُونَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ}** (الآية) الزخرف: ٥١.

وهو خلاف ظاهر الكلام و فيما قال قوله للملئ: **{يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** القصص: ٣٨، وقوله لموسى: **{لَيْنِ اتَّخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}** الشعراء: ٢٩.

قوله تعالى: **{فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى}** الأخذ كناية عن التعذيب، والنكال التعذيب الذي يردع من رآه أو سمعه عن تعاطي مثله، وعذاب الآخرة نكال حيث إن من شأنه أن يردع من سمعه عن تعاطي ما يؤدي إليه من المعصية كما أن عذاب الاستئصال في الدنيا نكال.

والمعنى: فأخذ الله فرعون أي عذبه ونكله نكال الآخرة والأولى وأما عذاب الدنيا فأغراقه وإغراق جنوده، وأما عذاب الآخرة فعذابه بعد الموت، فالمراد بالأولى والآخرة الدنيا والآخرة.

وقيل: المراد بالآخرة كلمته الآخرة: **{أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى}** وبالأولى كلمته الأولى قالها قبل ذلك **{مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي}** فأخذه الله بهاتين الكلمتين ونكله نكاهما، ولا يخلو هذا المعنى من خفاء.

وقيل: المراد بالأولى تكذيبه ومعصيته المذكوران في أول القصة وبالأخرى كلمة أنا ربكم الأعلى المذكورة في آخرها، وهو كسابقه.

وقيل: الأولى أول معاصيه والأخرى آخرها والمعنى أخذه الله نكال مجموع معاصيه ولا يخلو أيضا من خفاء.

قوله تعالى: **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}** الإشارة إلى حديث موسى، والظاهر أن مفعول **{يَخْشَى}** منسي معرض عنه، والمعنى أن في هذا الحديث حديث موسى لعبرة لمن كان له خشية و كان من غريزته أن يخشى الشقاء والعذاب والإنسان من غريزته ذلك ففيه عبرة لمن كان إنسانا مستقيما الفطرة.

وقيل: المفعول محذوف والتقدير لمن يخشى الله والوجه السابق أبلغ.

قوله تعالى: **{أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا}** - إلى قوله - **{وَلِلْأَنْعَامِكُمْ}** خطاب توبيخي للمشركين المنكرين للبعث المستهزئين به على سبيل العتاب ويتضمن الجواب عن استبعادهم البعث بقولهم: **{أَأَنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَجْرَةً}** بأن

الله خلق ما هو أشد منكم خلقا فهو على خلقكم وإنشاءكم النشأة الأخرى لقدير.

و يتضمن أيضا الإشارة إلى المحجة على وقوع البعث حيث يذكر التدبير العام العالمي وارتباطه بالعالم الإنساني و لازمه ربوبيته تعالى، و لازم الربوية صحة النبوة و جعل التكليف، و لازم ذلك الجزاء الذي موطنه البعث و الحشر، و لذا فرع عليه حديث البعث بقوله: «فإذا جاءت الطامة الكبرى» إنلخ.

فقوله: **{أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ}** استفهام تويخي بداعي رفع استبعادهم البعث بعد الموت، و الإشارة إلى تفصيل خلق السماء بقوله: **{بَنَاهَا}** إنلخ دليل أن المراد به تقرير كون السماء أشد خلقا.

و قوله: **{بَنَاهَا}** استئناف و بيان تفصيلي لخلق السماء.

و قوله: **{رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا}** أي رفع سقفها و ما ارتفع منها، و تسويتها ترتيب أجزائها و تركيبها بوضع كل جزء في موضعه الذي تقتضيه الحكمة كما في قوله: **{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي}** الحجر: ٢٩.

و قوله: **{وَ أَغْطَشَ لَيْلَهَا وَ أَخْرَجَ ضُحَاهَا}** أي أظلم ليلها و أبرز نهارها، و الأصل في معنى الضحى انبساط الشمس و امتداد النهار أريد به مطلق النهار بقريئة المقابلة و نسبة الليل و الضحى إلى السماء لأن السبب الأصلي لها سماوي و هو ظهور الأجرام المظلمة بشروق الأنوار السماوية كنور الشمس و غيره و خفاؤها بالاستتار و لا يختص الليل و النهار بالأرض التي نحن عليها بل يعمان سائر الأجرام المظلمة المستنيرة.

و قوله: **{وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}** أي بسطها و مدها بعد ما بنى السماء و رفع سمكها و سواها و أغطش ليلها و أخرج ضحاها.

و قيل: المعنى و الأرض مع ذلك دحاها كما في قوله: **{عُتِّلَ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيْبِي}** و قد تقدم كلام فيما يظهر من كلامه تعالى في خلق السماء و الأرض في تفسير سورة الم السجدة و ذكر بعضهم أن الدحو بمعنى الدرجة.

و قوله: **{أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَ مَرْعَاهَا}** قيل: المرعى يطلق على الرعي بالكسر فالسكون و هو الكلاً كما يجيء مصدرا ميميا، و اسم زمان و مكان، و المراد بإخراج مائها منها تفجير العيون و إجراء الأنهار عليها، و إخراج المرعى إنبات النبات عليها

مما يتغذى به الحيوان و الإنسان فالظاهر أن المراد بالمرعى مطلق النبات الذي يتغذى به الحيوان و الإنسان كما يشعر به قوله: **{مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ}** لا ما يختص بالحيوان كما هو الغالب في استعماله.
و قوله: **{وَ الْجِبَالِ أَرْسَاهَا}** أي أثبتها على الأرض لثلا تميد بكم و ادخر فيها المياه و المعادن كما ينبئ عنه سائر كلامه تعالى.

و قوله: **{مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ}** أي خلق ما ذكر من السماء و الأرض و دبر ما دبر من أمرهما ليكون متاعا لكم و لأنعامكم التي سخرها لكم تتمتعون به في حياتكم فهذا الخلق و التدبير الذي فيه تمتيعكم يوجب عليكم معرفة ربكم و خوف مقامه و شكر نعمته فهناك يوم تجزون فيه بما عملتم في ذلك إن خيرا نخيروا و إن شرا فشرنا كما أن هذا الخلق و التدبير أشد من خلقكم فليس لكم أن تستبعدوا خلقكم ثانيا و تستصعبوه عليه تعالى.

قوله تعالى: **{فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى}** في الجمع: و الطامة العالية الغالبة يقال: هذا أطم من هذا أي أعلى منه، و طم الطائر الشجرة أي علاها و تسمى الداهية التي لا يستطيع دفعها طامة. انتهى، فالمراد بالطامة الكبرى القيامة لأنها داهية تعلو و تغلب كل داهية هائلة، و هذا معنى اتصافها بالكبرى و قد أطلقت إطلاقا.
و تصدير الجملة بفاء التفریع للإشارة إلى أن مضمونها أعني مجيء القيامة من لوازم خلق السماء و الأرض و جعل التدبير الجاري فيهما المترتبة على ذلك كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: **{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى}** ظرف لمجيء الطامة الكبرى، و السعي هو العمل بجهد.

قوله تعالى: **{وَ بُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى}** التبريز الإظهار و مفعول **{يَرَى}** منسي معرض عنه و المراد بمن يرى من له بصريرى به، و المعنى و أظهرت الجحيم بكشف الغطاء عنها لكل ذي بصر فيشاهدونها مشاهدة عيان.

فالآية في معنى قوله تعالى: **{لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}** ق: ٢٢
غير أن آية ق أوسع معنى.

و الآية ظاهرة في أن الجحيم مخلوقة قبل يوم القيامة وإنما تظهر يومئذ ظهورا بكشف الغطاء عنها.

قوله تعالى: **{فَأَمَّا مَنْ ظَنَىٰ وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ}** تفصيل حال الناس يومئذ في انقسامهم قسمين أقيم مقام الإجمال الذي هو جواب إذا المحذوف استغناء بالتفصيل عن الإجمال، و التقدير فإذا جاءت الطامة الكبرى انقسم الناس قسمين فأما من ظنى إلخ.

و قد قسم تعالى الناس في الآيات الثلاث إلى أهل الجحيم و أهل الجنة و قدم صفة أهل الجحيم لأن وجه الكلام إلى المشركين و عزف أهل الجحيم بما وصفهم به في قوله: **{مَنْ ظَنَىٰ وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** و قابل تعريفهم بتعريف أهل الجنة بقوله: **{مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَ نَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ}** و سبيل ما وصف به الطائفتين على أي حال سبيل بيان الضابط.

و إذ كانت الطائفتان متقابلتين بحسب حالهما كان ما بين لكل منهما من الوصف مقابلا لوصف الآخر فوصف أهل الجنة بالخوف من مقام ربهم و الخوف تأثر الضعيف المقهور من القوي القاهر و خشوعه و خضوعه له يقتضي كون طغيان أهل الجحيم - و الطغيان التعدي عن الحد - هو عدم تأثرهم من مقام ربهم بالاستكبار و خروجهم عن زي العبودية فلا يخشعون و لا يخضعون و لا يجرون على ما أراده منهم و لا يختارون ما اختاره لهم من السعادة الخالدة بل ما تهواه أنفسهم من زينة الحياة الدنيا.

فن لوازم طغيانهم اختيارهم الحياة الدنيا و هو الذي وصفهم به بعد وصفهم بالطغيان إذ قال: **{وَ آثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}**.

و إذ كان من لوازم الطغيان رفض الآخرة و إثارة الحياة الدنيا و هو اتباع النفس فيما تريده و طاعتها فيما تهواه و مخالفته تعالى فيما يريده كان لما يقابل الطغيان من الوصف و هو الخوف ما يقابل الإيثارة و اتباع هوى النفس و هو قريحة الردع عن الإخلاق إلى الأرض و نهى النفس عن اتباع الهوى و هو قوله في وصف أهل الجنة بعد وصفهم بالخوف: **{وَ نَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ}**.

و إنما أخذ في وصفه النهي عن الهوى دون ترك اتباعه عملا لأن الإنسان ضعيف ربما

ساقته الجهالة إلى المعصية من غير استكبار و الله واسع المغفرة قال تعالى {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يُجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ} النجم: ٣٢، و قال: {إِنَّ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا} النساء: ٣١.

ويتحصل معنى الآيات الثلاث في إعطاء الضابط في صفة أهل الجحيم و أهل الجنة في أن أهل الجحيم أهل الكفر و الفسوق و أهل الجنة أهل الإيمان و التقوى، و هناك غير الطائفتين طوائف أخر من المستضعفين و الذين اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا و آخر سيئا و غيرهم أمرهم إلى الله سبحانه عسى أن يشملهم المغفرة بشفاعه و غيرها.

فقوله: {فَأَمَّا مَنْ ظَنَى} - إلى قوله - {هِيَ الْمَأْوَى} أي هي مأواه على أن تكون اللام عوضا عن الضمير أو الضمير محذوف و التقدير هي المأوى له.

و قوله: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ} إنح المقام اسم مكان يراد به المكان الذي يقوم فيه جسم من الأجسام و هو الأصل في معناه ككونه اسم زمان و مصدرا ميميا لكن ربما يعتبر ما عليه الشيء من الصفات و الأحوال محلا و مستقرا للشيء بنوع من العناية فيطلق عليه المقام كالمنزلة كما في قوله تعالى في الشهادة: {فَأَخْرَجَ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا} المائدة: ١٠٧ و قول نوح (عليه السلام) لقومه على ما حكاه الله: {إِنَّ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ} يونس: ٧١، و قول الملائكة على ما حكاه الله: {وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ} الصافات: ١٦٤.

فمقامه تعالى المنسوب إليه بما أنه رب هو صفة ربوبيته بما تستلزمه أو تتوقف عليه من صفاته الكريمة كالعلم و القدرة المطلقة و القهر و الغلبة و الرحمة و الغضب و ما يناسبها قال إيدانا به: {وَلَا تَطْفُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَ مَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى وَ إِنِّي لَعَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى} طه: ٨٢، و قال: {نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} الحجر: ٥٥.

فمقامه تعالى الذي يخوف منه عباده مرحلة ربوبيته التي هي المبدأ لرحمته و مغفرته لمن آمن و اتقى و لأليم عذابه و شديد عقابه لمن كذب و عصى.

وقيل: المراد بمقام ربه مقامه من ربه يوم القيامة حين يسأله عن أعماله و هو كما ترى.

وقيل: معنى خاف مقام ربه خاف ربه بطريق الإحجام كما قيل في قوله {أَكْرَمِي مَنَوَاهُ}.

(بحث روائي)

في الفقيه، وروى علي بن مهزيار قال: **قلت لأبي جعفر (عليه السلام): قوله عز وجل {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ} وقوله عز وجل: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ} وما أشبه هذا؟ فقال إن لله عز وجل أن يقسم من خلقه بما شاء وليس لخلقه أن يقسموا إلا به.**

أقول: وتقدم في هذا المعنى رواية الكافي، عن محمد بن مسلم عن الباقر (عليه السلام) في تفسير أول سورة النجم.

وفي الدر المنثور، أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن علي في قوله: **{وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا}** قال: هي الملائكة تنزع أرواح الكفار **{وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا}** هي الملائكة تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها **{وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا}** هي الملائكة تسبح بأرواح المؤمنين بين السماء والأرض **{وَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا}** هي الملائكة يسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله **{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا}** قال هي الملائكة تدبر أمر العباد من السنة إلى السنة.

أقول: ينبغي أن تحمل الرواية - لو صحت - على ذكر بعض المصاديق، وقوله: «تنشط أرواح الكفار ما بين الأظفار والجلد حتى تخرجها» ضرب من التمثيل لشدة العذاب.

وفيه، أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب أن ابن الكواء سأله عن **{فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا}** قال: الملائكة يدبرون ذكر الرحمن وأمره.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: **{يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ}** قال: تنشق الأرض بأهلها والرادفة الصيحة.

وفيه في قوله: **{أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ}** قال: قالت قريش: أ نرجع بعد الموت؟

وفيه في قوله: **{تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ}** قال: قالوا هذه على حد الاستهزاء.

وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) قوله: **{أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ}** يقول: في الخلق الجديد، وأما قوله: **{فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ}** والساهرة الأرض كانوا في القبور فلها سمعوا الزجرة خرجوا من قبورهم فاستوا على الأرض.

وفي أصول الكافي، بإسناده إلى داود الرقي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قول الله عز وجل: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ}، قال: من علم أن الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمل من خير أو شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.

أقول: يؤيد الحديث ما تقدم من معنى الخوف من مقامه تعالى.

وفيه، بإسناده عن يحيى بن عقيل قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام): إنما أخاف عليكم الاثنين: اتباع الهوى وطول الأمل أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة.

[سورة النازعات (٧٩): الآيات ٤٢ الى ٤٦]

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبِتُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾}

(بيان)

تعرض لسؤالهم عن وقت قيام الساعة ورد له بأن علمه ليس لأحد إلا الله فقد خصه بنفسه.

قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا} الظاهر أن التعبير بيسألونك لإفادة الاستمرار فقد كان المشركون بعد ما سمعوا حديث القيامة يراجعون النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ويسألونه أن يعين لهم وقتها مصرين على ذلك وقد تكرر في القرآن الكريم الإشارة إلى ذلك.

والمرسى مصدر ميمي بمعنى الإثبات والإقرار وقوله: {أَيَّانَ مُرْسَاهَا} بيان للسؤال والمعنى يسألك هؤلاء المنكرون للساعة المستهزئون به عن الساعة متى إثباتها وإقرارها؟ أي متى تقوم القيامة؟

قوله تعالى: {فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا} استفهام إنكاري و {فِيمَ أَنْتَ} مبتدأ وخبر، و {مِنْ} لابتداء الغاية، و الذكرى كثرة الذكر وهو أبلغ من الذكر على ما ذكره الراغب.

و المعنى في أي شيء أنت من كثرة ذكر الساعة أي ما ذا يحصل لك من العلم بوقتها من ناحية كثرة ذكرها و بسبب ذلك أي لست تعلمها بكثرة ذكرها.

أو الذكرى بمعنى حضور حقيقة معنى الشيء في القلب، و المعنى - على الاستفهام الإنكاري - لست في شيء من العلم بحقيقتها و ما هي عليه حتى تحيط بوقتها و هو أنسب من المعنى السابق.

و قيل: المعنى ليس ذكرها مما يرتبط ببعثك إنما بعث لتندر من يخشاها.

و قيل: **{فِيمَ}** إنكار لسؤالهم، و قوله: **{أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا}** استئناف و تعليل لإنكار سؤالهم، و المعنى فيم هذا السؤال إنما أنت من ذكرى الساعة لاتصال بعثتك بها و أنت خاتم الأنبياء، و هذا المقدار من العلم يكفيهم، و هو قوله (صلى الله عليه وآله و سلم) فيما روي: «بعثت أنا و الساعة كهاتين إن كادت لتسبقني».

و قيل: الآية من تمام سؤال المشركين خاطبوا به النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و المعنى ما الذي عندك من العلم بها و بوقتها؟ أو ما الذي حصل لك و أنت تكثر ذكرها.

و أنت خبير بأن السياق لا يلائم شيئاً من هذه المعاني تلك الملاءمة، على أنها أو أكثرها لا تخلو من تكلف.

قوله تعالى: **{إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا}** في مقام التعليل لقوله: **{فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا}** و المعنى لست تعلم وقتها لأن انتهاءها إلى ربك فلا يعلم حقيقتها و صفاتها و منها تعين الوقت إلا ربك فليس لهم أن يسألوا عن وقتها و ليس في وسعك أن تجيب عنها.

و ليس من البعيد - و الله أعلم - أن تكون الآية في مقام التعليل بمعنى آخر و هو أن الساعة تقوم بفناء الأشياء و سقوط الأسباب و ظهور أن لا ملك إلا الله الواحد القهار فلا ينتسب اليوم إلا إليه تعالى من غير أن يتوسط بالحقيقة بينه تعالى و بين اليوم أي سبب مفروض و منه الزمان فليس يقبل اليوم توقيتاً بحسب الحقيقة.

و لذا لم يرد في كلامه تعالى من التحديد إلا تحديد اليوم بانقراض نشأة الدنيا كقوله: **{وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ}** الزمر: ٦٨ و ما في معناه من الآيات الدالة على خراب الدنيا بتبدل الأرض و السماء و انتشار الكواكب و غير ذلك.

و إلا تحديده بنوع من التمثيل و التشبيه كقوله تعالى: **{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}**، و قوله: **{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ}**

الأحفاف: ٣٥، و قوله: **{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ}** ثم ذكر حق القول في ذلك فقال: **{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ}** الروم: ٥٦.

و يلوح إلى ما مر ما في مواضع من كلامه أن الساعة لا تأتي إلا بغتة، قال تعالى: **{ثُقُلَتِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْتَلُونَكُمْ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** الأعراف: ١٨٧ إلى غير ذلك من الآيات.

و هذا وجه عميق يحتاج في تمامه إلى تدبر واف ليرتفع به ما يترأى من مخالفته لظواهر عدة من آيات القيامة و عليك بالتدبر في قوله تعالى: **{لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}** ق: ٢٢ و ما في معناه من الآيات و الله المستعان.

قوله تعالى: **{إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا}** أي إنما كلفناك بإنذار من يخشى الساعة دون الإخبار بوقت قيام الساعة حتى تجيبهم عن وقتها إذا سألك عنه فالقصر في الآية قصر أفراد بقصر شأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) في الإنذار و تنفي عنه العلم بالوقت و تعيينه لمن يسأل عنه.

و المراد بالخشية على ما يناسب المقام الخوف منها إذا ذكر بها أي شأنية الخشية لا فعليتها قبل الإنذار.

قوله تعالى: **{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}** بيان لقرب الساعة بحسب التمثيل و التشبيه بأن قرب الساعة من حياتهم الدنيا بحيث مثلهم حين يرونها مثلهم لو لبثوا بعد حياتهم في الأرض عشية أو ضحى تلك العشية أي وقتا نسبته إلى نهار واحد نسبة العشية إلى ما قبلها منه أو نسبة الضحى إلى ما قبله منه.

و قد ظهر بما تقدم أن المراد باللبث لبث ما بين الحياة الدنيا و البعث أي لبثهم في القبور لأن الحساب يقع على مجموع الحياة الدنيا.

و قيل: المراد به اللبث بين حين سؤالهم عن وقتها و بين البعث و فيه أنهم إنما يشاهدون لبثهم على هذه الصفة عند البعث و البعث الذي هو الإحياء بعد الموت إنما نسبته إلى الموت الذي قبله دون مجموع الموت و بعض الحياة التي بين زمان السؤال عن الوقت و زمان الموت.

على أنه لا يلائم ظواهر سائر الآيات المتعرضة للبهيم قبل البعث كقوله تعالى **{قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ}** المؤمنون: ١١٢.

و قيل: المراد باللبث اللبث في الدنيا و هو سخييف.

(بحث روائي)

في تفسير القمي: **{وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ}** قال: هو العبد إذا وقف على معصية الله و قدر عليها ثم تركها مخافة الله و نهى الله و نهى النفس عنها فكافاته الجنة، قوله: **{يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا}** قال: متى تقوم؟ فقال الله: **{إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا}** أي علمها عند الله، قوله: **{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}** قال: بعض يوم.

و في الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس قال: إن مشركي مكة سألو النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) فقالوا: متى تقوم الساعة استهزاء منهم فنزلت **{يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا}** (الآيات).

و فيه، أخرج البزار و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن عائشة قالت: ما زال رسول الله يسأل عن الساعة حتى أنزل عليه **{فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا}** فلم يسأل عنها.

أقول: و رواه أيضا عن عدة من أصحاب الكتب عن عروة مرسلا، و رواه أيضا عن عدة منهم عن شهاب بن طارق عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): مثله، و السياق لا يلائم كونه جوابا عن سؤال النبي (صلى الله عليه وآله و سلم).

و في بعض الروايات: كانت الأعراب إذا قدموا على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) سألوه عن الساعة فينظر إلى أحدث إنسان فيهم فيقول: إن يعيش هذا قرنا قامت عليكم ساعتكم: رواها في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن عائشة.

و هي من التوقيت الذي يجلب عنه ساحة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و قد أوحى إليه في كثير من السور القرآنية سيما المكية أن علم الساعة يختص به تعالى لا يعلمه إلا هو و أمر أن يجيب من سأله عن وقتها بنفي العلم به عن نفسه.

(٨٠) سورة عبس مكية وهي اثنان و أربعون آية (٤٢)

[سورة عبس (٨٠): الآيات ١ الى ١٦]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلَّى ① أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ④ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى ⑤ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ⑥ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ⑦ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ⑧ وَهُوَ يَخْشَى ⑨ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ⑩ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ⑪ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ⑫ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ⑬ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ⑭ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ⑮ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ⑯ }

(بيان)

وردت الروايات من طرق أهل السنة أن الآيات نزلت في قصة ابن أم مكتوم الأعمى دخل على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و عنده قوم من صناديد قريش يناجيهم في أمر الإسلام فعبس النبي عنه فعاتبه الله تعالى بهذه الآيات و في بعض الأخبار من طرق الشيعة إشارة إلى ذلك.

و في بعض روايات الشيعة أن العباس المتولي رجل من بني أمية كان عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فدخل عليه ابن أم مكتوم فعبس الرجل و قبض وجهه فنزلت الآيات: و سيوافيك تفصيل البحث عن ذلك في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

و كيف كان الأمر فغرض السورة عتاب من يقدم الأغنياء و المترفين على الضعفاء و المساكين من المؤمنين فيرفع أهل الدنيا و يضع أهل الآخرة ثم ينجر الكلام إلى الإشارة إلى هوان أمر الإنسان في خلقه و تناهيه في الحاجة إلى تدبير أمره و كفره مع ذلك بنعم ربه و تدبيره العظيم لأمره و تتخلص إلى ذكر بعثه و جزائه إنذارا و السورة مكية بلا كلام.

قوله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} أي بسر و قبض وجهه و أعرض.

قوله تعالى: {أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى} تعليل لما ذكر من العبوس بتقدير لام التعليل.

قوله تعالى: **{وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكِّيٰ أَوْ يَدْكُرُ فِتْنَفَعَهُ الذِّكْرَىٰ}** حال من فاعل **{عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ}** و المراد بالتزكي التطهر بعمل صالح بعد التذكر الذي هو الاتعاظ و الانتباه للاعتقاد الحق، و نفع الذكرى هو دعوتها إلى التزكي بالإيمان و العمل الصالح.

و محصل المعنى: بسر و أعرض عن الأعمى لما جاءه و الحال أنه ليس يدري لعل الأعمى الذي جاءه يتطهر بصالح العمل بعد الإيمان بسبب مجيئه و تعلمه و قد تذكر قبل أو يتذكر بسبب مجيئه و اتعاظه بما يتعلم فتنفعه الذكرى فيتطهر.

و في الآيات الأربع عتاب شديد ويزيد شدة بإتيان الآيتين الأوليين في سياق الغيبة لما فيه من الإعراض عن المشافهة و الدلالة على تشديد الإنكار و إتيان الآيتين الأخيرتين في سياق الخطاب لما فيه من تشديد التوبيخ و إلزام الحجة بسبب المواجهة بعد الإعراض و التقرير من غير واسطة.

و في التعبير عن الجأئي بالأعمى مزيد توبيخ لما أن المحتاج الساعي في حاجته إذا كان أعمى فاقدا للبصر و كانت حاجته في دينه دعتة إلى السعي فيها خشية الله كان من الحري أن يرحم و يخص بمزيد الإقبال و التعطف لا أن ينقبض و يعرض عنه.

و قيل - بناء على كون المراد بالمعاتب هو النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) - : أن في التعبير عنه أولا بضمير الغيبة إجلالا له لإيهام أن من صدر عنه العبوس و التولي غيره (صلى الله عليه وآله و سلم) لأنه لا يصدر مثله عن مثله، و ثانيا بضمير الخطاب إجلالا له أيضا لما فيه من الإيناس بعد الإيحاء و الإقبال بعد الإعراض. و فيه أنه لا يلائمه الخطاب في قوله بعد: **{أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ}** إنخ و العتاب و التوبيخ فيه أشد مما في قوله: **{عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ}** إنخ و لا إيناس فيه قطعا.

قوله تعالى: **{أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكِّيٰ}** الغنى و الاستغناء و التغني و التغاني بمعنى على ما ذكره الراغب فالمراد بمن استغنى من تلبس بالغنى و لازمته التقدم و الرئاسة و العظمة في أعين الناس و الاستكبار عن اتباع الحق قال تعالى: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ} العلق: ٧** و التصدي التعرض للشيء بالإقبال عليه و الاهتمام بأمره.

و في الآية إلى تمام ست آيات إشارة إلى تفصيل القول في ملاك ما ذكر من العبوس و التولي فعوتب عليه و محصله أنك تعتني و تقبل على من استغنى و استكبر عن اتباع الحق

و ما عليك ألا يزكى و تتلهي و تعرض عنم يجتهد في التزكى و هو يخشى.

و قوله: **{وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكِي}** قيل: **{مَا}** نافية و المعنى و ليس عليك بأس أن لا يتزكى حتى يبعثك الحرص على إسلامه إلى الإعراض و التلهي عنم أسلم و الإقبال عليه.

و قيل: **{مَا}** للاستفهام الإنكاري و المعنى و أي شيء يلزمك أن لم يتطهر من الكفر و الفجور فإنما أنت رسول ليس عليك إلا البلاغ.

و قيل: المعنى و لا تبالي بعدم تطهره من دنس الكفر و الفجور و هذا المعنى أنسب لسياق العتاب ثم الذي قبله ثم الذي قبله.

قوله تعالى: **{وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى}** السعي الإسراع في المشي فعنى قوله: **{وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى}** بحسب ما يفيد المقام: و أما من جاءك مسرعا ليتذكر و يتزكى بما يتعلم من معارف الدين.

و قوله: **{وَهُوَ يَخْشَى}** أي يخشى الله و الخشية آية التذكر بالقرآن قال تعالى: **{مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذَكْرًا لِمَنْ يَخْشَى}** طه: ٣ و قال: **{سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى}** الأعلى: ١٠.

و قوله: **{فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى}** أي تتلهي و تتشاغل بغيره و تقديم ضمير أنت في قوله: **{فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى}** و قوله: **{فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى}** و كذا الضميرين **{لَهُ}** و **{عَنْهُ}** في الآيتين لتسجيل العتاب و تثبيته.

قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ} {كَلَّا}** ردع عما عوتب عليه من العبوس و التولي و التصدي لمن استغنى و التلهي عنم يخشى.

و الضمير في **{إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ}** للآيات القرآنية أو للقرآن و تأنيث الضمير لتأنيث الخبر و المعنى أن الآيات القرآنية أو القرآن تذكرة أي موعظة يتعظ بها من اتعظ أو مذكر يذكر حق الاعتقاد و العمل.

و قوله: **{فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ}** جملة معترضة و الضمير للقرآن أو ما يذكر به القرآن من المعارف، و المعنى فمن شاء ذكر القرآن أو ذكر ما يذكر به القرآن و هو الانتقال إلى ما تهدي إليه الفطرة مما تحفظه في لوحها من حق الاعتقاد و العمل.

و في التعبير بهذا التعبير: **{فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ}** تلويح إلى أن لا إكراه في الدعوة إلى التذكر فلا نفع فيها يعود إلى الداعي وإنما المنتفع بها المتذكر فليختر ما يختاره.

قوله تعالى: **{ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ }** قال في المجمع: الصحف جمع صحيفة، والعرب تسمي كل مكتوب فيه صحيفة كما تسميه كتابا رقيا كان أو غيره انتهى.

و **{ فِي صُحُفٍ }** خبر بعد خبر لأن و ظاهره أنه مكتوب في صحف متعددة بأيدي ملائكة الوحي، وهذا يضعف القول بأن المراد بالصحف اللوح المحفوظ ولم يرد في كلامه تعالى إطلاق الصحف ولا الكتب ولا الألواح بصيغة الجمع على اللوح المحفوظ، ونظيره في الضعف القول بأن المراد بالصحف كتب الأنبياء الماضين لعدم ملاءمته لظهور قوله: **{ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ }** إخل في أنه صفة لصحف.

وقوله: **{ مُّكْرَمَةٍ }** أي معظمة، وقوله: **{ مَّرْفُوعَةٍ }** أي قدرا عند الله، وقوله: **{ مُّطَهَّرَةٍ }** أي من قذارة الباطل ونحو القول والشك والتناقض قال تعالى: **{ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ }** حم السجدة: ٤٢، و قال: **{ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ }** الطارق: ١٤ و قال: **{ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ }** البقرة: ٢، و قال: **{ وَوَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا }** النساء: ٨٢.

قوله تعالى: **{ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ }** صفة بعد صفة لصحف، و السفارة هم السفراء جمع سفير بمعنى الرسول و **{ كِرَامٍ }** صفة لهم باعتبار ذواتهم و **{ بَرَرَةٍ }** صفة لهم باعتبار عملهم و هو الإحسان في الفعل.

و معنى الآيات أن القرآن تذكرة مكتوبة في صحف متعددة معظمة مرفوعة قدرا مطهرا من كل دنس و قذارة بأيدي سفراء من الملائكة كرام على ربهم بطهارة ذواتهم بررة عنده تعالى بحسن أعمالهم.

ويظهر من الآيات أن للوحي ملائكة يتصدون لحمل الصحف وإيحاء ما فيها من القرآن فهم أعوان جبريل و تحت أمره و نسبة إلقاء الوحي إليهم لا تنافي نسبتته إلى جبريل في مثل قوله: **{ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ }** الشعراء: ١٩٤ و قد قال تعالى في صفته: **{ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ }** التكويز: ٢١ فهو مطاع من الملائكة من يصدر عن أمره و يأتي بما يريد و الإيحاء الذي هو فعل أعوانه فعله كما أن فعله و فعلهم جميعا فعل الله و ذلك نظير كون التوفي الذي هو فعل أعوان ملك الموت فعله، و فعله و فعلهم جميعا فعل الله تعالى، و قد تقدمت الإشارة إلى هذا البحث مرارا.

و قيل: المراد بالسفرة الكتاب من الملائكة، والذي تقدم من المعنى أجلى.

و قيل: المراد بهم القراء يكتبونها و يقرءونها و هو كما ترى.

(بحث روائي)

في المجمع، قيل: نزلت الآيات في عبد الله بن أم مكتوم وهو عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري من بني عامر بن لؤي.

وذلك أنه أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام و العباس بن عبد المطلب وأبيا وأميمة بن خلف يدعوهم إلى الله ويرجو إسلامهم فقال: يا رسول الله أقرئني و علمني مما علمك الله فجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدري أنه مشغل مقبل على غيره حتى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لقطع كلامه وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والعبيد فأعرض عنه وأقبل على القوم الذين كان يكلمهم فنزلت الآيات.

و كان رسول الله بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه قال: **مرحبا بمن عاتبني فيه ربي، ويقول له: هل لك من حاجة؟** واستخلفه على المدينة مرتين في غزوتين.

أقول: روى السيوطي في الدر المنثور القصة عن عائشة وأنس و ابن عباس على اختلاف يسير و ما أورده الطبرسي محصل الروايات.

و ليست الآيات ظاهرة الدلالة على أن المراد بها هو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بل خبر محض لم يصرح بالخبر عنه بل فيها ما يدل على أن المعنى بها غيره لأن العبوس ليس من صفات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع الأعداء المباينين فضلا عن المؤمنين المسترشدين. ثم الوصف بأنه يتصدى للأغنياء و يتلهى عن الفقراء لا يشبه أخلاقه الكريمة كما عن المرتضى رحمه الله.

و قد عظم الله خلقه (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ قال وهو قبل نزول هذه السورة: **{وَأِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٌ}** والآية واقعة في سورة «ن» التي اتفقت الروايات المبينة لترتيب نزول السور على أنها نزلت بعد سورة اقرأ باسم ربك، فكيف يعقل أن يعظم الله خلقه في أول بعثته و يطلق القول في ذلك ثم يعود فيعاتبه على بعض ما ظهر من أعماله الخلقية و يذمه بمثل التصدي للأغنياء و إن كفروا و التلهي عن الفقراء و إن آمنوا و استرشدوا.

و قال تعالى أيضا: **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}** الشعراء: ٢١٥ فأمره بخفض الجناح للمؤمنين و السورة من السور المكية و الآية في سياق قوله: **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}** النازل في أوائل الدعوة.

و كذا قوله: **{لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ}** الحجر: ٨٨
وفي سياق الآية قوله: **{فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ}** الحجر: ٩٤ النازل في أول الدعوة العلنية فكيف يتصور
منه (صلى الله عليه وآله وسلم) العبوس و الإعراض عن المؤمنين و قد أمر باحترام إيمانهم و خفض الجناح و أن لا
يمد عينيه إلى دنيا أهل الدنيا.

على أن قبح ترجيح غنى الغني - و ليس ملاكا لشيء من الفضل - على كمال الفقير و صلاحه بالعبوس و
الإعراض عن الفقير و الإقبال على الغني لغناه قبح عقلي مناف لكريم الخلق الإنساني لا يحتاج في لزوم التجنب عنه
إلى نهي لفظي.

و بهذا و ما تقدمه يظهر الجواب عما قيل: إن الله سبحانه لم ينهه (صلى الله عليه وآله وسلم) عن هذا الفعل إلا
في هذا الوقت فلا يكون معصية منه إلا بعده و أما قبل النهي فلا.

و ذلك أن دعوى أنه تعالى لم ينهه إلا في هذا الوقت تحكم ممنوع، و لو سلم فالعقل حاكم بقبحه و معه ينافي
صدوره كرم الخلق و قد عظم الله خلقه (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل ذلك إذ قال: **{وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ}** و أطلق
القول، و الخلق ملكة لا تتخلف عن الفعل المناسب لها.

و عن الصادق (عليه السلام) - على ما في الجمع - : **«أنها نزلت في رجل من بني أمية كان عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بجاء ابن أم مكتوم فلما رآه تقدر منه و جمع نفسه و عبس و أعرض بوجهه عنه فحكى الله سبحانه ذلك و أنكره عليه.»**

و في الجمع، و روي عن الصادق (عليه السلام) أنه قال: **«كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم قال: مرحبا مرحبا و الله لا يعاتبني الله فيك أبدا، و كان يصنع به من اللطف حتى كان يكف عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مما يفعل به.»**

أقول: الكلام فيه كالللام فيما تقدمه، و معنى قوله: حتى أنه كان يكف «إنح» أنه كان يكف عن الحضور عند
النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لكثرة صنيعه (صلى الله عليه وآله وسلم) به انفعالا منه و نجلا.

[سورة عبس (٨٠): الآيات ١٧ الى ٤٢]

{قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا اكْفَرَهُ ۗ ١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۗ ١٨ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۗ ١٩ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۗ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۗ ٢١ ثُمَّ

شَاءَ أَنْزَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَفِضُ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ إِمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

(بيان)

دعاء على الإنسان و تعجيب من مبالغته في الكفر برؤية ربه و إشارة إلى أمره حدوثا و بقاء فإنه لا يملك لنفسه شيئا من خلق و تدبير بل الله سبحانه هو الذي خلقه من نطفة مهينة فقدرة ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره فهو سبحانه ربه الخالق له المدبر لأمره مطلقا و هو في مدى وجوده لا يقضي ما أمره به ربه و لا يهتدي بهداه.

و لو نظر الإنسان إلى طعامه فقط و هو مظهر واحد من مظاهر تديره و غرفة من بحار رحمته رأى من وسيع التدبير و لطيف الصنع ما يبهر عقله و يدهش لبه و وراء ذلك نعم لا تعد: **{إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}**. فستره تدير ربه و تركه شكر نعمته عجيب و إن الإنسان لظلم لظلم كفار و سيرون تبعة شكرهم و كفرهم من السرور و الاستبشار أو الكآبة و سواد الوجه.

و الآيات - كما ترى - لا تأبي الاتصال بما قبلها سياقاً واحداً و إن قال بعضهم إنها نزلت لسبب آخر كما

قوله تعالى: **{قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرُهُ}** دعاء على الإنسان لما أن في طبعه التوغل في اتباع الهوى و نسيان ربوبية ربه و الاستكبار عن اتباع أوامره.

و قوله **{مَا أَكْفَرُهُ}** تعجب من مبالغة في الكفر و ستر الحق الصريح و هو يرى أنه مدبر بتدبير الله لا يملك شيئاً من تدبير أمره غيره تعالى.

فالمراد بالكفر مطلق ستر الحق و ينطبق على إنكار الربوبية و ترك العبادة و يؤيده ما في ذيل الآية من الإشارة إلى جهات من التدبير الربوبي المناسبة مع الكفر بمعنى ستر الحق و ترك العبادة، و قد فسر بعضهم الكفر بترك الشكر و كفران النعمة و هو و إن كان معنى صحيحاً في نفسه لكن الأنسب بالنظر إلى السياق هو المعنى المتقدم.

قال في الكشاف: **{قَتَلَ الْإِنْسَانَ}** دعاء عليه و هي من أشنع دعواتهم لأن القتل قصارى شدائد الدنيا و فظائعها و **{مَا أَكْفَرُهُ}** تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله و لا ترى أسلوباً أغلظ منه، و لا أخشن مساء، و لا أدل على سخط، و لا أبعد شوطاً في المذمة مع تقارب طرفيه، و لا أجمع للأئمة على قصر متنه، انتهى.

و قيل جملة **{مَا أَكْفَرُهُ}** استفهامية و المعنى ما هو الذي جعله كافراً، و الوجه المتقدم أبلغ.

قوله تعالى: **{مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ}** معناه على ما يعطيه المقام من أي شيء خلق الله الإنسان حتى يحق له أن يطغى و يستكبر عن الإيمان و الطاعة، و حذف فاعل قوله: **{خَلَقَهُ}** و ما بعده من الأفعال للإشعار بظهوره فمن المعلوم بالفطرة - و قد اعترف به المشركون - أن لا خالق إلا الله تعالى.

و الاستفهام بداعي تأكيد ما في قوله: **{مَا أَكْفَرُهُ}** من العجب - و العجب إنما هو في الحوادث التي لا يظهر لها سبب - فأفيد أولاً: أن من العجب إفراط الإنسان في كفره ثم سئل ثانياً: هل في خلقته إذ خلقه الله ما يوجب له الإفراط في الكفر فأجيب بنفيه و أن لا حجة له يحتج بها و لا عذر يعتذر به فإنه مخلوق من ماء مهين لا يملك شيئاً من خلقته و لا من تدبير أمره في حياته و مماته و نشره، و بالجملة الاستفهام توطئة للجواب الذي في قوله: **{مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ}** إلخ.

قوله تعالى: **{مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ}** تكبير **{نُّطْفَةٍ}** للتحقير أي من نطفة مهينة حقيرة خلقة فلا يحق له و أصله هذا الأصل أن يطغى بكفره و يستكبر عن الطاعة.

و قوله **{فَقَدَرَهُ}** أي أعطاه القدر في ذاته و صفاته و أفعاله فليس له أن يتعدى الطور

الذي قدر له ويتجاوز الحد الذي عين له فقد أحاط به التدبير الربوبي من كل جانب ليس له أن يستقل بنيل ما لم يقدر له.

قوله تعالى: **{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرُهُ}** ظاهر السياق المقصود به نفي العذر من الإنسان في كفره و استكباره أن المراد بالسبيل وقد أطلق السبيل إلى طاعة الله و امتثال أوامره و إن شئت فقل: السبيل إلى الخير و السعادة.

فتكون الآية في معنى دفع الدخل فإنه إذا قيل: **{مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ}** أمكن أن يتوهم السامع أن الخلق و التقدير إذا كانا محيطين بالإنسان من كل جهة كانت أفعال الإنسان لذاته و صفاته مقدره مكتوبة و متعلقة لمشية الربوبية التي لا تتخلف فتكون أفعال الإنسان ضرورية الثبوت واجبة التحقق و الإنسان مجبرا عليها فاقتدا للاختيار فلا صنع للإنسان في كفره إذا كفر و لا في فسقه إذا فسق و لم يقض ما أمره الله به و إنما ذلك بتقديره تعالى و إرادته فلا ذم و لا لائمة على الإنسان و لا دعوة دينية تتعلق به لأن ذلك كله فرع للاختيار و لا اختيار.

فدفع الشبهة بقوله: **{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرُهُ}** و محصله أن الخلق و التقدير لا ينافيان كون الإنسان مختارا فيما أمر به من الإيمان و الطاعة له طريق إلى السعادة التي خلق لها فكل ميسر لما خلق له و ذلك أن التقدير واقع على الأفعال الإنسانية من طريق اختياره، و الإرادة الربوبية متعلقة بأن يفعل الإنسان بإرادته و اختياره كذا و كذا فالفعل صادر عن الإنسان باختياره و هو بما أنه اختياري متعلق للتقدير.

فالإنسان مختار في فعله مسئول عنه و إن كان متعلقا للقدر، و قد تقدم البحث عن هذا المعنى كرارا في ذيل الآيات المناسبة له في هذا الكتاب.

و قيل: المراد بتيسير السبيل تسهيل خروج الإنسان من بطن أمه و المعنى ثم سهل للإنسان سبيل الخروج و هو جنين مخلوق من نطفة.

و قيل: المراد الهداية إلى الدين و تبين طريق الخير و الشر كما قال: **{وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}** البلد: ١٠ و الوجه المتقدم أوجه.

قوله تعالى: **{ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ}** الإماتة إيقاع الموت على الإنسان، و المراد بالإقبار دفنه في القبر و إخفاؤه في بطن الأرض و هذا بالبناء على الغالب الذي جرى عليه ديدن الناس و بهذه المناسبة نسب إليه تعالى لأنه تعالى هو الذي هداهم إلى ذلك و ألهمهم إياه

فللفعل نسبة إليه كما له نسبة إلى الناس.

وقيل: المراد بالإقبار جعله ذا قبر ومعنى جعله ذا قبر أمره تعالى بدفنه تكرامة له لتتوارى جيفته فلا يتأذى بها الناس ولا يتنفروا.

و الوجه المتقدم أنسب لسياق الآيات المسرود لتذكير تدييره تعالى التكويني للإنسان دون التدبير التشريعي الذي عليه بناء هذا الوجه.

قوله تعالى: **{ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ}** في المجمع: الإنشاز الإحياء للتصرف بعد الموت كنشر الثوب بعد الطي. انتهى، فالمراد به البعث إذا شاء الله، وفيه إشارة إلى كونه بغتة لا يعلمه غيره تعالى.

قوله تعالى: **{كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ}** الذي يعطيه السياق أن **{كَلَّا}** ردع عن معنى سؤال يستدعيه السياق و يلوح إليه قوله: **{لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ}** كأنه لما أشير إلى أن الإنسان مخلوق مدير له تعالى من أول وجوده إلى آخره من خلق و تقدير و تيسير للسبيل و إمامة و إقبار و إنشاز و كل ذلك نعمة منه تعالى سئل فقيل: فماذا صنع الإنسان و الحال هذه الحال و هل خضع للربوبية أو هل شكر النعمة فأجيب و قيل: كلا، ثم أوضح فقيل: لما يقض ما أمره الله به بل كفر و عصى.

فقد ظهر مما تقدم أن ضمير **{يَقْضِ}** للإنسان و المراد بقضائه إتيانه بما أمر الله به، و قيل: الضمير لله تعالى و المعنى لما يقض الله لهذا الكافر أن يأتي بما أمره به من الإيمان و الطاعة بل إنما أمره بما أمر إتماما للحجة، و هو بعيد.

و ظهر أيضا أن ما في الآيات من الذم و اللائمة إنما هو للإنسان بما في طبعه من الإفراط في الكفر كما في قوله: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}** إبراهيم: ٣٤ فينطبق على من تلبس بالكفر و أفرط فيه بالعناد و منه يظهر عدم استقامة ما نقل عن بعضهم أن الآية على العموم في الكافر و المسلم لم يعبد أحد حق عبادته.

و ذلك أن الضمير للإنسان المذكور في صدر الآيات بما في طبعه من داعية الإفراط في الكفر و ينطبق على من تلبس به بالفعل.

قوله تعالى: **{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ}** متفرع على ما تقدم تفرع التفصيل على الإجمال ففيه توجيه نظر الإنسان إلى طعامه الذي يقتات به و يستمد منه لبقائه و هو واحد مما لا يحصى مما هيأه التدبير الربوبي لرفع حوائجه في الحياة حتى يتأمله فيشاهد سعة

التدبير الربوبي التي تدهش لبه و تحير عقله، و تعلق العناية الإلهية على دقتها و إحاطتها بصلاح حاله و استقامة أمره.

و المراد بالإنسان - كما قيل - غير الإنسان المتقدم المذكور في قوله: **{قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ}** فإن المراد به خصوص الإنسان المبالغ في الكفر بخلاف الإنسان المذكور في هذه الآية المأمور بالنظر فإنه عام شامل لكل إنسان، و لذلك أظهر و لم يضمن.

قوله تعالى: **{أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا}** - إلى قوله - **{وَلِأَنْعَامِكُمْ}** القراءة الدائرة **{أَنَا}** بفتح الهمزة و هو بيان تفصيلي لتدبيره تعالى طعام الإنسان نعم هو مرحلة ابتدائية من التفصيل و أما القول المستوفى لبيان خصوصيات النظام الذي هيأ له هذه الأمور و النظام الواسع الجاري في كل من هذه الأمور و الروابط الكونية التي بين كل واحد منها و بين الإنسان فمما لا يسعه نطاق البيان عادة.

و بالجملة قوله: **{أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا}** الصب إراقة الماء من العلو، و المراد بصب الماء إنزال الأمطار على الأرض لإنبات النبات، و لا يبعد أن يشمل إجراء العيون و الأنهار فإن ما في بطن الأرض من ذخائر الماء إنما يتكون من الأمطار.

و قوله: **{ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا}** ظاهره شق الأرض بالنبات الخارج منها و لذا عطف على صب الماء ثم و عطف عليه إنبات الحب بالفاء.

و قوله: **{فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا}** ضمير **{فِيهَا}** للأرض، و المراد بالحب جنس الحب الذي يقتات به الإنسان كالحنطة و الشعير و نحوهما و كذا في العنب و القضب و غيرهما.

و قوله: **{وَعِنْبًا وَقَضْبًا}** العنب معروف، و يطلق على شجر الكرم و لعله المراد في الآية و نظيره الزيتون. و القضب هو الغض الرطب من البقول الذي يأكله الإنسان يقضب أي يقطع مرة بعد أخرى، و قيل: هو ما يقطع من النبات فتعلف به الدواب.

و قوله: **{وَرِزْتُونًا وَنُحْلًا}** معروفان.

و قوله: **{وَحَدَائِقَ غُلْبًا}** الحدائق جمع حديقة و هي على ما فسر البستان المحوط و الغلب جمع غلباء يقال: شجرة غلباء أي عظيمة غليظة فالحدائق الغلب البساتين المشتملة على أشجار عظام غلاظ.

وقوله: **{وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}** قيل: الفاكهة مطلق الثمار، وقيل: ما عدا العنب والرمان. قيل: إن ذكر ما يدخل في الفاكهة أولا كالزيتون والنخل للاعتناء بشأنه والأب الكلاء والمرعى.

وقوله: **{مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}** مفعول له أي أنبتنا ما أنبتنا مما تطعمونه ليكون تمتيعا لكم وللأنعام التي خصصتموها بأنفسكم.

والالفتات عن الغيبة إلى الخطاب في الآية لتأكيد الامتنان بالتدبير أو بإنعام النعمة.

قوله تعالى: **{فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ}** إشارة إلى ما ينتهي إليه ما ذكر من التدبير العام الربوبي للإنسان بما أن فيه أمرا ربوبيا إلهيا بالعبودية يقضيه الإنسان أولا يقضيه وهو يوم القيامة الذي يوفى فيه الإنسان جزاء أعماله.

والصاخة: الصيحة الشديدة التي تصم الأسماع من شدتها، والمراد بها نفخة الصور.

قوله تعالى: **{يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ}** إشارة إلى شدة اليوم فالذين عدوا من أقرباء الإنسان وأخصائه هم الذين كان يأوي إليهم ويأنس بهم ويتخذهم أعضاءا وأنصارا يلوذ بهم في الدنيا لكنه يفر منهم يوم القيامة لما أن الشدة أحاطت به بحيث لا تدعه يشتغل بغيره ويعتني بما سواه كائنا من كان فالبليلة إذا عظمت واشتدت وأطلت على الإنسان جذبته إلى نفسها و صرفته عن كل شيء.

والدليل على هذا المعنى قوله بعد: **{لِكُلِّ امْرِيٍّ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}** أي يكفيه من أن يشتغل بغيره.

وقيل: في سبب فرار الإنسان من أقربائه وأخصائه يومئذ وجوه أخر لا دليل عليها أغمضنا عن إيرادها.

قوله تعالى: **{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ}** بيان لانقسام الناس يومئذ إلى قسمين: أهل السعادة و أهل الشقاء، وإشارة إلى أنهم يعرفون بسيماهم في وجوههم وإسفار الوجه إشراقه وإضاءته فرحا و سرورا و استبشاره تهلله بمشاهدة ما فيه البشري.

قوله تعالى: **{وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيَّهَا غَبْرَةٌ}** هي الغبار والكدورة وهي سيماء الهم والغم.

قوله تعالى: **{تَرَاهُمْ قَاظِرَةٌ}** أي يعلوها ويغشاها سواد و ظلمة، وقد بين حال الطائفتين في الآيات الأربع ببيان حال وجوههما لأن الوجه مرآة القلب في سروره و مساءته.

قوله تعالى: **{أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفٰجِرَةُ}** أي الجامعون بين الكفر اعتقادا و الفجور

و هو المعصية الشنيعة عملاً أو الكافرون بنعمة الله الفاجرون، و هذا تعريف للطائفة الثانية و هم أهل الشقاء و لم يأت بمثله في الطائفة الأولى و هم أهل السعادة لأن الكلام مسوق للإنذار و الاعتناء بشأن أهل الشقاء.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله: **{قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ}** قال: نزلت في عتبة بن أبي لهب حين قال: كفرت برب النجم إذا هوى فدعا عليه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأخذه الأسد بطريق الشام.

و في الاحتجاج، عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديث طويل: **{قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ} أي لعن الإنسان.**

و في تفسير القمي: **{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ}** قال: يسر له طريق الخير.

أقول: المراد به جعله مختاراً في فعله يسهل به سلوكه سبيل السعادة و وصوله إلى الكمال الذي خلق له. فالخبر منطبق على ما قدمناه من الوجه في تفسير الآية.

و فيه في قوله: **{وَقَضْبًا}** قال: القضب القت.

و فيه في قوله: **{وَفَاكِهَةً وَأَبًّا}** قال: الأب الحشيش للبهائم.

و في الدر المنثور، أخرج أبو عبيد في فضائله عن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق عن قوله: **{وَأَبًّا}** فقال: أي سماء تظلني و أي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم.

و فيه، أخرج سعيد بن منصور و ابن جرير و ابن سعد و عبد بن حميد و ابن المنذر و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان و الخطيب و الحاكم و صححه عن أنس أن عمر قرأ على المنبر **{فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا}** - إلى قوله - **{وَأَبًّا}** قال: كل هذا قد عرفناه فما الأب؟ ثم رفض عصا كانت في يده فقال: هذا لعمر الله هو التكلف فما عليك أن لا تدري ما الأب؟ اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب فاعملوا به و ما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه.

و فيه، أخرج عبد بن حميد عن عبد الرحمن بن يزيد أن رجلاً سأل عمر عن قوله **{وَأَبًّا}** فلما رأهم يقولون أقبل عليهم بالدرّة.

أقول: هو مبني على منعهم عن البحث عن معارف الكتاب حتى تفسير ألفاظه.

وفي إرشاد المفيد، وروي: أن أبا بكر سئل عن قول الله تعالى: **{وَفَاكِهَةٌ وَأَبٌ}** فلم يعرف معنى الأب من القرآن فقال: أي سماء تظلني أم أي أرض تقلني - أم كيف أصنع إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم؟ أما الفاكهة فنعرفها و أما الأب فالله أعلم.

فبلغ أمير المؤمنين (عليه السلام) مقاله في ذلك فقال: **سبحان الله أ ما علم أن الأب هو الكلاء والمرعى؟ وأن قوله تعالى: {وَفَاكِهَةٌ وَأَبٌ} اعتداد من الله بإنعامه على خلقه فيما غداهم به و خلقه لهم ولأنعامهم مما تحيي به أنفسهم و تقوم به أجسادهم.**

وفي المجمع، وروي عن عطاء بن يسار عن سودة زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **يبعث الناس حفاة عراة غرلا^١ يلجمهم العرق و يبلغ شحمة الإذن قالت: قلت: يا رسول الله و سواتاه ينظر بعضنا إلى بعض إذا جاء؟ قال: شغل الناس عن ذلك و تلا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}.**

و في تفسير القمي قوله: **{لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}** قال: شغل يشغله عن غيره.

(٨١) سورة التكوير مكية و هي تسع و عشرون آية (٢٩)

[سورة التكوير (٨١): الآيات ١ الى ١٤]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا الْثُقُوسُ رُوجَتْ ⑦ وَإِذَا الْآمُودُ سُيِّلَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ⑨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ⑫ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ ⑭}

^١ الغرل بالغين المعجمة جمع أغرل و هو الأقلق غير المختون.

(بيان)

تذكر السورة يوم القيامة بذكر بعض أشراتها و ما يقع فيها و تصفه بأنه يوم ينكشف فيه للإنسان ما عمله من عمل ثم تصف القرآن بأنه مما ألقاه إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) رسول سماوي و هو ملك الوحي و ليس بإلقاء شيطاني و لا أن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) مجنون يمسه الشيطان.

و يشبه أن تكون السورة من السور العتائق النازلة في أوائل البعثة كما يشهد به ما فيها من تنزيهه (صلى الله عليه وآله و سلم) مما رموه به من الجنون و قد اتهموه به في أوائل الدعوة و قد اشتملت على تنزيهه منه سورة «ن» و هي من العتائق.

و السورة مكية بلا كلام.

قوله تعالى: **{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}** التكوير اللف على طريق الإدارة كلف العمامة على الرأس، و لعل المراد بتكوير الشمس انظلام جرمها على نحو الإحاطة استعارة.

قوله تعالى: **{وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ}** انكدار الطائر من الهواء انقضاضه نحو الأرض، و عليه فالمراد سقوط النجوم كما يفيد قوله: **{وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَثَرَتْ}** الانفطار: ٢ و يمكن أن يكون من الانكدار بمعنى التغير و قبول الكدورة فيكون المراد به ذهاب ضوءها.

قوله تعالى: **{وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ}** بما يصيبها من زلزلة الساعة من التسيير فتندك و تكون هباء منبثا و تصير سرايا على ما ذكره سبحانه في مواضع من كلامه.

قوله تعالى: **{وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ}** قيل: العشار جمع عشراء كالنفاس جمع نفساء و هي الناقة الحامل التي أتت عليها عشرة أشهر فتسمى عشراء حتى تضع حملها و ربما سميت عشراء بعد الوضع أيضا و هي من أنفس المال عند العرب.

و تعطيل العشار تركها مهملة لا راعي لها و لا حافظ يحفظها و كان في الجملة إشارة على نحو الكناية إلى أن نفائس الأموال التي يتنافس فيها الإنسان تبقى اليوم و لا صاحب لها يملكها و يتصرف فيها لأنهم مشغولون بأنفسهم عن كل شيء كما قال: **{لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ}** عبس: ٣٧.

قوله تعالى: **{وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ}** الوحوش جمع وحش و هو من الحيوان ما لا يتأنس بالإنسان كالسباع و غيرها.

و ظاهر الآية من حيث وقوعها في سياق الآيات الواصفة ليوم القيامة أن الوحوش محشورة كالإنسان،
و يؤيده قوله تعالى: **{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}** الأنعام: ٣٨.

و أما تفصيل حالها بعد الحشر و ما يؤول إليه أمرها فلم يرد في كلامه تعالى و لا فيما يعتمد عليه من
الأخبار ما يكشف عن ذلك نعم ربما استفيد من قوله في آية الأنعام: **{أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ}** و قوله: **{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ}** بعض ما يتضح به الحال في الجملة لا يخفى على الناقد المتدبر، و ربما قيل: إن حشر الوحوش من أشرط
الساعة لا مما يقع يوم القيامة و المراد به خروجها من غاباتها و أركانها.

قوله تعالى: **{وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}** فسر التسجير بإضرام النار و فسر بالملا و المعنى على الأول و إذا البحار
أضرمت نارا، و على الثاني و إذا البحار ملئت.

قوله تعالى: **{وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ}** أما نفوس السعداء فبنساء الجنة قال تعالى: **{لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ}**
النساء: ٥٧، و قال: **{وَزَوْجَانَهُمْ بِحُورٍ عِينٍ}** الدخان: ٥٤ و أما نفوس الأشقياء فبقرناء الشياطين قال تعالى:
{أُحْشِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ} الصافات: ٢٢ و قال: **{وَمَنْ يَعْمَلْ عَمَلًا شَرًّا لَنَجْزِيَنَّهُ أَجْرًا كَمِثْلِهِ وَلَنُكَفِّرُنَّ بَعْضَ أَسْفَهَاتِهِ وَلَنُجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}** الزحرف: ٣٦.

قوله تعالى: **{وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ}** الموءودة البنت التي تدفن حية و كانت العرب تئد البنات
خوفا من لحوق العار بهم من أجلهن كما يشير إليه قوله تعالى: **{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ}** النحل: ٥٩.

و المسئول بالحقيقة عن قتل الموءودة أبوها الوائد لها لينتصف منه و ينتقم لكن عد المسئول في الآية هي
الموءودة نفسها فسئلت عن سبب قتلها نوع من التعريض و التوبيخ لقاتلها و توطئة لأن تسأل الله الانتصاف لها
من قاتلها حتى يسأل عن قتلها فيؤخذ لها منه، فالكلام نظير قوله تعالى في عيسى (عليه السلام): **{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}** المائدة: ١١٦.

و قيل: إسناد المسئولية إلى الموءودة من المجاز العقلي و المراد كونها مسئولا عنها نظير قوله تعالى: **{إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا}** إسرائ: ٣٤.

قوله تعالى: **{وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ}** أي للحساب، و الصحف كتب الأعمال.

قوله تعالى: **{وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ}** في المجمع، الكشط القلع عن شدة التزاق فينطبق على طيها كما في قوله: **{وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}** الزمر: ٦٧، وقوله: **{وَيَوْمَ نَشْفُقُ السَّمَاءَ بِالْغَمَامِ وَنُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ نُنزِيلًا}** الفرقان: ٢٥ وغير ذلك من الآيات المفصلة عن هذا المعنى.

قوله تعالى: **{وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ}** التسعير تهبيج النار حتى تتأجج.

قوله تعالى: **{وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ}** الإزلاف التقريب و المراد تقريباها من أهلها للدخول.

قوله تعالى: **{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ}** جواب إذا، و المراد بالنفس الجنس و المراد بما أحضرت عملها الذي عملته يقال: أحضرت الشيء أي وجدته حاضرا كما يقال: أحمدته أي وجدته محمودا.

فلاية في معنى قوله تعالى: **{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَ مَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ}** آل عمران:

٠٣٠

(بحث روائي)

في تفسير القمي: **{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}** قال: تصير سوداء مظلمة **{وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ}** قال: يذهب ضوءها **{وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ}** قال: تسير كما قال **{تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}**. قوله: **{وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ}** قال الإبل تتعطل إذا مات الخلق فلا يكون من يجلها، قوله: **{وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}** قال: تتحول البحار التي حول الدنيا كلها نيرانا **{وَإِذَا الْنُّفُوسُ زُوِّجَتْ}** قال: من الحور العين.

وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله: **{وَإِذَا الْنُّفُوسُ زُوِّجَتْ}** قال: أما أهل الجنة فزوجوا الخيرات الحسان، وأما أهل النار فمع كل إنسان منهم شيطان يعني قرنت نفوس الكافرين والمنافقين بالشياطين فهم قرناؤهم.

أقول: الظاهر أن قوله: يعني «إلخ» من كلام الراوي.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم والديلمي عن أبي مریم أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال في قوله: **{إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ}** قال: كورت في جهنم **{وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ}** قال: انكدرت في جهنم، و كل من عبد من دون الله فهو في جهنم إلا ما كان من عيسى بن مریم وأمه و لو

رضيا أن يعبدا لدخلاها.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: {وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ} قال: صحف الأعمال قوله: {وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ} قال: أبطلت.

و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يقول: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} قال: هما الرجلان يعملان العمل يدخلان الجنة و النار.

[سورة التكوير (٨١): الآيات ١٥ الى ٢٩]

{فَلَا أُفْسِمُ بِالْخُنُوسِ ١٥ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُ لَقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ٢٢ وَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ٢٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٩}

(بيان)

تنزيه للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) من الجنون و قد اتهموه به و لما يأتي به من القرآن من مداخلة الشيطان، و أنه كلامه تعالى يلقيه إليه ملك الوحي الذي لا يخون في رسالته، و أنه ذكر للعالمين هاد بإذن الله لمن اهتدى منهم.

قوله تعالى: {فَلَا أُفْسِمُ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ} الخنوس جمع خانس كطلب جمع طالب، و الخنوس الانقباض و التأخر و الاستتار، و الجواري جمع جارية، و الجري السير السريع مستعار من جرى الماء، و الكنس جمع كانس و الكنوس دخول الوحش كالظبي

و الطير كئاسة أي بيته الذي اتخذه لنفسه و استقراره فيه.

و تعقب قوله: **{فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ}** إنخ بقوله: **{وَ اللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}** يؤيد كون المراد بالخنس الجوار الكنس الكواكب كلها أو بعضها لكن صفات حركة بعضها أشد مناسبة و أوضح انطباقا على ما ذكر من الصفات المقسم بها: الخنوس و الجري و الكنوس و هي السيارات الخمس المتحيرة: زحل و المشتري و المريخ و الزهرة و عطارد فإن لها في حركاتها على ما تشاهد استقامة و رجعة و إقامة فهي تسير و تجري حركة متشابهة زمانا و هي الاستقامة و تنقبض و تتأخر و تخنس زمانا و هي الرجعة و تقف عن الحركة استقامة و رجعة زمانا كأنها الوحش تكنس في كناسها و هي الإقامة.

و قيل: المراد بها مطلق الكواكب و خنوسها استتارها في النهار تحت ضوء الشمس و جريها سيرها المشهود في الليل و كنوسها غروبها في مغربها و تواريها.

و قيل: المراد بها بقر الوحش أو الظبي و لا يبعد أن يكون ذكر بقر الوحش أو الظبي من باب المثال و المراد مطلق الوحش.

و كيف كان فأقرب الأقوال أولها و الثاني بعيد و الثالث أبعد.

قوله تعالى: **{وَ اللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}** عطف على الخنس، و **{إِذَا عَسْعَسَ}** قيد لليل، و العسوسة تطلق على إقبال الليل و على إدباره قال الراغب: **{وَ اللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ}** أي أقبل و أدبر و ذلك في مبدأ الليل و منتهاه فالعسوسة و العساس رقة الظلام و ذلك في طرفي الليل. انتهى و الأنسب لاتصال الجملة بقوله: **{وَ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}** أن يراد بها إدبار الليل.

و قيل: المراد بها إقبال الليل: و هو بعيد لما عرفت.

قوله تعالى: **{وَ الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}** عطف على الخنس، و **{إِذَا تَنَفَّسَ}** قيد للصبح، و عد الصبح متنفسا بسبب انبساط ضوئه على الأفق و دفعه الظلمة التي غشيتها نوع من الاستعارة بتشبيهه الصبح و قد طلع بعد غشيان الظلام للآفاق بمن أحاطت به متاعب أعمال شاقة ثم وجد خلاء من الزمان فاستراح فيه و تنفس فعد إضاءته للآفاق تنفسا منه كذا يستفاد من بعضهم.

و ذكر الزمخشري فيه وجها آخر فقال في الكشاف: فإن قلت: ما معنى تنفس الصبح؟ قلت: إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح و نسيم فجعل ذلك نفسا له على المجاز. انتهى و الوجه المتقدم أقرب إلى الذهن.

قوله تعالى: **{إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ}** جواب القسم، و ضمير **{إِنَّهُ}** للقرآن أو لما تقدم من آيات السورة بما أنها قرآن بدليل قوله: **{لَقَوْلُ رَسُولٍ}** إنلخ و المراد بالرسول جبريل كما قال تعالى: **{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ}** البقرة: ٩٧.

و في إضافة القول إليه بما أنه رسول دلالة على أن القول لله سبحانه، و نسبتته إلى جبريل نسبة الرسالة إلى الرسول و قد وصفه الله بصفات ست مدحه بها.

فقوله: **{رَسُولٍ}** يدل على رسالته و إلقائه وحي القرآن إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ، و قوله: **{كَرِيمٍ}** أي ذي كرامة و عزة عند الله بإعزازه، و قوله: **{ذِي قُوَّةٍ}** أي ذي قدرة و شدة بالغة، و قوله: **{عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ}** أي صاحب مكانة عند الله و المكانة القرب و المنزلة، و قوله: **{مُطَاعٍ ثَمَّ}** أي مطاع عند الله فهناك ملائكة يأمرهم فيطيعونه، و من هنا يظهر أن له أعوانا من الملائكة يأمرهم فيأتمرون بأمره، و قوله: **{أَمِينٍ}** أي لا يخون فيما أمر به يبلغ ما حملة من الوحي و الرسالة من غير أي تصرف فيه.

و قيل: المراد بالرسول الجاري عليه الصفات هو النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ، و هو كما ترى و لا تلائم الآيات التالية.

قوله تعالى: **{وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ}** عطف على قوله: **{إِنَّهُ لَقَوْلُ}** إنلخ ورد لرميهم له (صلى الله عليه وآله و سلم) بالجنون.

و في التعبير عنه (صلى الله عليه وآله و سلم) بقوله: **{صَاحِبُكُمْ}** تكذيب لهم في رميهم له بالجنون و تنزيهه لساحته - كما قيل - ففيه إيماء إلى أنه صاحبكم لبث بينكم معاشرًا لكم طول عمره و أنتم أعرف به قد وجدتموه على كمال من العقل و رزانة من الرأي و صدق من القول و من هذه صفته لا يرمى بالجنون.

و توصيف جبريل بما مر من صفات المدح دون النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) لا دلالة فيه على أفضليته من النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) لأن الكلام مسوق لبيان أن القرآن كلام الله سبحانه منزل على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) من عنده سبحانه من طريق الوحي لا من أوهام الجنون بإلقاء من شيطان و الذي يفيد في هذا الغرض بيان سلامة طريق الإنزال و تجليل المنزل اسم فاعل بذكر أوصافه الكريمة و المبالغة في تنزيهه عن الخطأ و الخيانة، و أما المنزل عليه فلا يتعلق به غرض إلا بمقدار الإشارة إلى دفع ما يرتاب فيه من صفته و قد أفيد بنفي الجنون الذي رموه به

و التعبير عنه بقوله: **{صَاحِبُكُمْ}** كما تقدم توضيحه، كذا قيل.

و في مطاوي كلامه تعالى من نعوت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الكريمة ما لا يرتاب معه في أفضليته (صلى الله عليه وآله وسلم) على جميع الملائكة، وقد أسجد الله الملائكة كلهم أجمعين للإنسان الذي هو خليفته في الأرض.

قوله تعالى: **{وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ}** ضمير الفاعل في **{رَأَاهُ}** للمصاحب و ضمير المفعول للرسول الكريم و هو جبريل.

و الأفق المبين الناحية الظاهرة، و الظاهر أنه الذي أشار إليه بقوله: **{وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى}** النجم: ٧.

و المعنى و أقسم لقد رأى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) جبريل حال كون جبريل كائنا في الأفق المبين و هو الأفق الأعلى من سائر الآفاق بما يناسب عالم الملائكة.

و قيل: المعنى لقد رأى (صلى الله عليه وآله وسلم) جبريل على صورته الأصلية حيث تطلع الشمس و هو الأفق الأعلى من ناحية المشرق.

و فيه أن لا دليل من اللفظ يدل عليه و خاصة في تعلق الرؤية بصورته الأصلية و رؤيته في أي مثال تمثل به رؤيته، و كأنه مأخوذ مما ورد في بعض الروايات أنه رآه في أول البعثة و هو بين السماء و الأرض جالس على كرسي، و هو محمول على التمثل.

قوله تعالى: **{وَمَا هُوَ عَلَى الْعَيْبِ بِضَنِينٍ}** الضمير للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، و المراد بالغيب الوحي النازل عليه، و الضنين صفة مشبهة من الضن بمعنى البخل يعني أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يبخل بشيء مما يوحى إليه فلا يكتمه و لا يحبس و لا يغيره بتبديل بعضه أو كله شيئاً آخر بل يعلم الناس كما علمه الله و يبلغهم ما أمر بتبليغه.

قوله تعالى: **{وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}** نفي لاستناد القرآن إلى إلقاء شيطان بما هو أعم من طريق الجنون فإن الشيطان بمعنى الشرير و الشيطان الرجيم كما أطلق في كلامه تعالى على إبليس و ذريته كذلك أطلق على أشرار سائر الجن قال تعالى: **{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}** - ص: ٧٧، و قال: **{وَحَفِظْنَاَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}** الحجر: ١٧.

فالمعنى أن القرآن ليس بتسويل من إبليس و جنوده و لا بإلقاء من أشرار الجن كما يلقونه على المجانين.

قوله تعالى: **{فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ}** أوضح سبحانه في الآيات السبع المتقدمة ما هو الحق في

أمر القرآن دافعا عنه ارتياهم فيه بما يرمون به الجائي به من الجنون وغيره على إيجاز متون الآيات فبين أولا أنه كلام الله و اتكاء هذه الحقيقة على آيات التحدي، وثانيا أن نزوله برسالة ملك سماوي جليل القدر عظيم المنزلة وهو أمين الوحي جبريل لا حاجز بينه وبين الله ولا بينه وبين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولا صارف من نفسه أو غيره يصرفه عن أخذه ولا حفظه ولا تبليغه، وثالثا أن الذي أنزل عليه وهو يتلوه لكم وهو صاحبكم الذي لا يخفى عليكم حاله ليس بمجنون كما يبهتونه به وقد رأى الملك الحامل للوحي وأخذ عنه و ليس بقاتم لما يوحى إليه ولا بمغير، ورابعا أنه ليس بتسويل من إبليس و جنوده ولا بإلقاء من بعض أشرار الجن.

و نتيجة هذا البيان أن القرآن كتاب هدى يهتدي به من أراد الاستقامة على الحق وهو قوله: **{إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}** إلخ.

فقوله: **{فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ}** توطئة و تمهيد لذكر نتيجة البيان السابق، وهو استضلال لهم فيما يرونه في أمر القرآن الكريم أنه من طواري الجنون أو من تسويلات الشيطان الباطلة.

فالاستفهام في الآية تويخي والمعنى إذا كان الأمر على هذا فأين تذهبون و تتركون الحق وراءكم؟

قوله تعالى: **{إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ}** أي تذكرة لجماعات الناس كائين من كانوا يمكنهم بها أن يتبصروا للحق، و قد تقدم بعض الكلام في نظيرة الآية.

قوله تعالى: **{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ}** بدل من قوله: **{لِلْعَالَمِينَ}** مسوق لبيان أن فعلية الانتفاع بهذا الذكر مشروط بأن يشاءوا الاستقامة على الحق وهو التلبس بالثبات على العبودية و الطاعة.

قوله تعالى: **{وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}** تقدم الكلام في معناه في نظائر الآية.

و الآية بحسب ما يفيد السياق في معنى دفع الدخل فإن من الممكن أن يتوهموا من قوله: **{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ}** أن لهم الاستقلال في مشية الاستقامة إن شاءوا استقاموا و إن لم يشاءوا لم يستقيموا، فلهذا إليهم حاجة في الاستقامة التي يريدونها منهم.

فدفع ذلك بأن مشيتهم متوقفة على مشية الله سبحانه فلا يشاءون الاستقامة إلا أن يشاء الله أن يشاءوها، فأفعال الإنسان الإرادية مرادة لله تعالى من طريق إرادته وهو أن

يريد الله أن يفعل الإنسان فعلا كذا و كذا عن إرادته.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج سعيد بن منصور و الفاريابي و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه من طرق عن علي في قوله: **{فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ}** قال: **هي الكواكب تكنس بالليل و تخنس بالنهار فلا ترى.**

و في تفسير القمي في قوله: **{فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ}** قال: أي و أقسم بالخنس و هو اسم النجوم. **{الْجَوَارِ الْكُنَّسِ}** قال: النجوم تكنس بالنهار فلا تين.

و في الجمع: **{بِالْخُنَّسِ}** و هي النجوم تخنس بالنهار و تبدو بالليل و **{الْجَوَارِ}** صفة لها لأنها تجري في أفلاكها **{الْكُنَّسِ}** من صفتها أيضا لأنها تكنس أي تتوارى في بروجها كما تتوارى الظباء في كاسها. و هي خمسة أنجم: زحل و المشتري و المريخ و الزهرة و عطارد عن علي **{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ}** أي إذا أدبر بظلامه عن علي.

و في تفسير القمي: **{وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ}** قال: إذا أظلم و **{الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ}** قال: إذا ارتفع.

و في الدر المنثور، أخرج ابن عساكر عن معاوية بن قرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) لجبريل: **ما أحسن ما أثنى عليك ربك: ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين فما كانت قوتك؟ و ما كانت أمانتك؟**

قال: أما قوتي فإني بعثت إلى مدائن لوط و هي أربع مدائن، و في كل مدينة أربع مائة ألف مقاتل سوى الذراري فحملتهم من الأرض السفلى حتى سمع أهل السماء أصوات الدجاج و نباح الكلاب ثم هويت بهم فقتلتهم، و أما أمانتي فلم أومر بشيء فعدوته إلى غيره.

أقول: و الرواية لا تخلو من شيء و قد ضعفوا ابن عساكر و خاصة فيما تفرد به.

و في الخصال، عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **من قال في كل يوم من شعبان سبعين مرة: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الحي القيوم و أتوب إليه، كتب في الأفق المبين.** قال: قلت: و ما الأفق المبين؟ قال: **قاع بين يدي العرش فيه أنهار تطرد و فيه من القدحان عدد النجوم.**

و في تفسير القمي، في حديث أسنده إلى أبي عبد الله (عليه السلام): قوله: **{وَمَا هُوَ يَقُولُ شَيْطَانٍ}**

رَجِيمًا} قال: يعني الكهنة الذين كانوا في قريش فنسب كلامهم إلى كلام الشياطين الذين كانوا معهم يتكلمون على ألسنتهم فقال: {وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} مثل أولئك.

(٨٢) سورة الانفطار مكية و هي تسع عشرة آية (١٩)

[سورة الانفطار (٨٢): الآيات ١ الى ١٩]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالذِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الذِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الذِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾}

(بيان)

تحد السورة يوم القيامة ببعض أشراته الملازمة له المتصلة به و تصفه بما يقع فيه و هو ذكر الإنسان ما قدم و ما أخر من أعماله الحسنة و السيئة على أنها محفوظة عليه بواسطة حفظة الملائكة الموكلين عليه و جزاؤه بعمله إن كان برا فبنعيم و إن كان فاجرا مكذبا بيوم الدين فبجحيم يصلها مخلدا فيها.

ثم يستأنف وصف اليوم بأنه يوم لا يملك نفس لنفس شيئا و الأمر يومئذ لله، و هي من غرر الآيات، و السورة مكية بلا كلام.

قوله تعالى: **{إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ}** الفطر الشق و الانفطار الانشقاق و الآية كقوله: **{وَإِنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ}** الحاقة: ١٦.

قوله تعالى: **{وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ}** أي تفرقت بتركها مواضعها التي ركزت فيها شبهت الكواكب بلائي منظومة قطع سلكها فانتثرت و تفرقت.

قوله تعالى: **{وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ}** قال في المجمع: التفجير خرق بعض مواضع الماء إلى بعض الكثير، و منه الفجور لانخراق صاحبه بالخروج إلى كثير من الذنوب، و منه الفجر لانفجاره بالضياء، انتهى. و إليه يرجع تفسيرهم لتفجير البحار بفتح بعضها في بعض حتى يزول الحائل و يختلط العذب منها و المالح و يعود بحرا واحدا، و هذا المعنى يناسب تفسير قوله: **{وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ}** التكوير: ٦ بامتلاء البحار.

قوله تعالى: **{وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ}** قال في المجمع، بعثرت الحوض و بخرته إذا جعلت أسفله أعلاه، و البعثرة و البخرثرة إثارة الشيء بقلب باطنه إلى ظاهره، انتهى. فالمعنى و إذا قلب تراب القبور و أثير باطنها إلى ظاهرها لإخراج الموتى و بعثهم للجزاء.

قوله تعالى: **{عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ}** المراد بالعلم علمها التفصيلي بأعمالها التي عملتها في الدنيا، و هذا غير ما يحصل لها من العلم بنشر كتاب أعمالها لظاهر قوله تعالى: **{بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ}** القيامة: ١٥ و قوله: **{يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى}** النازعات: ٣٥، و قوله: **{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ}** آل عمران: ٣٠.

و المراد بالنفس جنسها فتفيد الشمول، و المراد بما قدمت و ما أخرت هو ما قدمته مما عملته في حياتها، و بما أخرت ما سنته من سنة حسنة أو سيئة فعملت بها بعد موتها فتكتب صحيفة عملها قال تعالى: **{وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ}** يس: ١٢.

و قيل: المراد بما قدمت و أخرت ما عملته في أول العمر و ما عملته في آخره فيكون كناية عن الاستقصاء.

و قيل في معنى التقديم و التأخير وجوه أخر لا يعابها مذكورة في مطولات التفاسير من أراد الوقوف عليها فليراجعها.

و قد تقدم في تفسير قوله تعالى: **{لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}** الأنفال: ٣٧، كلام لا يخلو من نفع هاهنا.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}** - إلى قوله - **{رَكَّبَكَ}** عتاب و توبيخ للإنسان، والمراد بهذا الإنسان المكذب ليوم الدين على ما يفيد السباق المشتمل على قوله: **{بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ}** و في تكذيب يوم الدين كفر و إنكار لتشريع الدين و في إنكاره إنكار لرؤية الرب تعالى، و إنما وجه الخطاب إليه بما أنه إنسان ليكون حجة أو كالحجة لثبوت الخصال التي يذكرها من نعمه عليه المختصة من حيث المجموع بالإنسان.

و قد علق الغرور بصفتي ربوبيته و كرمه تعالى ليكون ذلك حجة في توجه العتاب و التوبيخ فإن تمرد المربوب و توغله في معصية ربه الذي يدبر أمره و يغشيه نعمه ظاهرة و باطنة كفران لا ترتب الفطرة السليمة في قبحه و لا في استحقاق العقاب عليه و خاصة إذا كان الرب المنعم كريما لا يريد في نعمه و عطاياه نفعا ينتفع به و لا عضوا يقابله به المنعم عليه، و يسامح في إحسانه و يصفح عما يأتي به المربوب من الخطيئة و الإثم بجهالة فإن الكفران حينئذ أقبح و أقبح و توجه الدم و اللائمة أشد و أوضح.

فقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}** استفهام توبيخي يوبخ الإنسان بكفران خاص لا عذر له يعتذر به عنه و هو كفران نعمة رب كريم.

و ليس للإنسان أن يجيب فيقول: أي رب غرني كرمك فقد قضى الله سبحانه فيما قضى و بلغه بلسان أنبيائه: **{لَيْنِ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَيْنِ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}** إبراهيم: ٧، و قال: **{فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَ آتَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}** النازعات: ٣٩، إلى غير ذلك من الآيات الناصية في أن لا مخلص للمعاند من العذاب و أن الكرم لا يشملهم يوم القيامة قال: **{وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ}** الأعراف: ١٥٦ و لو كفى الإنسان العاصي قوله: «غرني كرمك» لصراف العذاب عن الكافر المعاند كما يصرفه عن المؤمن العاصي، و لا عذر بعد البيان.

و من هنا يظهر أن لا محل لقول بعضهم: إن توصيف الرب بالكريم من قبيل تلقين الحجة و هو من الكرم أيضا.

كيف؟ و السياق سياق الوعيد و الكلام ينتهي إلى مثل قوله: **{وَ إِنَّ الْفُجَّارَ لَنَفِي}**

جَجِيرٍ يَصْلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ وَ مَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ}.

وقوله: **{الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ}** بيان لربوبيته المتلبسة بالكرم فإن من تديره خلق الإنسان بجمع أجزاء وجوده ثم تسويته بوضع كل عضو فيما يناسبه من الموضع على ما يقتضيه الحكمة ثم عدله بعدل بعض أعضائه و قواه ببعض يجعل التوازن و التعادل بينها فما يضعف عنه عضو يقوى عليه عضو فيتم به فعله كما أن الأكل مثلاً بالالتقام و هو للفم، و يضعف الفم عن قطع اللقمة و نهشها و طحنها فيتم ذلك بمختلف الأسنان، و يحتاج ذلك إلى نقل اللقمة من جانب من الفم إلى آخر و قلبها من حال إلى حال فجعل ذلك للسان ثم الفم يحتاج في فعل الأكل إلى وضع الغذاء فيه فتوصل إلى ذلك باليد و تم عملها بالكف و عملها بالأصابع على اختلاف منافعها و عملها بالأنامل، و تحتاج اليد في الأخذ و الوضع إلى الانتقال المكاني نحو الغذاء و عدل ذلك بالرجل.

و على هذا القياس في أعمال سائر الجوارح و القوى و هي ألوف و ألوف لا يحصيها العد، و الكل من تديره تعالى و هو المفيض لها من غير أن يريد بذلك انتفاعاً لنفسه و من غير أن يمنعه من إفاضتها ما يقابله به الإنسان من نسيان الشكر و كفران النعمة فهو تعالى ربه الكريم.

و قوله: **{فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}** بيان لقوله: **{فَعَدَلَكَ}** و لذا لم يعطف على ما تقدمه و الصورة ما ينتقش به الأعيان و يتميز به الشيء من غيره و «ما» زائدة للتأكيد.

و المعنى: في أي صورة شاء أن يركبك - و لا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة - ركبك من ذكر و أنثى و أبيض و أسود و طويل و قصير و وسيم و دميم و قوي و ضعيف إلى غير ذلك و كذا الأعضاء المشتركة بين أفراد الإنسان المميزة لها من غيرها كاليد و الرجلين و العينين و الرأس و البدن و استواء القامة و نحوها فكل ذلك من عدل بعض الأجزاء ببعض في التركيب قال تعالى: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}** التين: ٤ و الجميع ينتهي إلى تدير الرب الكريم لا صنع للإنسان في شيء من ذلك.

قوله تعالى: **{كَلَّا بَلْ تُكَدِّبُونَ بِالَّذِينَ} {كَلَّا}** ردع عن اغترار الإنسان بكرم الله و جعل ذلك ذريعة إلى الكفر و المعصية أي لا تغتروا فلا ينفعكم الاعتذار.

و قوله: **{بَلْ تُكَدِّبُونَ بِالَّذِينَ}** أي بالجزاء. إضراب عما يفهم من قوله: **{مَا عَزَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}** من غرور الإنسان بربه الكريم على اعتراف منه و لو بالقوة بالجزاء لقضاء

فإذ عاتب الإنسان ووبخه على غروره بربه الكريم واجترائه على الكفران والمعصية من غير أن يخاف الجزاء أضرب عنه مخاطبا للإنسان و كل من يشاركه في كفره و معصيته فقال: بل أنت و من حاله حالك تكذبون بيوم الدين و الجزاء فتجحدونه ملحين عليه.

قوله تعالى: **{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}** إشارة إلى أن أعمال الإنسان حاضرة محفوظة يوم القيامة من طريق آخر غير حضورها للإنسان العامل لها من طريق الذكر و ذلك حفظها بكتابة كتاب الأعمال من الملائكة الموكلين بالإنسان فيحاسب عليها كما قال تعالى: **{وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}** إسرء: ١٤.

فقوله: **{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ}** أي إن عليكم من قبلنا حافظين يحفظون أعمالكم بالكتابة كما يفيد السياق. وقوله: **{كِرَامًا كَاتِبِينَ}** أي أولي كرامة و عزة عند الله تعالى و قد تكرر في القرآن الكريم وصف الملائكة بالكرامة و لا يبعد أن يكون المراد به بإعانة من السياق كونهم بحسب الخلقه مصونين عن الإثم و المعصية مفطورين على العصمة، و يؤيده قوله: **{بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسِفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}** الأنبياء: ٢٦ حيث دل على أنهم لا يريدون إلا ما أَرَادَهُ اللهُ و لا يفعلون إلا ما أمرهم به، و كذا قوله: **{كِرَامٍ بَرَرَةٍ}** عبس ١٦.

و المراد بالكتابة في قوله: **{كَاتِبِينَ}** كتابة الأعمال بقرينة قوله: **{يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}** و قد تقدم في تفسير قوله: **{إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** الجاثية: ٢٩ كلام في معنى كتابة الأعمال فليراجعه من شاء.

و قوله: **{يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}** نفي لخطئهم في تشخيص الخير و الشر و تمييز الحسنة و السيئة كما أن الآية السابقة متضمنة لتنزيههم عن الإثم و المعصية فهم محيطون بالأفعال على ما هي عليه من الصفة و حافظون لها على ما هي عليه.

و لا تعيين في هذه الآيات لعدة هؤلاء الملائكة الموكلين على كتابة أعمال الإنسان نعم المستفاد من قوله تعالى: **{إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ}** ق: ١٧ إن على كل إنسان منهم اثنين عن يمينه و شماله، و قد ورد في الروايات المأثورة أن الذي على اليمين كاتب الحسنات و الذي على الشمال كاتب السيئات.

و ورد أيضا في تفسير قوله: **{إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}** إسرائ: ٧٨ أخبار مستفيضة من طرق الفريقين دالة على أن كتبة الأعمال بالنهار يصعدون بعد غروب الشمس و ينزل آخرون فيكتبون أعمال الليل حتى إذا طلع الفجر صعدوا و نزل ملائكة النهار و هكذا.

و في الآية أعني قوله: **{يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}** دلالة على أن الكتبة عالمون بالنيات إذ لا طريق إلى العلم بخصوصيات الأفعال و عناوينها و كونها خيرا أو شرا أو حسنة أو سيئة إلا العلم بالنيات فعلهم بالأفعال لا يتم إلا عن العلم بالنيات.

قوله تعالى: **{إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}** استئناف مبين لنتيجة حفظ الأعمال بكتابة الكتبة و ظهورها يوم القيامة.

و الأبرار هم المحسنون عملا، و الفجار هم المنخرقون بالذنوب و الظاهر أن المراد بهم المهتكون من الكفار إذ لا خلود لمؤمن في النار، و في تنكير «نعيم» و «جحيم» إشعار بالتفخيم و التهويل كما قيل .

قوله تعالى: **{يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ}** الضمير للبحيم أي يلزمون يعني الفجار الجحيم يوم الجزاء و لا يفارقونها.

قوله تعالى: **{وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ}** عطف تفسيري على قوله: **{يَصْلَوْنَهَا}** إخل يؤكد معنى ملازمتهم للبحيم و خلودهم في النار، و المراد بغيبتهم عنها خروجهم منها فالآية في معنى قوله: **{وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}** البقرة: ١٦٧

قوله تعالى: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ}** تهويل و تفخيم لأمر يوم الدين، و المعنى لا تحيط علما بحقيقة يوم الدين و هذا التعبير كناية عن نفخامة أمر الشيء و علوه من أن يناله وصف الواصف، و في إظهار اليوم - و المحل محل الضمير - تأكيد لأمر التفخيم.

قوله تعالى: **{ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ}** في تكرار الجملة تأكيد للتفخيم.

قوله تعالى: **{يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}** الظرف منصوب بتقدير اذكر و نحوه، و في الآية بيان إجمالي لحقيقة يوم الدين بعد ما في قوله: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ}** من الحث على معرفته.

و ذلك أن رابطة التأثير و التأثر بين الأسباب الظاهرية و مسبباتها منقطعة زائلة يومئذ كما يستفاد من أمثال قوله تعالى: **{وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ}** البقرة: ١٦٦، و قوله: **{وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}** البقرة: ١٦٥ فلا تملك نفس

لنفس شيئا فلا تقدر على دفع شر عنها ولا جلب خير لها، ولا ينافي ذلك آيات الشفاعة لأنها بإذن الله فهو المالك لها لا غير.

وقوله: **{وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}** أي هو المالك للأمر ليس لغيره من الأمر شيء.

والمراد بالأمر كما قيل واحد الأوامر لقوله تعالى: **{لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** المؤمن: ١٦ و شأن الملك المطاع، الأمر بالمعنى المقابل للنهي، والأمر بمعنى الشأن لا يلائم المقام تلك الملاءمة.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ}** قال: تنشق فتخرج الناس منها.

وفي الدر المنثور، أخرج الحاكم و صححه عن حذيفة قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **من استن خيرا فاستن به فله أجره و مثل أجور من اتبعه غير منتقص من أجورهم و من استن شرا فاستن به فله وزره و مثل أوزار من اتبعه غير منتقص من أوزارهم،** و تلا حذيفة **{عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ}**.

وفيه، أخرج عبد بن حميد عن صالح بن مسمار قال: بلغني أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) تلا هذه الآية **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}** ثم قال: **جهله.**

وفي تفسير القمي: **{فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}** قال: لو شاء ركبك على غير هذه الصورة.

أقول: و رواه في المجمع، عن الصادق (عليه السلام) مرسلا.

وفيه: **{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ}** قال: الملكان الموكلان بالإنسان.

و عن سعد السعود، و في رواية: إنهما - يعني الملكين - الموكلين يأتيان المؤمن عند حضور صلاة الفجر فإذا هبطا صعد الملكان الموكلان بالليل فإذا غربت الشمس نزل إليه الموكلان بكتابة الليل، و يصعد الملكان الكاتبان بالنهار بديوانه إلى الله عز و جل.

فلا يزال ذلك دأبهم إلى وقت حضور أجله فإذا حضر أجله قالا للرجل الصالح: جزاك الله من صاحب عنا خيرا - فكم من عمل صالح أريتناه، و كم من قول حسن أسمعناه، و كم من مجلس خير أحضرتناه فنحن اليوم على ما تحبه و شفعا إلى ربك، وإن كان عاصيا قالا له: جزاك الله من صاحب عنا شرا فلقد كنت تؤذينا فكم من عمل سيء أريتناه، و كم من قول سيء أسمعناه، و [كم] من مجلس سوء أحضرتناه و نحن اليوم لك

على ما تكره، و شهيدان عند ربك.

و في المجمع في قوله تعالى: **{وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ}** روى عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) أنه قال: **الأمر يومئذ و اليوم كله لله. يا جابر إذا كان يوم القيامة بادت الحكام فلم يبق حاكم إلا الله.**

أقول: مراده (عليه السلام) أن كون الأمر لله لا يختص بيوم القيامة بل الأمر لله دائماً، و تخصيصه بيوم القيامة باعتبار ظهوره لا باعتبار أصله فالذي يختص به ظهور هذه الحقيقة ظهور عيان فيسقط اليوم أمر غيره تعالى و حكمه، و نظير الأمر سائر ما عد في كلامه تعالى من مختصات يوم القيامة، فالرواية من غرر الروايات.

(٨٣) سورة المطففين مكية أو مدنية و هي ست و ثلاثون آية (٣٦)

[سورة المطففين (٨٣): الآيات ١ الى ٢١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيَلُّ لِلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَ إِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ④ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ⑤ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ⑥ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ⑦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ⑧ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ⑨ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑩ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ⑪ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ⑫ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ⑬ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ⑭ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ⑮ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ⑯ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ⑰ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ ⑱ وَمَا

(بيان)

تفتتح السورة بوعيد أهل التطفيف في الكيل و الوزن و تنذرهم بأنهم مبعوثون للجزاء في يوم عظيم و هو يوم القيامة ثم تتخلص لتفصيل ما يجري يومئذ على الفجار و الأبرار.

و الأنسب بالنظر إلى السياق أن يكون أول السورة المشتمل على وعيد المطففين نازلا بالمدينة و أما ما يتلوه من الآيات إلى آخر السورة فيقبل الانطباق على السياقات المكية و المدينة.

قوله تعالى: **{رَبِّلِّ الْمُطَفِّفِينَ}** دعاء على المطففين و التطفيف نقص المكيال و الميزان، و قد نهى الله تعالى عنه و سماه إفسادا في الأرض كما فيما حكاه من قول شعيب: **{وَايَا قَوْمٍ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}** هود: ٨٤، و قد تقدم الكلام في تفسير الآية في معنى كونه إفسادا في الأرض.

قوله تعالى: **{الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ}** الاكتيال من الناس الأخذ منهم بالكيل، و تعديته بعلى لإفادة معنى الضرر، و الكيل إعطاؤهم بالمكيال يقال: كاله طعامه و وزنه و كال له طعامه و وزن له و الأول لغة أهل الحجاز و عليه التنزيل و الثاني لغة غيرهم كما في الجمع، و الاستيفاء أخذ الحق تاما كاملا، و الإخسار الإيقاع في الخسارة.

و المعنى: الذين إذا أخذوا من الناس بالكيل يأخذون حقهم تاما كاملا، و إذا أعطوا الناس بالكيل أو الوزن ينقصون فيوقعونهم في الخسران.

فمضمون الآيتين جميعا ذم واحد و هو أنهم يراعون الحق لأنفسهم و لا يراعونه لغيرهم و بعبارة أخرى لا يراعون لغيرهم من الحق مثل ما يراعونه لأنفسهم و فيه إفساد الاجتماع الإنساني المبني على تعادل الحقوق المتقابلة و في إفساده كل الفساد.

و لم يذكر الاتزان مع الاكتيال كما ذكر الوزن مع الكيل إذ قال: **{وَأِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ}** قيل: لأن المطففين كانوا باعة و هم كانوا في الأغلب يشترون الكثير من الحبوب و البقول و نحوهما من الأمتعة ثم يكسبون بها فيبيعونها يسيرا يسيرا تدريجا، و كان دأبهم في الكثير من هذه الأمتعة أن يؤخذ و يعطى بالكيل لا بالوزن فذكر الاكتيال وحده في الآية مبني على الغالب.

وقيل: لم يذكر الاتزان لأن الكيل والوزن بهما البيع والشراء فذكر أحدهما يدل على الآخر. وفيه أن ما ذكر في الاكتيال جار في الكيل أيضا وقد ذكر معه الوزن فالوجه لا يخلو من تحكم.

وقيل: الآيتان تحاكان ما كان عليه دأب الذين نزلت فيهم السورة فقد كانوا يشترون بالاكتيال فقط وبيعون بالكيل والوزن جميعا، وهذا الوجه دعوى من غير دليل.

إلى غير ذلك مما ذكره في توجيه الاقتصار على ذكر الاكتيال في الآية، ولا يخلو شيء منها من ضعف.

قوله تعالى: **{أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ}** الاستفهام للإنكار والتعجب، والظن بمعناه المعروف والإشارة إلى المطففين بأولئك الموضوع للإشارة البعيدة للدلالة على بعدهم من رحمة الله، واليوم العظيم يوم القيامة الذي يجازون فيه بعملهم.

والاكتفاء بظن البعث وحسابه - مع أن من الواجب الاعتقاد العلمي بالمعاد - لأن مجرد حساب الخطر والضرر في عمل يوجب التجنب عنه والتحرز عن اقترافه وإن لم يكن هناك علم فالظن بالبعث ليوم عظيم يؤخذ الله فيه الناس بما كسبوا من شأنه أن يردعهم عن اقتراف هذا الذنب العظيم الذي يستتبع العذاب الأليم.

وقيل: الظن في الآية بمعنى العلم.

قوله تعالى: **{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** المراد به قيامهم من قبورهم كناية عن تلبسهم بالحياة بعد الممات لحكمه تعالى وقضائه بينهم.

قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينَ وَمَا أَذْرَاكَ مَا سِجِّينُ كِتَابٌ مَرْقُومٌ وَيْلٌ لِّلْمُكذِّبِينَ}** ردع كما قيل عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب.

وقوله: **{إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينَ}** إلخ الذي يعطيه التدبر في سياق الآيات الأربع بقياس بعضها إلى بعض وقياس المجموع إلى مجموع قوله: **{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ}** إلى تمام أربع آيات أن المراد بسجين ما يقابل عليين ومعناه علو على علو مضاعف ففيه شيء من معنى السفلى والانحباس فيه كما يشير إليه قوله: **{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}** التين: ه فالأقرب أن يكون مبالغة من السجن بمعنى الحبس كسكير وشريب من السكر والشرب فمعناه الذي يحبس من دخله على التخليد كما قيل.

و الكتاب بمعنى المكتوب من الكتابة بمعنى القضاء المحتوم و المراد بكتاب الفجار ما قدره الله لهم من الجزاء و أثبتته بقضائه المحتوم.

فمحصل الآية أن الذي أثبتته الله من جزائهم أو عده لهم لفي سجين الذي هو سجن يحبس من دخله حبسا طويلا أو خالدا.

و قوله: **{وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَجِّينٌ}** مسوق للتحويل.

و قوله: **{كِتَابٌ مَّرْقُومٌ}** خبر لمبتدأ محذوف هو ضمير راجع إلى سجين و الجملة بيان لسجين و «كتاب» أيضا بمعنى المكتوب من الكتابة بمعنى القضاء و الإثبات، و «مرقوم» من الرقم، قال الراغب: الرقم الخط الغليظ، و قيل: هو تعجيم الكتاب، و قوله تعالى: **{كِتَابٌ مَّرْقُومٌ}** حمل على الوجهين. انتهى، و المعنى الثاني أنسب للمقام فيكون إشارة إلى كون ما كتب لهم متبينا لا إبهام فيه أي إن القضاء حتم لا يتخلف.

و المحصل أن سجين مقضي عليهم مثبت لهم متبين متميز لا إبهام فيه.

و لا ضير في لزوم كون الكتاب ظرفا للكتاب على هذا المعنى لأن ذلك من ظرفية الكل للجزء و هي مما لا ضير فيه فيكون سجين كتابا جامعا فيه ما قضي على الفجار و غيرهم من مستحقي العذاب.

و قوله: **{وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}** نعي و دعاء على الفجار و فيه تفسيرهم بالمكذبين، و **{يَوْمَئِذٍ}** ظرف لقوله: **{إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِّينٍ}** بحسب المعنى أي ليهلك الفجار - و هم المكذبون - يومئذ تحقق ما كتب الله لهم و قضى عليهم من الجزاء و حل بهم ما أعد لهم من العذاب.

هذا ما يفيدته التدبير في هذه الآيات الأربع، و هي ذات سياق واحد متصل متلائم الأجزاء.

و للقوم في تفسير مفردات الآيات الأربع و جملها أقوال متفرقة كقولهم: إن الكتاب في قوله: **{إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ}** بمعنى المكتوب و المراد به صحيفة أعمالهم، و قيل: مصدر بمعنى الكتابة و في الكلام مضاف محذوف و التقدير كتابة عمل الفجار لفي سجين.

و قولهم: إن الفجار أعم من المكذبين فيشمل الكفار و الفسقة جميعا.

و قولهم: إن المراد بسجين الأرض السابعة السفلى يوضع فيها كتاب الفجار و قيل: واد في جهنم، و قيل: جب فيها، و قيل: سجين اسم لكتابهم، و قيل: سجين الأول اسم الموضع الذي يوضع فيه كتابهم و الثاني اسم كتابهم، و قيل: هو اسم كتاب جامع

هو ديوان الشر دون فيه أعمال الفجرة من الثقلين، وقيل: المراد به الخسار والهوان فهو كقولهم: بلغ فلان الحضيض إذا صار في غاية الخمول، وقيل: هو السجيل بدل لأمه نونا كما يقال جبرين في جبريل إلى غير ذلك مما قيل.

وقولهم: إن قوله: **{كِتَابٌ مَّرْقُومٌ}** ليس بيانا وتفسيرا لسجين بل تفسير للكتاب المذكور في قوله: **{إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ}**.

وقولهم: إن قوله: **{وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}** متصل بقوله: **{يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** والآيات الثلاث الواقعة بين الآيتين اعتراض.

وأنت إن تأملت هذه الأقاويل وجدت كثيرا منها تحكما محضا لا دليل عليه.

على أنها تقطع ما في الآيات من السياق الواحد المتصل الذي يحاذي به ما في الآيات الأربع الآتية في صفة كتاب الأبرار من السياق الواحد المتصل فلا نطيل الكلام بالتعرض لواحد واحد منها والمناقشة فيها.

قوله تعالى: **{الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ}** تفسير للمكذبين و ظاهر الآية - ويؤيده الآيات التالية - أن المراد بالتكذيب هو التكذيب القولي الصريح فيختص الذم بالكفار ولا يشمل الفسقة من أهل الإيمان فلا يشمل مطلق المطففين بل الكفار منهم.

اللهم إلا أن يراد بالتكذيب ما يعم التكذيب العملي كما ربما أيده قوله السابق: **{أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ}** فيشمل الفجار من المؤمنين كالكفار.

قوله تعالى: **{وَمَا يُكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ}** المعتدي اسم فاعل من الاعتداء بمعنى التجاوز والمراد به المتجاوز عن حدود العبودية، والأثيم كثير الآثام بحيث تراكم بعضها على بعض بانهما كه في الأهواء.

ومن المعلوم أن المانع الوحيد الذي يردع عن المعصية هو الإيمان بالبعث والجزاء، والمنهمك في الأهواء المتعلق قلبه بالاعتداء والآثم تأبى نفسه التسليم لما يردع عنها والتزهد عن المعاصي وينتهي إلى تكذيب البعث والجزاء قال تعالى: **{ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوَاىِٕ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤْنَ}** الروم: ١٠.

قوله تعالى: **{إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}** المراد بالآيات آيات القرآن بقرينة قوله **{تُتْلَىٰ}** والأساطير ما سطره وكتبه والمراد بها أباطيل الأمم الماضين والمعنى إذا تلى عليه آيات القرآن مما يحذرهم المعصية وينذرهم بالبعث والجزاء قال: هي أباطيل.

قوله تعالى: **{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}** ردع عما قاله المكذبون: **{أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}** قال الراغب:
الرين صدا يعلو الشيء الجليل^١ قال تعالى: **{بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ}** أي صار ذلك كصدء على جلاء قلوبهم فعمي
عليهم معرفة الخير من الشر، انتهى. فكون ما كانوا يكسبون و هو الذنوب رينا على قلوبهم هو حيلولة الذنوب
بينهم و بين أن يدركوا الحق على ما هو عليه.

و يظهر من الآية:

أولاً: أن للأعمال السيئة نقوشا و صوراً في النفس تنتقش و تتصور بها.

و ثانياً: أن هذه النقوش و الصور تمنع النفس أن تدرك الحق كما هو و تحول بينها و بينه.

و ثالثاً: أن للنفس بحسب طبعها الأولي صفاء و جلاء تدرك به الحق كما هو و تميز بينه و بين الباطل و

تفرق بين التقوى و الفجور قال تعالى: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}** الشمس: ٨.

قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}** ردع عن كسب الذنوب الحائلة بين القلب و إدراك

الحق، و المراد بكونهم محجوبين عن ربهم يوم القيامة حرمانهم من كرامة القرب و المنزلة و لعله مراد من قال:
إن المراد كونهم محجوبين عن رحمة ربهم.

و أما ارتفاع الحجاب بمعنى سقوط الأسباب المتوسطة بينه تعالى و بين خلقه و المعرفة التامة به تعالى فهو

حاصل لكل أحد قال تعالى: **{لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** المؤمن: ١٦ و قال: **{وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ
الْمُبِينُ}** النور: ٢٥.

قوله تعالى: **{ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ}** أي داخلون فيها ملازمون لها أو مقاسون حرها على ما فسره بعضهم

و **{ثُمَّ}** في الآية و ما بعدها للتراخي بحسب رتبة الكلام.

قوله تعالى: **{ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ}** هو توبيخ و تقريع و القائل خزنة النار أو أهل الجنة.

قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْفُومٌ}** ردع في معنى الردع الذي

في قوله: **{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ}** و عليون كما تقدم علو على علو مضاعف، و ينطبق على الدرجات العالية و منازل
القرب من الله تعالى كما أن السجين بخلافه.

و الكلام في معنى الآيات الثلاث نظير الكلام في الآيات الثلاث المتقدمة التي تحاذيها من قوله: **{إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سَجِينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ}**.

فالمعنى أن الذي كتب للأبرار و قضي جزاء لبرهم لفي عليين و ما أدراك ما عليون هو أمر مكتوب و مقضي قضاء حتما لازما متبين لا إبهام فيه.

و للقوم أقاويل في هذه الآيات نظير ما لهم في الآيات السابقة من الأقوال غير أن من أقوالهم في عليين أنه السماء السابعة تحت العرش فيه أرواح المؤمنين، و قيل سدرة المنتهى التي إليها تنتهي الأعمال، و قيل: لوح من زبرجدة تحت العرش معلق مكتوب فيه أعمالهم، و قيل: هي مراتب عالية محفوفة بالجلالة، و الكلام فيها كالكلام فيما تقدم من أقوالهم.

قوله تعالى: **{يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ}** الأنسب لما تقدم من معنى الآيات السابقة أن يكون **{يَشْهَدُهُ}** من الشهود بمعنى المعاينة و المقربون قوم من أهل الجنة هم أعلى درجة من عامة الأبرار على ما سيأتي استفادته من قوله: **{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}** فالمراد معاينتهم له بإراءة الله إياه لهم و قد قال الله تعالى في مثله من أمر المحجم: **{كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ}** التكاثر: ٦ و منه يظهر أن المقربين هم أهل اليقين.

و قيل: الشهادة هي الحضور و المقربون الملائكة، و المراد حضور الملائكة على صحيفة عملهم إذا صعدوا بها إلى الله سبحانه.

و قيل: المقربون هم الأبرار و الملائكة جميعا.

و القولان مبنيان على أن المراد بالكتاب صحيفة الأعمال و قد تقدم ضعفه.

(بحث روائي)

في تفسير القمي، و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **نزلت يعني سورة المطففين على نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حين قدم المدينة و هم يومئذ أسوأ الناس كيلا فأحسنوا الكيل.**

و في أصول الكافي، بإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال: **سمعت أبا جعفر (عليه السلام) يقول: إن الله عز و جل خلقنا من أعلى عليين و خلق قلوب شيعتنا مما خلقنا منه و خلق أبدانهم من دون ذلك فقلوبهم تهوي إلينا لأنها خلقت مما خلقنا ثم تلا هذه الآية **{كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَابٌ مَرْقُومٌ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ}**.**

و خلق قلوب عدونا من سجين و خلق قلوب شيعتهم مما خلقهم منه و أبدانهم من دون

ذلك، قلوبهم تهوي إليهم لأنها خلقت مما خلقوا منه ثم تلا هذه الآية {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَذْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ وَيْلٌ لِّلْمُكذِّبِينَ}.

أقول: وروي مثله في أصول الكافي، بطريق آخر عن الثمالي عنه (عليه السلام)، ورواه في علل الشرائع، بإسناد فيه رفع عن زيد الشحام عن أبي عبد الله (عليه السلام): مثله، والأحاديث - كما ترى - تؤيد ما قدمناه في معنى الآيات.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ} قال: ما كتب الله لهم من العذاب لفي سجين.

وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: السجين الأرض السابعة وعليون السماء السابعة.

أقول: الرواية لو صحت مبنية على انتساب الجنة والنار إلى جهتي العلو والسفل بنوع من العناية ولذلك نظائر في الروايات كعد القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار وعد وادي برهوت مكانا لجهنم. وفي الدر المنثور، أخرج ابن المبارك عن سعيد بن المسيب قال: التقى سلمان و عبد الله بن سلام فقال أحدهما لصاحبه: إن مت قبلي فالقني فأخبرني بما صنع ربك بك وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك فقال عبد الله: كيف يكون هذا؟ قال: نعم إن أرواح المؤمنين تكون في برزخ من الأرض تذهب حيث شاءت ونفس الكافر في سجين والله أعلم.

وفي أصول الكافي، بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: ما من عبد إلا وفي قلبه نقطة بيضاء فإذا أذنب ذنبا خرج في تلك النقطة نقطة سوداء - فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يغطي البياض فإذا غطي البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبدا وهو قول الله عز وجل: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}.

أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور، عن عدة من أصحاب الجوامع عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفيه، بإسناده عن عبد الله بن محمد المجال عن بعض أصحابنا رفعه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): تذاكروا وتلاقوا وتحدثوا فإن الحديث جلاء للقلوب إن القلوب لترين كما يرين السيف وجلاؤه الحديث.

وعن روضة الواعظين، قال الباقر (عليه السلام): ما شيء أفسد للقلب من الخطيئة إن القلب

ليواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أسفله أعلاه و أعلاه أسفله.

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه فإن تاب و نزع و استغفر صقل قلبه منه و إن ازداد زادت فذلك الران الذي ذكره الله تعالى في كتابه

[سورة المطففين (٨٣): الآيات ٢٢ الى ٣٦]

{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}. {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ} {يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ} {خِتَامُهُ مِسْكَ} {وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} {وَمِرَاجُهُ مِنَ النَّسِيمِ} {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} {إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ} {وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ} {وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ} {وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ} {وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ} {فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ} {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ} {هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}

(بيان)

بيان فيه بعض التفصيل لجلالة قدر الأبرار و عظم منزلتهم عند الله تعالى و غزارة عيشهم في الجنة، و أنهم على كونهم يستهزئ بهم الكفار و يتغامزون بهم و يضحكون منهم سيضحكون منهم و ينظرون إلى ما ينالهم من العذاب.

قوله تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ} النعيم النعمة الكثيرة و في تكثيره دلالة على نخامة قدره، و المعنى أن الأبرار لفي نعمة كثيرة لا يحيط بها الوصف.

قوله تعالى: **{عَلَى الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ}** الأرائك جمع أريكة و الأريكة السرير في الجملة و هي البيت المزين للعروس و إطلاق قوله: **{يَنْظُرُونَ}** من غير تقييد يؤيد أن يكون المراد نظرهم إلى مناظر الجنة البهجة و ما فيها من النعيم المقيم، و قيل: المراد به النظر إلى ما يجزي به الكفار و ليس بذلك.

قوله تعالى: **{تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ}** النضرة البهجة و الرونق، و الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) باعتبار أن له أن ينظر فيعرف فالحكم عام و المعنى كل من نظر إلى و جوههم يعرف فيها بهجة النعيم الذي هم فيه.

قوله تعالى: **{يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ}** الرحيق الشراب الصافي الخالص من الغش، و يناسبه وصفه بأنه مختوم فإنه إنما يختم على الشيء النفيس الخالص ليسلم من الغش و الخلط و إدخال ما يفسده فيه.

قوله تعالى: **{خِتَامُهُ مِسْكٌ وَ فِي ذَلِكَ فَلَيْتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}** قيل الختام بمعنى ما يختم به أي إن الذي يختم به مسك بدلا من الطين و نحوه الذي يختم به في الدنيا، و قيل: أي آخر طعمه الذي يجده شاربه رائحة المسك. و قوله: **{وَ فِي ذَلِكَ فَلَيْتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}** التنافس التغالب على الشيء و يفيد بحسب المقام معنى التسابق قال تعالى: **{سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ}** الحديد: ٢١، و قال: **{فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}** المائدة: ٤٨، ففيه ترغيب إلى ما وصف من الرحيق المختوم.

و استشكل في الآية بأن فيها دخول العاطف على العاطف إذ التقدير فليتنافس في ذلك إنح و أوجب بأن الكلام على تقدير حرف الشرط و الفاء واقعة في جوابه و قدم الظرف ليكون عوضا عن الشرط و التقدير و إن أريد تنافس فليتنافس في ذلك المتنافسون.

و يمكن أن يقال: إن قوله: **{وَ فِي ذَلِكَ}** معطوف على ظرف آخر محذوف متعلق بقوله: **{فَلَيْتَنَافَسِ}** يدل عليه المقام فإن الكلام في وصف نعيم الجنة فيفيد قوله: **{وَ فِي ذَلِكَ}** ترغيبا مؤكدا بتخصيص الحكم بعد التعميم، و المعنى فليتنافس المتنافسون في نعيم الجنة عامة و في الرحيق المختوم الذي يسقونه خاصة فهو كقولنا: أكرم المؤمنين و الصالحين منهم خاصة، و لا تكن عيابا و للعلماء خاصة.

قوله تعالى: **{وَ مِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ}** المزاج ما يمزج به، و التسنيم على ما تفسره الآية التالية عين في الجنة سماه الله تسنيما و في لفظه معنى الرفع و الملء يقال: سمنه أي رفعه

و منه سنام الإبل، ويقال: ستم الإناء أي ملاءه.

قوله تعالى: **{عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}** يقال: شربه و شرب به بمعنى و **{عَيْنًا}** منصوب على المدح أو الاختصاص و **{يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ}** وصف لها و المجموع تفسير للتسليم.

و مفاد الآية أن المقربين يشربون التسليم صرفا كما أن مفاد قوله: **{وَمِزَاجُهُ مِنَ تَسْنِيمٍ}** أنه يمزج بها ما في كأس الأبرار من الرحيق المختوم، و يدل ذلك أولا على أن التسليم أفضل من الرحيق المختوم الذي يزيد لذة بمزجها، و ثانيا أن المقربين أعلى درجة من الأبرار الذين يصفهم الآيات.

قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ أُجِرُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ}** يعطي السياق أن المراد بالذين آمنوا هم الأبرار الموصوفون في الآيات و إنما عبر عنهم بالذين آمنوا لأن سبب ضحك الكفار منهم و استهزائهم بهم إنما هو إيمانهم كما أن التعبير عن الكفار بالذين أجزموا للدلالة على أنهم بذلك من المجرمين.

قوله تعالى: **{وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ}** عطف على قوله: **{يَضْحَكُونَ}** أي كانوا إذا مروا بالذين آمنوا يغمز بعضهم بعضا و يشيرون بأعينهم استهزاء بهم.

قوله تعالى: **{وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ}** الفكه بالفتح فالكسر المرح البطر، و المعنى و كانوا إذا انقلبوا و صاروا إلى أهلهم عن ضحكهم و تغامزهم انقلبوا ملتذين فرحين بما فعلوا أو هو من الفكاهة بمعنى حديث ذوي الإنس و المعنى انقلبوا و هم يحدثون بما فعلوا تفكها.

قوله تعالى: **{وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ}** على سبيل الشهادة عليهم بالضلال أو القضاء عليهم و الثاني أقرب.

قوله تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ}** أي و ما أرسل هؤلاء الذين أجزموا حافظين على المؤمنين يقضون في حقهم بما شاءوا أو يشهدون عليهم بما هووا، و هذا تهكم بالمستهزئين.

قوله تعالى: **{فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ}** المراد باليوم يوم الجزاء، و التعبير عن الذين أجزموا بالكفار رجوع إلى حقيقة صفتهم. قيل: تقديم الجار و المجرور على الفعل أعني **{مِنَ الْكُفَّارِ}** على **{يَضْحَكُونَ}** لإفادة قصر القلب، و المعنى فاليوم الذين آمنوا يضحكون من الكفار لا الكفار منهم كما كانوا يفعلون في الدنيا.

قوله تعالى: **{عَلَىٰ الْأَرْيَافِ يَنْظُرُونَ هَلْ نُؤْتِبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}** الثواب في

الأصل مطلق الجزاء وإن غلب استعماله في الخير، وقوله **{عَلَى الْأَرَابِكِ}** خبر بعد خبر للذين آمنوا و **{يَنْظُرُونَ}** خبر آخر، وقوله: **{هَلْ تُؤْتَبُ}** إخل متعلق بقوله: **{يَنْظُرُونَ}** «قائم مقام المفعول.

والمعنى: الذين آمنوا على سرر في المجال ينظرون إلى جزاء الكفار بأفعالهم التي كانوا يفعلونها في الدنيا من أنواع الأجرام ومنها ضحكهم من المؤمنين وتغامزهم إذا مروا بهم و انقلابهم إلى أهلهم فكهين و قولهم: إن هؤلاء لضالون.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ}** قال: فيما ذكرناه من الثواب الذي يطلبه المؤمن.

وفي المجمع، في قوله تعالى: **{وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ}** قيل نزلت في علي بن أبي طالب (عليه السلام) وذلك أنه كان في نفر من المسلمين جاءوا إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فسخر منهم المنافقون و ضحكوا و تغامزوا ثم رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا اليوم الأصلع فضحكا منه فنزلت الآية قبل أن يصل علي و أصحابه إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): عن مقاتل و الكلبي.

أقول: وقد أورده في الكشاف.

وفيه ذكر الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفصيل بإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس قال: **{إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا}** منافقو قريش و **{الَّذِينَ آمَنُوا}** علي بن أبي طالب و أصحابه.

وفي تفسير القمي: **{إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا}** - إلى قوله - **{فَكَهَيْنَ}** قال: يسخرون.

(٨٤) سورة الانشقاق مكية وهي خمس و عشرون آية (٢٥)

[سورة الانشقاق (٨٤): الآيات ١ الى ٢٥]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ① وَ أَدْنَتْ لِرَبِّهَا وَ حُقَّتْ ② وَ إِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَ تَخَلَّتْ ④

وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّت ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٩﴾
 فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿١٠﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١١﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وِرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٢﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا
 ثُبُورًا ﴿١٣﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٤﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٥﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ﴿١٦﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٧﴾ فَلَا
 أَفْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٨﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٩﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿٢٠﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿٢١﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾ وَ
 إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢٣﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَدِّبُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٥﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ
 أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٧﴾

(بيان)

تشير السورة إلى قيام الساعة، وتذكر أن للإنسان سيرا إلى ربه حتى يلاقيه فيحاسب على ما يقتضيه كتابه و تؤكد القول في ذلك و الغلبة فيها للإندار على التبشير. و سياق آياتها سياق مكي.

قوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ} شرط جزاؤه محذوف يدل عليه قوله: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} و التقدير: لاقى الإنسان ربه فحاسبه و جازاه على ما عمل.

و انشقاق السماء و هو تصدعه و انفراجه من أشراط الساعة كمد الأرض و سائر ما ذكر في مواضع من كلامه تعالى من تكوير الشمس و اجتماع الشمس و القمر و انتشار الكواكب و نحوها.

قوله تعالى: **{وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}** الإذن الاستماع و منه الأذن لجارحة السمع و هو مجاز عن الانقياد و الطاعة، و **{حُقَّتْ}** أي جعلت حقيقة و جديرة بأن تسمع، و المعنى و أطاعت و انقادت لربها و كانت حقيقة و جديرة بأن تستمع و تطيع.

قوله تعالى: **{وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ}** الظاهر أن المراد به اتساع الأرض، و قد قال تعالى: **{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ}** إبراهيم: ٤٨.

قوله تعالى: **{وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ}** أي ألقت الأرض ما في جوفها من الموتى و بالغت في الخلو مما فيها منهم.

و قيل: المراد إلقاء الموتى و الكنوز كما قال تعالى: **{وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا}** الزلزال: ٢.

و قيل: المعنى ألقت ما في بطنها و تخلت مما على ظهرها من الجبال و البحار، و لعل أول الوجوه أقربها.

قوله تعالى: **{وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ}** ضمائر التأنيث للأرض كما أنها في نظيرتها المتقدمة للسماء، و قد تقدم معنى الآية.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ}** قال الراغب: الكدح السعي و العناء. انتهى. ففيه معنى السير، و قيل: الكدح جهد النفس في العمل حتى يؤثر فيها انتهى. و على هذا فهو مضمن معنى السير بدليل تعديه بإلى ففي الكدح معنى السير على أي حال.

و قوله: **{فَمُلَاقِيهِ}** عطف على **{كَادِحٌ}** و قد بين به أن غاية هذا السير و السعي و العناء هو الله سبحانه بما أن له الربوبية أي إن الإنسان بما أنه عبد مربوب و مملوك مدبر ساع إلى الله سبحانه بما أنه ربه و مالكة المدبر لأمره فإن العبد لا يملك لنفسه إرادة و لا عملاً فعلياً أن يريد و لا يعمل إلا ما أَرَادَهُ ربه و مولاه و أمره به فهو مسئول عن إرادته و عمله.

و من هنا يظهر أولاً أن قوله: **{إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ}** يتضمن حجة على المعاد لما عرفت أن الربوبية لا تتم إلا مع عبودية و لا تتم العبودية إلا مع مسئولية و لا تتم مسئولية إلا برجوع و حساب على الأعمال و لا يتم حساب إلا بجزاء.

و ثانيا: أن المراد بملاقاته انتهاؤه إلى حيث لا حكم إلا حكمه من غير أن يحجبه عن ربه حاجب.
و ثالثا: أن المخاطب في الآية هو الإنسان بما أنه إنسان فالمراد به الجنس و ذلك أن الربوبية عامة لكل إنسان.

قوله تعالى: **{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ}** تفصيل مترتب على ما يلوح إليه قوله: **{إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ}** أن هناك رجوعا و سؤالا عن الأعمال و حسابا، و المراد بالكتاب صحيفة الأعمال بقرينة ذكر الحساب، و قد تقدم الكلام في معنى إعطاء الكتاب باليمين في سورتي الإسراء و الحاقة.

قوله تعالى: **{فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}** الحساب اليسير ما سوهل فيه و خلا عن المناقشة.

قوله تعالى: **{وَيُنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا}** المراد بالأهل من أعده الله له في الجنة من الحور و الغلمان و غيرهم و هذا هو الذي يفيد السياق، و قيل: المراد به عشيرته المؤمنون ممن يدخل الجنة، و قيل المراد فريق المؤمنين و إن لم يكونوا من عشيرته فالمؤمنون إخوة. و الوجهان لا يخلوان من بعد.

قوله تعالى: **{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ}** الظرف منصوب بنزع الخافض و التقدير من وراء ظهره، و لعلمهم إنما يؤتون كتبهم من وراء ظهورهم لرد وجوههم على أدبارهم كما قال تعالى: **{مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنظِمَٰسَ وَجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا}** النساء: ٤٧.

و لا منافاة بين إيتاء كتبهم من وراء ظهورهم و بين إيتائهم بشمالهم كما وقع في قوله تعالى: **{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ}** الحاقة: ٢٥ و سيأتي في البحث الروائي التالي ما ورد في الروايات من معنى إيتاء الكتاب من وراء ظهورهم.

قوله تعالى: **{فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا}** الثبور كالويل الهلاك و دعائهم الثبور قولهم: وا ثبورا.

قوله تعالى: **{وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا}** أي يدخل نارا مؤججة لا يوصف عذابها، أو يقاسي حرها.

قوله تعالى: **{إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا}** يسره ما يناله من متاع الدنيا و تنجذب نفسه إلى زينتها و ينسيه ذلك أمر الآخرة و قد ذم تعالى فرح الإنسان بما يناله من خير الدنيا و سماه فرحا بغير حق قال تعالى بعد ذكر النار و عذابها: **{ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ بِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ}** المؤمن: ٧٥.

قوله تعالى: **{إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ}** أي لن يرجع و المراد الرجوع إلى ربه للحساب

والجزاء، ولا سبب يوجهه عليهم إلا التوغل في الذنوب والآثام الصارفة عن الآخرة الداعية إلى استبعاد البعث.

قوله تعالى: **{بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا}** رد لظنه أي ليس الأمر كما ظنه بل يحور ويرجع، وقوله: **{إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا}** تعليل للرد المذكور فإن الله سبحانه كان ربه المالك له المدبر لأمره و كان يحيط به علما ويرى ما كان من أعماله وقد كلفه بما كلف ولأعماله جزاء خيرا أو شرا فلا بد أن يرجع إليه ويجزي بما يستحقه بعمله. وبذلك يظهر أن قوله: **{إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا}** من إعطاء الحجّة على وجوب المعاد نظير ما تقدم في قوله: **{إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ}** الآية.

ويظهر أيضا من مجموع هذه الآيات التسع أن إيتاء الكتب ونشر الصحف قبل الحساب كما يدل عليه أيضا قوله تعالى: **{وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}** إسرائ: ١٤.

ثم الآيات كما ترى تخص إيتاء الكتاب من وراء الظهر بالكفار فيقع الكلام في عصاة المؤمنين من أصحاب الكبار من يدخل النار فيمكث فيها برهة ثم يخرج منها بالشفاعة على ما في الأخبار من طرق الفريقين فهؤلاء لا يؤتون كتبهم من وراء ظهورهم لاختصاص ذلك بالكفار ولا يبينهم لظهور الآيات في أن أصحاب اليمين يحاسبون حسابا يسيرا ويدخلون الجنة، ولا سبيل إلى القول بأنهم لا يؤتون كتابا لمكان قوله تعالى: **{وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ}** الآية المفيد للعموم.

وقد تخلص بعضهم عن الإشكال بأنهم يؤتون كتبهم باليمين بعد الخروج من النار.

وفيه أن ظاهر الآيات إن لم يكن صريحها أن دخول النار أو الجنة فرع مترتب على القضاء المترتب على الحساب المترتب على إيتاء الكتب ونشر الصحف فلا معنى لإيتاء الكتاب بعد الخروج من النار.

واحتمل بعضهم أن يؤتوا كتبهم بشمالهم ويكون الإيتاء من وراء الظهر مخصوصا بالكفار كما تفيد الآيات.

وفيه أن الآيات التي تذكر إيتاء الكتاب بالشمال وهي التي في سورة الواقعة والحاقة وفي معناها ما في سورة الإسراء أيضا تخص إيتاء الكتاب بالشمال بالكفار ويظهر من مجموع الآيات أن الذين يؤتون كتبهم بشمالهم هم الذين يؤتونه من وراء ظهورهم.

وقال بعضهم من الممكن أن يؤتوا كتابهم من وراء ظهورهم ويكون قوله: **{فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}** من قبيل وصف الكل بصفة بعض أجزائه.

وفيه أن المقام لا يساعد على هذا التجوز فإن المقام مقام تمييز السعداء من الأشقياء و تشخيص كل بجزائه الخاص به فلا مجوز لإدغام جمع من أهل العذاب في أهل الجنة.

على أن قوله: **{فَسَوْفَ يُحَاسَبُ}** إنح و عد جميل إلهي و لا معنى لشموله لغير مستحقه و لو بظاهر من القول.

نعم يمكن أن يقال: إن اليسر و العسر معنيان إضافيان و حساب العصاة من أهل الإيمان يسير بالإضافة إلى حساب الكفار المخلدن في النار و لو كان عسيرا بالإضافة إلى حساب المتقين.

و يمكن أيضا أن يقال إن قسمة أهل الجمع إلى أصحاب اليمين و أصحاب الشمال غير حاصرة كما يدل عليه

قوله تعالى: **{وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}** الواقعة: ١١ فدلوا الآيات خروج المقربين من الفريقين، و مثلهم المستضعفون كما ربما يستفاد من قوله تعالى: **{وَأَخْرَجْنَا مُذْرَبًا لَأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ}** التوبة:

١٠٦.

فإن الجائز أن لا يكون تقسيم أهل الجمع إلى أصحاب اليمين و أصحاب الشمال تقسيما حاصرا لجميعهم بل تخصيصا لأهل الجنة من المتقين و أهل الخلود في النار بالذكر بتوصيفهم بإيتاء الكتاب باليمين و بالشمال لمكان الدعوة إلى الإيمان و التقوى و نظير ذلك ما في سورة المرسلات من ذكر يوم الفصل ثم بيان حال المتقين و المكذبين فحسب و ليس ينحصر الناس في القبيلين، و نظيره ما في سورة النبا و النازعات و عبس و الانفطار، و المطففين و غيرها فالغرض فيها ذكر أنموذج من أهل الإيمان و الطاعة و أهل الكفر و التكذيب و السكوت عن سواهم ليتذكر أن السعادة في جانب التقوى و الشقاء في جانب التمرد و الطغوى.

قوله تعالى: **{فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ}** الشفق الحمرة ثم الصفرة ثم البياض التي تحدث بالمغرب أول الليل.

قوله تعالى: **{وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ}** أي ضم و جمع ما تفرق و انتشر في النهار من الإنسان و الحيوان فإنها تتفرق و تنتشر بالطبع في النهار و ترجع إلى مأواها في الليل فتسكن.

و فسر بعضهم «وسق» بمعنى طرد أي طرد الكواكب من الخفاء إلى الظهور.

قوله تعالى: **{وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ}** أي اجتمع و انضم بعض نوره إلى بعض فاكمل

نوره و تدر.

قوله تعالى: **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ}** جواب القسم و الخطاب للناس و الطبق هو الشيء أو الحال الذي يطابق آخر سواء كان أحدهما فوق الآخر أم لا و المراد به كيف كان المرحلة بعد المرحلة يقطعها الإنسان في كدحه إلى ربه من الحياة الدنيا ثم الموت ثم الحياة البرزخية ثم الانتقال إلى الآخرة ثم الحياة الآخرة ثم الحساب و الجزاء.

و في هذا الإقسام - كما ترى - تأكيد لما في قوله: **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ}** الآية و ما بعده من نيا البعث و توطئة و تمهيد لما في قوله: **{فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** من التعجب و التوبيخ و ما في قوله: **{فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ}** إنح من الإنذار و التبشير.

و في الآية إشارة إلى أن المراحل التي يقطعها الإنسان في مسيره إلى ربه مترتبة متطابقة.

قوله تعالى: **{فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ}** الاستفهام للتعجب و التوبيخ و لذا ناسب الالتفات الذي فيه من الخطاب إلى الغيبة كأنه لما رأى أنهم لا يتذكرون بتذكيره و لا يتعظون بعظته أعرض عنهم إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) مخاطبه بقوله: **{فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** إنح.

قوله تعالى: **{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ}** {يُكَذِّبُونَ} يفيد الاستمرار، و التعبير عنهم بالذين كفروا للدلالة على علة التكذيب، و الإيعاء كما قيل جعل الشيء في وعاء.

و المعنى: أنهم لم يتركوا الإيمان لقصور في البيان أو لانقطاع من البرهان لكنهم اتبعوا أسلافهم و رؤساءهم فرسخوا في الكفر و استمروا على التكذيب و الله يعلم بما جمعوا في صدورهم و أضمروا في قلوبهم من الكفر و الشرك.

و قيل: المراد بقوله: **{وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ}** أن لهم وراء التكذيب مضمرة في قلوبهم لا يحيط بها العبارة و لا يعلمها إلا الله، و هو بعيد من السياق.

قوله تعالى: **{فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}** التعبير عن الإخبار بالعذاب بالتبشير مبني على التهكم، و الجملة متفرعة على التكذيب.

قوله تعالى: **{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}** استثناء منقطع من ضمير **{فَبَشِّرْهُمْ}** و المراد بكون أجرهم غير ممنون خلوة من قول يثقل على المأجور.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ}** قال: يوم القيامة.

و في الدر المنثور، أخرج ابن أبي حاتم عن علي قال تنشق السماء من الهجرة.

وفي تفسير القمي في قوله: **{وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ}** قال: تمد الأرض فتنشق فيخرج الناس منها.

وفي الدر المنثور، أخرج الحاكم بسند جيد عن جابر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **تمد الأرض يوم القيامة مد الأديم ثم لا يكون لابن آدم منها إلا موضع قدميه.**

وفي الاحتجاج، عن علي (عليه السلام) في حديث قال: **والناس يومئذ على صفات و منازل فمنهم من يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا، ومنهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم لم يلبثوا من أمر الدنيا بشيء وإنما الحساب هناك على من يلبس بها هاهنا، ومنهم من يحاسب على النقيير والقطمير ويصير إلى عذاب السعير.**

وفي المعاني، بإسناده عن ابن سنان عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): كل محاسب معذب فقال له قائل: يا رسول الله فأين قول الله عز وجل: {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا} قال: ذلك العرض يعني التصفح.**

أقول: وروي في الدر المنثور، عن البخاري و مسلم و الترمذي و غيرهم عن عائشة: مثله.

وفي تفسير القمي، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله: **{فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ}** فهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسود بن هلال المخزومي وهو من بني مخزوم، **{وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ}** فهو أخوه الأسود بن عبد الأسود المخزومي فقتله حمزة بن عبد المطلب يوم بدر.

وفي الجمع في قوله تعالى: **{لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ}** وقيل: معناه شدة بعد شدة حياة ثم موت ثم بعث ثم جزاء: وروي ذلك مرفوعا.

و عن جوامع الجامع، في الآية عن أبي عبيدة: لتركبن سنن من كان قبلكم من الأولين و أحوالهم، و روي ذلك عن الصادق (عليه السلام).

(٨٥) سورة البروج مكية و هي اثنتان و عشرون آية (٢٢)

[سورة البروج (٨٥): الآيات ١ الى ٢٢]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَ الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ ③ قَتَلَ أَصْحَابُ

الْأَخْذُودِ ④

الْتَارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ⑤ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ⑥ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ⑦ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ
 يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ⑧ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ⑨ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ⑩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ⑪ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ⑫ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ⑬ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ⑭ ذُو
 الْعَرْشِ الْمَجِيدِ ⑮ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ⑯ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ⑰ فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ ⑱ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ⑲ وَ
 اللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ⑳ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ㉑ فِي لُوحٍ مَحْفُوظٍ ㉒

(بيان)

سورة إنذار و تبشير فيها وعيد شديد للذين يفتنون المؤمنين و المؤمنات لإيمانهم بالله كما كان المشركون من
 أهل مكة يفعلون ذلك بالذين آمنوا بالنبى (صلى الله عليه وآله وسلم) فيعذبونهم ليرجعوا إلى شركهم السابق ففهم
 من كان يصبر و لا يرجع بلغ الأمر ما بلغ، و منهم من رجع و ارتد و هم ضعفاء الإيمان كما يشير إلى ذلك قوله
 تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ} العنكبوت: ١٠، و قوله: {وَمِنَ
 النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ} الحج: ١١.

و قد قدم سبحانه على ذلك الإشارة إلى قصة أصحاب الأخدود، و فيه تحريض المؤمنين على الصبر في جنب الله تعالى، و أتبعها بالإشارة إلى حديث الجنود فرعون و ثمود و فيه تطيب لنفس النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بوعد النصر و تهديد للمشركين.
و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: **{وَأَسْمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ}** البروج جمع برج و هو الأمر الظاهر و يغلب استعماله في القصر العالي لظهوره على الناظرين و يسمى البناء المعمول على سور البلد للدفاع برجا و هو المراد في الآية لقوله تعالى: **{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَ زَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَ حَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ}** الحجر: ١٧، فالمراد بالبروج مواضع الكواكب من السماء.

و بذلك يظهر أن تفسير البروج بالبروج الاثني عشر المصطلح عليها في علم النجوم غير سديد و في الآية إقسام بالسماء المحفوظة بالبروج، و لا يخفى مناسبتها لما سيشار إليه من القصة ثم الوعيد و الوعد و سنشير إليه.
قوله تعالى: **{وَأَلْيَوْمِ الْمَوْعُودِ}** عطف على السماء و إقسام باليوم الموعود و هو يوم القيامة الذي وعد الله القضاء فيه بين عباده.

قوله تعالى: **{وَوَ شَاهِدٍ وَ مَشْهُودٍ}** معطوفان على السماء و الجميع قسم بعد قسم على ما أريد بيانه في السورة و هو كما تقدمت الإشارة إليه الوعيد الشديد لمن يفتن المؤمنين و المؤمنات لإيمانهم و الوعد الجميل لمن آمن و عمل صالحا.

فكأنه قيل: أقسم بالسماء ذات البروج التي يدفع الله بها عنها الشياطين أن الله يدفع عن إيمان المؤمنين كيد الشياطين و أوليائهم من الكافرين، و أقسم باليوم الموعود الذي يجزي فيه الناس بأعمالهم، و أقسم بشاهد يشهد و يعاين أعمال أولئك الكفار و ما يفعلونه بالمؤمنين لإيمانهم بالله و أقسم بمشهود سيشهده الكل و يعاينونه إن الذين فتنوا المؤمنين و المؤمنات، إلى آخر الآيتين.

و من هنا يظهر أن الشهادة في **{شَاهِدٍ}** و **{مَشْهُودٍ}** بمعنى واحد و هو المعاينة بالحضور، على أنها لو كانت بمعنى تأدية الشهادة لكان حق التعبير «و مشهود عليه» لأنها بهذا المعنى إنما تتعدى بعلى.

و على هذا يقبل **{شَاهِدٍ}** الانطباق على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) لشهادته أعمال أمته ثم يشهد عليها يوم القيامة، و يقبل **{مَشْهُودٍ}** الانطباق على تعذيب الكفار لهؤلاء المؤمنين و ما فعلوا

بهم من الفتنة وإن شئت فقل: على جزائه وإن شئت فقل على ما يقع يوم القيامة من العقاب والثواب لهؤلاء الظالمين والمظلومين، و تنكير **{مَشْهُودٍ}** و **{رَ شَاهِدٍ}** على أي حال للتفخيم.

ولهم في تفسير شاهد و مشهود أقاويل كثيرة أنهاها بعضهم إلى ثلاثين كقول بعضهم إن الشاهد يوم الجمعة و المشهود يوم عرفة، و القول بأن الشاهد يوم النحر و المشهود يوم عرفة، و القول بأن الشاهد يوم عرفة و المشهود يوم القيامة، و القول بأن الشاهد الملك يشهد على بني آدم و المشهود يوم القيامة، و القول بأن الشاهد الذين يشهدون على الناس و المشهود الذين يشهد عليهم.

و القول بأن الشاهد هذه الأمة و المشهود سائر الأمم، و القول بأن الشاهد أعضاء بني آدم و المشهود أنفسهم و القول بأن الشاهد الحجر الأسود و المشهود الحاج و القول بأن الشاهد الأيام و الليالي و المشهود بنو آدم، و القول بأن الشاهد الأنبياء و المشهود محمد (صلى الله عليه وآله و سلم) ، و القول بأن الشاهد هو الله و المشهود لا إله إلا الله.

و القول بأن الشاهد الخلق و المشهود الحق، و القول بأن الشاهد هو الله و المشهود يوم القيامة، و القول بأن الشاهد آدم و ذريته و المشهود يوم القيامة، و القول بأن الشاهد يوم التروية و المشهود يوم عرفة، و القول بأنها يوم الإثنين و يوم الجمعة، و القول بأن الشاهد: المقربون و المشهود عليون، و القول بأن الشاهد هو الطفل الذي قال لأمه في قصة الأخدود: اصبري فإنك على الحق و المشهود الواقعة، و القول بأن الشاهد الملائكة المتعاقبون لكتابة الأعمال و المشهود قرآن الفجر إلى غير ذلك من أقوالهم.

و أكثر هذه الأقوال - كما ترى - مبني على أخذ الشهادة بمعنى أداء ما حمل من الشهادة و بعضها على تفريق بين الشاهد و المشهود في معنى الشهادة و قد عرفت ضعفه، و أن الأنسب للسياق أخذها بمعنى المعاينة و إن استلزم الشهادة بمعنى الأداء يوم القيامة، و أن الشاهد يقبل الانطباق على النبي (صلى الله عليه وآله و سلم)

كيف لا؟ و قد سماه الله تعالى شاهداً إذ قال: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً}** الأحزاب: ٤٥، و سماه شهيداً إذ قال: **{لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ}** الحج - ٧٨، و قد عرفت معنى شهادة الأعمال من شهادتها فيما مر.

ثم إن جواب القسم محذوف يدل عليه قوله: **{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ}** إلى تمام آيتين، و يشعر به أيضاً قوله: **{فَتِيلَ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ}** إلخ و هو وعيد الفاتنين و وعد المؤمنين الصالحين و أن الله يوفقهم على الصبر و يؤيدهم على حفظ إيمانهم من كيد الكائدين أن أخلصوا كما فعل بالمؤمنين في قصة الأخدود.

قوله تعالى: **{قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ}** إشارة إلى قصة الأخدود لتكون توطئة و تمهيدا لما سيجيء من قوله: **{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا}** إيلخ و ليس جوابا للقسم البتة.

و الأخدود الشق العظيم في الأرض، و أصحاب الأخدود هم الجبابرة الذين خدوا أخدودا و أضرموها فيها النار و أمروا المؤمنين بدخولها فأحرقوهم عن آخرهم نقما منهم لإيمانهم فقوله: **{قَتَلَ}** إيلخ دعاء عليهم و المراد بالقتل اللعن و الطرد.

و قيل: المراد بأصحاب الأخدود المؤمنون و المؤمنات الذين أحرقوا فيه، و قوله: **{قَتَلَ}** إيلخ عن قتلهم بالإحراق و ليس من الدعاء في شيء. و يضعفه ظهور رجوع الضمائر في قوله: **{إِذْ هُمْ عَلَيْهَا}** و **{هُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ}** و **{مَا نَقَمُوا}** إلى أصحاب الأخدود، و المراد بها و خاصة بالثاني و الثالث الجبابرة الناقدون دون المؤمنين المعذبين.

قوله تعالى: **{النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ}** بدل من الأخدود، و الوقود ما يشعل به النار من حطب و غيره، و في توصيف النار بذات الوقود إشارة إلى عظمة أمر هذه النار و شدة اشتعالها و أجيحها.

قوله تعالى: **{إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ}** أي في حال أولئك الجبابرة قاعدون في أطراف النار المشرفة عليها.

قوله تعالى: **{وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ}** أي حضور ينظرون و يشاهدون إحراقهم و احتراقهم.

قوله تعالى: **{وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ}** النقم بفتححتين الكراهة الشديدة أي ما كرهوا من أولئك المؤمنين إلا إيمانهم بالله فأحرقوهم لأجل إيمانهم.

قوله تعالى: **{الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}** أوصاف جارية على اسم الجلالة تشير إلى المحجة على أن أولئك المؤمنين كانوا على الحق في إيمانهم مظلومين فيما فعل بهم لا يخفى حالهم على الله و سيجزيهم خير الجزاء، و على أن أولئك الجبابرة كانوا على الباطل مجترين على الله ظالمين فيما فعلوا و سيدوقون وبال أمرهم

و ذلك أنه تعالى هو الله العزيز الحميد أي الغالب غير المغلوب على الإطلاق و الجميل في فعله على الإطلاق فله وحده كل الجلال و الجمال فمن الواجب أن يخضع له و أن لا يتعرض لجانبه، و إذ كان له ملك السماوات و الأرض فهو المليك على الإطلاق له الأمر و له الحكم فهو رب العالمين فمن الواجب أن يتخذ إلهها معبودا و لا يشرك به أحد فالمؤمنون به على الحق و الكافرون في ضلال.

ثم إن الله - وهو الموجد لكل شيء - على كل شيء شهيد لا يخفى عليه شيء من خلقه ولا عمل من أعمال خلقه ولا يحتجب عنه إحسان محسن ولا إساءة مسيء فسيجزى كلا بما عمل.

و بالجمله إذ كان تعالى هو الله المتصف بهذه الصفات الكريمة كان على هؤلاء المؤمنين أن يؤمنوا به و لم يكن لأولئك الجبارة أن يتعرضوا لحالهم و لا أن يمسوهم بسوء.

و قال بعض المفسرين في توجيه إجراء الصفات في الآية: إن القوم إن كانوا مشركين فالذي كانوا يتقمنه من المؤمنين و ينكرونه عليهم لم يكن هو الإيمان بالله تعالى بل نفي ما سواه من معبوداتهم الباطلة، و إن كانوا معطلة فالمنكر عندهم ليس إلا إثبات معبود غير معهود لهم لكن لما كان مآل الأمرين إنكار المعبود الحق الموصوف بصفات الجلال و الإكرام عبر بما عبر بإجراء الصفات عليه تعالى.

و فيه غفلة عن أن المشركين و هم الوثنية ما كانوا ينسبون إلى الله تعالى إلا الصنع و الإيجاد.

و أما الربوبية التي تستتبع التدبير و الألوهية التي تستوجب العبادة فكانوا يقصرونها في أربابهم و آلهتهم فيعبدونها دون الله سبحانه، فليس له تعالى عندهم إلا أنه رب الأرباب و إله الآلهة لا غير.

قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَ لَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}** الفتنة المحنة و التعذيب، و **{الَّذِينَ فَتَنُوا}** «إلخ» عام يشمل أصحاب الأخدود و مشركي قريش الذين كانوا يفتنون من آمن بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) من المؤمنين و المؤمنات بأنواع من العذاب ليرجعوا عن دينهم.

قال في المجمع: يسأل فيقال: كيف فصل بين عذاب جهنم و عذاب الحريق و هما واحد؟ أجيب عن ذلك بأن المراد لهم أنواع العذاب في جهنم سوى الإحراق مثل الزقوم و الغسلين و المقامع و لهم مع ذلك الإحراق بالنار انتهى.

قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}** وعد جميل للمؤمنين يطيب به نفوسهم كما أن ما قبله وعيد شديد للكفار الفاتنين المعذيين.

قوله تعالى: **{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ}** الآية إلى تمام سبع آيات تحقيق و تأكيد لما تقدم من الوعد و الوعد، و البطش - كما ذكره الراغب - تناول الشيء بصولة.

وفي إضافة البطش إلى الرب وإضافة الرب إلى الكاف تطيب لنفس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالتأييد والنصر، وإشارة إلى أن لجابرة أمته نصيباً من الوعيد المتقدم.

قوله تعالى: **{إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ}** المقابلة بين المبدئ والمعيد يعطي أن المراد بالإبداء البدء، والافتتاح بالشيء، قالوا: ولم يسمع من العرب الإبداء لكن القراءة ذلك وفي بعض القراءات الشاذة يبدأ بفتح الياء والبدال.

وعلى أي حال فالآية تعليل لشدة بطشه تعالى وذلك أنه تعالى مبدئ يوجد ما يريد من شيء إيجادا ابتدائياً من غير أن يستمد على ذلك من شيء غير نفسه، وهو تعالى يعيد كل ما كان إلى ما كان وكل حال فاتته إلى ما كانت عليه قبل الفوت فهو تعالى لا يمتنع عليه ما أراد ولا يفوته فائت زائل وإذ كان كذلك فهو القادر على أن يحمل على العبد المتعدي حده، من العذاب ما هو فوق حده ووراء طاقته ويحفظه على ما هو عليه ليدوق العذاب قال تعالى: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا}** فاطر: ٣٦.

وهو القادر على أن يعيد ما أفسده العذاب إلى حالته الأولى ليدوق المجرم بذلك العذاب من غير انقطاع قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلَّمًا تَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ}** النساء: ٥٦.

وبهذا البيان يتضح:

أولاً: أن سياق قوله: **{إِنَّهُ هُوَ}** إن إبداع الوجود وإعادة الله سبحانه وحده إذ الصنع والإيجاد ينتهي إليه تعالى وحده.

وثانياً: أن حدود الأشياء إليه تعالى ولو شاء أن لا يحد لم يحد وبدل حداً من آخر فهو الذي حد العذاب و الفتنة في الدنيا بالموت والزوال ولو لم يشأ لم يحد كما في عذاب الآخرة.

وثالثاً: أن المراد من شدة البطش وهو الأخذ بعنف أن لا دافع لأخذه ولا راد لحكمه كيفما حكم إلا أن يحول بين حكمه ومتعلقه حكم آخر منه يقيد الأول.

قوله تعالى: **{وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}** أي كثير المغفرة والمودة ناظر إلى وعد المؤمنين كما أن قوله: **{إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ}** إن الخ ناظر إلى وعيد الكافرين.

قوله تعالى: **{ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَلَّ لِمَا يُرِيدُ}** العرش عرش الملك، وذو العرش كناية عن الملك أي هو ملك له أن يتصرف في مملكته كيفما تصرف ويحكم بما شاء والمجيد

صفة من المجد وهو العظمة المعنوية وهي كمال الذات والصفات، وقوله: **{فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ}** أي لا يصرفه عما أراد صارف لا من داخل لضجر وكسل وملل وتغير إرادة وغيرها ولا من خارج لمانع يحول بينه وبين ما أراد.

فله تعالى أن يوعد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات بالنار ويعد الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالجنة لأنه ذو العرش المجيد ولن يخلف وعده لأنه فعال لما يريد.

قوله تعالى: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ}** تقرير لما تقدم من شدة بطشه تعالى و كونه ملكا مجيدا فعلا لما يريد، وفيه تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و تطيب لنفسه الشريفة بالإشارة إلى حديثهم، و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: **{بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ}** لا يبعد أن يستفاد من السياق كون المراد بالذين كفروا هم قوم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وفي الآية إضراب عما تقدم من الموعظة والحجة من حيث الأثر، والمعنى لا ينبغي أن يرجح منهم الإيمان بهذه الآيات البينات فإن الذين كفروا مصرون على تكذيبهم لا ينتفعون بموعظة أو حجة.

و من هنا ظهر أن المراد بكون الذين كفروا في تكذيب أي بظرفية التكذيب لهم إصرارهم عليه.

قوله تعالى: **{وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ}** وراء الشيء الجهات الخارجة منه المحيطة به. إشارة إلى أنهم غير معجزين لله سبحانه فهو محيط بهم قادر عليهم من كل جهة، وفيه أيضا تطيب لنفس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .

و عن بعضهم أن في قوله: **{مِنْ وَرَائِهِمْ}** تلويحا إلى أنهم اتخذوا الله وراءهم ظهريا، وهو مبني على أخذ وراء بمعنى خلف.

قوله تعالى: **{بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ}** إضراب عن إصرارهم على تكذيب القرآن، والمعنى ليس الأمر كما يدعون بل القرآن كتاب مقرو عظيم في معناه غزير في معارفه في لوح محفوظ عن الكذب والباطل مصون من مس الشياطين.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) سئل عن

{السَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ} فقال: الكواكب، و سئل عن {الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا} فقال: الكواكب. قيل:

ف {بُرُوجٌ مُشَيَّدَةٌ} فقال: قصور.

وفيه، أخرج عبد بن حميد و الترمذي و ابن أبي الدنيا في الأصول و ابن جرير و ابن المنذر و ابن حاتم و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **اليوم الموعود يوم القيامة و اليوم المشهود يوم عرفة و الشاهد يوم الجمعة.** (الحديث).

أقول: و روي مثله بطرق أخرى عن أبي مالك و سعيد بن المسيب و جبير بن مطعم عنه (صلى الله عليه وآله وسلم)، و لفظ الأخير: الشاهد يوم الجمعة و المشهود يوم عرفة.

و روي هذا اللفظ عن عبد الرزاق و الفاريابي و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن علي بن أبي طالب.

وفيه، أخرج عبد بن حميد و ابن المنذر عن علي قال: **اليوم الموعود يوم القيامة، و الشاهد يوم الجمعة، و المشهود يوم النحر.**

و في الجمع، روي: أن رجلا دخل مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فإذا رجل يحدث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

قال: فسألته عن الشاهد و المشهود فقال: نعم الشاهد يوم الجمعة و المشهود يوم عرفة، فجزته إلى آخر يحدث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فسألته عن ذلك فقال: أما الشاهد فيوم الجمعة و أما المشهود فيوم النحر.

فجزتهما إلى غلام كان وجهه الدينار و هو يحدث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلت: أخبرني عن شاهد و مشهود فقال: نعم أما الشاهد فحمد و أما المشهود فيوم القيامة أما سمعت الله سبحانه يقول: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا}** و قال: **{ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ}**.

فسألت عن الأول فقالوا: ابن عباس، و سألت عن الثاني فقالوا: ابن عمرو، و سألت عن الثالث فقالوا: الحسن بن علي.

أقول: و الحديث مروى بطرق مختلفة و ألفاظ متقاربة و قد تقدم في تفسير الآية أن ما ذكره (عليه السلام) أظهر بالنظر إلى سياق الآيات، و إن كان لفظ الشاهد و المشهود لا يأبى الانطباق على غيره أيضا بوجه.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{قَتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ}** قال: كان سببه أن الذي

هيج الحبشة على غزوة اليمن ذو نواس و هو آخر من ملك من حمير تهود و اجتمعت معه حمير على اليهودية و سمى نفسه يوسف و أقام على ذلك حيناً من الدهر.

ثم أخبر أن بنجران بقايا قوم على دين النصرانية و كانوا على دين عيسى و حكم الإنجيل، و رأس ذلك الدين عبد الله بن بريامن فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم و يحملهم على اليهودية و يدخلهم فيها فسار حتى قدم بنجران فجمع من كان بها على دين النصرانية ثم عرض عليهم دين اليهودية و الدخول فيها فأبوا عليه فجادلهم و عرض عليهم و حرص الحرص كله فأبوا عليه و امتنعوا من اليهودية و الدخول فيها و اختاروا القتل.

فاتخذ لهم أخدوداً و جمع فيه الحطب و أشعل فيه النار فنهزم من أحرق بالنار و منهم من قتل بالسيف و مثل بهم كل مثلة فبلغ عدد من قتل و أحرق بالنار عشرين ألفاً و أفلت منهم رجل يدعى دوش ذو ثعلبان على فرس له ركضة، و اتبعوه حتى أعجزهم في الرمل، و رجع ذو نواس إلى صنيعة في جنوده فقال الله: **{قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ}** - إلى قوله - **{الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}**.

و في المجمع، و روى سعيد بن جبيرة قال: لما انهزم أهل إسفندهان قال عمر بن الخطاب: ما هم يهود و لا نصارى و لا لهم كتاب و كانوا مجوساً فقال علي بن أبي طالب: **بلى قد كان لهم كتاب رفع.**

و ذلك أن ملكاً لهم سكر فوقع على ابنته - أو قال: على أخته - فلما أفاق قال لها: كيف المخرج مما وقعت فيه؟ قالت: تجمع أهل مملكتك و تخبرهم أنك ترى نكاح البنات و تأمرهم أن يجلوه فجمعهم فأخبرهم فأبوا أن يتابعوه فخذ لهم أخدوداً في الأرض، و أوقد فيه النيران و عرضهم عليها فمن أبى قبول ذلك قذفه في النار، و من أجاب خلى سبيله.

أقول: و روي هذا المعنى في الدر المنثور، عن عبد بن حميد عنه (عليه السلام).

و عن تفسير العياشي، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **أرسل علي (عليه السلام) إلى أسقف بنجران يسأله عن أصحاب الأخدود فأخبره بشيء فقال (عليه السلام): ليس كما ذكرت و لكن سأخبرك عنهم:**

إن الله بعث رجلاً حبشياً نبياً و هم حبشية فكذبوه فقاتلهم فقتلوا أصحابه فأسروه و أسروا أصحابه ثم بنوا له حيراً ثم ملئوه ناراً ثم جمعوا الناس فقالوا: من كان على ديننا و أمرنا فليعتزل، و من كان على دين هؤلاء فليرم نفسه في النار فجعل أصحابه يتهافتون في

النار فجاءت امرأة معها صبي لها ابن شهر فلما هجمت هابت و رقت على ابنها فنادى الصبي: لا تهابي و ارميني و نفسك في النار فإن هذا و الله في الله قليل، فرمت بنفسها في النار و صبيها، و كان ممن تكلم في المهدي.

أقول: و روي هذا المعنى في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن عبد الله بن نجى عنه (عليه السلام)، و روي أيضا عن ابن أبي حاتم من طريق عبد الله بن نجى عنه (عليه السلام) قال: كان نبي أصحاب الأخدود حبشيا.

و روي أيضا عن ابن أبي حاتم و ابن المنذر من طريق الحسن عنه (عليه السلام) في قوله تعالى: {أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ} قال: هم الحبشة.

ولا يبعد أن يستفاد أن حديث أصحاب الأخدود وقائع متعددة وقعت بالحبشة و اليمن و العجم و الإشارة في الآية إلى جميعها و هناك روايات تقص القصة مع السكوت عن محل وقوعها.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ} قال: اللوح المحفوظ له طرفان طرف على يمين العرش على جبين إسرافيل فإذا تكلم الرب جل ذكره بالوحي ضرب اللوح جبين إسرافيل فنظر في اللوح فيوحي بما في اللوح إلى جبرئيل.

و في الدر المنثور، أخرج أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): خلق الله لوحا من درة بيضاء دفتاه من زبرجدة خضراء كتابه من نور يلحظ إليه في كل يوم ثلاث مائة و ستين لحظة يحيي و يميت و يخلق و يرزق و يعز و يذل و يفعل ما يشاء.

أقول: و الروايات في صفة اللوح كثيرة مختلفة و هي على نوع من التمثيل.

(٨٦) سورة الطارق مكية و هي سبع عشرة آية (١٧)

[سورة الطارق (٨٦): الآيات ١ الى ١٧]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ❶ وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ❷ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ❸ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ❹ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ❺ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ❻ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ

الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ
الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ ﴿١٣﴾ وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَ أَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾
فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْمِلُهُمْ رُوبِدًا ﴿١٧﴾

(بيان)

في السورة إنذار بالمعاد و تستدل عليه بإطلاق القدرة و تؤكد القول في ذلك، و فيها إشارة إلى حقيقة
اليوم، و تختتم بوعيد الكفار.

و السورة ذات سياق مكّي.

قوله تعالى: **{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ}** الطرق في الأصل - على ما قيل - هو
الضرب بشدة يسمع له صوت و منه المطرقة و الطريق لأن السابلة تطرقها بأقدامها ثم شاع استعماله في سلوك
الطريق ثم اختص بالإتيان ليلا لأن الآتي بالليل في الغالب يجد الأبواب مغلقة فيطرقها و يدقها ثم شاع الطارق
في كل ما يظهر ليلا، و المراد بالطارق في الآية النجم الذي يطلع بالليل.

و الثقب في الأصل بمعنى الخرق ثم صار بمعنى النير المضيء لأنه يثقب الظلام بنوره و يأتي بمعنى العلو و
الارتفاع و منه ثقب الطائر أي ارتفع و علا كأنه يثقب الجو بطيرانه.

فقوله: **{وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ}** إقسام بالسماء و بالنجم الطالع ليلا، و قوله: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ}** تفخيم
لشأن المقسم به و هو الطارق، و قوله: **{النَّجْمُ الثَّاقِبُ}** بيان للطارق و الجملة في معنى جواب استفهام مقدر كأنه
لما قيل: و ما أدراك ما الطارق؟ سئل فقيل: فما هو الطارق؟ فأجيب، و قيل: النجم الثاقب.

قوله تعالى: **{إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}** جواب للقسم و لما بمعنى إلا و المعنى ما من نفس إلا عليها
حافظ، و المراد من قيام الحافظ على حفظها كتابة أعمالها الحسنة و السيئة

على ما صدرت منها ليحاسب عليها يوم القيامة و يجزي بها فالحافظ هو الملك و المحفوظ العمل كما قال تعالى: **{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}** الانفطار: ١٢ .

و لا يبعد أن يكون المراد من حفظ النفس حفظ ذاتها و أعمالها، و المراد بالحافظ جنسه فتفيد أن النفوس محفوظة لا تبطل بالموت و لا تفسد حتى إذا أحيا الله الأبدان أرجع النفوس إليها فكان الإنسان هو الإنسان الدنيوي بعينه و شخصه ثم يجزيه بما يقتضيه أعماله المحفوظة عليه من خير أو شر .

و يؤيد ذلك كثير من الآيات الدالة على حفظ الأشياء كقوله تعالى: **{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ}** الم السجدة: ١١ ، و قوله: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ}** الزمر: ٤٢ .

و لا ينافي هذا الوجه ظاهر آية الانفطار السابقة من أن حفظ الملائكة هو الكتابة فإن حفظ نفس الإنسان أيضا من الكتابة على ما استفاد من قوله: **{إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}** الجاثية: ٢٩ و قد تقدمت الإشارة إليه .

و يندفع بهذا الوجه الاعتراض على ما استدل به على المعاد من إطلاق القدرة كما سيجيء، و محصله أن إطلاق القدرة إنما ينفع فيما كان ممكنا لكن إعادة الإنسان بعينه محال فإن الإنسان المخلوق ثانيا مثل الإنسان الدنيوي المخلوق أولا لا شخصه الذي خلق أولا و مثل الشيء غير الشيء لا عينه .

وجه الاندفاع أن شخصية الشخص من الإنسان بنفسه لا ببدنه و النفس محفوظة فإذا خلق البدن و تعلقت به النفس كان هو الإنسان الدنيوي بشخصه و إن كان البدن بالقياس إلى البدن مع الغض عن النفس، مثلا لا عينا .

قوله تعالى: **{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ}** أي ما هو مبدأ خلقه؟ و ما هو الذي صيره الله إنسانا؟ و الجملة متفرعة على الآية السابقة و ما تدل عليه بفحواها بحسب السياق و محصل المعنى و إذ كانت كل نفس محفوظة بذاتها و عملها من غير أن تفتنى أو ينسى عملها فليدعن الإنسان أن سيرجع إلى ربه و يجزي بما عمل و لا يستبعد ذلك و لينظر لتحصيل هذا الإذعان إلى مبدأ خلقه و يتذكر أنه خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب و الترائب .

فالذي بدأ خلقه من ماء هذه صفته يقدر على رجعه و إحيائه بعد الموت .

و في الإتيان بقوله: **{خُلِقَ}** مبنيًا للمفعول و ترك ذكر الفاعل و هو الله سبحانه إيماء إلى ظهور أمره، و نظيره قوله: **{خُلِقَ مِنْ مَاءٍ}** إنخ.

قوله تعالى: **{خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ}** الدفق تصبب الماء و سيلانه بدفع و سرعة و الماء الدافق هو المني و الجملة جواب عن استفهام مقدر يهدي إليه قوله: **{مِمَّ خُلِقَ}**.

قوله تعالى: **{يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ}** الصلب الظهر، و الترائب جمع تريبة و هي عظم الصدر. و قد اختلفت كلماتهم في الآية و ما قبلها اختلافًا عجيبًا، و الظاهر أن المراد بقوله: **{بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ}** البعض المحصور من البدن بين جداري عظام الظهر و عظام الصدر^١.

قوله تعالى: **{إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ}** الرجع الإعادة، و ضمير **{إِنَّهُ}** له تعالى و اكتفى بالإضمار مع أن المقام مقام الإظهار لظهوره نظير قوله: **{خُلِقَ}** مبنيًا للمفعول.

و المعنى أن الذي خلق الإنسان من ماء صفته تلك الصفة، على إعادته و إحيائه بعد الموت - و إعادته مثل بدئه - لقادر لأن القدرة على الشيء قدرة على مثله إذ حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد.

قوله تعالى: **{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}** ظرف للرجع، و السريرة ما أسره الإنسان و أخفاه في نفسه، و البلاء الاختبار و التعرف و التصفح.

فالمعنى يوم يختبر ما أخفاه الإنسان و أسره من العقائد و آثار الأعمال خيرها و شرها فيميز خيرها من شرها و يجزي الإنسان به فالآية في معنى قوله تعالى: **{إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ}** البقرة: ٢٨٤.

قوله تعالى: **{فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لَا نَاصِرٍ}** أي لا قدرة له في نفسه يمتنع بها من عذاب الله و لا ناصر له يدفع عنه ذلك أي لا قدرة هناك يدفع عنه الشر لا من نفسه و لا من غيره.

قوله تعالى: **{وَ السَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ وَ الْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ}** إقسام بعد إقسام لتأكيد أمر القيامة و الرجوع إلى الله.

و المراد بكون السماء ذات رجوع ما يظهر للحس من سيرها بطلوع الكواكب بعد

^١ و قد أورد المراغي في تفسيره في ذيل الآية عن بعض الأطباء توجيهًا دقيقًا عليها لهذه الآية من أرادته فليراجعه.

غروبها و غروبها بعد طلوعها، و قيل: رجعها أمطارها، و المراد بكون الأرض ذات صدع تصدعها و انشاقها بالنبات، و مناسبة القسمين لما أقسم عليه من الرجوع بعد الموت و الخروج من القبور ظاهرة.

قوله تعالى: **{إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ وَ مَا هُوَ بِالْهَزْلِ}** الفصل إبانة أحد الشئيين من الآخر حتى يكون بينهما فرجة، و التعبير بالفصل و المراد الفاصل للمبالغة كزيد عدل و الهزل خلاف الجد.

و الآيتان جواب القسم، و ضمير **{إِنَّهُ}** للقرآن و المعنى أقسم بكذا و كذا أن القرآن لقول فاصل بين الحق و الباطل و ليس هو كلاما لا جد فيه فما يحقه حق لا ريب فيه و ما يبطله باطل لا ريب فيه فما أخبركم به من البعث و الرجوع حق لا ريب فيه.

و قيل: الضمير لما تقدم من خبر الرجوع و المعاد، و الوجه السابق أوجه.

قوله تعالى: **{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَ أَكِيدُ كَيْدًا}** أي الكفار يحتالون بكفرهم و إنكارهم المعاد احتيالا يريدون به إطفاء نور الله و إبطال دعوتك، و احتال عليهم بعين أعمالهم بالاستدراج و الإملاء و الإضلال بالطبع على قلوبهم و جعل الغشاوة على سمعهم و أبصارهم احتيالا أسوقهم به إلى عذاب يوم القيامة.

قوله تعالى: **{فَمَهَّلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا}** التمهيل و الإمهال بمعنى واحد غير أن باب التفعيل يفيد التدرج و الإفعال يفيد الدفعة، و الرويد القليل.

و المعنى: إذا كان منهم كيد و مني كيد عليهم بعين ما يكيدون به و الله غالب على أمره، فانتظر بهم و لا تعاجلهم انتظر بهم قليلا فسيأتهم ما أوعدهم به فكل ما هو آت قريب.

و في التعبير أولا بمهل الظاهر في التدرج و ثانيا مع التقييد برويدا بأهل الظاهر في الدفعة لطف ظاهر.

بحث روائي

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}** قال: الملائكة.

و فيه في قوله تعالى: **{خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ}** قال: النطفة التي تخرج بقوة.

و فيه في قوله تعالى: **{يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرَائِبِ}** قال: الصلب الرجل و الترائب المرأة، و هو صدرها.

أقول: الرواية على إضمارها وإرسالها لا تخلو من شيء.

وفيه في قوله تعالى: **{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}** قال: يكشف عنها.

وفي الجمع، روي مرفوعاً عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **ضمن الله خلقه أربع خصال: الصلاة، والزكاة، وصوم شهر رمضان، والغسل من الجنابة، وهي السرائر التي قال الله تعالى: يوم تبلى السرائر.**

أقول: ولعله من قبيل ذكر بعض المصاديق كما تؤيده الرواية التالية.

وفيه، عن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ما هذه السرائر التي ابتلى الله بها العباد في الآخرة؟ فقال: **سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة وكل مفروض لأن الأعمال كلها سرائر خفية فإن شاء الرجل قال: صليت ولم يصل وإن شاء قال: توضيت ولم يتوض فذلك قوله: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}.**

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: **{فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ}** قال: ما له من قوة يهوي بها على خالقه، ولا ناصر من الله ينصره إن أراد به سوءاً.

وفيه في قوله تعالى: **{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ}** قال: ذات المطر **{وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ}** أي ذات النبات.

وفي الجمع: **{إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَضْلٌ}** يعني أن القرآن يفصل بين الحق والباطل بالبيان عن كل واحد منهما، وروي ذلك عن الصادق (عليه السلام).

وفي الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبة والدارمي والترمذي ومحمد بن نصر وابن الأنباري في المصاحف عن الحارث الأعور قال: دخلت المسجد فإذا الناس قد وقعوا في الأحاديث فأتيت علياً فأخبرته فقال: **أ و قد فعلوها؟**

سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: إنها ستكون فتنة. قلت: فما المخرج منها يا رسول الله قال: **كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، من ابتغى الهوى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا تلتبس منه الألسن، ولا يخلق من الرد، ولا تنقضي عجائبه هو الذي لم ينته الجن إذ سمعته حتى قالوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}.** من قال به صدق، و من حكم به عدل، و من عمل به أجر، و من دعي إليه هدي إلى صراط مستقيم.

أقول: وروي ما يقرب منه عن معاذ بن جبل عنه (صلى الله عليه وآله وسلم)، ورواه مختصراً عن ابن مردويه عن علي (عليه السلام).

(٨٧) سورة الأعلى مكية وهي تسع عشرة آية (١٩)

[سورة الأعلى (٨٧): الآيات ١ الى ١٩]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ③ وَالَّذِي أَخْرَجَ
الْمَرْعَى ④ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ⑤ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ⑥ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ⑦ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى
⑧ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ⑨ سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ⑩ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ⑪ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ⑫ ثُمَّ لَا يَمُوتُ
فِيهَا وَلَا يَحْيَى ⑬ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ⑭ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ⑮ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ⑯ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ⑰
إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ⑱ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ⑳}

(بيان)

أمر بتوحيده تعالى على ما يليق بساحته المقدسة وتنزيه ذاته المتعالية من أن يذكر مع اسمه اسم غيره أو يسند إلى غيره ما يجب أن يسند إليه كخالق والتدبير والرزق ووعده له (صلى الله عليه وآله وسلم) بتأييده بالعلم والحفظ وتمكينه من الطريقة التي هي أسهل وأيسر للتبليغ وأنسب للدعوة.

و سياق الآيات في صدر السورة سياق مكّي و أما ذيلها أعني قوله: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}** إنلخ فقد ورد من طرق أئمة أهل البيت (عليهم السلام) و كذا من طريق أهل السنة أن المراد به زكاة الفطرة و صلاة العيد و من المعلوم أن الصوم و ما يتبعه من زكاة الفطرة و صلاة العيد إنما شرعت بالمدينة بعد الهجرة فتكون آيات الذيل نازلة بالمدينة.

فالسورة صدرها مكّي و ذيلها مدني، و لا ينافي ذلك ما جاء في الآثار أن السورة مكية فإنه لا يأبى الحمل على صدر السورة.

قوله تعالى: **{سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** أمر بتنزيه اسمه تعالى و تقديسه، و إذ علق التنزيه على الاسم - و ظاهر اللفظ الدال على المسمى - و الاسم إنما يقع في القول فتنزيهه أن لا يذكر معه ما هو تعالى منزّه عنه كذكر الآلهة و الشركاء و الشفعاء و نسبة الربوبية إليهم و كذكر بعض ما يختص به تعالى كالخلق و الإيجاد و الرزق و الإحياء و الإمامة و نحوها و نسبته إلى غيره تعالى أو كذكر بعض ما لا يليق بساحة قدسه تعالى من الأفعال كالعجز و الجهل و الظلم و الغفلة و ما يشبهها من صفات النقص و الشين و نسبته إليه تعالى.

و بالجملة تنزيه اسمه تعالى أن يجرد القول عن ذكر ما لا يناسب ذكره ذكر اسمه تعالى و هو تنزيهه تعالى في مرحلة القول الموافق لتنزيهه في مرحلة الفعل.

و هو يلزم التوحيد الكامل بنفي الشرك الجلي كما في قوله: **{وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}** الزمر ٤٥ و قوله: **{وَإِذَا ذُكِرَتْ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَنُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا}** إسرائ ٤٦.

و في إضافة الاسم إلى الرب و الرب إلى ضمير الخطاب تأييد لما قدمناه فإن المعنى سبّح اسم ربك الذي اتخذته ربا و أنت تدعو إلى أنه الرب الإله فلا يقعن في كلامك مع ذكر اسمه بالربوبية ذكر من غيره بحيث ينافي تسميه بالربوبية على ما عرف نفسه لك.

و قوله: **{الْأَعْلَى}** و هو الذي يعلو كل عال و يقهر كل شيء صفة **{رَبِّكَ}** دون الاسم و يعلل بمعناه الحكم أي سبّح اسمه لأنه أعلى.

و قيل: معنى **{سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** قل: سبحان ربي الأعلى كما عن ابن عباس و نسب إليه أيضا أن المعنى صل.

و قيل: المراد بالاسم المسمى و المعنى نزهه تعالى عن كل ما لا يليق بساحة قدسه من الصفات و الأفعال.

وقيل: إنه ذكر الاسم والمراد به تعظيم المسمى واستشهد عليه بقول لبيد، إلى الحول ثم اسم السلام عليكما. فالمعنى سبح ربك الأعلى.

وقيل: المراد تنزيه أسمائه تعالى عما لا يليق بأن لا يؤول مما ورد منها اسم من غير مقتض، ولا يبقى على ظاهره إذا كان ما وضع له لا يصح له تعالى، ولا يطلقه على غيره تعالى إذا كان مختصا كاسم الجلالة ولا يتلفظ به في محل لا يناسبه كبيت الخلاء، وعلى هذا القياس.

وما قدمناه من المعنى أوسع وأشمل وأنسب لسياق قوله الآتي **{سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى} {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى فَذَكِّرْ}** فإن السياق سياق البعث إلى التذكرة والتبليغ فبدأ أولا بإصلاح كلامه (صلى الله عليه وآله وسلم) و تجريده عن كل ما يشعر بجلي الشرك وخفيه بأمره بتنزيه اسم ربه، و وعد ثانيا بإقراءه بحيث لا ينسى شيئا مما أوحى إليه و تسهيل طريقة التبليغ عليه ثم أمر بالتذكير والتبليغ فافهم.

قوله تعالى: **{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى}** خلق الشيء جمع أجزائه، و تسويته جعلها متساوية بحيث يوضع كل في موضعه الذي يليق به و يعطى حقه كوضع كل عضو من أعضاء الإنسان فيما يناسبه من الموضع.

والخلق و التسوية و إن كانا مطلقين لكنهما إنما يشملان ما فيه تركيب أو شائبة تركيب من المخلوقات. و الآية إلى تمام أربع آيات تصف التدبير الإلهي و هي برهان على ربوبيته تعالى المطلقة.

قوله تعالى: **{وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}** أي جعل الأشياء التي خلقها على مقادير مخصوصة و حدود معينة في ذواتها و صفاتها و أفعالها لا تتعداها و جهزها بما يناسب ما قدر لها فهداها إلى ما قدر فكل يسلك نحو ما قدر له بهداية ربانية تكوينية كالطفل يهتدي إلى ثدي أمه و الفرخ إلى زق أمه و أبيه، و الذكر إلى الأنثى و ذي النفع إلى نفعه و على هذا القياس.

قال تعالى: **{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}** الحجر: ٢١، و قال: **{ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ}**

عبس: ٢٠ و قال: **{لِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيَهَا}** البقرة: ١٤٨.

قوله تعالى: **{وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى}** المرعى ما ترعاه الدواب فالله تعالى هو الذي أخرجها أي أنبتها.

قوله تعالى: **{فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى}** الغناء ما يقذفه السيل على جانب الوادي من الحشيش و النبات، و المراد هنا كما قيل اليباس من النبات، و الأحوى الأسود.

وإخراج المرعى لتغذي الحيوان ثم جعله غثاء أحوى من مصاديق التدبير الربوبي و دلائله كما أن الخلق و التسوية و التقدير و الهداية كذلك.

قوله تعالى: **{سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى}** قال في المفردات: و القراءة ضم الحروف و الكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، و ليس يقال ذلك لكل جمع لا يقال: قرأت القوم إذا جمعهم، و يدل على ذلك أنه لا يقال للحرف الواحد إذا تفوه به قراءة، انتهى، و قال في المجمع: و الإقراء أخذ القراءة على القارئ بالاستماع لتقويم الزلل، و القارئ التالي. انتهى.

و ليس إقراؤه تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله و سلم) القرآن مثل إقراء بعضنا بعضا باستماع المقرئ لما يقرؤه القارئ و إصلاح ما لا يحسنه أو يغلط فيه فلم يعهد من النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يقرأ شيئاً من القرآن فلا يحسنه أو يغلط فيه عن نسيان للوحي ثم يقرأ فيصلح بل المراد تمكينه من قراءة القرآن كما أنزل من غير أن يغيره بزيادة أو نقص أو تحريف بسبب النسيان.

فقوله: **{سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى}** وعد منه لنبيه (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يمكنه من العلم بالقرآن و حفظه على ما أنزل بحيث يرتفع عنه النسيان فيقرؤه كما أنزل و هو الملاك في تبليغ الوحي كما أوحى إليه.

و قوله: **{إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}** استثناء مفيد لبقاء القدرة الإلهية على إطلاقها و أن هذه العطية و هي الإقراء بحيث لا تنسى لا ينقطع عنه سبحانه بالإعطاء بحيث لا يقدر بعد على إنساك بل هو باق على إطلاق قدرته له أن يشاء إنساك متى شاء و إن كان لا يشاء ذلك فهو نظير الاستثناء الذي في قوله: **{وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَمِنَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مُجْدُوذٍ}** هود: ١٠٨ و قد تقدم توضيحه.

و ليس المراد بالاستثناء إخراج بعض أفراد النسيان من عموم النفي و المعنى سنقرئك فلا تنسى شيئاً إلا ما شاء الله أن تنساه و ذلك أن كل إنسان على هذه الحال يحفظ أشياء و ينسى أشياء فلا معنى لاختصاصه بالنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) بلحن الامتنان مع كونه مشتركاً بينه و بين غيره فالوجه ما قدمناه.

و الآية بسياقها لا تخلو من تأييد لما قيل: إنه كان النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) إذا نزل عليه جبريل

بالوحي يقرؤه مخافة أن ينساه فكان لا يفرغ جبريل من آخر الوحي حتى يتكلم هو بأوله فلما نزلت هذه الآية لم ينس بعده شيئاً.

ويقرب من الاعتبار أن تكون هذه الآية أعني قوله: **{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى}** نازلة أولاً ثم قوله: **{لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}** القيامة: ١٩ ثم قوله: **{وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}** طه: ١١٤.

وقوله: **{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى}** الجهر كمال ظهور الشيء لحاسة البصر كقوله: **{فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرًا}** النساء: ١٥٣، أو لحاسة السمع كقوله: **{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ}** الأنبياء: ١١٠، والمراد بالجهر الظاهر للإدراك بقرينة مقابله لقوله: **{وَمَا يَخْفَى}** من غير تقييده بسمع أو بصر.

والجملة في مقام التعليل لقوله. **{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى}** والمعنى سنصلح لك بالك في تلقي الوحي وحفظه لأننا نعلم ظاهر الأشياء وباطنها فنعلم ظاهر حالك وباطنها وما أنت عليه من الاهتمام بأمر الوحي والحرص على طاعته فيما أمر به.

وفي قوله: **{إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ}** إنلح التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة والنكته فيه الإشارة إلى حجة الاستثناء بإفاضة العلم والحفظ للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إنما لا يسلب القدرة على خلافه ولا يحددها منه تعالى لأنه الله المستجمع لجميع صفات الكمال ومنها القدرة المطلقة ثم جرى الالتفات في قوله: **{إِنَّهُ يَعْلَمُ}** إنلح لمثل النكته.

قوله تعالى: **{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى}** اليسرى مؤنث أيسر وهو وصف قائم مقام موصوفة المحذوف أي الطريقة اليسرى والتيسير التسهيل أي ونجعلك بحيث تتخذ دائماً أسهل الطرق للدعوة والتبليغ قولاً وفعلاً فتهدى قوماً وتم الحجّة على آخرين وتصبر على أذاهم.

وكان مقتضى الظاهر أن يقال: ونيسر لك اليسرى كما قال: **{وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي}** طه: ٢٦ وإنما عدل عن ذلك إلى قوله: **{وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى}** لأن الكلام في تجهيزه تعالى نفس النبي الشريفة وجعله إياها صالحة لتأدية الرسالة ونشر الدعوة. على ما في نيسر اليسرى من إيهام تحصيل الحاصل.

فالمراد جعله (صلى الله عليه وآله وسلم) صافي الفطرة حقيقاً على اختيار الطريقة اليسرى التي هي طريقة

الفطرة فالآية في معنى قوله حكاية عن موسى: **{حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ}** {الأعراف: ١٠٥}.

قوله تعالى: **{فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ}** تفريع على ما تقدم من أمره (صلى الله عليه وآله وسلم) بتنزيه اسم ربه ووعده إقراء الوحي بحيث لا ينسى و تيسيره لليسرى وهي الشرائط الضرورية التي يتوقف عليها نجاح الدعوة الدينية.

و المعنى إذ تم لك الأمر بامثال ما أمرناك به وإقراءك فلا تنسى و تيسيرك لليسرى فذكر إن نفعت الذكرى.

و قد اشترط في الأمر بالتذكرة أن تكون نافعة و هو شرط على حقيقته فإنها إذا لم تنفع كانت لغوا و هو تعالى يجل عن أن يأمر باللغو فالتذكرة لمن يخشى لأول مرة تفيد ميلا من نفسه إلى الحق و هو نفعها و كذا التذكرة بعد التذكرة كما قال: **{سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى}** و التذكرة للأشقى الذي لا خشية في قلبه لأول مرة تفيد تمام الحجة عليه و هو نفعها و يلازمها تجنبه و توليه عن الحق كما قال: **{وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى}** و التذكرة بعد التذكرة له لا تنفع شيئا و لذا أمر بالإعراض عن ذلك قال تعالى: **{فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنَّا ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** النجم: ٢٩.

و قيل: الشرط شرط صوري غير حقيقي و إنما هو إخبار عن أن الذكرى نافعة لا محالة في زيادة الطاعة و الانتهاء عن المعصية كما يقال: سله إن نفع السؤال و لذا قال بعضهم «إن» **{إِنَّ}** في الآية بمعنى قد، و قال آخرون: إنها بمعنى إذ.

و فيه أن كون الذكرى نافعة مفيدة دائما حتى فيمن يعاند الحق - و قد تمت عليه الحجة - ممنوع كيف؟ و قد قيل فيهم: **{سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}** البقرة: ٧.

و قيل: إن في الكلام إيجازا بالحذف، و التقدير فذكر إن نفعت الذكرى و إن لم تنفع و ذلك لأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) بأس للتذكرة و الإعذار فعليه أن يذكر نفع أو لم ينفع فالآية من قبيل قوله: **{وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ}** النحل: ٨١ أي و البرد.

و فيه أن وجوب التذكرة عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى فيما لا يترتب عليها أثرا أصلا ممنوع.

و قيل: إن الشرط مسوق للإشارة إلى استبعاد النفع في تذكرة هؤلاء المذكورين

نعيا عليهم كأنه قيل: افعل ما أمرت به لتوخر وإن لم ينتفعوا به.

وفيه أنه يرده قوله تعالى بعده بلا فصل: **{سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى}**.

قوله تعالى: **{سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى}** أي سيتذكر ويتعظ بالقرآن من في قلبه شيء من خشية الله و خوف عقابه.

قوله تعالى: **{وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى}** الضمير للذكرى والمراد بالأشقى بقرينة المقابلة من ليس في قلبه شيء من خشية الله تعالى، وتجنب الشيء التباعده عنه، والمعنى وسيتباعد عن الذكرى من لا يخشى الله.

قوله تعالى: **{الَّذِي يَصِلَى النَّارَ الْكُبْرَى}** الظاهر أن المراد بالنار الكبرى نار جهنم وهي نار كبرى بالقياس إلى نار الدنيا، وقيل: المراد بها أسفل دركات جهنم وهي أشدها عذابا.

قوله تعالى: **{ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى}** ثم للتراخي بحسب رتبة الكلام، والمراد من نفي الموت والحياة عنه مع نفي النجاة نفيا مؤبدا فإن النجاة بمعنى انقطاع العذاب بأحد أمرين إما بالموت حتى ينقطع عنه العذاب بانقطاع وجوده وإما يتبدل صفة الحياة من الشقاء إلى السعادة ومن العذاب إلى الراحة فالمراد بالحياة في الآية الحياة الطيبة على حد قولهم في الحرض: لا حي فيرجى ولا ميت فينسى.

قوله تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}** التزكي هو التطهر والمراد به التطهر من ألوان التعلقات الدنيوية الصارفة عن الآخرة بدليل قوله بعد **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** إنح، والرجوع إلى الله بالتوجه إليه تطهر من الإخلاق إلى الأرض، والإنفاق في سبيل الله تطهر من لوث التعلق المالى حتى أن وضوء الصلاة تمثيل للتطهر عما كسبته الوجوه والأيدي والأقدام.

وقوله: **{وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}** الظاهر أن المراد بالذكر الذكر اللفظي، وبالصلاة التوجه الخاص المشروع في الإسلام.

والآيتان بحسب ظاهر مدلولهما على العموم لكن ورد في المأثور عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أنهما نزلتا في زكاة الفطر وصلاة العيد وكذا من طرق أهل السنة.

قوله تعالى: **{بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}** إضراب بالخطاب لعامة الناس على ما يدعو إليه طبعهم البشري من التعلق التام بالدنيا والاشتغال بتعميرها، والإيثار

الاختيار، وقيل: الخطاب للكفار، والكلام على أي حال مسوق للعتاب والالتفات لتأكيده.

قوله تعالى: **{وَأَلْ آخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}** عد الآخرة أبقى بالنسبة إلى الدنيا مع أنها باقية أبدية في نفسها لأن المقام مقام الترجيح بين الدنيا والآخرة ويكفي في الترجيح مجرد كون الآخرة خيرا وأبقى بالنسبة إلى الدنيا وإن قطع النظر عن كونها باقية أبدية.

قوله تعالى: **{إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}** الإشارة بهذا إلى ما بين في قوله: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى}** إلى تمام أربع آيات، وقيل: هذا إشارة إلى مضمون قوله: **{وَأَلْ آخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}**.

قيل: وفي إبهام الصحف ووصفها بالتقدم أولا ثم بيانها وتفسيرها بصحف إبراهيم وموسى ثانيا ما لا يخفى من تفخيم شأنها وتعظيم أمرها.

(بحث روائي)

في تفسير العياشي، عن عقبة بن عامر الجهني قال: لما نزلت: **{فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ}** قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **اجعلوها في ركوعكم، و لما نزل {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} قال: اجعلوها في سجودكم.**

أقول: ورواه أيضا في الدر المنثور، عن أحمد وأبي داود وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن عقبة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي تفسير القمي: **{سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى}** قال: قل سبحان ربي الأعلى **{الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}** قال: قدر الأشياء بالتقدير الأول ثم هدى إليها من يشاء.

وفيه في قوله تعالى: **{وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى}** قال: أي النبات. وفي قوله: **{غُثَاءً أَحْوَى}** قال: يصير هشيمًا بعد بلوغه ويسود.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يستذكر القرآن مخافة أن ينساه فقيل له: كفييناك ذلك و نزلت: **{سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى}**.

وفي الفقيه: **وسئل الصادق (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى} قال قال: من أخرج الفطرة قيل له: و {ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى} قال: خرج إلى الجبانة¹ فصلى.**

¹ الجبانة: الصحراء

أقول: وروي هذا المعنى أيضا عن حماد عن جرير عن أبي بصير و زرارة عنه (عليه السلام) و رواه القمي في تفسيره، مرسلا مضمرا.

و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) يقول: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى}** ثم يقسم الفطرة قبل أن يغدو إلى المصلى يوم الفطر.

أقول: وروي أيضا نزول الآيتين في زكاة الفطرة و صلاة العيد بطريقتين عن أبي سعيد موقوفا، و كذا بطريقتين عن ابن عمر و بطريق عن نائلة بن الأصقع و بطريقتين عن أبي العالية و بطريق عن عطاء و بطريق عن محمد بن سيرين و بطريق عن إبراهيم النخعي و كذا عن عمرو بن عوف عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) .

و في الخصال، عن عتبة بن عمرو الليثي عن أبي ذر في حديث قلت: **يا رسول الله فما في الدنيا مما أنزل الله عليك شيء مما كان في صحف إبراهيم و موسى؟ قال: يا أبا ذر اقرأ {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَ أَنْبَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى}**.

أقول: يؤيد الحديث كون الإشارة بهذا إلى مجموع الآيات الأربع كما تقدم.

و في البصائر، بإسناده عن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): **عندنا الصحف التي قال الله: {صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى} قلت: الصحف هي الألواح؟ قال: نعم.**

أقول: و رواه أيضا بطريق آخر عن أبي بصير عنه (عليه السلام) و الظاهر أن المراد بكون الصحف هي الألواح كونها هي التوراة المعبر عنها في مواضع من القرآن بالألواح كقوله تعالى: **{وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} الأعراف: ١٤٥ و قوله: {وَ أَلْقَى الْأَلْوَابِ} الأعراف: ١٥٠ و قوله: {أَخَذَ الْأَلْوَابِ} الأعراف: ١٥٤ .**

و في المجمع، روي عن أبي ذر أنه قال: قلت: **يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: مائة ألف نبي و أربعة و عشرون ألفا قلت: يا رسول الله كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاث مائة و ثلاثة عشر و بقيتهم أنبياء.** قلت: كان آدم نبيا؟ قال: نعم كلمة الله و خلقه بيده.

يا أبا ذر أربعة من الأنبياء عرب: هود و صالح و شعيب و نبيك.

قلت: **يا رسول الله كم أنزل الله من كتاب؟ قال: مائة و أربعة كتب أنزل منها على آدم عشرة صحف، و على شيث خمسين صحيفة، و على أخنوخ و هو إدريس ثلاثين صحيفة و هو**

أول من خط بالقلم و على إبراهيم عشر صحائف و التوراة و الإنجيل و الزبور و الفرقان.

أقول: و روي ذلك في الدر المنثور، عن عبد بن حميد و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبي ذر غير أنه لم يذكر صحف آدم و ذكر لموسى عشر صحف قبل التوراة.

(٨٨) سورة الغاشية مكية و هي ست و عشرون آية (٢٦)

[سورة الغاشية (٨٨): الآيات ١ الى ٢٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ① وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ② عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ③ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً ④ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آيَةٍ ⑤ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ ⑥ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ⑦ وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ⑧ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ⑨ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ⑩ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَعْيُنٍ ⑪ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ⑫ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ⑬ وَ أَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ⑭ وَ نَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ⑮ وَ زَرَائِرُ مَبْنُوثَةٌ ⑯ أَ فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ⑰ وَ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ⑱ وَ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ⑲ وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ⑳ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ㉑ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ㉒ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ ㉓ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ㉔ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ㉕ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ㉖

(بيان)

سورة إنذار و تبشير تصف الغاشية و هي يوم القيامة الذي يحيط بالناس تصفه بحال

الناس فيه من حيث انقسامهم فريقين: السعداء والأشقياء واستقرارهم فيما أعد لهم من الجنة والنار و تنتهي إلى أمره (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يذكر الناس بفنون من التدبير الربوبي في العالم الدالة على ربوبيته تعالى لهم ورجوعهم إليه لحساب أعمالهم.
و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ}** استفهام بداعي التفتيح والإعظام، والمراد بالغاشية يوم القيامة سميت بذلك لأنها تغشى الناس وتحيط بهم كما قال: **{وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}** الكهف: ٤٧، أو لأنها تغشى الناس بأهوالها بغتة كما قيل، أو لأنها تغشى وجوه الكفار بالعذاب.

قوله تعالى: **{وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ}** أي مذلة بالغم والعذاب يغشاها، والخشوع إنما هو لأرباب الوجوه و إنما نسب إلى الوجوه لأن الخشوع والمذلة يظهر فيها.

قوله تعالى: **{عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ}** النصب التعب و **{عَامِلَةٌ}** خبر بعد خبر لوجوه، و كذا قوله: **{نَاصِبَةٌ}** و **{تَصَلَّى}** و **{تُسْقَى}** و **{لَيْسَ لَهُمْ}** و المراد من عملها ونصبها بقريئة مقابلتهما في صفة أهل الجنة الآتية بقوله: **{لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ}** عملها في الدنيا ونصبها في الآخرة فإن الإنسان إنما يعمل ما يعمل في الدنيا ليسعد به و يظفر بالمطلوب لكن عملهم خبط باطل لا ينفعهم شيئاً كما قال تعالى: **{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}** الفرقان: ٢٣ فلا يعود إليهم من عملهم إلا النصب و التعب بخلاف أهل الجنة فإنهم لسعيهم الذي سعوه في الدنيا راضون لما ساقهم إلى الجنة والراحة.

وقيل: المراد أنها عاملة في النار ناصبة فيها فهي تعالج أنواع العذاب الذي تعذب به و تتعب لذلك.

وقيل: المراد أنها عاملة في الدنيا بالمعاصي ناصبة في النار يوم القيامة.

قوله تعالى: **{تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً}** أي تلزم نارا في نهاية الحرارة.

قوله تعالى: **{تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آيِيَّةٍ}** أي حارة بالغة في حرارتها.

قوله تعالى: **{لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ}** قيل: الضريع نوع من الشوك يقال له: الشبرق وأهل الحجاز يسمونه الضريع إذا يبس وهو أخبث طعام وأبشعه لا ترعاه دابة، ولعل تسمية ما في النار به مجرد المشابهة شكلا و خاصة.

قوله تعالى: **{وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ}** من النعمة فيكون كناية عن البهجة و السرور الظاهر على البشرية كما قال: **{تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ}** المطففين: ٢٤، أو من النعمة أي متنعمة. قيل: ولم يعطف على قوله: **{وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ}** إشارة إلى كمال البينونة بين حالي الفريقين.

قوله تعالى: **{لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ}** اللام للتقوية، والمراد بالسعي سعيها في الدنيا بالعمل الصالح، والمعنى رضيت سعيها وهو عملها الصالح حيث جوزيت به جزاء حسنا.

قوله تعالى: **{فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ}** - إلى قوله - **{وَرَزَائِبٍ مَبْنُوتَةٍ}** المراد بعلوها ارتفاع درجاتها و شرفها و جلالها و غزارة عيشها فإن فيها حياة لا موت معها، ولذة لا ألم يشوبها و سرورا لا غم و لا حزن يداخله لهم فيها فوق ما يشاءون.

و قوله: **{لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةٍ}** أي لا تسمع تلك الوجوه في الجنة كلمة ساقطة لا فائدة فيها.

و قوله: **{فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ}** المراد بالعين جنسها فقد عد تعالى فيها عيوننا في كلامه كالسلسبيل و الشراب الطهور و غيرهما.

و قوله: **{فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ}** السرر جمع سرير و في ارتفاعها جلالة القاعد عليها، **{وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ}** الأكواب جمع كوب و هو الإبريق لا خرطوم له و لا عروة يتخذ فيه الشراب **{وَوَنَمَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ}** النمارق جمع نمرقة و هي الوسادة و كونها مصفوفة وضعها في المجلس بحيث يتصل بعضها ببعض على هيئة المجالس الفاخرة في الدنيا **{وَرَزَائِبٍ مَبْنُوتَةٍ}** الرزابي جمع زريبة مثلثة الزاي و هي البساط الفاخر و بثها بسطها للقعود عليها.

قوله تعالى: **{أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}** بعد ما فرغ من وصف الغاشية و بيان حال الفريقين، المؤمنين و الكفار عقبه بإشارة إجمالية إلى التدبير الربوبي الذي يفصح عن ربوبيته تعالى المقتضية لجوب عبادته و لازم ذلك حساب الأعمال و جزاء المؤمن بإيمانه و الكافر بكفره و الظرف الذي فيه ذلك هو الغاشية.

و قد دعاهم أولا أن ينظروا إلى الإبل كيف خلقت؟ و كيف صور الله سبحانه أرضا عادمة للحياة فاقدة للشعور بهذه الصورة العجيبة في أعضائها و قواها و أفاعيلها فسخرها لهم ينتفعون من ركوبها و حملها و لحمها و ضرعها و جلدها و وبرها حتى بولها و بعرتها فهل هذا كله توافق اتفاق غير مطلوب بحياله؟

و تخصيص الإبل بالذكر من جهة أن السورة مكية و أول من تتلى عليهم الإعراب

و اتخاذ الآبال من أركان عيشتهم.

قوله تعالى: **{وَأِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ}** وزينت بالشمس والقمر وسائر النجوم الزواهر بما فيها من المنافع لأهل الأرض و قد جعل دونها الهواء الذي يضطر إليه الحيوان في تنفسه.

قوله تعالى: **{وَأِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ}** وهي أوتاد الأرض المانعة من مورها و مخازن الماء التي تتفجر منها العيون والأنهار و محافظ للمعادن.

قوله تعالى: **{وَأِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}** أي بسطت و سويت فصلحت لسكنى الإنسان و سهل فيها النقل و الانتقال و أغلب التصرفات الصناعية التي للإنسان.

فهذه تدييرات كلية مستندة إليه تعالى بلا ريب فيه فهو رب السماء و الأرض ما بينهما فهو رب العالم الإنساني يجب عليهم أن يتخذوه ربا و يوحدوه و يعبدوه و أمامهم الغاشية و هو يوم الحساب و الجزاء.

قوله تعالى: **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}** تفریع على ما تقدم و المعنى إذا كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه و أمامهم يوم الحساب و الجزاء لمن آمن منهم أو كفر فذكرهم بذلك.

و قوله: **{إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}** بیان أن وظيفته و هو رسول التذكرة رجاء أن يستجيبوا و يؤمنوا من غير إكراه و إلقاء.

قوله تعالى: **{لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ}** المصير و أصله المسيطر المتسلط، و الجملة بیان و تفسير لقوله: **{إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ}**.

قوله تعالى: **{إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ}** استثناء من المفعول المحذوف لقوله السابق: **{فَذَكِّرْ}** و التقدير فذكر الناس إلا من تولى منهم عن التذكرة و كفر إذ تذكرته لغولا فائدة فيها، و معلوم أن التولي و الكفر إنما يكون بعد التذكرة فالمنفي بالاستثناء هو التذكرة بعد التذكرة كأنه قيل: ذكرهم و آدم التذكرة إلا لمن ذكرته فتولى عنها و كفر، فليس عليك إدامة تذكرته بل أعرض عنه فيعذبه الله العذاب الأكبر.

فقوله: **{فَذَكِّرْ}** - إلى أن قال - **{إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَ كَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ}** في معنى قوله: **{فَذَكِّرْ}** **{إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى}** - إلى أن قال - **{وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى}** الأعلى: ١٢ و قد تقدم بيانه.

وقيل: الاستثناء من ضمير **{عَلَيْهِمْ}** في قوله: **{لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضَيَّرٍ}** والمعنى لست عليهم بمتسلط إلا على من تولى منهم عن التذكرة و أقام على الكفر فسيسلطك الله عليه ويأمرك بالجهاد فتقاتله فتقتله.

وقيل: الاستثناء منقطع والمعنى لست عليهم بمتسلط لكن من تولى و كفر منهم يعذبه الله العذاب الأكبر، و ما قدمناه من الوجه أرحم و أقرب.

قوله تعالى: **{فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ}** هو عذاب جهنم فالآية كما تقدم محاذية لقوله في سورة الأعلى **{الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى}**.

قوله تعالى: **{إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ}** الإياب الرجوع و **{إِلَيْنَا}** خبر إن و إنما قدم للتأكيد و لرعاية الفواصل دون الحصر إذ لا قائل برجع الناس إلى غير الله سبحانه و الآية في مقام التعليل للتعذيب المذكور في الآية السابقة.

قوله تعالى: **{ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}** الكلام فيه كالكلام في الآية السابقة.

(بحث روائي)

في الجمع، و قال أبو عبد الله (عليه السلام): **كل ناصب و إن تعبد و اجتهد يصير إلى هذه الآية {عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً}**.

أقول: و رواه في ثواب الأعمال، مسندا و لفظه: **كل ناصب و إن تعبد و اجتهد يصير إلى هذه الغاية {عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً}**.

و فيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **الضريع شيء في النار يشبه الشوك أمر من الصبر و أتت من الجيفة و أشد حرا من النار سماه الله الضريع.**

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَعْيَاءَ}** قال: الهزل و الكذب.

و فيه في قوله تعالى: **{لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضَيَّرٍ}** قال: بحافظ و لا كاتب عليهم.

و في الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و عبد بن حميد و مسلم و الترمذي و النسائي و ابن ماجة و ابن جرير و الحاكم و ابن مردويه و البيهقي في الأسماء و الصفات عن جابر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم و أموالهم إلا بحقها و حسابهم على الله ثم قرأ {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضَيَّرٍ}**.

أقول: لا دلالة في الرواية على كون الاستثناء من ضمير {عَلَيْهِمْ} وهو ظاهر.

وفيه، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام): في قوله تعالى: {إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ} يريد من لم يتعظ ولم يصدقك وحمد ربوبيتي وكفر نعمتي {فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ} يريد الغليظ الشديد الدائم {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ} يريد مصيرهم {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} يريد جزاءهم.

وفي النهج: وسئل (عليه السلام): كيف يحاسب الله الخلق على كثرتهم؟ قال: كما يرزقهم على كثرتهم. قيل: فكيف يحاسبهم ولا يرونه؟ قال: كما يرزقهم ولا يرونه.

وفيه، قال الصادق (عليه السلام): كل أمة يحاسبها إمام زمانها، ويعرف الأئمة أولياءهم وأعداءهم بسماهم وهو قوله: {وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ} (الحديث).

أقول: قد تقدم توضيح معنى الحديث في تفسير الآية من سورة الأعراف، وروي هذا المعنى في البصائر، عن الصادق (عليه السلام) مسندا وفي الكافي، عن الباقر والكاظم (عليه السلام) وفي الفقيه، عن الهادي (عليه السلام) في الزيارة الجامعة.

(٨٩) سورة الفجر مكية وهي ثلاثون آية (٣٠)

[سورة الفجر (٨٩): الآيات ١ الى ٣٠]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ وَالْفَجْرِ ٢ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٣ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ٤ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ٥ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ ٦ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٧ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٨ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ٩ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ١٠ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ١١ الَّذِينَ ظَعَنُوا فِي الْبِلَادِ ١٢ فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ١٣ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٤ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ١٥ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ١٦ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ

فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانِي ﴿١٦﴾ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

(بيان)

في السورة ذم التعلق بالدنيا المتعقب للطغيان والكفران وإبعاد أهله بأشد عذاب الله في الدنيا والآخرة فتبين أن الإنسان لقصور نظره وسوء فكره يرى أن ما آتاه الله من نعمه من كرامته على الله وأن ما يتلبس به من الفقر والعدم من هوانه فيطغى ويفسد في الأرض إذا وجد ويكفر إذا فقد وقد اشتبه عليه الأمر فما يصيبه من القدرة والثروة ومن الفقر وضيق المعاش امتحان وابتلاء إلهي ليظهر به ما ذا يقدم من دنياه لأخراه.

فليس الأمر على ما يتوهمه الإنسان ويقول بل الأمر كما سيتذكره إذا وقع الحساب وحضر العذاب أن ما أصابه من فقر أو غنى أو قوة أو ضعف كان امتحانا إلهيا و كان يمكنه أن يقدم من يومه لغده فلم يفعل و آثر العقاب على الثواب فليس ينال الحياة السعيدة في الآخرة إلا النفس المطمئنة إلى ربها المسلمة لأمره التي لا تنزل بعواصف الابتلاءات ولا يطغيه الوجدان ولا يكفره فقدان.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها.

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ

لِذِي حِجْرٍ الفجر الصبح و الشفع الزوج، قال الراغب: الشفع ضم الشيء إلى مثله ويقال لهشفوع شفع. انتهى. و سري الليل مضيه و إدباره، و الحجر العقل فقوله: **{وَأَلْفَجْرٍ}** إقسام بالصبح و كذا الحال فيما عطف عليه من ليال و الشفع و الوتر و الليل.

و لعل ظاهر قوله: **{وَأَلْفَجْرٍ}** أن المراد به مطلق الفجر و لا يبعد أيضا أن يراد به فجر يوم النحر و هو عاشر ذي الحجة.

و قيل: المراد فجر ذي الحجة، و قيل: فجر المحرم أول السنة و قيل: فجر يوم الجمعة، و قيل فجر ليلة جمع، و قيل: المراد به صلاة الفجر، و قيل: النهار كله و قيل: فجر العيون من الصخور و غيرها و هي وجوه ردية.

و قوله: **{وَأَلْيَالٍ عَشْرٍ}** لعل المراد بها الليالي العشر من أول ذي الحجة إلى عاشرها و التنكير للتفخيم.

و قيل: المراد بها الليالي العشر من آخر شهر رمضان، و قيل: الليالي العشر من أوله، و قيل الليالي العشر من أول المحرم، و قيل: المراد عبادة ليال عشر على تقدير أن يراد بالفجر صلاة الفجر.

و قوله **{وَأَلشَّفَعِ وَ أَلْوَتْرٍ}** يقبل الانطباق على يوم التروية و يوم عرفة و هو الأنسب على تقدير أن يراد بالفجر و ليال عشر فجر ذي الحجة و العشر الأول من لياليها.

و قيل: المراد صلاتا الشفع و الوتر في آخر الليل، و قيل: مطلق الصلاة فنما شفع و منها وتر، و قيل: الشفع يوم النحر و الوتر يوم عرفة، و قيل: الشفع جميع الخلق لأنه قال: **{وَوَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}** النبأ: ٨ و الوتر هو الله تعالى، و على هذه الأقوال روايات ستوافيك في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

و قيل: المراد الزوج و الفرد من العدد، و في الإقسام بهما تذكير بالعدد لما في ضبط المقادير به من عظيم النعمة من الله سبحانه، و قيل: الشفع و الوتر جميع المخلوقات لأن الأشياء إما زوج و إما فرد، و قيل: الوتر آدم شفع بزوجته، و قيل: الشفع الأيام و الليالي و الوتر اليوم الذي لا ليل بعده و هو يوم القيامة، و قيل: الشفع الصفا و المروة و الوتر البيت الحرام، و قيل: الشفع أيام عاد و الوتر لياليها، و قيل: الشفع أبواب الجنة و هي ثمانية و الوتر أبواب جهنم و هي سبعة إلى غير ذلك و هي كثيرة أنهاها بعضهم إلى ستة و ثلاثين قولاً و لا يخلو أكثرها من تحكم.

وقوله: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}** أي يمضي فهو كقوله: **{وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ}** المدثر: ٣٣ و ظاهره أن اللام للجنس فالمراد به مطلق آخر الليل، وقيل: المراد به ليلة المزدلفة وهي ليلة النحر التي يسري فيها الحاج من عرفات إلى المزدلفة فيجتمع فيها على طاعة الله ثم يغدوا منها إلى منى وهو كما ترى وخاصة على القول بكون المراد بليال عشر هو الليالي العشر الأوائل منها.

وقوله: **{هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ}** الإشارة بذلك إلى ما تقدم من القسم، والاستفهام للتقرير، والمعنى أن في ذلك الذي قدمناه قسما كافيا لمن له عقل يفقه به القول ويميز الحق من الباطل، وإذا أقسم الله سبحانه بأمر ولا يقسم إلا بما له شرف ومنزلة كان من القول الحق المؤكد الذي لا ريب في صدقه.

وجواب الأقسام المذكورة محذوف يدل عليه ما سيذكر من عذاب أهل الطغيان والكفران في الدنيا والآخرة و ثواب النفوس المطمئنة، وأن إنعامه تعالى على من أنعم عليه وإمساكه عنه فيمن أمسك إنما هو ابتلاء و امتحان.

وحذف الجواب والإشارة إليه على طريق التكنية أوقع وأكد في باب الإنذار والتبشير.

قوله تعالى: **{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ}** هم عاد الأولى قوم هود تكررت قصتهم في القرآن الكريم وأشير إلى أنهم كانوا بالأحقاف، وقد قدمنا ما يتحصل من قصصهم في القرآن الكريم في تفسير سورة هود.

قوله تعالى: **{إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}** العماد وجمعه عمد ما يعتمد عليه الأبنية، و ظاهر الآيتين أن إرم كانت مدينة لهم معمورة عديمة النظير ذات قصور عالية وعمد ممددة، وقد انقطعت أخبار القوم عهدهم وانحلت آثارهم، فلا سبيل إلى الحصول على تفصيل حالهم تطمئن إليها النفس إلا ما قصة القرآن الكريم من إجمال قصتهم أنهم كانوا بعد قوم نوح قاطنين بالأحقاف و كانوا ذوي بسطة في الخلق أولي قوة و بطش شديد، و كان لهم تقدم و رقي في المدنية والحضارة لهم بلاد عامرة و أراض خصبة ذات جنات و نخيل و زروع و مقام كريم و قد تقدمت القصة.

وقيل: المراد بإرم قوم عاد - وهو في الأصل اسم أبيهم سموا باسم أبيهم كما يقال: قریش و يراد به القرشيون و يطلق إسرائيل و يراد به بنو إسرائيل - و المراد بكونهم

ذات عماد كونهم أولى قوة و سطوة.

و المعنى: أ لم تر كيف فعل ربك بقوم عاد الذين هم قوم إرم ذوو القوة و الشدة الذين لم يخلق مثلهم في بسطة الجسم و القوة و البطش في البلاد أو في أقطار الأرض و لا يخلو من بعد من ظاهر اللفظ.

و أبعد منه ما قيل: إن المراد بكونهم ذات العماد أنهم كانوا أهل عمد سيارة في الربيع فإذا هاج النبت رجعوا إلى منازلهم.

و من الأساطير قصة جنة إرم المشهورة المروية عن وهب بن منبه و كعب الأحبار.

قوله تعالى: **{وَوَثْمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}** الجوب القطع أي قطعوا صخر الجبال بنحتها بيوتا فهو في معنى قوله: **{وَوَثْمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}** الشعراء: ١٤٩.

قوله تعالى: **{وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}** هو فرعون موسى، و سمي ذا الأوتاد على ما في بعض الروايات - لأنه كان إذا أراد أن يعذب رجلا بسطه على الأرض و وتد يديه و رجله بأربعة أوتاد في الأرض و ربما بسطه على خشب و فعل به ذلك، و يؤيده ما حكاه الله من قوله يهدد السحرة إذ آمنوا بموسى: **{وَأَصْلَبْتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ}** طه: ٧١ فإنهم كانوا يوتدون يدي المصلوب و رجله على خشبة الصليب.

قوله تعالى: **{الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ}** صفة للمذكورين من عاد و ثمود و فرعون، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ}** صب الماء معروف و صب سوط العذاب كناية عن التعذيب المتتابع المتواتر الشديد، و تنكير عذاب للتفخيم.

و المعنى فأنزل ربك على كل من هؤلاء الطاغين المكثرين للفساد إثر طغيانهم و إكثارهم الفساد عذابا شديدا متتابعا متواليا لا يوصف.

قوله تعالى: **{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}** المرصاد المكان الذي يرصد منه ويرقب و كونه تعالى على المرصاد استعارة تمثيلية شبه فيها حفظه تعالى لأعمال عباده بمن يقعد على المرصاد يرقب من يراد رقوبه فيأخذه حين يمر به و هو لا يشعر فالله سبحانه رقيب يرقب أعمال عباده حتى إذا طغوا و أكثروا الفساد أخذهم بأشد العذاب.

و في الآية تعليل ما تقدم من حديث تعذيب الطغاة المكثرين للفساد من الماضين و في قوله: **{رَبِّكَ}** بإضافة الرب إلى ضمير الخطاب تلويح إلى أن سنة العذاب جارية في أمته

(صلى الله عليه وآله وسلم) على ما جرت عليه في الأمم الماضية.

قوله تعالى: **{فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ}** متفرع على ما قبله، فيه تفصيل حال الإنسان إذا أوتي من نعم الدنيا أو حرم كأنه قيل:

إن الإنسان تحت رقوب إلهي يرصده ربه هل يصلح أو يفسد؟ و يبتليه و يمتحنه فيما آتاه من نعمة أو حرمة هذا هو الأمر في نفسه و أما الإنسان فإنه إذا أنعم الله عليه بنعمة حسب أن ذلك إكرام إلهي له أن يفعل بها ما يشاء فيطغى و يكثر الفساد، و إذا أمسك و قدر عليه رزقه حسب أنه إهانة إلهية فيكفر و يجزع.

فقوله: **{فَأَمَّا الْإِنْسَانُ}** المراد به النوع بحسب الطبع الأولي فاللام للجنس دون الاستغراق.

و قوله: **{إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ}** أي امتحنه و اختبره، و العامل في الظرف محذوف تقديره كأننا إذا «إلح» و قيل: العامل فيه **{فَيَقُولُ}**.

و قوله: **{فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ}** تفسير للابتلاء، و المراد بالإكرام و التنعيم الصوريان و إن شئت فقل: الإكرام و التنعيم حدوثا لا بقاء أي أنه تعالى أكرمه و آتاه النعمة ليشكره و يعبده لكنه جعلها نقمة على نفسه تستتبع العذاب.

و قوله: **{فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ}** أي جعلني على كرامة منه بالنعم التي آتانيها و إن شئت فقل: القدرة و الجدة الموهوبتان إكرام و تنعيم حدوثا و بقاء فلي أن أفعل ما أشاء.

و الجملة أعني قوله: **{فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ}** حكاية ما يراه الإنسان بحسب الطبع، و قول الإنسان: **{رَبِّي أَكْرَمَنِ}** الظاهر في نسبة التدبير إلى الله سبحانه - و لا يقول به الوثنية و المنكرون للصانع - مبني على اعترافه بحسب الفطرة به تعالى و إن استنكف عنه لسانا، و أيضا لرعاية المقابلة مع قوله: **{إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ}**.

قوله تعالى: **{وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ}** أي و أما إذا ما امتحنه و اختبره فضيق عليه رزقه فيقول ربي أذلني و استخف بي.

و يظهر من مجموع الآيتين أولا حيث كرر الابتلاء و أثبتته في صورتين التنعيم و الإمساك عنه أن إيتاء النعم و الإمساك عنه جميعا من الابتلاء و الامتحان الإلهي كما قال: **{وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً}** الأنبياء: ٣٥ لا كما يراه الإنسان.

و ثانيا أن إيتاء النعم بما أنه فضل و رحمة إكرام إن لم يبدلها الإنسان نقما على نفسه.

و ثالثاً أن الآيتين معا تفيدان أن الإنسان يرى سعادته في الحياة هي التنعم في الدنيا بنعم الله تعالى و هو الكرامة عنده و الحرمان منه شقاء عنده و الحال أن الكرامة هي في التقرب إليه تعالى بالإيمان و العمل الصالح سواء في ذلك الغنى و الفقر و أي وجدان و فقدان فإنما ذلك بلاء و امتحان.

و لهم في معنى الآيتين وجوه آخر تركنا التعرض لها لقلة الجدوى.

قوله تعالى: **{كَلَّا بَلْ لَأُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَ لَأُتَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ}** ردع لقولهم: إن الكرامة هي في الغنى و التنعم، و في الفقر و فقدان هوان و مذلة، و المعنى ليس كما تقولون وإنما إيتاؤه تعالى النعمة و إمساكه عنه كل ذلك ابتلاء و امتحان يختبر به حال الإنسان من حيث عبوديته.

و في قوله: **{بَلْ لَأُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}** إنخ إضراب يؤكد الردع بذكر بعض التنعم الذي لا يجامع الكرامة البتة كعدم إكرامهم اليتيم بأكل تراثه و منعه منه و عدم التحريض على إطعام المسكين حبا للمال فالفطرة الإنسانية لا يرتاب في أن لا كرامة في غنى هذا شأنه.

و في الإضراب مضافا إلى أصل الردع تقريع و لتشديد هذا التقريع وقع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب.

فقوله: **{بَلْ لَأُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ}** عدم إكرامه حرمانه من تراث أبيه كما كانوا يجرمون صغار الأولاد من الإرث و تركه صفر الكف بلغ به الجهد ما بلغ كما تؤيده الآية التالية **{وَ تَأْكُلُونَ الْتُرَاثَ}** إنخ.

و قوله: **{وَ لَأُتَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ}** أصله و لا تتحاضون، و هو تحريض بعضهم بعضا على التصدق على المساكين المعدمين، و منشؤه حب المال كما في الآية الآتية **{وَ تُحِبُّونَ الْمَالَ}** إنخ.

قوله تعالى: **{وَ تَأْكُلُونَ الْتُرَاثَ أَكْلًا لَمًّا}** اللم أكل الإنسان نصيب نفسه و غيره و أكله ما يجده من دون أن يميز الطيب من الخبيث، و الآية تفسير لعدم إكرامهم اليتيم كما تقدم.

قوله تعالى: **{وَ تُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}** الجم الكثير العظيم، و الآية تفسر عدم تحاضهم على طعام المسكين كما تقدم.

قوله تعالى: **{كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا}** الدك هو الدق الشديد، و المراد بالظرف حضور يوم القيامة.

ردع ثان عما يقوله الإنسان في حالي الغنى و الفقر، وقوله: **{إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ}** إلخ في مقام التعليل للردع، و محصل المعنى ليس كما يقوله الإنسان فإنه سيتذكر إذا قامت القيامة إن الحياة الدنيا و ما فيها من الغنى و الفقر و أضرابهما لم تكن مقصودة بالذات بل كانت ابتلاء و امتحاناً من الله تعالى يميز به السعيد من الشقي و يهين الإنسان فيها ما يعيش به في الآخرة و قد التبس عليه الأمر فحسبها كرامة مقصودة بالذات فاشتغل بها و لم يقدم لحياته الآخرة شيئاً فيتمنى عند ذلك و يقول: يا ليتني قدمت لحياتي و لن يصرف التمني عنه شيئاً من العذاب.

قوله تعالى: **{وَجَاءَ رَبُّكَ وَ الْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}** نسبة المجيء إليه تعالى من المتشابه الذي يحكمه قوله تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** الشورى: ١١ و ما ورد في آيات القيامة من خواص اليوم كتقطع الأسباب و ارتفاع الحجب عنهم و ظهور أن الله هو الحق المبين.

و إلى ذلك يرجع ما ورد في الروايات أن المراد بجيئه تعالى مجيء أمره قال تعالى: **{وَالْأَمْرُ يُؤَمِّدُ لِلَّهِ}** الانفطار: ١٩، و يؤيد هذا الوجه بعض التأيد قوله تعالى **{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَ الْمَلَائِكَةُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ}** البقرة: ٢١٠ إذا انضم إلى قوله: **{هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ}** النحل: ٣٣ و عليه فهناك مضاف محذوف و التقدير جاء أمر ربك أو نسبة المجيء إليه تعالى من الجواز العقلي.

و الكلام في نسبة المجيء إلى الملائكة و كونهم صفا صفا كما مر.

قوله تعالى: **{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}** إلى آخر الآية لا يبعد أن يكون المراد بالمجيء بجهم إبرازها لهم كما في قوله تعالى: **{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى}** النازعات: ٣٦ و قوله: **{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ}** الشعراء: ٩١، و قوله: **{لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}** ق: ٢٢.

و قوله: **{يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ}** أي يتذكر أجل التذكر أن ما كان يؤتاه في الحياة الدنيا من خير أو شر كان من ابتلاء الله و امتحانه و أنه قصر في أمره، هذا ما يفيدُه السياق.

و قوله: **{وَأَنْتَ لَهُ الذِّكْرَى}** أي و من أين له الذكرى كناية عن عدم انتفاعه بها فإن الذكرى إنما تنفع فيما أمكنه أن يتدارك ما فرط فيه بتوبة و عمل صالح و اليوم يوم الجزاء لا يوم الرجوع و العمل.

قوله تعالى: **{يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي}** أي لحياتي هذه و هي الحياة الآخرة أو المراد الحياة الحقيقية و هي الحياة الآخرة على ما نبه تعالى عليه بقوله: **{وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا}**

إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} العنكبوت: ٦٤.

و المراد بالتقديم للحياة تقديم العمل الصالح للحياة الآخرة و ما في الآية تمن يتمناه الإنسان عند ما يتذكر يوم القيامة و يشاهد أنه لا ينفعه.

قوله تعالى: **{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ}** ضميرا عذابه و وثاقه لله تعالى و المعنى فيومئذ لا يعذب عذاب الله أحد من الخلق و لا يوثق وثاق الله أحد من الخلق أي إن عذابه و وثاقه تعالى فيومئذ فوق عذاب الخلق و وثاقهم، تشديد في الوعيد.

و قرئ **{لَا يُعَذِّبُ}** بفتح الذاو و **{وَلَا يُوثِقُ}** بفتح الثاء بالبناء للمفعول و ضميرا عذابه و وثاقه على هذا للإنسان و المعنى لا يعذب أحد فيومئذ مثل عذاب الإنسان و لا يوثق أحد فيومئذ مثل وثاقه.

قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ}** الذي يعطيه سياق المقابلة بين هذه النفس بما ذكر لها من الأوصاف و عين لها من حسن المنقلب و بين الإنسان المذكور قبل بما ذكر له من وصف التعلق بالدنيا و الطغيان و الفساد و الكفران، و ما أوعد من سوء المصير هو أن النفس المطمئنة هي التي تسكن إلى ربها و ترضى بما رضى به فترى نفسها عبدا لا يملك لنفسه شيئا من خير أو شر أو نفع أو ضرر و يرى الدنيا دار مجاز و ما يستقبله فيها من غنى أو فقر أو أي نفع و ضرر ابتلاء و امتحانا إلهيا فلا يدعوه تواتر النعم عليه إلى الطغيان و إكثار الفساد و العلو و الاستكبار، و لا يوقعه الفقر و فقدان في الكفر و ترك الشكر بل هو في مستقر من العبودية لا ينحرف عن مستقيم صراطه بإفراط أو تفريط.

قوله تعالى: **{ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}** خطاب ظرفه جميع يوم القيامة من لدن إحيائها إلى استقرارها في الجنة بل من حين نزول الموت إلى دخول جنة الخلد و ليس خطابا واقعا بعد الحساب كما ذكره بعضهم.

و توصيفها بالراضية لأن اطمئنانها إلى ربها يستلزم رضاها بما قدر و قضى تكويننا أو حكم به تشريعا فلا تسخطها سانحة و لا تزيغها معصية، و إذا رضى العبد من ربه رضى الرب منه إذ لا يسخطه تعالى إلا خروج العبد من زي العبودية فإذا لزم طريق العبودية استوجب ذلك رضى ربه و لذا عقب قوله **{رَاضِيَةً}** بقوله **{مَرْضِيَّةً}**.

قوله تعالى: **{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}** تفریع على قوله **{ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ}** و فيه دلالة على أن صاحب النفس المطمئنة في زمرة عباد الله حائز مقام العبودية.

و ذلك أنه لما اطمأن إلى ربه انقطع عن دعوى الاستقلال و رضي بما هو الحق من ربه فرأى ذاته و صفاته و أفعاله ملكا طلقا لربه فلم يرد فيما قدر و قضى و لا فيما أمر و نهي إلا ما أَرَادَهُ ربه، و هذا ظهور العبودية التامة في العبد ففي قوله: **{فَادْخُلِي فِي عِبَادِي}** تقرير لمقام عبوديتها.

و في قوله: **{وَأَدْخُلِي جَنَّتِي}** تعيين لمستقرها، و في إضافة الجنة إلى ضمير التكلم تشریف خاص، و لا يوجد في كلامه تعالى إضافة الجنة إلى نفسه تعالى و تقدس إلا في هذه الآية.

بحث روائي

في الجمع في قوله تعالى: **{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}**، و قيل: الشفع الخلق لأنه قال: **{وَوَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}** و الوتر الله تعالى:، عن عطية العوفي و أبي صالح و ابن عباس و مجاهد و هي رواية أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ، و قيل: الشفع و الوتر الصلاة منها شفع و منها وتر: و هي رواية عن ابن حصين عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ، و قيل: الشفع يوم النحر و الوتر يوم عرفة: عن ابن عباس و عكرمة و الضحاك، و هي رواية جابر عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و الوجه فيه أن يوم النحر يشفع بيوم نفر بعده و يتفرد يوم عرفة بالموقف، و قيل: الشفع يوم التروية و الوتر يوم عرفة: و روي ذلك عن أبي جعفر و أبي عبد الله (عليهما السلام).

أقول: الروايات الثلاث المشار إليها مروية عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) من طرق أهل السنة و يمكن الجمع بينها بأن المراد مطلق الشفع و الوتر و الروايات من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق.

و في تفسير القمي: **{وَلَيْالٍ عَشْرٍ}** قال: عشر ذي الحجة **{وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}** قال: الشفع ركعتان و الوتر ركعة، و في حديث: **الشفع الحسن و الحسين و الوتر أمير المؤمنين (عليه السلام) {وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ}** قال: هي ليلة جمع.

و فيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله: **{لِذِي حَجْرٍ}** يقول: **لذي عقل**.

و في العلل، بإسناده إلى أبان الأحمر قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن قول الله عز و جل: **{وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}** لأي شيء سمي ذا الأوتاد؟ فقال: لأنه كان إذا عذب رجلا بسطه على الأرض على وجهه و مد يديه و رجله فأوتادها بأربعة أوتاد في الأرض.

و ربما بسطه على خشب منبسط فوترت رجله و يديه بأربعة أوتاد ثم تركه على حاله حتى يموت فسماه الله عز و جل فرعون ذا الأوتاد.

وفي المجمع في قوله تعالى: **{إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}** وروي عن علي (عليه السلام) أنه قال: **إن معناه إن ربك قادر أن يجزي أهل المعاصي جزاءهم.**

أقول: بناء الرواية على أخذ الجملة استعارة تمثيلية.

وفيه، عن الصادق (عليه السلام) أنه قال: **المرصاد قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلة عبد.**

وعن الغوالي، عن الصادق (عليه السلام) في حديث في تفسير قوله تعالى: **{وَذَا الْكُتُونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ}** إنما ظن بمعنى استيقن إن الله تعالى لن يضيق عليه رزقه ألا تسمع قول الله تعالى: **{وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ}** أي ضيق عليه.

وفي تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله: **{كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا}** قال: هي الزلزلة.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): هل تدرون ما تفسير هذه الآية **{كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ}** - إلى قوله - **{وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ}** قال: إذا كان يوم القيامة تقاد جهنم بسبعين ألف زمام بيد سبعين ألف ملك فتشرد شرده لو لا أن الله حبسها لأحرقت السماوات والأرض.

أقول: وهو مروى أيضا عن أبي سعيد و ابن مسعود و من طرق الشيعة في أمالي الشيخ، بإسناده عن داود بن سليمان عن الرضا عن آباءه عن علي (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) .

وفي العيون، في باب ما جاء عن الرضا من أخبار التوحيد بإسناده عن علي بن فضال عن أبيه قال: سألت الرضا (عليه السلام) عن قول الله عز و جل: **{وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}** فقال: إن الله سبحانه لا يوصف بالجيء و الذهاب تعالى عن الانتقال إنما يعني بذلك و جاء أمر ربك.

وفي الكافي، بإسناده عن سدير الصيرفي قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): جعلت فداك يا ابن رسول الله هل يكره المؤمن على قبض روحه؟ قال: لا و الله إنه إذا أتاه ملك الموت ليقبض روحه جزع عند ذلك فيقول ملك الموت: يا ولي الله لا تجزع فوالذي بعث محمدا لأني أبر بك و أشفق عليك من والد رحيم لو حضرك، افتح عينيك فانظر.

قال: و يمثل له رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و أمير المؤمنين و فاطمة و الحسن و الحسين و

الأممة من

ذريتهم (عليه السلام) فيقال له: هذا رسول الله و أمير المؤمنين و فاطمة و الحسن و الحسين و الأئمة
(عليهم السلام) رفقاؤك.

قال: فيفتح عينيه فينظر فينادي روحه مناد من قبل رب العزة فيقول: يا أيتها النفس المطمئنة إلى محمد و
أهل بيته ارجعي إلى ربك راضية بالولاية مرضية بالثواب فادخلي في عبادي يعني محمدا و أهل بيته و ادخلي
جنتي فما من شيء أحب إليه من استلال روحه و اللحق بالمنادي.
أقول: و روى هذا المعنى القمي في تفسيره و البرقي في المحاسن.

(٩٠) سورة البلد مكية و هي عشرون آية (٢٠)

[سورة البلد (٩٠): الآيات ١ الى ٢٠]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا أُفْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ❶ وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ❷ وَ وَالِدٍ وَ مَا وَلَدٌ ❸ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
فِي كَبَدٍ ❹ أَمْ حَسِبُ أَنْ لَنْ يَفْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ❺ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ❻ أَمْ حَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ❼ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ
عَيْنَيْنِ ❽ وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ ❾ وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ❿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ❶٠ وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ❶١ فَكٌ رَقَبَةٌ ❶٢ أَوْ
إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ❶٣ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ❶٤ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ❶٥ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَوَاصَوْا
بِالْمَرْحَمَةِ ❶٦ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ❶٧ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ❶٨ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ❶٩}

(بيان)

تذكر السورة أن خلقة الإنسان مبنية على التعب والمشقة فلا تجد شأنا من شئون الحياة إلا مقرونا بمرارة الكد والتعب من حين يلج في جثمانه الروح إلى أن يموت فلا راحة له عارية من التعب والمشقة ولا سعادة له خالصة من الشقاء والمشامة إلا في الدار الآخرة عند الله.

فليتحمل ثقل التكليف الإلهية بالصبر على الطاعة وعن المعصية وليجد في نشر الرحمة على المبتلين بنواب الدهر كاليتيم والفقر والمرض وأضرابها حتى يكون من أصحاب الميمنة وإلا فأخرته كأولاه وهو من أصحاب المشامة عليهم نار مؤصدة.

و سياق آيات السورة، يشبه السياق المكي فيؤيد به كون السورة مكية وقد ادعى بعضهم عليه الإجماع، وقيل: السورة مدنية والسياق لا يساعد عليه، وقيل: مدنية إلا أربع آيات من أولها وسيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: **{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ}** ذكروا أن المراد بهذا البلد مكة وتؤيده مكية سياق السورة وقوله: **{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ}** خاصة بناء على كون المراد بوالد هو إبراهيم (عليه السلام) على ما سيحيى.

قوله تعالى: **{وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}** حال من هذا البلد، ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله: **{بِهَذَا الْبَلَدِ}** للدلالة على عظم شأنه والاعتناء بأمره وهو البلد الحرام، والحل مصدر كالحلول بمعنى الإقامة والاستقرار في مكان والمصدر بمعنى الفاعل.

والمعنى أقسم بهذا البلد والحال أنك حال به مقيم فيه وفي ذلك تنبيه على تشرف مكة بحلوه (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها وكونها مولده ومقامه.

وقيل: الجملة معترضة بين القسم والمقسم به والمراد بالحل المستحل الذي لا حرمة له قال في الكشاف: واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: **{وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}** يعني ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد في غير الحرم عن شرحبيل يحرمون أن يقتلوا بها صيدا ويعضدوا بها شجرة ويستحلون إخراجك وقتلك، وفيه تثبيت من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعث على

¹ عضد الشجرة: قطعها ونثر ورقها للإبل. و شرحبيل راوي الحديث.

احتمال ما كان يكابد من أهل مكة وتعجيب من حالهم في عداوته انتهى.

ثم قال: أو سلي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالقسم ببلده أن الإنسان لا يخلو من مقاساة الشدائد واعتراض بأن وعده فتح مكة تتيماً للتسوية والتنفيس عنه فقال: **{وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}** يعني وأنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر إلى آخر ما قال، ومحصله تفسير الحل بمعنى المحل ضد المحرم، والمعنى وسنحل لك يوم فتح مكة حيناً فنقاتل وتقتل فيه من شئت.

قوله تعالى: **{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ}** لزوم نوع من التناسب والارتباط بين القسم والمقسم عليه يستدعي أن يكون المراد بوالد وما ولد من بينه وبين البلد المقسم به نسبة ظاهرة وينطبق على إبراهيم وولده إسماعيل (عليه السلام) وهما السببان الأصليان لبناء بلدة مكة والبانان للبيت الحرام قال تعالى: **{وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ}** البقرة: ١٢٧ وإبراهيم (عليه السلام) هو الذي سأل الله أن يجعل مكة بلداً آمناً قال تعالى: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}** إبراهيم: ٣٥ و تنكير **{وَالِدٍ}** للتعظيم والتفخيم، والتعبير بقوله **{وَمَا وَلَدٌ}** دون أن يقال: ومن ولد، للدلالة على التعجيب من أمره مدحاً كما في قوله: **{وَإِنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ}** آل عمران: ٣٦.

والمعنى وأقسم بوالد عظيم الشأن هو إبراهيم وما ولد من ولد عجيب أمره مبارك أثره وهو إسماعيل ابنه وهما البانان لهذا البلد ففاد الآيات الثلاث الإقسام بمكة المشرفة وبالني (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي هو حل فيها وبإبراهيم وإسماعيل اللذين بنياها.

وقيل: المراد بالوالد إبراهيم وبما ولد جميع أولاده من العرب.

وفيه أن من البعيد أن يقارن الله سبحانه بين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإبراهيم (عليه السلام) وبين أمثال أبي لهب وأبي جهل وغيرهم من أئمة الكفر فيقسم بهم جميعاً في سياق، وقد تبرأ إبراهيم (عليه السلام) ممن لم يتبعه من بنيه على التوحيد إذ قال فيما حكاه الله: **{وَأَجُنَّبُنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّنَا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** إبراهيم: ٣٦.

فعلى من يفسر ما ولد بأولاد إبراهيم أن يخصهم بالمسلمين من ذريته كما في دعاء إبراهيم وإسماعيل عند بناءهما الكعبة على ما حكاه الله: **{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا}** البقرة: ١٢٨.

وقيل: المراد بوالد و ما ولد، آدم (عليه السلام) و ذريته جميعا بتقريب أن المقسم عليه بهذه الأقسام خلق الإنسان في كبد و قد سن الله في خلق هذا النوع وإبقاء وجوده سنة الولادة فقد أقسم في هذه الآيات بمحصل هذه السنة و هو الوالد و ما ولد على أن الإنسان في كد و تعب بحسب نوع خلقته من حين يحيى إلى حين يموت.

و هذا الوجه في نفسه لا بأس به لكن يبقى عليه بيان المناسبة بين بلدة مكة و بين والد و كل مولود في الجمع بينهما في الأقسام.

وقيل: المراد بهما آدم و الصالحون من ذريته، و كان الوجه فيه تنزيهه تعالى من أن يقسم بأعدائه الطغاة و المفسدين من الكفار و الفساق.

وقيل: المراد بهما كل والد و كل مولود و قيل: من يلد و من لا يلد منهم بأخذ «ما» في **{مَا وَلَدٌ}** نافية لا موصولة.

وقيل: المراد بوالد هو النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و بما ولد أمته لأنه بمنزلة الأب لأمته و هي وجوه بعيدة.

قوله تعالى: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}** الكبد الكد و التعب، و الجملة جواب القسم فاشتمال الكبد على خلق الإنسان و إحاطة الكد و التعب به في جميع شئون حياته مما لا يخفى على ذي لب فليس يقصد نعمة من نعم الدنيا إلا خالصة في طيها محضة في هنائها و لا ينال شيئا منها إلا مشوبة بما ينغص العيش مقرونة بمقاساة و مكابدة مضافا إلى ما يصيبه من نوائب الدهر و يفاجئه من طوارق الحدثن.

قوله تعالى: **{أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ}** بمنزلة النتيجة لحجة الآية السابقة تقريرها أن الإنسان لما كانت خلقته مبنية على كبد مظلوفة له لا ينال قط شيئا مما يريد إلا دون ما يريد أو غير ما يريد فهو محاط في خلقه مغلوب في إرادته مقهور فيما قدر له من الأمر و الذي يغلبه في إرادته و يقهره على التلبس بما قدر له و هو الله سبحانه يقدر عليه من كل جهة فله أن يتصرف فيه بما شاء و يأخذه إذا أراد.

فليس للإنسان أن يحسب أن لن يقدر عليه أحد فيدعوه ذلك إلى أن يعلو على الله و يستكبر عن عبادته أو يعطيه في بعض ما أمر به كالإنفاق في سبيله فيستكثره و يمتن به على الله أو يمكر به تعالى بعد ما عمله رياء و سمعة عملا لوجه الكريم فيقول: أهلكت ما لا لبدا.

قوله تعالى: **{يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَأُبْدَأُ}** اللبد الكثير، سياق الآية و ما يتلوها من الآيات إلى آخر السورة مشعر بأنه كان هناك بعض من أظهر الإسلام أو مال إليه فقد أنفق

بعض ماله و امتن به مستكثرا له بقوله: **{أَهْلَكَ مَا لَأُتَدَأ}** فنزلت الآيات و رد الله عليه بأن الفوز بميمنة الحياة لا يتم إلا باقتحام عقبة الإنفاق في سبيل الله و الدخول في زمرة الذين آمنوا و تواصلوا بالصبر و الرحمة، و يتأيد به ما سيأتي في البحث الروائي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: **{أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ}** إنكار لما هو لازم قول الإنسان **{أَهْلَكَ مَا لَأُتَدَأ}** على طريق التكنية و محصل المعنى أن لازم إخبار الإنسان بإهلاكه مالا لبدا أنه يحسب أنا في غفلة و جهل بما أنفق و قد أخطأ في ذلك فالله سبحانه بصير بما أنفق لكن هذا المقدار لا يكفي في الفوز بميمنة الحياة بل لا بد له من أن يتحمل ما هو أزيد من ذلك من مشاق العبودية فيقتحم العقبة و يكون مع المؤمنين في جميع ما هم فيه.

قوله تعالى: **{أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}** النجد الطريق المرتفع، و المراد بالنجدين طريق الخير و طريق الشر و سمي النجدين لما في سلوك كل منهما من الجهد و الكدح، و فسرا بثديي الأم و هو بعيد.

و قوله: **{أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ}** أي جهزناه في بدنه بما يبصر به فيحصل له العلم بالمرئيات على سعة نطاقها، و قوله: **{وَ لِسَانًا وَ شَفَتَيْنِ}** أي أ و لم نجعل له لسانا و شفتين يستعين بها على التكلم و الدلالة على ما في ضميره من العلم و يهتدي بذلك غيره على العلم بالأمر الغائبة عن البصر.

و قوله: **{وَ هَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}** أي علمناه طريق الخير و طريق الشر بإلهام منا فهو يعرف الخير و يميزه من الشر فالآية في معنى قوله تعالى: **{وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا}** الشمس: ٨.

و في الآيات الثلاث حجة على قوله: **{أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ}** أي على أنه تعالى يرى أعمال عباده و يعلم ما في ضمائرهم من وجوه الأعمال و يميز الخير من الشر و الحسنة من السيئة.

محصلها أن الله سبحانه هو الذي يعرف المرئيات للإنسان بوسيلة عينيه و كيف يتصور أن يعرفه أمرا و هو لا يعرفه؟ و هو الذي يدل الإنسان على ما في الضمير بواسطة الكلام و هل يعقل أن يكشف له عما هو في حجاب عنه؟ و هو الذي يعلم الإنسان و يميز له الخير و الشر بالإلهام و هل يمكن معه أن يكون هو نفسه لا يعلم به و لا يميزه؟ فهو تعالى يرى ما عمله الإنسان و يعلم ما ينويه بعمله و يميز كونه خيرا أو شرا و حسنة أو سيئة.

قوله تعالى: **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}** الاقتحام الدخول بسرعة و ضغط و شدة، و العقبة الطريق الصعب الوعر الذي فيه صعود من الجبل، و اقتحام العقبة إشارة إلى الإنفاق الذي

يشق على منفقه كما سيصرح به.

وقيل: الجملة دعاء على الإنسان القائل: أهلكت مالا لبدأ، وليس بشيء.

قوله تعالى: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ}** تفخيم لشأنها كما مر في نظائره.

قوله تعالى: **{فَكُّ رَقَبَةٍ}** أي عتقها و تحريرها أو التقدير هي أي العقبة فك رقبة فالمراد بالعقبة نفس الفك الذي هو العمل واقتحامه الإتيان به، والإتيان بالعمل نفس العمل.

وبه يظهر فساد قول بعضهم إن فك رقبة اقتحام للعقبة لا نفس العقبة فهناك مضاف محذوف يعود إليه الضمير والتقدير وما أدراك ما اقتحام العقبة هو أي الاقتحام فك رقبة.

وما ذكر في بيان العقبة من فك الرقبة والإطعام في يوم ذي مسغبة من مصاديق نشر الرحمة خص بالذكر لمكان الأهمية، وقدم فك الرقبة وابتدئ به لكمال عناية الدين بفك الرقاب.

قوله تعالى: **{أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ}** المسغبة المجاعة، والمقربة القرابة بالنسب، والمتربة من التراب ومعناها الالتصاق بالتراب من شدة الفقر، والمعنى أو إطعام في يوم المجاعة يتيما من ذي القربى أو مسكينا شديد الفقر.

قوله تعالى: **{ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصُوا بِالرِّحْمَةِ}** المرحة مصدر ميمي من الرحمة، والتواصي بالصبر وصية بعضهم بعضا بالصبر على طاعة الله والتواصي بالمرحة وصية بعضهم بعضا بالرحمة على ذوي الفقر والفاقة والمسكنة.

والجملة أعني قوله: **{ثُمَّ كَانَ}** إنح معطوفة على قول: **{اِفْتَحَمَ}** والتقدير فلا اقتحم العقبة ولا كان من الذين آمنوا «إنح» وقيل فيها غير ذلك مما لا جدوى فيه.

قوله تعالى: **{أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ}** بمعنى اليمن مقابل الشؤم، والإشارة بأولئك إلى ما يدل عليه السياق السابق أي الذين اقتحموا العقبة وكانوا من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر والمرحة أصحاب اليمن لا يرون مما قدموه من الإيمان و عملهم الصالح إلا أمرا مباركا جميلا مرضيا.

وقيل: المراد بالميمنة جهة اليمن وأصحاب الميمنة هم الذين يؤتون كتابهم بيمينهم، ومقابلة الميمنة بالمشأمة لا تلائم.

قوله تعالى: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ}** الآيات الآفاقية والأنفسية آيات وأدلة عليه تعالى تدل على توحده في الربوبية والألوهية وسائر ما يتفرع عليه و ردها كفر بها والكفر بها كفر بالله و كذا القرآن الكريم وآياته، و كذا ما نزل و بلغ من

طريق الرسالة.

و الظاهر أن المراد بالآيات مطلقها، و المشأمة خلاف الميمنة.

قوله تعالى: **{عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ}** أي مطبقة.

(بحث روائي)

في المجمع في قوله: **{وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}** قيل: معناه و أنت محل بهذا البلد و هو ضد المحرم، و المراد أنت حلال لك قتل من رأيت من الكفار، و ذلك حين أمر بالقتال يوم فتح مكة فأحلها الله له حتى قاتل و قتل، و قد قال (صلى الله عليه وآله و سلم): **لم يحل لأحد قبلي و لا يحل لأحد بعدي و لم يحل لي إلا ساعة من نهار**. عن ابن عباس و مجاهد و عطاء.

و فيه في الآية و قيل: لا أقسم بهذا البلد و أنت حلال منتك الحرمة مستباح العرض لا تحترم فلا تبقى للبلد حرمة حيث هتكت: عن أبي مسلم و هو المروي عن أبي عبد الله (عليه السلام).

قال: كانت قريش تعظم البلد و تستحل محمدا فيه فقال: **{لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ وَ أَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ}** يريد أنهم استحلوك فيه و كذبوه و شتموك، و كانوا لا يأخذ الرجل منهم فيه قاتل أبيه و يتقلدون لحاء شجر الحرم فيأمنون بتقلدهم إياه فاستحلوا من رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) ما لم يستحلوه من غيره فعاب الله ذلك عليهم.

و فيه في قوله تعالى: **{وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ}** قيل: آدم و ما ولد من الأنبياء و الأوصياء و أتباعهم. عن أبي عبد الله (عليه السلام).

أقول: و المعاني السابقة مروية من طرق أهل السنة في أحاديث موقوفة، و روى القمي في تفسيره الأخيرتين بالإرسال و الإضمار.

و في تفسير القمي: **{يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا}** قال: اللبد المجتمع و في المجمع، في الآية قيل: هو الحارث بن نوفل بن عبد مناف و ذلك أنه أذنب ذنبا فاستفتى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فأمره أن يكفر فقال: لقد ذهب مالي في الكفارات و النفقات منذ دخلت في دين محمد، عن مقاتل.

و في المجمع: أنه قيل لأمير المؤمنين (عليه السلام): إن أناسا يقولون في قوله: **{وَوَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}** أنهما الثديان فقال: لا، هما الخير و الشر.

وفي أصول الكافي، بإسناده عن حمزة بن محمد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **سألته عن قول الله تعالى: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} قال: نجد الخير والشر.**

أقول: وروي في الدر المنثور، هذا المعنى بطرق عن علي (عليه السلام) وأنس وأبي أمامة وغيرهم عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ورواه القمي في تفسيره، مرسلا مضمرا.

وفي الكافي، بإسناده عن جعفر بن خلاد قال: كان أبو الحسن الرضا (عليه السلام) إذا أكل أتى بصحفة فتوضع قرب مائدته فيعمد إلى أطيب الطعام مما يؤتى به فيأخذ من كل شيء شيئا فيضع في تلك الصحفة ثم يأمر بها للمساكين ثم يتلو هذه الآية **{فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ}**.

ثم يقول: **علم الله عز وجل أنه ليس كل إنسان يقدر على عتق رقبة فجعل لهم السبيل إلى الجنة.**

وفي المجمع، وروي مرفوعا عن البراء بن عازب قال: جاء أعرابي إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله علمني عملا يدخلني الجنة قال: **إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة، أعتق النسمة وفك الرقبة، فقال أ وليسوا واحدا؟ قال: لا، عتق الرقبة أن يتفرد بعتقها وفك الرقبة أن يعين في ثمنها، والفيء على ذي الرحم الظالم.**

فإن لم يكن ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من خير.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: **{أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ}** قال: لا يقيه من التراب شيء.

(٩١) سورة الشمس مكية وهي خمس عشرة آية (١٥)

[سورة الشمس (٩١): الآيات ١ الى ١٥]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَ الشَّمْسِ وَ ضَحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝ وَ النَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۝ وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝ وَ السَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا ۝ وَ الْأَرْضِ وَ مَا طَحَاهَا ۝ وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝}

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدمدم
عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

(بيان)

تذكر السورة أن فلاح الإنسان - وهو يعرف التقوى و الفجور بتعريف إلهي وإلهام باطني - أن يزيك
نفسه و ينيها إثمها صالحا بتجليتها بالتقوى و تطهيرها من الفجور، و الخيبة و الحرمان من السعادة لمن يدسيها، و
يستشهد لذلك بما جرى على ثمود من عذاب الاستئصال لما كذبوا رسولهم صالحا و عقروا الناقة، و في ذلك
تعريض لأهل مكة، و السورة مكية بشهادة من سياقها.

قوله تعالى: **{وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا}** في المفردات: الضحى انبساط الشمس و امتداد النهار و سمي الوقت به
انتهى. و الضمير للشمس، و في الآية إقسام بالشمس و انبساط ضوءها على الأرض.

قوله تعالى: **{وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّاهَا}** عطف على الشمس و الضمير لها و إقسام بالقمر حال كونه تاليا للشمس،
و المراد بتلوه لها إن كان كسبه النور منها فالحال حال دائمة و إن كان طلوعه بعد غروبها فالإقسام به من حال
كونه هلالا إلى حال تبدره.

قوله تعالى: **{وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّاهَا}** التجلية الإظهار و الإبراز، و ضمير التأنيث للأرض، و المعنى و أقسم بالنهار
إذا أظهر الأرض للأبصار.

و قيل: ضمير الفاعل في **{تَجَلَّاهَا}** للنهار و ضمير المفعول للشمس، و المراد الإقسام بحال إظهار النهار
للشمس فإنها تنجلي و تظهر إذا انبسط النهار، و فيه أنه لا يلائم ما تقدمه فإن الشمس هي المظهرة للنهار دون
العكس.

و قيل: الضمير المؤنث للدنيا، و قيل: للظلمة، و قيل: ضمير الفاعل لله تعالى و ضمير المفعول للشمس، و
المعنى و أقسم بالنهار إذا أظهر الله الشمس، و هي وجوه بعيدة.

قوله تعالى: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا}** أي يغطي الأرض، فالضمير للأرض كما في **{تَجَلَّاهَا}**

وقيل: للشمس و هو بعيد فالليل لا يغطي الشمس وإنما يغطي الأرض و ما عليها.

و التعبير عن غشيان الليل الأرض بالمضارع بخلاف تجلية النهار لها حيث قيل: **{وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَ اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا}** للدلالة على الحال ليكون فيه إيحاء إلى غشيان الفجور الأرض في الزمن الحاضر الذي هو أوائل ظهور الدعوة الإسلامية لما تقدم أن بين هذه الأقسام و بين المقسم بها نوع اتصال و ارتباط، هذا مضافا إلى رعاية الفواصل.

قوله تعالى: **{وَالسَّمَاءِ وَ مَا بَنَاهَا وَ الْأَرْضِ وَ مَا طَحَّاهَا}** طحو الأرض و دحوها بسطها، و «ما» في **{وَمَا بَنَاهَا}** و **{وَمَا طَحَّاهَا}** موصولة، و الذي بناها و طحاها هو الله تعالى و التعبير عنه تعالى بما دون من لإيثار الإبهام المفيد للتفخيم و التعجيب فالمعنى و أقسم بالسماء و الشيء القوي العجيب الذي بناها و أقسم بالأرض و الشيء القوي العجيب الذي بسطها.

و قيل: ما مصدرية و المعنى و أقسم بالسماء و بنائها و الأرض و طحوها، و السياق - و فيه قوله: **{وَنَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا}** إنح - لا يساعده.

قوله تعالى: **{وَنَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا}** أي و أقسم بنفس و الشيء ذي القدرة و العلم و الحكمة الذي سواها و رتب خلقتها و نظم أعضائها و عدل بين قواها.

و تنكير **{نَفْسٍ}** قيل: للتنكير، و قيل: للتفخيم و لا يبعد أن يكون التنكير للإشارة إلى أن لها وصفا و أن لها نبأ.

و المراد بالنفس النفس الإنسانية مطلقا و قيل: المراد بها نفس آدم (عليه السلام) و لا يلائمه السياق و خاصة قوله: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}** إلا بالاستخدام على أنه لا موجب للتخصيص.

قوله تعالى: **{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا}** الفجور على ما ذكره الراغب شق ستر الديانة فالنهي الإلهي عن فعل أو عن ترك حجاب مضروب دونه حائل بين الإنسان و بينه و اقتتراف المنهي عنه شق للستر و خرق للحجاب.

و التقوى - على ما ذكره الراغب - جعل النفس في وقاية مما يخاف، و المراد بها بقرينة المقابلة في الآية بينها و بين الفجور التجنب عن الفجور و التحرز عن المنافي و قد فسرت في الرواية بأنها الورع عن محارم الله.

و الإلهام الإلقاء في الروح و هو إفاضته تعالى الصور العملية من تصور أو تصديق على النفس.

و تعليق الإلهام على عنواني فجور النفس و تقواها للدلالة على أن المراد تعريفه تعالى للإنسان صفة فعله من تقوى أو فجور وراء تعريفه متن الفعل بعنوانه الأولي المشترك بين التقوى و الفجور كأكل المال مثلا المشترك بين أكل مال اليتيم الذي هو فجور و بين أكل مال نفسه الذي هو من التقوى، و المباشرة المشتركة بين الزنا و هو فجور و النكاح و هو من التقوى و بالجملة المراد أنه تعالى عرف الإنسان كون ما يأتي به من فعل فجورا أو تقوى و ميز له ما هو تقوى مما هو فجور.

و تفرع الإلهام على التسوية في قوله: **{وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا}** إنلح للإشارة إلى أن إلهام الفجور و التقوى و هو العقل العملي من تكميل تسوية النفس فهو من نعوت خلقها كما قال تعالى: **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}** الروم: ٣٠.

و إضافة الفجور و التقوى إلى ضمير النفس للإشارة إلى أن المراد بالفجور و التقوى الملهمين الفجور و التقوى المختصين بهذه النفس المذكورة و هي النفس الإنسانية و نفوس الجن على ما يظهر من الكتاب العزيز من كونهم مكلفين بالإيمان و العمل الصالح.

قوله تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}** الفلاح هو الظفر المطلوب و إدراك البغية، و الخيبة خلافة، و الزكاة نمو النبات نموا صالحا ذا بركة و التزكية إنماءه كذلك، و التدسي و هو من الدس بقلب إحدى السنين ياء إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإخفاء، و المراد بها بقرينة مقابله التزكية: الإنماء على غير ما يقتضيه طبعها و ركبت عليه نفسها.

و الآية أعني قوله: **{قَدْ أَفْلَحَ}** إنلح جواب القسم، و قوله: **{وَقَدْ خَابَ}** إنلح معطوف عليه.

و التعبير بالتزكية و التدسي عن إصلاح النفس و إفسادها مبتن على ما يدل عليه قوله: **{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}** على أن من كمال النفس الإنسانية أنها ملهمة مميزة بحسب فطرتها للفجور من التقوى أي إن الدين و هو الإسلام لله فيما يريد فطري للنفس فتحلية النفس بالتقوى تزكية و إنماء صالح و تزويد لها بما يمددها في بقائها قال تعالى: **{وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}** البقرة: ١٩٧ و أمرها في الفجور على خلاف التقوى.

قوله تعالى: **{ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا }** الطغوى مصدر كالطغيان، و الباء للسببية.

و الآية و ما يتلوها إلى آخر السورة استشهاد و تقرير لما تقدم من قوله **{ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّاهَا }** إنخ.

قوله تعالى: **{ إِذْ أَنْبَعَتْ أَشْقَاهَا }** ظرف لقوله: **{ كَذَّبَتْ }** أو لقوله: **{ بِطَغْوَاهَا }** و المراد بأشقى ثمود هو الذي عقر الناقة و اسمه على ما في الروايات قدار بن سالف و قد كان انبعائه ببعث القوم كما تدل عليه الآيات التالية بما فيها من ضمائر الجمع.

قوله تعالى: **{ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا }** المراد برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الح (عليه السلام) نبي ثمود، و قوله: **{ نَاقَةَ اللَّهِ }** منصوب على التحذير، و قوله: **{ وَ سُقْيَاهَا }** معطوف عليه.

و المعنى فقال لهم صالح برسالة من الله: احذروا ناقة الله و سقياها و لا تتعرضوا لها بقتلها أو منعها عن نوبتها في شرب الماء، و قد فصل الله القصة في سورة هود و غيرها.

قوله تعالى: **{ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا }** العقر إصابة أصل الشيء و يطلق على نحر البعير و القتل، و الدمدمة على الشيء الإطباق عليه يقال: دمدم عليه القبر أي أطبقه عليه و المراد شمولهم بعذاب يقطع دابرهم و يحو أثرهم بسبب ذنبهم.

و قوله: **{ فَسَوَّاهَا }** الظاهر أن الضمير لثمود باعتبار أنهم قبيلة أي فسواها بالأرض أو هو تسوية الأرض بمعنى تسطيحها و إعفاء ما فيها من ارتفاع و انخفاض.

و قيل: الضمير للدمدمة المفهومة من قوله: **{ فَدَمْدَمَ }** و المعنى فسوى الدمدمة بينهم فلم يفلت منهم قوي و لا ضعيف و لا كبير و لا صغير.

قوله تعالى: **{ وَ لَا يَخَافُ عُقْبَاهَا }** الضمير للدمدمة أو التسوية، و الواو للاستئناف أو الحال.

و المعنى: و لا يخاف ربهم عاقبة الدمدمة عليهم و تسويتهم كما يخاف الملوك و الأقوياء عاقبة عقاب أعدائهم و تبعته، لأن عواقب الأمور هي ما يريده و على وفق ما يأذن فيه فالآية قريبة المعنى من قوله تعالى: **{ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ }** الأنبياء: ٢٣.

و قيل: ضمير **{ لَا يَخَافُ }** للأشقى، و المعنى و لا يخاف عاقر الناقة عقبي ما صنع بها.

و قيل: ضمير **{ لَا يَخَافُ }** لصالح و ضمير **{ عُقْبَاهَا }** للدمدمة و المعنى و لا يخاف صالح عقبي الدمدمة عليهم لثقتة بالنجاة و ضعف الوجهين ظاهر.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}** قال: خلقها وصورها.

وفي الجمع، وروى زرارة وحمزان ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام) في قوله تعالى: **{فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}** قال: بين لها ما يأتي وما يترك، وفي قوله تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}** قال: قد أفلح من أطاع **{وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}** قال: قد خاب من عصى.

وفي الدر المنثور، أخرج أحمد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عمران بن حصين أن رجلا قال: يا رسول الله أ رأيت ما يعمل الناس اليوم ويكحون فيه شيء قد قضى عليهم ومضى عليهم في قدر قد سبق؟ أو فيما يستقبلون به نبهم واتخذت عليهم به الحجمة؟ قال: بل شيء قضى عليهم.

قال: فلم يعملون إذا؟ قال: من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين هيأه لعملها وتصديق ذلك في كتاب الله **{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}**.

أقول: قوله: أو فيما يستقبلون إنخ الظاهر أن الهمزة فيه للاستفهام والواو للعطف والمعنى وهل في طاعتهم لنبيهم قضاء من الله وقدر قد سبق؟ وقوله: فلم يعملون إذا، أي فما معنى عملهم واستناد الفعل إليهم؟ وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): من كان الله إنخ معناه أن وجوب صدور الفعل حسنة أو سيئة منهم بالنظر إلى القضاء والقدر السابقين لا ينافي إمكان صدوره بالنظر إلى الإنسان واختياره، وقد اتضح ذلك في الأبحاث السابقة من الكتاب مرارا.

وفيه، أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن جوير عن الضحاك عن ابن عباس: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}** (الآية) **أفلحت نفس زكاهها الله وخابت نفس خيبها الله من كل خير.**

أقول: انتساب التزكية والتخييب إليه تعالى بوجه لا ينافي انتسابهما بالطاعة والمعصية إلى الإنسان. وإنما ينتسب إلى الله سبحانه من الإضلال ما كان على طريق المجازاة كما قال: **{وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ}**

و في المجمع، و قد صحت الرواية بالإسناد عن عثمان بن صهيب عن أبيه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي بن أبي طالب: **من أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة. قال: صدقت فمن أشقى الآخرين؟ قال: قلت: لا أعلم يا رسول الله. قال: الذي يضربك على هذه فأشار إلى يافوخة.**

أقول: و روي فيه هذا المعنى أيضا عن عمار بن ياسر.

و في تفسير البرهان: و روى الثعلبي و الواحدي بإسنادهما عن عمار و عن عثمان بن صهيب و عن الضحاك و روى ابن مردويه بإسناده عن جابر بن سمرة و عن عمار و عن ابن عدي أو عن الضحاك و روى الخطيب في التاريخ، عن جابر بن سمرة و روى الطبري و الموصلي و روى أحمد عن الضحاك عن عمار أنه قال: قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): **يا علي أشقى الأولين عاقر الناقة و أشقى الآخرين قاتلك، و في رواية من يخضب هذه من هذا.**

(٩٢) سورة الليل مكية و هي إحدى و عشرون آية (٢١)

[سورة الليل (٩٢): الآيات ١ الى ٢١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَىٰ ۝ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنِيسِرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ۝ فَأَنْذَرْتُمْ نَارًا تَلْقَىٰ ۝ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝

(بيان)

غرض السورة الإنذار وتسلك إليه بالإشارة إلى اختلاف مساعي الناس و أن منهم من أنفق و اتقى و صدق بالحسنى فسيمكنه الله من حياة خالدة سعيدة و منهم من بخل و استغنى و كذب بالحسنى فسيهلك الله به إلى شقاء العاقبة، و في السورة اهتمام و عناية خاصة بأمر الإنفاق المالي.

و السورة تحتل المدينة و المدنية بحسب سياقها.

قوله تعالى: **{ وَ اللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى }** إقسام بالليل إذا يغشى النهار على حد قوله تعالى: **{ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ }** الأعراف: ٥٤، و يحتمل أن يكون المراد غشيانه الأرض أو الشمس.

قوله تعالى: **{ وَ النَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى }** عطف على الليل، و التجلي ظهور الشيء بعد خفائه، و التعبير عن صفة الليل بالمضارع و عن صفة النهار بالماضي حيث قيل: **{ يُغْشَى }** و **{ تَجَلَّى }** تقدم فيه وجه في تفسير أول السورة السابقة.

قوله تعالى: **{ وَ مَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَ الْأُنثَى }** عطف على الليل كسابقه، و **{ مَا }** موصولة و المراد به الله سبحانه و إنما عبر بما، دون من، إيثارا للإبهام المشعر بالتعظيم و التفضيم و المعنى و أقسم بالشيء العجيب الذي أوجد الذكر و الأنثى المختلفين على كونهما من نوع واحد.

و قيل: ما مصدرية و المعنى و أقسم بخلق الذكر و الأنثى و هو ضعيف.

و المراد بالذكر و الأنثى مطلق الذكر و الأنثى أيما تحققا، و قيل: الذكر و الأنثى من الإنسان، و قيل: المراد بهما آدم و زوجته حواء، و أوجه الوجوه أولها.

قوله تعالى: **{ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى }** السعي هو المشي السريع، و المراد به العمل من حيث يهتم به، و هو في معنى الجمع، و شتى جمع شتيت بمعنى المتفرق كمرضى جمع مريض.

و الجملة جواب القسم و المعنى أقسم بهذه المتفرقات خلقا و أثرا أن مساعيكم لمتفرقات في نفسها و آثارها فمنها إعطاء و تقوى و تصديق و لها أثر خاص بها، و منها بخل و استغناء و تكذيب و لها أثر خاص بها.

قوله تعالى: **{ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَ اتَّقَى وَ صَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى }** تفصيل تفرق مساعيهم و اختلاف آثارها.

و المراد بالإعطاء إنفاق المال لوجه الله بقرينة مقابله للبخل الظاهر في الإمساك عن

إنفاق المال و قوله بعد: **{وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}**.

وقوله: **{وَوَاتَّقِ}** كالمفسر للإعطاء يفيد أن المراد هو الإعطاء على سبيل التقوى الدينية.

وقوله: **{وَوَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى}** الحسنى صفة قائمة مقام الموصوف و الظاهر أن التقدير بالعدة الحسنى و هي ما وعد الله من الثواب على الإنفاق لوجهه الكريم و هو تصديق البعث و الإيمان به و لازمه الإيمان بوحدانيته تعالى في الربوبية و الألوهية، و كذا الإيمان بالرسالة فإنها طريق بلوغ وعده تعالى للثواب.

و محصل الآيتين أن يكون مؤمنا بالله و رسوله و اليوم الآخر و ينفق المال لوجه الله و ابتغاء ثوابه الذي وعده بلسان رسوله.

و قوله: **{فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى}** التيسير التهيئة و الإعداد و اليسر الخصلة التي فيها يسر من غير عسر، و توصيفها باليسر بنوع من التجوز فالمراد من تيسيره لليسرى توفيقه للأعمال الصالحة بتسهيلها عليه من غير تعسير أو جعله مستعدا للحياة السعيدة عند ربه و دخول الجنة بسبب الأعمال الصالحة التي يأتي بها، و الوجه الثاني أقرب و أوضح انطباقا على ما هو المعهود من مواعد القرآن.

قوله تعالى: **{وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى وَ مَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}** البخل مقابل الإعطاء، و الاستغناء طلب الغنى و الثروة بالإمسك و الجمع، و المراد بالتكذيب بالحسنى الكفر بالعدة الحسنى و ثواب الله الذي بلغه الأنبياء و الرسل و يرجع إلى إنكار البعث.

و المراد بتيسيره للعسرى خذلانه بعدم توفيقه للأعمال الصالحة، بتثقلها عليه و عدم شرح صدره للإيمان أو إعداده للعذاب.

و قوله: **{وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}** التردى هو السقوط من مكان عال و يطلق على الهلاك فالمراد سقوطه في حفرة القبر أو في جهنم أو هلاكه.

و **{مَا}** استفهامية أو نافية أي شيء يغنيه ماله إذا مات و هلك أو ليس يغني عنه ماله إذا مات و هلك.

قوله تعالى: **{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى}** تعليل لما تقدم من حديث تيسيره لليسرى و للعسرى أو الإخبار به بأوجز بيان، محصله أنا إنما نفعل هذا التيسير أو نبين هذا البيان لأنه من الهدى و الهدى علينا لا يزاحمنا في ذلك شيء و لا يمنعنا عنه مانع.

فقوله: **{إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى}** يفيد أن هدى الناس مما قضى سبحانه به و أوجبه على نفسه بمقتضى الحكمة و ذلك أنه خلقهم ليعبده كما قال: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** الذاريات: ٥٦ فجعل عبادته غاية لخلقهم و جعلها صراطا مستقيما إليه كما قال: **{إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ}** آل عمران: ٥١، و قال: **{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ}** الشورى: ٥٣ و قضى على نفسه أن يبين لهم سبيله و يهديهم إليه بمعنى إراءة الطريق سواء سلكوها أم تركوها كما قال: **{وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَ مِنْهَا جَائِرٌ}** النحل: ٩، و قال: **{وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ}** الأحزاب: ٤ و قال: **{إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}** الإنسان: ٣ و لا ينافي ذلك قيام غيره تعالى بأمر هذا المعنى من الهدى بإذنه كالأنبياء كما قال تعالى: **{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}** الشورى: ٥٢، و قال: **{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي}** يوسف: ١٠٨.

و قد تقدم لهذه المسألة بيان عقلي في مباحث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب.

هذا في الهداية بمعنى إراءة الطريق و أما الهداية بمعنى الإيصال إلى المطلوب و المطلوب في المقام الآثار الحسنة التي تترتب على الاهتداء بهدى الله و التلبس بالعبودية كالحياة الطيبة المعجلة في الدنيا و الحياة السعيدة الأبدية في الآخرة فمن البين أنه من قبيل الصنع و الإيجاد الذي يختص به تعالى فهو مما قضى به الله و أوجبه على نفسه و سجله بوعده الحق قال تعالى: **{فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَ لَا يَشْقَى}** طه: ١٢٣، و قال: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** النحل: ٩٧، و قال: **{وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا}** النساء: ١٢٢.

و لا ينافي انتساب هذا المعنى من الهداية إليه تعالى بنحو الأصالة انتسابه إلى غيره تعالى بنحو التبع بتخلل الأسباب بينه تعالى و بين ما ينسب إليه من الأثر بإذنه.

و معنى الآية - إن كان المراد بالهدى إراءة الطريق - أنا إنما نبين لكم ما نبين لأنه من إراءة طريق العبودية و إراءة الطريق علينا، و إن كان المراد به الإيصال إلى المطلوب أنا إنما نيسر هؤلاء لليسرى من الأعمال الصالحة أو من الحياة السهلة الأبدية و دخول الجنة لأنه من إيصال الأشياء إلى غاياتها و علينا ذلك.

و أما التيسير لليسرى فهو مما يتوقف عليه التيسير لليسرى **{لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ**

الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلِ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ} الأنفال: ٣٧ و قد قال سبحانه في القرآن الذي هو هدى للعالمين: {وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} إسرائ: ٨٢.

و يمكن أن يكون المراد به مطلق الهداية أعم من الهداية التكوينية الحقيقية و التشريعية الاعتبارية - على ما هو ظاهر إطلاق اللفظ - فله تعالى الهداية الحقيقية كما قال: {الَّذِي أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى} طه: ٥٠، و الهداية الاعتبارية كما قال: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} الإنسان: ٣.

و قوله: {وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَ الْأُولَى} أي عالم البدء و عالم العود فكل ما يصدق عليه أنه شيء فهو مملوك له تعالى بحقيقة الملك الذي هو قيام وجوده بربه القيوم و يتفرع عليه الملك الاعتباري الذي من آثاره جواز التصرفات.

فهو تعالى يملك كل شيء من كل جهة فلا يملك شيء منه شيئاً فلا معارض يعارضه و لا مانع يمنعه و لا شيء يغلبه كما قال: {وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لَمْ يُعْقَبْ لِحُكْمِهِ} الرعد: ٤١ و قال: {وَ اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ} يوسف: ٢١، و قال: {وَ يَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ} إبراهيم: ٢٧.

قوله تعالى: {فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى} تفرع على ما تقدم أي إذا كان الهدى علينا فأندرتكم نار جهنم و بذلك يوجه ما في قوله: {فَأَنْذَرْتُكُمْ} من الالتفات عن التكلم مع الغير إلى التكلم وحده أي إذا كان الهدى مقضية محتومة فالمنذر بالأصالة هو الله و إن كان بلسان رسوله.

و تَلَظَّى النار تلهبها و توهجها، و المراد بالنار التي تتلظى جهنم كما قال تعالى: {كَلَّا إِنَّهَا لَنُظَى} المعارج: ١٥. و المراد بالأشقى مطلق الكافر الذي يكفر بالتكذيب و التولي فإنه أشقى من سائر من شقي في دنياه فن ابتلي في بدنه شقي و من أصيب في ماله أو ولده مثلاً شقي و من خسر في أمر آخرته شقي و الشقي في أمر آخرته أشقى من غيره لكون شقوته أبدية لا مطعم في التخلص منها بخلاف الشقوة في شأن من شؤون الدنيا فإنها مقطوعة لا محالة مرجوة الزوال عاجلاً.

فالمراد بالأشقى هو الكافر المكذب بالدعوة الحقّة المعرض عنها على ما يدل عليه توصيفه بقوله: {الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى} و يؤيده إطلاق الإنذار، و أما الأشقى بمعنى أشقى

الناس كلهم فما لا يساعد عليه السياق البتة.

و المراد بصلي النار اتباعها و لزومها فيفيد معنى الخلود و هو مما قضى الله به في حق الكافر، قال تعالى: **{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** البقرة: ٣٩.

و بذلك يندفع ما قيل: إن قوله: **{لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى}** ينفي عذاب النار عن فساق المؤمنين على ما هو لازم القصر في الآية، وجه الاندفاع أن الآية إنما تنفي عن غير الكافر الخلود فيها دون أصل الدخول.

قوله تعالى: **{وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ}** التجنيب التباعد، و ضمير **{سَيُجَنَّبُهَا}** للنار، و المعنى سيبعد عن النار الأتقى.

و المراد بالأتقى من هو أتقى من غيره ممن يتقي المخاطر فهناك من يتقي ضيعة النفوس كالموت و القتل و من يتقي فساد الأموال و من يتقي العدم و الفقر فيمسك عن بذل المال و هكذا و منهم من يتقي الله فيبذل المال، و أتقى هؤلاء الطوائف من يتقي الله فيبذل المال لوجهه و إن شئت فقل يتقي خسران الآخرة فيتزكى بالإعطاء.

فالمفضل عليه للأتقى هو من لا يتقي بإعطاء المال و إن اتقى سائر المخاطر الدنيوية أو اتقى الله بسائر الأعمال الصالحة.

فالآية عامة بحسب مدلولها غير خاصة و يدل عليه توصيف الأتقى بقوله: **{الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ}** إنح و هو وصف عام و كذا ما يتلوه، و لا ينافي ذلك كون الآيات أو جميع السورة نازلة لسبب خاص كما ورد في أسباب النزول. و أما إطلاق المفضل عليه بحيث يشمل جميع الناس من طالح أو صالح و لازمه انحصار المفضل في واحد مطلقا أو واحد في كل عصر، و يكون المعنى و سيجنبها من هو أتقى الناس كلهم و كذا المعنى في نظيره: لا يصلها إلا أشقى الناس كلهم فلا يساعد عليه سياق آيات صدر السورة، و كذا الإنذار العام الذي في قوله: **{فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ}** فلا معنى لأن يقال: أنذرتكم جميعا نارا لا يخلد فيها إلا واحد منكم جميعا و لا ينجو منها إلا واحد منكم جميعا.

و قوله: **{الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ}** صفة للأتقى أي الذي يعطي و ينفق ماله يطلب بذلك أن ينمو ثماء صالحا.

و قوله: **{وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى}** تقرير لمضمون الآية السابقة أي ليس لأحد عنده من نعمة تجزى تلك النعمة بما يؤتيه من المال و تكافأ و إنما يؤتيه لوجه الله و يؤيد هذا المعنى تعقيبته بقوله: **{إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى}**.

فالتقدير من نعمة تجزى به، و إنما حذف الظرف رعاية للفواصل، و يندفع بذلك ما قيل: إن بناء **{تُجْزَى}** للمفعول لأن القصد ليس لفاعل معين.

قوله تعالى: **{إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى}** استثناء منقطع و المعنى و لكنه يؤتي ماله طلبا لوجه ربه الأعلى و قد تقدم كلام في معنى وجه الله تعالى و في معنى الاسم الأعلى.

قوله تعالى: **{وَلَسَوْفَ يَرْضَى}** أي و لسوف يرضى هذا الأتقى بما يؤتيه ربه الأعلى من الأجر الجزيل و الجزاء الحسن الجميل.

و في ذكر صفتي الرب و الأعلى إشعار بأن ما يؤتاه من الجزاء أنعم الجزاء و أعلاه و هو المناسب لربوبيته تعالى و علوه، و من هنا يظهر وجه الالتفات في الآية السابقة في قوله: **{وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى}** من سياق التكلم وحده إلى الغيبة بالإشارة إلى الوصفين: ربه الأعلى.

بحث روائي

في الكافي، بإسناده عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): قول الله عز و جل **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}** **{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى}** و ما أشبه ذلك؟ فقال: إن لله عز و جل أن يقسم من خلقه بما شاء، و ليس لخلقه أن يقسموا إلا به.

أقول: و رواه في الفقيه، بإسناده عن علي بن مهزيار عن أبي جعفر الثاني (عليه السلام).

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}** قال: حين يغشى النهار و هو قسم.

و عن الحميري في قرب الإسناد، عن أحمد بن محمد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: سمعته يقول: في تفسير **{وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى}** إن رجلا كان لرجل في حائطه نخلة فكان يضرب به فشكا ذلك إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فدعاه فقال: أعطني نخلتك بنخلة في الجنة فأبى فسمع ذلك رجل من الأنصار يكنى أبا الدحداح فجاء إلى صاحب النخلة فقال: بعني نخلتك بحائطي فباعه فجاءه إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فقال: يا رسول الله قد اشتريت نخلة فلان بحائطي فقال رسول الله: لك بدلها نخلة في الجنة.

فأنزل الله تعالى على نبيه **{وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَىٰ}** فَأَمَّا

مَنْ أَعْطَى { يَعْنِي النخلة } وَاتَّقَى { وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى } هُوَ مَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) { فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى } - إِلَى قَوْلِهِ - { تَرَدَّى }.

أقول: ورواه القمي في تفسيره، مرسلا مضمرا، وقوله: الزوجين تفسير منه (عليه السلام) للذكر والأنثى.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: **{ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى }** قال: أبو الدحداح.

أقول: هذا ما من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

و روى الطبرسي في مجمع البيان، القصة عن الواحدي بإسناده عن عكرمة عن ابن عباس و فيه أن الأنصاري ساوم صاحب النخلة في نخلة في نخلته ثم اشتراها منه بأربعين نخلة ثم وهبها للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فوهبها النبي لصاحب الدار، ثم روى الطبرسي عن عطاء أن اسم الرجل أبو الدحداح، و روى السيوطي في الدر المنثور، القصة عن ابن أبي حاتم عن ابن عباس و ضعفه.

و قد ورد من طرق أهل السنة أن السورة نزلت في أبي بكر قال الرازي في التفسير الكبير: أجمع المفسرون منا على أن المراد منه يعني من الأتقى أبو بكر، و اعلم أن الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرواية، و يقولون إنما نزلت في حق علي بن أبي طالب و الدليل عليه قوله تعالى: **{ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ }** فقوله: **{ الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى }** إشارة إلى ما في تلك الآية من قوله: **{ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ }** ثم أخذ الأتقى بمعنى أفضل الخلق أي أتقى الناس جميعا و قد تقدم الكلام فيه.

أما ما نسب إلى الشيعة بأسرهم من القول فالمعتمد عليه من طرقهم صحيح الحميري المتقدم و ما في معناه من الروايات الدالة على نزولها في أبي الدحداح الأنصاري.

نعم ورد في رواية ضعيفة عن البرقي عن إسماعيل بن مهران عن أيمن بن محرز عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) و فيها، و أما قوله: **{ وَ سَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى }** قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و من تبعه، و **{ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى }** قال: ذاك أمير المؤمنين (عليه السلام) و هو قوله: **{ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ }** و قوله: **{ وَ مَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى }** فهو رسول الله الذي ليس لأحد عنده من نعمة تجزى و نعمته جارية على جميع الخلق (صلى الله عليه وآله وسلم). و الرواية على ضعف¹ سندها من قبيل الجري و التطبيق دون التفسير و من واضح الدليل عليه تطبيقه الموصوف على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و الوصف على علي (عليه السلام) ثم الآية

¹ أيمن بن محرز مجهول.

التالية على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولو كانت من التفسير لفسد بذلك النظم قطعاً. هذا لو كانت الواو في قوله: و {الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} من الرواية ولو فرضت من الآية كانت الرواية من روايات التحريف المرودة.

وعن الحميري عن أحمد بن محمد عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: قلت: قول الله تبارك وتعالى {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى} قال: إن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء. فقلت له: أصلحك الله إن قوماً من أصحابنا يزعمون أن المعرفة مكتسبة وأنهم إن ينظروا من وجه النظر أدركوه.

فأنكر ذلك وقال: ما لهؤلاء القوم لا يكتسبون الخير لأنفسهم؟ ليس أحد من الناس إلا ويجب أن يكون خيراً ممن هو خير منه هؤلاء بنو هاشم موضعهم موضعهم وقرابتهم قرابتهم وهم أحق بهذا الأمر منكم أفتري أنهم لا ينظرون لأنفسهم؟ وقد عرفتم ولم يعرفوا. قال أبو جعفر: لو استطاع الناس لأحبونا.

أقول: أما الهداية والمراد بها الإيصال إلى المطلوب فهي لله تعالى لأنها من شئون الربوبية، وأما الإضلال والمراد به الإضلال على سبيل المجازاة دون الإضلال الابتدائي الذي لا يضاف إليه تعالى فهو الله أيضاً لكونه إمساكاً عن إنزال الرحمة وعدم الهداية وإذا كانت الهداية له فالإمساك عنه أيضاً منسوب إليه تعالى.

(٩٣) سورة الضحى مكية أو مدنية وهي إحدى عشرة آية (١١)

[سورة الضحى (٩٣): الآيات ١ الى ١١]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالضُّحَى ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ③ وَ لَلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ④ وَ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ⑤ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ⑥ وَ وَّجَدَكَ ضَالًّا

فَهْدَى ۝ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَفْهَرُ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرُ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

{٥١}

(بيان)

قيل: انقطع الوحي عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أياما حتى قالوا: إن ربه ودعه فنزلت السورة فطيب الله بها نفسه، و السورة تحتل المكية والمدنية.

قوله تعالى: **{وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ}** إقسام، والضحي على ما في المفردات، انبساط الشمس و امتداد النهار و سمي الوقت به، و سجو الليل سكونه و هو غشيان ظلمته.

قوله تعالى: **{مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ}** التوديع الترك، والقلى بكسر القاف البغض أو شدته، والآية جواب القسم، و مناسبة نور النهار و ظلمة الليل لنزول الوحي و انقطاعه ظاهرة.

قوله تعالى: **{وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ}** في معنى الترقى بالنسبة إلى ما تفيده الآية السابقة من كونه (صلى الله عليه وآله وسلم) على ما هو عليه من موقف الكرامة و العناية الإلهية كأنه قيل: أنت على ما كنت عليه من الفضل و الرحمة ما دمت حيا في الدنيا و حياتك الآخرة خير لك من حياتك الدنيا.

قوله تعالى: **{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ}** تقرير و تثبيت لقوله: **{وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ}** و قد اشتمل الوعد على عطاء مطلق يتبعه رضي مطلق.

و قيل: الآية ناظرة إلى الحياتين جميعا دون الحياة الآخرة فقط.

قوله تعالى: **{أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ}** الآية و ما يتلوها من الآيتين إشارة إلى بعض نعمه تعالى العظام عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) فقد مات أبوه و هو في بطن أمه ثم ماتت أمه و هو ابن سنتين ثم مات جده الكفيل له و هو ابن ثمان سنين فكفله عمه و رباه.

و قيل: المراد باليتيم الوحيد الذي لا نظير له في الناس كما يقال: در يتيم، و المعنى ألم يجدك وحيدا بين الناس فأوى الناس إليك و جمعهم حولك.

قوله تعالى: **{وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ}** المراد بالضلال عدم الهداية و المراد بكونه (صلى الله عليه وآله وسلم) ضالا حالة في نفسه مع قطع النظر عن هدايته تعالى فلا هدى له (صلى الله عليه وآله وسلم) و لا لأحد من الخلق إلا بالله سبحانه فقد كانت نفسه في نفسها ضالة و إن كانت الهداية الإلهية ملازمة لها منذ وجدت فالآية في معنى قوله تعالى: **{مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ}** الشورى: ٥٢،

و من هذا الباب قول موسى على ما حكى الله عنه: **{فَعَلْتُهَا إِذَا وَ أَنَا مِنَ الصَّالِينَ}** الشعراء: ٢٠ أي لم أهدى بهدى الرسالة بعد.

ويقرب منه ما قيل: إن المراد بالضللال الذهاب من العلم كما في قوله: **{أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى}** البقرة: ٢٨٢، ويؤيده قوله: **{وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ}** يوسف: ٠٣.

وقيل المعنى وجدك ضالا بين الناس لا يعرفون حقك فهداهم إليك و دلهم عليك.

وقيل: إنه إشارة إلى ضلاله في طريق مكة حينما كانت تجيء به حليلة بنت أبي ذؤيب من البدو إلى جده عبد المطلب على ما روي.

وقيل: إشارة إلى ما روي من ضلاله في شعاب مكة صغيرا.

وقيل: إشارة إلى ما روي من ضلاله في مسيره إلى الشام مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة. وقيل: غير ذلك وهي وجوه ضعيفة ظاهرة الضعف.

قوله تعالى: **{وَ وَجَدَكَ غَابِلًا فَأَغْنَى}** العائل الفقير الذي لا مال له و قد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) فقيرا لا مال له فأغناه الله بعد ما تزوج بخديجة بنت خويلد (عليه السلام) فوهبت له مالها و كان لها مال كثير، وقيل المراد بالإغناء استجابة دعوته.

قوله تعالى: **{فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ}** قال الراغب: القهر الغلبة و التذليل معا و يستعمل في كل واحد منهما، انتهى.

قوله تعالى: **{وَ أَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ}** النهر هو الزجر و الرد بغلظة.

قوله تعالى: **{وَ أَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}** التحديث بالنعمة ذكرها قولاً و إظهارها فعلاً و ذلك شكرها، و هذه الأوامر عامة للناس و إن كانت موجهة إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

و الآيات الثلاث متفرعة على الآيات الثلاث التي تسبقها و تذكر نعمه تعالى عليه كأنه قيل: فقد وجدت ما يجده اليتيم من ذلة اليتيم و انكساره فلا تقهر اليتيم باستدلاله في نفسه أو ماله، و وجدت مرارة حاجة الضال إلى الهدى و العائل إلى الغنى فلا تزجر سائلا يسألك رفع حاجته إلى هدى أو معاش، و وجدت أن ما عندك نعمة أنعمها عليك ربك بجوده و كرمه و رحمته فاشكر نعمته بالتحديث بها و لا تسترها.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: {وَالصُّحَىٰ} قال: إذا ارتفعت الشمس {وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ} قال: إذا أظلم. وفيه في قوله تعالى {وَمَا قَلَىٰ} قال: لم ييغضك.

وفي الدر المنثور: في قوله تعالى: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ} أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ}**.

وفيه، أخرج العسكري في المواعظ و ابن لآل و ابن النجار عن جابر بن عبد الله قال: **دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على فاطمة و هي تطحن بالرحى و عليها كساء من حلة الإبل فلما نظر إليها قال: يا فاطمة تعجلي فتجرعي مرارة الدنيا لنعيم الآخرة غدا فأنزل الله: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ}**.

أقول: تحتمل الرواية نزول الآية وحدها بعد نزول بقية آيات السورة قبلها ثم الإلحاق و تحتمل نزولها وحدها ثانياً.

وفيه، أخرج ابن المنذر و ابن مردويه و أبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال: **قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين: أ رأيت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أ حق هي؟ قال: إي و الله حدثني عمي محمد بن الحنفية عن علي أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: أشفع لأمتي حتى يناديني ربي: أ رضيت يا محمد؟ فأقول: نعم يا رب رضيت.**

ثم أقبل علي فقال: **إنكم تقولون يا معشر أهل العراق، إن أرجى آية في كتاب الله: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}** قلت: **إننا لنقول ذلك، قال: فكلنا أهل البيت نقول: إن أرجى آية في كتاب الله {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ} الشفاعة.**

و في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن ابن الجهم عن الرضا (عليه السلام) في مجلس المأمون قال: **قال الله تعالى لنبيه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم): {أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ} يقول: أ لم يجدك وحيداً فأوى إليك الناس؟ {وَوَجَدَكَ ضَالًّا} يعني عند قومك {فَهَدَىٰ} أي هداهم إلى معرفتك؟ {وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ} يقول: أغناك بأن جعل دعاءك مستجاباً؟ فقال**

المؤمنون: بارك الله فيك يا ابن رسول الله.

وفيه، عن البرقي بإسناده عن عمرو بن أبي نصر قال: حدثني رجل من أهل البصرة قال: رأيت الحسين بن علي (عليه السلام) و عبد الله بن عمر يطوفان بالبيت فسألت ابن عمر فقلت: قول الله تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} قال: أمره أن يحدث بما أنعم الله عليه.

ثم إني قلت للحسين بن علي (عليه السلام): قول الله تعالى: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} قال: أمره أن يحدث بما أنعم الله عليه من دينه.

وفي الدر المنثور، عن البيهقي عن الحسن بن علي في قوله: {وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ} قال: إذا أصبت خيرا فحدث إخوانك.

وفيه، أخرج أبو داود عن جابر بن عبد الله عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: من أبلى بلاء فذكره فقد شكره و من كتبه فقد كفره، و من تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوب زور.

(٩٤) سورة ألم نشرح مكة أو مدنية و هي ثمان آيات (٨)

[سورة الشرح (٩٤): الآيات ١ الى ٨]

{يَسْمِ اللّٰهُ الرَّحْمٰنَ الرَّحِيْمَ ۝ اَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي اَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝ فَاِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ اِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ فَاِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَ اِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝}

(بيان)

أمر بالنصب في الله و الرغبة إليه توصل إليه بتقدمة الامتان و السورة تحمل المكية و المدنية و سياق آياتها أوفق للمدينة.

و في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أن الضحى و ألم نشرح سورة

واحدة، ويروى ذلك أيضا عن طاووس و عمر بن عبد العزيز قال الرازي في التفسير الكبير بعد نقله عنهما و الذي دعاها إلى ذلك هو أن قوله تعالى: **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ}** كالعطف على قوله: **{أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا}** و ليس كذلك لأن الأول كان نزوله حال اغتمام الرسول (صلى الله عليه وآله و سلم) من إيذاء الكفار فكانت حال محنة و ضيق صدر، و الثاني يقتضي أن يكون حال النزول منشرح الصدر طيب القلب فأنى يجتمعان انتهى.

و فيه أن المراد بشرح صدره (صلى الله عليه وآله و سلم) في الآية جعله بحيث يسع ما يلقي إليه من الحقائق و لا يضيق بما ينزل عليه من المعارف و ما يصيبه من أذى الناس في تبليغها كما سيجيء لا طيب القلب و السرور كما فسره.

و يدل على ذلك ما رواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **لقد سألت ربي مسألة وددت أني لم أسأله قلت: أي رب أنه قد كان أنبياء قبلي منهم من سخرت له الريح و منهم من كان يحيي الموتى. قال: فقال: أ لم أجدك يتيما فأوتيتك؟ قال: قلت: بلى قال: أ لم أجدك ضالا فهديتك؟ قال: قلت: بلى أي رب. قال: أ لم أشرح لك صدرك و وضعت عنك وزرك؟ قال: قلت: بلى أي رب، و للكلام تمة ستوافيك في تفسير سورة الإيلاف إن شاء الله تعالى.**

قوله تعالى: **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}** قال الراغب: أصل الشرح بسط اللحم و نحوه يقال: شرحت اللحم و شرحته و منه شرح الصدر أي بسطته بنور إلهي و سكينته من جهة الله و روح منه قال تعالى: **{رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي}** **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}** **{فَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ}** انتهى.

و ترتب الآيات الثلاث الأول في مضامينها ثم تعليلها بقوله: **{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}** الظاهر في الانطباق على حاله (صلى الله عليه وآله و سلم) في أوائل دعوته و أواسطها و أواخرها ثم تكرار التعليل ثم تفريع آيتي آخر السورة كل ذلك يشهد على كون المراد بشرح صدره (صلى الله عليه وآله و سلم) بسطه بحيث يسع ما يلقي إليه من الوحي و يؤمر بتبليغه و ما يصيبه من المكاره و الأذى في الله، و بعبارة أخرى جعل نفسه المقدسة مستعدة تامة الاستعداد لقبول ما يفاض عليها من جانب الله تعالى.

قوله تعالى: **{وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ}** الوزر الحمل الثقيل، و إنقاض الظهر كسره بحيث يسمع له صوت كما يسمع من السرير و نحوه عند استقرار شيء ثقيل

عليه، و المراد به ظهور ثقل الوزر عليه ظهورا بالغا.

و وضع الوزر إذهاب ما يحس من ثقله و جملة: **{وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ}** معطوفة على قوله: **{أَلَمْ نَشْرَحْ}** إلخ لما أن معناه قد شرحنا لك صدرك.

و المراد بوضع وزره (صلى الله عليه وآله وسلم) على ما يفيد السياق و قد أشرنا إليه إنفاذ دعوته و إمضاء مجاهدته في الله بتوفيق الأسباب فإن الرسالة و الدعوة و ما يتفرع على ذلك هي الثقل الذي حمله إثر شرح صدره. و قيل: وضع الوزر إشارة إلى ما وردت به الرواية أن ملكين نزلا عليه و فلقا صدره و أخرجا قلبه و طهراه ثم رداه إلى محله و ستوافيك روايته.

و قيل: المراد بالوزر ما صدر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) قبل البعثة، و قيل: غفلته عن الشرائع و نحوها مما يتوقف على الوحي مع تطلبه، و قيل: حيرته في بعض الأمور كأداء حق الرسالة، و قيل: الوحي و ثقله عليه في بادئ أمره، و قيل: ما كان يرى من ضلال قومه و عنادهم مع عجزه عن إرشادهم، و قيل: ما كان يرى من تعديهم و مبالغتهم في إيذائه، و قيل: هممه لوفاة عمه أبي طالب و زوجه خديجة، و قيل: الوزر المعصية و رفع الوزر عصمته، و قيل: الوزر ذنب أمته و وضعه غفرانه.

و هذه الوجوه بعضها سخييف و بعضها ضعيف لا يلائم السياق، و هي بين ما قيل به و بين ما احتمل احتمالا.

قوله تعالى: **{وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ}** رفع الذكر إعلاؤه عن مستوى ذكر غيره من الناس و قد فعل سبحانه به ذلك، و من رفع ذكره أن قرن الله اسمه (صلى الله عليه وآله وسلم) باسمه فاسمه قرين اسم ربه في الشهادتين اللتين هما أساس دين الله، و على كل مسلم أن يذكره مع ربه كل يوم في الصلوات الخمس المفروضة، و من اللطف وقوع الرفع بعد الوضع في الآيتين.

قوله تعالى: **{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}** لا يبعد أن يكون تعليلا لما تقدم من وضع الوزر و رفع الذكر فما حمله الله من الرسالة و أمر به من الدعوة - و ذلك أثقل ما يمكن لبشر أن يحمله - كان قد اشتد عليه الأمر بذلك، و كذا تكذيب قومه دعوته و استخفافهم به و إصرارهم على إخماء ذكره كان قد اشتد عليه فوضع الله وزره الذي حمله بتوفيق الناس لإجابة دعوته و رفع ذكره الذي كانوا يريدون إخماءه و كان ذلك جريا على سنته تعالى في الكون من الإتيان باليسر بعد العسر فعلى رفع الشدة عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) بما أشار إليه من

سنته، و على هذا فاللام في «العسر» للجنس دون الاستغراق و لعل السنة سنة تحول الحوادث و تقلب الأحوال و عدم دوامها.

و عن الزمخشري في الكشاف، أن الفاء في **{فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ}** إنح فصيحة و الكلام مسوق لتسليته (صلى الله عليه وآله و سلم) بالوعد الجميل.

قال: كان المشركون يعيرون رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و المؤمنين بالفقر و الضيقة حتى سبق إلى ذهنه الشريف أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله و احتقارهم فذكره سبحانه ما أنعم به عليه من جلائل النعم ثم قال: **{إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}** كأنه قال: خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله فإن مع العسر الذي أتم فيه يسرا.

و ظاهره أن اللام في العسر للعهد دون الجنس و أن المراد باليسر ما رزقه الله المؤمنين بعد من الغنائم الكثيرة.

و هو ممنوع فذهنه الشريف (صلى الله عليه وآله و سلم) أجل من أن يخفى عليه حالهم و أنهم إنما يرغبون عن دعوته استكبارا على الحق و استعلاء على الله على أن القوم لم يرغبوا في الإسلام حتى بعد ظهور شوكته و إثراء المؤمنين و قد أيأس الله نبيه من إيمان أكثرهم حيث قال: **{لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** - إلى أن قال - **{وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** يس: ١٠ و الآيات مكية و قال: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** البقرة: ٦ و الآية مدنية.

و لو حمل اليسر بعد العسر على شوكة الإسلام و رفعته بعد وضعته مع أخذ السورة مكية لم يكن به كثير بأس.

قوله تعالى: **{إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}** تكرر للتأكيد و التثبيت و قيل: استئناف و ذكروا أن في الآيتين دلالة على أن مع العسر الواحد يسران بناء على أن المعرفة إذا أعيدت ثانية في الكلام كان المراد بها عين الأولى بخلاف النكرة كما أنه لو قيل: إذا اكتسبت الدرهم أو درهما فأنفق الدرهم كان المراد بالثاني هو الأول بخلاف ما لو قيل: إذا اكتسبت درهما فأنفق درهما و ليست القاعدة بمطردة.

و التنوين في **{يُسْرًا}** للتنويع لا للتفخيم كما ذكره بعضهم، و المعية معية التوالي دون المعية بمعنى التحقق في زمان واحد.

قوله تعالى: **{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ}** خطاب للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) متفرع -

على ما بين قبل من تحميلة الرسالة و الدعوة و منه تعالى عليه بما من من شرح الصدر و وضع الوزر و رفع الذكر و كل ذلك من اليسر بعد العسر.

و عليه فالمعنى إذا كان العسر يأتي بعده اليسر و الأمر فيه إلى الله لا غير فإذا فرغت مما فرض عليك فأتعب نفسك في الله بعبادته و دعائه و ارغب فيه ليمن عليك بما لهذا التعب من الراحة و لهذا العسر من اليسر. و قيل: المراد إذا فرغت من الفرائض فانصب في النوافل، و قيل: إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء، و ما يتضمنه القولان بعض المصاديق.

و قيل: المعنى إذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة و قيل: المراد إذا فرغت من دنياك فانصب في آخرتك و قيل غير ذلك و هي وجوه ضعيفة.

بحث روائي

في الدر المنثور، أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي بن كعب أن أبا هريرة قال: يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) جالسا و قال: **لقد سألت أبا هريرة إني لفي صحراء ابن عشرين سنة و أشهر إذا بكلام فوق رأسي و إذا رجل يقول لرجل: أ هو هو؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط، و أرواح لم أجدها في خلق قط و ثياب لم أجدها على أحد قط فأقبلا إلي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأحدهما مسا.**

فقال أحدهما لصاحبه: أضعجه فأضجيني بلا قصر و لا هصر فقال أحدهما: أفلق صدره فحوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم و لا وجع فقال له: أخرج الغل و الحسد فأخرج شيئا كههيئة العلقة ثم نبذها فطرحها فقال له: أدخل الرأفة و الرحمة فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة ثم هز إبهام رجلي اليمنى و قال: اغد و أسلم فرجعت بها أغدو بها رقة على الصغير و رحمة للكبير.

أقول: و في نقل بعضهم - كما في روح المعاني - ابن عشر حجج مكان قوله: ابن عشرين سنة و أشهر، و في بعض الروايات نقل القصة عند نزول سورة اقرأ باسم ربك و في بعضها كما في صحيح البخاري و مسلم و الترمذي و النسائي نقل القصة عند إسرائ النبي.

و القصة على أي حال من قبيل التمثل بلا إشكال، و قد أطالوا البحث في توجيه ما

تتضمنه على أنها واقعة مادية فتمحلوا بوجوه لا جدوى في التعرض لها بعد فساد أصلها.

وفيه، أخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **أتاني جبرئيل فقال: إن ربك يقول: تدري كيف رفعت ذكرك؟ قلت: الله أعلم قال: إذا ذكرت ذكرت معي.**

وفيه، أخرج عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقي عن الحسن قال: خرج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوماً مسروراً وهو يضحك ويقول: **لن يغلب عسريسرين {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}**.

وفي الجمع في قوله تعالى: **{فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْجِعْ}** معناه فإذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب إليه في المسألة. قال: وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام).

(٩٥) سورة التين مكية وهي ثمان آيات (٨)

[سورة التين (٩٥): الآيات ١ إلى ٨]

{يَسْمِ اللَّهُ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ وَالتِّينِ وَ الزَّيْتُونِ ① وَ طُورِ سِينِينَ ② وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ⑥ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ⑦ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ⑧}

(بيان)

تذكر السورة البعث والجزاء وتسلك إليه من طريق خلق الإنسان في أحسن تقويم ثم اختلافهم بالبقاء على الفطرة الأولى وخروجهم منها بالانحطاط إلى أسفل سافلين ووجوب التمييز بين الطائفتين جزاء باقتضاء الحكمة.

و السورة مكية و تحتمل المدنية و يؤيد نزولها بمكة قوله: **{ وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ }** و ليس بصريح فيه لاحتمال نزولها بعد الهجرة و هو (صلى الله عليه وآله وسلم) بمكة.

قوله تعالى: **{ وَ اللَّيْنِ وَ الزَّيْتُونِ وَ طُورِ سَيْنِينَ وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ }** قيل: المراد بالتين و الزيتون الفاكهتان المعروفتان أقسم الله بهما لما فيهما من الفوائد الجمّة و الخواص النافعة، و قيل المراد بهما شجرتا التين و الزيتون، و قيل: المراد بالتين الجبل الذي عليه دمشق و بالزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس، و لعل إطلاق اسم الفاكهتين على الجبلين لكونهما منبتهما و لعل الإقسام بهما لكونهما مبعثي جم غفير من الأنبياء و قيل غير ذلك.

و المراد بطور سينين الجبل الذي كلم الله تعالى فيه موسى بن عمران (عليه السلام)، و يسمى أيضا طور سيناء.

و المراد بهذا البلد الأمين مكة المشرفة لأن الأمن خاصة مشرعة للحرم و هي فيه قال تعالى: **{ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا }** العنكبوت: ٦٧ و في دعاء إبراهيم (عليه السلام) على ما حكى الله عنه: **{ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا }** البقرة: ١٢٦، و في دعائه ثانيا: **{ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا }** إبراهيم: ٣٥.

و في الإشارة بهذا إلى البلد تثبيت التشريف عليه بالتشخيص و توصيفه بالأمين إما لكونه فعلا بمعنى الفاعل و يفيد معنى النسبة و المعنى ذي الأمن كاللابن و التامر و إما لكونه فعلا بمعنى المفعول و المراد البلد الذي يؤمن الناس فيه أي لا يخاف فيه من غوائلهم ففي نسبة الأمن إلى البلد نوع تجوز.

قوله تعالى: **{ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }** جواب للقسم و المراد بكون خلقه في أحسن تقويم اشتمال التقويم عليه في جميع شئونه و جهات وجوده، و التقويم جعل الشيء ذا قوام و قوام الشيء ما يقوم به و يثبت فالإنسان و المراد به الجنس ذو أحسن قوام بحسب الخلق.

و معنى كونه ذا أحسن قوام بحسب الخلق على ما يستفاد من قوله بعد: **{ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ }** إنخ صلوحه بحسب الخلق للعروج إلى الرفيع الأعلى و الفوز بحياة خالدة عند ربه سعيدة لا شقوة معها، و ذلك بما جهزه الله به من العلم النافع و مكنه منه من العمل الصالح قال تعالى: **{ وَ نَفْسٍ وَ مَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَ تَقْوَاهَا }** الشمس: ٨ فإذا آمن بما علم و زاول صالح العمل رفعه الله إليه كما قال: **{ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ }** فاطر: ١٠، و قال: **{ وَ لَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ }** الحج: ٣٧.

و قال: **{يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}** {المجادلة: ١١} و قال: **{فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى}** طه: ٧٥ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ارتفاع مقام الإنسان و ارتفاعه بالإيمان و العمل الصالح عطاء من الله غير مجذوذ، و قد سماه تعالى أجرا كما يشير إليه قوله الآتي: **{فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}**.

قوله تعالى: **{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}** ظاهر الرد أن يكون بمعناه المعروف فأسفل منصوب بنزع الخافض، و المراد بأسفل سافلين مقام منحط هو أسفل من سفلى من أهل الشقوة و الخسران و المعنى ثم رددنا الإنسان إلى أسفل من سفلى من أهل العذاب.

و احتمال أن يكون الرد بمعنى الجعل أي جعلناه أسفل سافلين، و أن يكون بمعنى التغيير و المعنى ثم غيرناه حال كونه أسفل جمع سافلين، و المراد بالسفالة على أي حال الشقاء و العذاب.

و قيل: المراد بخلق الإنسان في أحسن تقويم ما عليه وجوده أو ان الشباب من استقامة القوى و كمال الصورة و جمال الهيئة، و برده إلى أسفل سافلين رده إلى الهرم بتضعيف قواه الظاهرة و الباطنة و نكس خلقته فتكون الآية في معنى قوله تعالى: **{وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ}** يس: ٦٨.

و فيه أنه لا يلائمه ما في قوله: **{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** من الاستثناء الظاهر في المتصل فإن حكم الخلق عام في المؤمن و الكافر و الصالح و الطالح و دعوى أن المؤمن أو المؤمن الصالح مصون من ذلك مجازفة.

و كذا القول بأن المراد بالإنسان هو الكافر و المراد بالرد رده إلى جهنم أو إلى نكس الخلق و الاستثناء منقطع.

قوله تعالى: **{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}** أي غير مقطوع استثناء متصل من جنس الإنسان، و تفریع قوله: **{فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}** عليه يؤيد كون المراد من رده إلى أسفل سافلين رده إلى الشقاء و العذاب.

قوله تعالى: **{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ}** الخطاب للإنسان باعتبار الجنس، و قيل للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و المراد غيره، و **{فَمَا}** استفهامية تويخية، و **{بِالذِّينِ}** متعلق بيكذبك، و الدين الجزاء و المعنى على ما قيل ما الذي يجعلك مكذبا بالجزاء يوم القيامة بعد ما جعلنا الإنسان طائفتين طائفة مردودة إلى أسفل سافلين و طائفة مأجورة أجرا غير ممنون.

وقوله: **{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}** الاستفهام للتقرير و كونه تعالى أحكم الحاكمين هو كونه فوق كل حاكم في إتقان الحكم و حقيقته و نفوذه من غير اضطراب و وهن و بطلان فهو تعالى يحكم في خلقه و تديره بما من الواجب في الحكمة أن يحكم به الناس من حيث الإتقان و الحسن و النفوذ وإذا كان الله تعالى أحكم الحاكمين و الناس طائفتان مختلفتان اعتقادا و عملا فمن الواجب في الحكمة أن يميز بينهم بالجزاء في حياتهم الباقية و هو البعث.

فالتفريع في قوله: **{فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ}** من قبيل تفريع النتيجة على المحجة و قوله: **{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}** تميم للمحجة المشار إليها بما يتوقف عليه تمامها.

والمحصل أنه إذا كان الناس خلقوا في أحسن تقويم ثم اختلفوا فطائفة خرجت عن تقويمها الأحسن و ردت إلى أسفل سافلين و طائفة بقيت في تقويمها الأحسن و على فطرتها الأولى و الله المدبر لأمرهم أحكم الحاكمين، و من الواجب في الحكمة أن تختلف الطائفتان جزاء، فهناك يوم تجزى فيه كل طائفة بما عملت و لا مسوغ للتكذيب به.

فالأيات - كما ترى - في معنى قوله تعالى: **{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ}** ص: ٢٨، و قوله: **{أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}** الجاثية: ٢١.

و بعض من جعل الخطاب في قوله: **{فَمَا يُكَذِّبُكَ}** للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) جعل «ما» بمعنى من و الحكم بمعنى القضاء، و عليه فالمعنى إذا كان الناس مختلفين و لازم ذلك اختلاف جزائهم في يوم معد للجزاء فمن الذي ينسبك إلى الكذب بالجزاء أليس الله بأقضى القاضين فهو يقضي بينك و بين المكذبين لك بالدين. و أنت خبير بأن فيه تكلفا من غير موجب.

بحث روائي

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَالَّتَيْنِ وَ الزَّيْتُونَ وَ طُورِ سِينِينَ وَ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ}** التين المدينة و الزيتون بيت المقدس و طور سينين الكوفة و هذا البلد الأمين مكة.

أقول: و قد ورد هذا المعنى في بعض الروايات عن موسى بن جعفر عن آبائه (عليهم السلام)

عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا يخلو من شيء، وفي بعضها: أن التين والزيتون الحسن و الحسين و الطور علي و البلد الأمين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وليس من التفسير في شيء. و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أن خزيمة بن ثابت و ليس بالأنصاري **سأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عن البلد الأمين فقال: مكة.**

(٩٦) سورة العلق مكية و هي تسع عشرة آية (١٩)

[سورة العلق (٩٦): الآيات ١ الى ١٩]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِفْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ إِفْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى ٦ أَنْ رَأَاهُ إِسْتَغْنَى ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَى ٨ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ١٠ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ١٢ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّىٰ ١٣ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهَ لِنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَ أَسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ ١٩}

(بيان)

أمر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بتلقي القرآن بالوحي منه تعالى و هي أول سورة نزلت من القرآن، و سياق آياتها لا يأبى نزولها دفعة واحدة كما سنشير إليه، و هي مكية قطعا.

قوله تعالى: {إفْرَأُ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ} قال الراغب: و القراءة ضم الحروف و الكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، و ليس يقال ذلك لكل

جمع لا يقال: قرأت القوم إذا جمعهم، ويدل على ذلك أنه لا يقال: للحرف الواحد إذا تفوه به: قراءة انتهى.

وعلى أي حال، يقال: قرأت الكتاب إذا جمعت ما فيه من الحروف والكلمات بضم بعضها إلى بعض في الذهن وإن لم تتلفظ بها، ويقال: قرأته إذا جمعت الحروف والكلمات بضم بعضها إلى بعض في التلفظ، ويقال قرأته عليه إذا جمعت بين حروفه و كلماته في سمعه و يطلق عليها بهذا المعنى التلاوة أيضا قال تعالى: **{رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً}** البينة: ٢.

و ظاهر إطلاق قوله: **{أَقْرَأُ}** المعنى الأول و المراد به الأمر بتلقي ما يوحى إليه ملك الوحي من القرآن فالجملة أمر بقراءة الكتاب و هي من الكتاب كقول القائل في مفتاح كتابه لمن أرسله إليه: اقرأ كتابي هذا و اعمل به فقوله هذا أمر بقراءة الكتاب و هو من الكتاب.

و هذا السياق يؤيد أولا ما ورد أن الآيات أول ما نزل من القرآن على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

و ثانيا أن التقدير اقرأ القرآن أو ما في معناه، و ليس المراد مطلق القراءة باستعمال «اقرأ» استعمال الفعل اللازم بالإعراض عن المفعول، و لا المراد القراءة على الناس بحذف المتعلق و إن كان ذلك من أغراض النزول كما قال: **{وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا}** إسرء: ١٠٦، و لا أن قوله: **{بِاسْمِ رَبِّكَ}** مفعول **{أَقْرَأُ}** و الباء زائدة و التقدير اقرأ اسم ربك أي بسمل.

و قوله: **{بِاسْمِ رَبِّكَ}** متعلق بمقدر نحو مفتحا و مبتدئا أو باقرأ و الباء للملابسة و لا ينافي ذلك كون البسملة المبتدأة بها السورة جزء من السورة فهي من كلام الله افتتح سبحانه بها و أمر أن يقرأ مبتدئا بها كما أمر أن يقرأ قوله: **{أَقْرَأْ بِاسْمِ}** إنح ففيه تعليم بالعمل نظير الأمر بالاستثناء في قوله: **{وَلَا تَقُولَنَّ لِسْئِئِ إِيَّيْ فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًّا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}** الكهف: ٢٤ فافهم ذلك.

و في: قوله **{رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}** إشارة إلى قصر الربوبية في الله عز اسمه و هو توحيد الربوبية المقتضية لقصر العبادة فيه فإن المشركين كانوا يقولون: إن الله سبحانه ليس له إلا الخلق و الإيجاد و أما الربوبية و هي الملك و التدبير فلمقربي خلقه من الملائكة و الجن و الإنس فدفعه الله بقوله: **{رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}** الناص على أن الربوبية و الخلق له وحده.

و قوله: **{خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ}** المراد جنس الإنسان المتناسل و العلق الدم المنجمد

و المراد به ما يستحيل إليه النطفة في الرحم.

ففي الآية إشارة إلى التدبير الإلهي الوارد على الإنسان من حين كان علقة إلى حين يصير إنسانا تاما كاملا له من أعاجيب الصفات و الأفعال ما تتحير فيه العقول فلم يتم الإنسان إنسانا و لم يكمل إلا بتدبير متعاقب منه تعالى و هو بعينه خلق بعد خلق فهو تعالى رب مدير لأمر الإنسان بعين أنه خالق له فليس للإنسان إلا أن يتخذه وحده ربا ففي الكلام احتجاج على توحيد الربوبية.

قوله تعالى: **{اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}** أمر بالقراءة ثانيا تأكيدا للأمر الأول على ما هو ظاهر سياق الإطلاق.

و قيل: المراد به الأمر بالقراءة على الناس و هو التبليغ بخلاف الأمر الأول فالمراد به الأمر بالقراءة لنفسه، كما قيل: إن المراد بالأمرين جميعا الأمر بالقراءة على الناس، و الوجهان غير ظاهرين.

و قوله: **{وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ}** أي الذي يفوق عطاؤه عطاء ما سواه فهو تعالى يعطي لا عن استحقاق و ما من نعمة إلا و ينتهي إيتاؤها إليه تعالى.

و قوله: **{الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ}** الباء للسببية أي علم القراءة أو الكتابة و القراءة بواسطة القلم و الجملة حالية أو استئنافية، و الكلام مسوق لتقوية نفس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و إزالة القلق و الاضطراب عنها حيث أمر بالقراءة و هو أمي لا يكتب و لا يقرأ كأنه قيل: اقرأ كتاب ربك الذي يوحيه إليك و لا تخف و الحال أن ربك الأكرم الذي علم الإنسان القراءة بواسطة القلم الذي يخط به فهو قادر على أن يعلمك قراءة كتابه و أنت أمي و قد أمرك بالقراءة و لو لم يقدرك عليها لم يأمرك بها.

ثم عمم سبحانه النعمة فذكر تعليمه للإنسان ما لم يعلم فقال: **{عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}** و فيه مزيد تقوية لقلب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و تطيب لنفسه.

و المراد بالإنسان الجنس كما هو ظاهر السياق و قيل: المراد به آدم (عليه السلام)، و قيل: إدريس (عليه السلام) لأنه أول من خط بالقلم، و قيل: كل نبي كان يكتب و هي وجوه ضعيفة بعيدة عن الفهم.

قوله تعالى: **{كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِيَ أَنْ رَأَهُ اسْتَغْنَى}** ردع عما يستفاد من الآيات السابقة أنه تعالى أنعم على الإنسان بعظائم نعم مثل التعليم بالقلم و سائر ما علم و التعليم

من طريق الوحي فعلى الإنسان أن يشكره على ذلك لكنه يكفر بنعمته تعالى ويطغى.

وقوله: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغِي}** أن يتعدى طوره، وهو إخبار بما في طبع الإنسان ذلك كقوله: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}** إبراهيم: ٣٤.

وقوله: **{أَنْ رَأَهُ اسْتَعْنَى}** من الرأي دون الرؤية البصرية، وفاعل **{رَأَاهُ}** و مفعوله الإنسان. و جملة **{أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْنَى}** في مقام التعليل أي ليطغى لأنه يعتقد نفسه مستغنيا عن ربه المنعم عليه فيكفر به، و ذلك أنه يشتغل بنفسه و الأسباب الظاهرية التي يتوصل بها إلى مقاصده فيغفل عن ربه من غير أن يرى حاجة منه إليه تبعثه إلى ذكره و شكره على نعمه فينساها و يطغى.

قوله تعالى: **{إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ}** الرجعى هو الرجوع و الظاهر من سياق الوعيد الآتي أنه وعيد و تهديد بالموت و البعث، و الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ، و قيل: الخطاب للإنسان بطريق الالتفات للتشديد، و الأول أظهر.

قوله تعالى: **{أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ}** بمنزلة ذكر بعض المصاديق للإنسان الطاغى و هو كالتوطئة لوعيده بتصريح العقاب و النهي عن طاعته و الأمر بعبادته تعالى، و المراد بالعبد الذي كان يصلي هو النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) على ما يستفاد من آخر الآيات حيث ينهاه (صلى الله عليه وآله و سلم) عن طاعة ذلك الناهي و يأمره بالسجود و الاقتراب.

و سياق الآيات - على تقدير كون السورة أول ما نزل من القرآن و نزولها دفعة واحدة - يدل على صلاة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) قبل نزول القرآن و فيه دلالة على نبوته قبل رسالته بالقرآن.

و أما ما ذكره بعضهم أنه لم يكن الصلاة مفروضة في أول البعثة و إنما شرعت ليلة المعراج على ما في الأخبار و هو قوله تعالى: **{أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكَ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ}** إسرء: ٧٨.

ففيه أن المسلم من دلالتها أن الصلوات الخمس اليومية إنما فرضت بهيئتها الخاصة ركعتين ركعتين ليلة المعراج و لا دلالة فيها على عدم تشريعها قبل و قد ورد في كثير من السور المكية و منها النازلة قبل سورة الإسرء كالمدر و المزملة و غيرهما ذكر الصلاة بتعبيرات مختلفة و إن لم يظهر فيها من كیفيتها إلا أنها كانت مشتملة على تلاوة شيء من القرآن و السجود.

و قد ورد في بعض الروايات صلاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مع خديجة و علي في أوائل البعثة
وإن لم يذكر كيفية صلاتهم.

و بالجملة قوله: **{أَرَأَيْتَ}** بمعنى أخبرني، و الاستفهام للتعجب، و المفعول الأول لقوله: **{أَرَأَيْتَ}** الأول
قوله: **{الَّذِي يَنْهَى}** و لأرأيت الثالث ضمير عائد إلى الموصول، و لأرأيت الثاني ضمير عائد إلى قوله: **{عَبْدًا}** و
المفعول الثاني لأرأيت في المواضع الثلاث قوله: **{أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}**.

و محصل معنى الآيات أخبرني عن الذي ينهى عبدا إذا صلى و عبد الله الناهي يعلم أن الله يرى ما يفعله
كيف يكون حاله. أخبرني عن هذا الناهي إن كان ذاك العبد المصلي على الهدى أو أمر بالتقوى كيف يكون
حال هذا الناهي و هو يعلم أن الله يرى. أخبرني عن هذا الناهي أن تلبس بالكذب للحق و التولي عن الإيمان به
و نهي العبد المصلي عن الصلاة و هو يعلم أن الله يرى؟ هل يستحق إلا العذاب؟

و قيل: المفعول الأول لأرأيت في جميع المواضع الثلاث هو الموصول أو الضمير العائد إليه تحرزا عن
التفكيك بين الضمائر.

و الأولى على هذا أن يجعل معنى قوله: **{أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالْتَّقْوَىٰ}** أخبرني عن هذا الناهي
إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى و هو يعلم أن الله يرى ما ذا كان يجب عليه أن يفعله و يأمر به؟ و كيف
يكون حاله و قد نهى عن عبادة الله سبحانه؟ و هو مع ذلك معنى بعيد و لا بأس بالتفكيك بين الضمائر مع
مساعدة السياق و إعانة القرائن.

و قوله: **{أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}** المراد به العلم على طريق الاستلزام فإن لازم الاعتقاد بأن الله خالق كل
شيء هو الاعتقاد بأن له علما بكل شيء و إن غفل عنه و قد كان الناهي وثنيا مشركا و الوثنية معترفون بأن الله
هو خالق كل شيء و ينزهونه عن صفات النقص فيرون أنه تعالى لا يجهل شيئا و لا يعجز عن شيء و هكذا.

قوله تعالى: **{كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ}** قال في الجمع: و السفح الجذب الشديد
يقال: سفعت بالشيء إذا قبضت عليه و جذبته جذبا شديدا. انتهى، و في توصيف الناصية بالكذب و الخطأ و
هما وصفا صاحب الناصية مجاز.

و في الكلام ردع و تهديد شديد، و المعنى ليس الأمر كما يقول و يريد أو ليس له ذلك.

أقسم لئن لم يكف عن نبيه و لم ينصرف لناخذن بناصيته أخذ الذليل المهان و نجذبته إلى العذاب تلك
الناصية التي صاحبها كاذب فيما يقول خاطئ فيما يفعل، و قيل: المعنى لنسمن ناصيته بالنار و نسودنها.

قوله تعالى: **{فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ}** النادي المجلس و كان المراد به أهل المجلس أي الجمع الذين يجتمع
بهم، و قيل: المجلس، و الزبانية الملائكة الموكلون بالنار، و قيل: الزبانية في كلامهم الشرط، و الأمر تعجيزي
أشير به إلى شدة الأخذ و المعنى فليدع هذا الناهي جمعه لينجوه منا سندع الزبانية الغلاظ الشداد الذين لا ينفع
معهم نصر ناصر.

قوله تعالى: **{كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَ أَسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ}** تكرار الردع للتأكيد، و قوله: **{لَا تُطِعْهُ}** أي لا تطعه في النهي
عن الصلاة و هي القرينة على أن المراد بالسجود الصلاة، و لعل الصلاة التي كان (صلى الله عليه وآله و سلم)
يأتي بها يومئذ كانت تسبيحه تعالى و السجود له و قيل: المراد به السجود لقراءة هذه السورة التي هي إحدى
العزائم الأربع في القرآن.

و الاقتراب التقرب إلى الله، و قيل: الاقتراب من ثواب الله تعالى.

بحث روائي

في الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و ابن جرير و ابن الأنباري
في المصاحف و ابن مردويه و البيهقي من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت:
أول ما بدئ به رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا
جاءت مثل فلق الصبح.

ثم حُبب إليه الخلاء و كان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه و هو التعب الليلي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى
أهله و يتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق و هو في غار حراء **فجاءه الملك فقال: اقرأ**
قال: قلت: ما أنا بقارئ. قال: **فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ قال:**
فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى
بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ
بِالْقَلَمِ} (الآية).

فرجع بها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروح فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي فقالت خديجة: كلا ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق^٢.

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة و كان امرأ قد تنصر في الجاهلية، و كان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، و كان شيخا كبيرا قد عمي فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي ما ذا ترى؟ فأخبره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خبر ما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى! يا ليتني أقول فيها جدعا يا ليتني أقول فيها حيا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): أ و مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرا ثم لم ينشب ورقة أن توفي و فتر الوحي.

قال ابن شهاب: و أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال و هو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء و الأرض فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني زملوني فأنزل الله: **{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَ رَبِّكَ فَكَبِيرٌ وَ تِيَابِكَ فَطَهْرٌ وَ الرَّجْزَ فَاهْجُرْ}** فحمي الوحي و تتابع.

و فيه، أخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير و أبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن شداد قال: أتى جبريل محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا محمد اقرأ. قال: و ما أقرأ فضمه ثم قال: يا محمد اقرأ. قال: و ما أقرأ. قال: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ}**. حتى بلغ **{مَا لَمْ يَعْلَمْ}**.

فجاء إلى خديجة فقال: يا خديجة ما أراه إلا قد عرض لي قالت: كلا و الله ما كان ربك يفعل ذلك بك و ما أتيت فاحشة قط فأنت خديجة ورقة فأخبرته الخبر قال: لئن كنت صادقة إن زوجك لني و ليلقين من أمته شدة و لئن أدركته لأومنن به.

قال: ثم أبطأ عليه جبريل فقالت خديجة: ما أرى ربك إلا قد قلاك فأنزل الله

^١ تكسي ط.

^٢ الخلق ط.

{وَالصُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ}

أقول: وفي رواية: أن الذي ألقاه جبريل سورة الحمد.

والقصة لا تخلو من شيء وأهون ما فيها من الإشكال شك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في كون ما شاهده وحيا إلهيا من ملك سماوي ألقى إليه كلام الله و تردده بل ظنه أنه من مس الشياطين بالجنون، وأشكل منه سكون نفسه في كونه نبوة إلى قول رجل نصراني مترهب وقد قال تعالى: **{قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي}** الأنعام: ٥٧ وأي حجة بينة في قول ورقة؟ وقال تعالى: **{قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي}** فهل بصيرته (صلى الله عليه وآله وسلم) هي سكون نفسه إلى قول ورقة؟ وبصيرة من اتبعه سكون أنفسهم إلى سكون نفسه إلى ما لا حجة فيه قاطعة؟ وقال تعالى: **{إِنَّا أَرْحَمْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَرْحَمْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ}** النساء: ١٦٣ فهل كان اعتمادهم في نبوتهم على مثل ما تفصه هذه القصة؟

والحق أن وحي النبوة والرسالة يلازم اليقين من النبي والرسول بكونه من الله تعالى على ما ورد عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

وفي المجمع، في قوله: **{أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ}** (الآية) أن أبا جهل قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فبالذي يحلف به لئن رأيتك يفعل ذلك لأطأن رقبتك فليل له: ها هو ذلك يصلي فانطلق ليطلقاً على رقبتك فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبه ويتقي بيديه فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهؤلاء أجنحة، وقال نبي الله: **والذي نفسي بيده لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا فأنزل الله {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ}** إلى آخر السورة. رواه مسلم في الصحيح.

وفي تفسير القمي في الآية: كان الوليد بن المغيرة ينهى الناس عن الصلاة وأن يطاع الله ورسوله فقال الله: **{أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ}**.

أقول: مفاده لا يلائم ظهور سياق الآيات في كون المصلي هو النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي المجمع، في الحديث عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً.**

وفي الكافي، بإسناده إلى الوشاء قال: سمعت الرضا (عليه السلام) يقول: **أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد وذلك قوله: {وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ}**.

وفي المجمع، روى عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **العزائم الم التنزيل وحم السجدة والنجم إذا هوى وقرأ باسم ربك، وما عداها في جميع القرآن مسنون وليس بمفروض.**

(٩٧) سورة القدر مكية و هي خمس آيات (٥)

[سورة القدر (٩٧): الآيات ١ الى ٥]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾}

(بيان)

تذكر السورة إنزال القرآن في ليلة القدر و تعظم الليلة بتفضيلها على ألف شهر و تنزل الملائكة و الروح فيها، و السورة تحتل المكية و المدنية و لا يخلو بعض^١ ما روي في سبب نزولها عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) و غيرهم من تأييد لكونها مدنية.

قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} ضمير {أَنْزَلْنَاهُ} للقرآن و ظاهره جملة الكتاب العزيز لا بعض آياته و يؤيده التعبير بالإنزال الظاهر في اعتبار الدفعة دون التنزيل الظاهر في التدرج.

و في معنى الآية قوله تعالى: {وَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ} الدخان: ٣ و ظاهره الإقسام بجملة الكتاب المبين ثم الإخبار عن إنزال ما أقسم به جملة.

فدلوا الآيات أن للقرآن نزولاً جملياً على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) غير نزوله التدريجي الذي تم في مدة ثلاث و عشرين سنة كما يشير إليه قوله: {وَ قُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكُتٍ وَ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} إسراء: ١٠٦ و قوله: {وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَ رَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا} الفرقان: ٣٢.

فلا يعاب بما قيل: إن معنى قوله: {أَنْزَلْنَاهُ} ابتدأنا بإنزاله و المراد إنزال بعض القرآن.

^١ و هو ما دل على أن السورة بعد رؤيا النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن بني أمية يصعدون منبره فاغتم فسلاه الله بها.

و ليس في كلامه تعالى ما يبين أن الليلة أية ليلة هي غير ما في قوله تعالى: **{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ}** البقرة: ١٨٥ فإن الآية بانضمامها إلى آية القدر تدل على أن الليلة من ليالي شهر رمضان. و أما تعيينها أزيد من ذلك فمستفاد من الأخبار و سيجيء بعض ما يتعلق به في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

و قد سماها الله تعالى ليلة القدر، و الظاهر أن المراد بالقدر التقدير فهي ليلة التقدير يقدر الله فيها حوادث السنة من الليلة إلى مثلها من قابل من حياة و موت و رزق و سعادة و شقاء و غير ذلك كما يدل عليه قوله في سورة الدخان في صفة الليلة: **{فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ}** الدخان: ٦ فليس فرق الأمر الحكيم إلا أحكام الحادثة الواقعة بخصوصياتها بالتقدير.

و يستفاد من ذلك أن الليلة متكررة بتكرر السنين ففي شهر رمضان من كل سنة قرية ليلة تقدر فيها أمور السنة من الليلة إلى مثلها من قابل إذ لا معنى لفرض ليلة واحدة بعينها أو ليال معدودة في طول الزمان تقدر فيها الحوادث الواقعة التي قبلها و التي بعدها و إن صح فرض واحدة من ليالي القدر المتكررة ينزل فيها القرآن جملة واحدة.

على أن قوله: **{يُفْرَقُ}** - و هو فعل مضارع - ظاهر في الاستمرار، و قوله: **{خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}** و **{تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ}** إلخ يؤيد ذلك.

فلا وجه لما قيل: إنها كانت ليلة واحدة بعينها نزل فيها القرآن من غير أن يتكرر، و كذا ما قيل: إنها كانت تتكرر بتكرر السنين في زمن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) ثم رفعها الله، و كذا ما قيل: إنها واحدة بعينها في جميع السنة و كذا ما قيل: إنها في جميع السنة غير أنها تتبدل بتكرر السنين فسنة في شهر رمضان و سنة في شعبان و سنة في غيرهما.

و قيل: القدر بمعنى المنزلة و إنما سميت ليلة القدر للاهتمام بمنزلتها أو منزلة المتعبدين فيها، و قيل: القدر بمعنى الضيق و سميت ليلة القدر لضيق الأرض فيها بنزول الملائكة. و الوجهان كما ترى.

فمحصل الآيات - كما ترى - أنها ليلة بعينها من شهر رمضان من كل سنة فيها أحكام الأمور بحسب التقدير، و لا ينافي ذلك وقوع التغيير فيها بحسب التحقق في ظرف السنة فإن التغيير في كيفية تحقق المقدر أمر و التغيير في التقدير أمر آخر كما أن إمكان التغيير في

الحوادث الكونية بحسب المشية الإلهية لا ينافي تعيينها في اللوح المحفوظ قال تعالى: **{وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}**

الرعد: ٣٩.

على أن لاستحكام الأمور بحسب تحققها مراتب من حيث حضور أسبابها و شرائطها تامة و ناقصة و من المحتمل أن تقع في ليلة القدر بعض مراتب الأحكام و يتأخر تمام الأحكام إلى وقت آخر لكن الروايات كما ستأتي لا تلائم هذا الوجه.

قوله تعالى: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ}** كناية عن جلالة قدر الليلة و عظم منزلتها و يؤكد ذلك إظهار الاسم مرة بعد مرة حيث قيل: **{مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَيْرٌ}** و لم يقل: و ما أدراك ما هي هي خير.

قوله تعالى: **{لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}** بيان إجمالي لما أشير إليه بقوله: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ}** من نفخامة أمر الليلة.

و المراد بكونها خيرا من ألف شهر خيريتها منها من حيث فضيلة العبادة على ما فسره المفسرون و هو المناسب لغرض القرآن و عنايته بتقريب الناس إلى الله فإحيائها بالعبادة خير من عبادة ألف شهر، و يمكن أن يستفاد ذلك من المباركة المذكورة في سورة الدخان في قوله: **{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ}** و هناك معنى آخر سيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

قوله تعالى: **{تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَ الرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}** تنزل أصله تنزل، و الظاهر من الروح هو الروح الذي من الأمر قال تعالى: **{قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي}** إسرء: ٨٥ و الإذن في الشيء الرخصة فيه و هو إعلام عدم المانع منه.

و **{مِنْ}** في قوله: **{مِنْ كُلِّ أَمْرٍ}** قيل: بمعنى الباء و قيل: لابتداء الغاية و تفيد السببية أي بسبب كل أمر إلهي، و قيل: للتعليل بالغاية أي لأجل تديير كل أمر من الأمور و الحق أن المراد بالأمر إن كان هو الأمر الإلهي المفسر بقوله **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ}** يس: ٨٢ فمن للابتلاء و تفيد السببية و المعنى تنزل الملائكة و الروح في ليلة القدر بإذن ربهم مبتدأ تنزلهم و صادرا من كل أمر إلهي.

و إن كان هو الأمر من الأمور الكونية و الحوادث الواقعة فمن بمعنى اللام التعليلية و المعنى تنزل الملائكة و الروح في الليلة بإذن ربهم لأجل تديير كل أمر من الأمور الكونية.

قوله تعالى: **{سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ}** قال في المفردات: السلام و السلامة التعري

من الآفات الظاهرة و الباطنة انتهى فيكون قوله: **{سَلَامٌ هِيَ}** إشارة إلى العناية الإلهية بشمول الرحمة لعباده المقبلين إليه و سد باب نقمة جديدة تختص بالليلة و يلزمه بالطبع و هن كيد الشياطين كما أشير إليه في بعض الروايات.

و قيل: المراد به أن الملائكة يسلمون على من مروا به من المؤمنين المتعبدين و مرجعه إلى ما تقدم.
و الآيتان أعني قوله: **{تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ}** إلى آخر السورة في معنى التفسير لقوله: **{لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}**.

بحث روائي

في تفسير البرهان، عن الشيخ الطوسي عن أبي ذر قال: **قلت يا رسول الله القدر شيء يكون على عهد الأنبياء ينزل عليهم فيها الأمر فإذا مضوا رفعت؟ قال: لا بل هي إلى يوم القيامة.**
أقول: و في معناه غير واحد من الروايات من طرق أهل السنة.

و في المجمع، و عن حماد بن عثمان عن حسان بن أبي علي قال: **سألت أبا عبد الله (عليه السلام) عن ليلة القدر قال: اطلبها في تسع عشرة وإحدى وعشرين و ثلاث وعشرين.**

أقول: و في معناه غيرها، و في بعض الأخبار التردد بين ليلتين الإحدى و العشرين و الثلاث و العشرين كرواية العياشي عن عبد الواحد عن الباقر (عليه السلام) و يستفاد من روايات أنها ليلة ثلاث و عشرين و إنما لم يعين تعظيماً لأمرها أن لا يستهان بها بارتكاب المعاصي.

و فيه، أيضاً في رواية عبد الله بن بكير عن زرارة عن أحدهما (عليهما السلام) قال: **ليلة ثلاث و عشرين هي ليلة الجهني، و حديثه أنه قال لرسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) . إن منزلي نائي عن المدينة فبرني بليلة أدخل فيها فأمره بليلة ثلاث و عشرين.**

أقول: و حديث الجهني و اسمه عبد الله بن أنيس الأنصاري مروى من طرق أهل السنة أيضاً أورده في الدر المنثور، عن مالك و البيهقي.

و في الكافي، بإسناده عن زرارة قال: قال أبو عبد الله (عليه السلام): **التقدير في تسع عشرة، و الإبرام في ليلة إحدى و عشرين، و الإمضاء في ليلة ثلاث و عشرين.**

أقول: و في معناها روايات أخر.

فقد اتفقت أخبار أهل البيت (عليهم السلام) أنها باقية متكررة كل سنة، وأنها ليلة من ليالي شهر رمضان وأنها إحدى الليالي الثلاث.

وأما من طرق أهل السنة فقد اختلفت الروايات اختلافا عجيبا يكاد لا يضبط والمعروف عندهم أنها ليلة سبع وعشرون فيها نزل القرآن، ومن أراد الحصول عليها فليراجع الدر المنثور و سائر الجوامع.

وفي الدر المنثور، أخرج الخطيب عن ابن المسيب قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **رأيت بني أمية يصعدون منبري فشق ذلك علي فأنزله الله إنا أنزلناه في ليلة القدر.**

أقول: وروي أيضا مثله عن الخطيب في تاريخه، عن ابن عباس، وأيضا ما في معناه عن الترمذي وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي عن الحسن بن علي وهناك روايات كثيرة في هذا المعنى من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وفيها أن الله تعالى سلا نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) بإعطاء ليلة القدر وجعلها خيرا من ألف شهر وهي مدة ملك بني أمية.

وفي الكافي، بإسناده عن ابن أبي عمير عن غير واحد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال له بعض أصحابنا ولا أعلمه إلا سعيد السمان: **كيف تكون ليلة القدر خيرا من ألف شهر؟ قال: العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.**

وفيه، بإسناده عن الفضيل وزرارة ومحمد بن مسلم عن حمران أنه سأل أبا جعفر (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: **{إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ}** قال: نعم ليلة القدر وهي في كل سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر فلم ينزل القرآن إلا في ليلة القدر قال الله عز وجل: **{فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}**.

قال: يقدر في ليلة القدر كل شيء يكون في تلك السنة إلى مثلها من قابل: خير و شر طاعة و معصية و مولود و أجل أو رزق فما قدر في تلك الليلة وقضي فهو المحتوم والله عز وجل فيه المشية.

قال: قلت: **{لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}** أي شيء عنى بذلك؟ فقال: والعمل الصالح فيها من الصلاة والزكاة وأنواع الخير خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، ولو لا ما يضاعف الله تبارك وتعالى للمؤمنين ما بلغوا ولكن الله يضاعف لهم الحسنات.

أقول: وقوله: والله فيه المشية يريد به إطلاق قدرته تعالى فله أن يشاء ما يشاء

وإن حتم فإن إيجابه الأمر لا يفيد القدرة المطلقة فله أن ينقض القضاء المحتوم وإن كان لا يشاء ذلك أبداً.

وفي المجمع، روى ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: إذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة الذين هم سكان سدرة المنتهى ومنهم جبرائيل فينزل جبرائيل ومعه ألوية ينصب لواء منها على قبري ولواء على بيت المقدس ولواء في المسجد الحرام ولواء على طور سيناء ولا يدع فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلم عليه إلا مدمن نحر وأكل لحم الخنزير^١ والمتضمن بالزعفران.

وفي تفسير البرهان، عن سعد بن عبد الله بإسناده عن أبي بصير قال: كنت مع أبي عبد الله (عليه السلام) فذكر شيئاً من أمر الإمام إذا ولد فقال: استوجب زيادة الروح في ليلة القدر فقلت: جعلت فداك أليس الروح هو جبرئيل؟ فقال: جبرئيل من الملائكة والروح أعظم من الملائكة أليس أن الله عز وجل يقول: {تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ}.

أقول: و الروايات في ليلة القدر و فضلها كثيرة جداً، و قد ذكرت في بعضها لها علامات ليست بدائمة و لا أكثرية كطلوع الشمس صبيحتها و لا شعاع لها و اعتدال الهواء فيها أغمضنا عنها.

(٩٨) سورة البينة مدنية و هي ثمان آيات (٨)

[سورة البينة (٩٨): الآيات ١ الى ٨]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝
رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۝ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۝
وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ

^١ تضمخ بالطيب تلطخ به.

الْقِيَمَةِ ٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ٧ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ ٨

(بيان)

تسجل السورة رسالة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) لعامة أهل الكتاب والمشركون و بعبارة أخرى للملئين وغيرهم وهم عامة البشر فتفيد عموم الرسالة و أنها مما كانت تقتضيه السنة الإلهية - سنة الهداية - التي تشير إليها أمثال قوله تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} الإنسان: ٣، وقوله: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} فاطر: ٢٤، وتحتج على عموم دعوته (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنها لا تتضمن إلا ما يصلح المجتمع الإنساني من الاعتقاد والعمل على ما سيتضح إن شاء الله.

و السورة تحمل المكية والمدنية وإن كان سياقها بالمدنية أشبه.

قوله تعالى: {لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} ظاهر الآيات وهي في سياق يشير إلى قيام الحجّة على الذين كفروا بالدعوة الإسلامية من أهل الكتاب والمشركون وعلى الذين أوتوا الكتاب حينما بدا فيهم الاختلاف أن المراد هو الإشارة إلى أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) من مصاديق الحجّة البينة القائمة على الناس التي تقتضي قيامها السنة الإلهية الجارية في عباده فقد كانت توجب مجيء البينة إليهم كما أوجبه من قبل ما تفرقوا في دينهم.

و على هذا فالمراد بالذين كفروا في الآية هم الكافرون بالدعوة النبوية الإسلامية من أهل الكتاب و المشركون، و {مِنْ} في قوله: {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} للتبعيض لا للتبيين، و قوله: و {الْمُشْرِكِينَ} عطف على {أَهْلِ الْكِتَابِ} و المراد بهم غير أهل الكتاب من عبدة الأصنام وغيرهم.

وقوله: **{مُنْفَكَيْنَ}** من الانفكاك وهو الانفصال عن شدة اتصال، والمراد به على ما يستفاد من قوله: **{حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}** انفكاكهم عما تقتضي سنة الهداية والبيان كان السنة الإلهية كانت قد أخذتهم ولم تكن تتركهم حتى تأتيتهم البينة ولما أتتهم البينة تركتهم وشأنهم كما قال تعالى: **{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ}** التوبة: ١١٥.

وقوله: **{حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ}** على ظاهره من الاستقبال والبينة هي الحجّة الظاهرة والمعنى لم يكن الذين كفروا برسالة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو بدعوته أو بالقرآن لينفكوا حتى تأتيتهم البينة والبينة هي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

وللقوم اختلاف عجيب في تفسير الآية ومعاني مفرداتها حتى قال بعضهم - على ما نقل -: إن الآية من أصعب الآيات القرآنية نظماً وتفسيراً. انتهى، والذي أوردناه من المعنى هو الذي يلائمه سياقها من غير تناقض بين الآيات وتدافع بين الجمل والمفردات، ومن أراد الاطلاع على تفصيل ما قيل ويقال فعليه أن يراجع المطولات.

قوله تعالى: **{رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتِبَ قَيِّمَةٌ}** بيان للبينة والمراد به محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قطعاً على ما يعطيه السياق.

والصحف جمع صحيفة وهي ما يكتب فيها، والمراد بها أجزاء القرآن النازلة وقد تكرر في كلامه تعالى إطلاق الصحف على أجزاء الكتب السماوية ومنها القرآن الكريم قال تعالى: **{فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ}** عبس: ١٦.

والمراد بكون الصحف مطهرة تقدسها من فذارة الباطل بمس الشياطين، وقد تكرر منه تعالى أنه حق مصون من مداخله الشياطين وقال: **{لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ}** الواقعة: ٧٩.

وقوله: **{فِيهَا كُتِبَ قَيِّمَةٌ}** الكتب جمع كتاب ومعناه المكتوب ويطلق على اللوح والقرطاس ونحوهما المنقوشة فيها الألفاظ وعلى نفس الألفاظ التي تحكي عنها النقوش، وربما يطلق على المعاني بما أنها محكية بالألفاظ، ويطلق أيضاً على الحكم والقضاء يقال كتب عليه كذا أي قضى أن يفعل كذا قال تعالى: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ}** البقرة: ١٨٣ وقال: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ}** البقرة: ٢١٦.

والظاهر أن المراد بالكتب التي في الصحف الأحكام والقضايا الإلهية المتعلقة بالاعتقاد

و العمل، و من الدليل عليه توصيفها بالقيامة فإنها من القيام بالشيء بمعنى حفظه و مراعاة مصلحته و ضمان سعادته قال تعالى: **{أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَقِيمُ}** يوسف: ٤٠، و معلوم أن الصحف السماوية إنما تقوم بأمر المجتمع الإنساني و تحفظ مصلحته بما فيها من الأحكام و القضايا المتعلقة بالاعتقاد و العمل.

فمعنى الآيتين: الحججة البينة التي أتتهم رسول من الله يقرأ صحائف سماوية مطهرة من دنس الباطل في تلك الصحائف أحكام و قضايا قائمة بأمر المجتمع الإنساني حافظة لمصالحه.

قوله تعالى: **{وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ}** كانت الآية الأولى **{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}** إنلح تشير إلى كفرهم بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و كتابه المتضمن للدعوة للحققة و هذه الآية تشير إلى اختلافهم السابق على الدعوة الإسلامية و قد أشير إلى ذلك في مواضع من القرآن الكريم كما قال تعالى: **{وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ}** آل عمران: ١٩ إلى غير ذلك من الآيات.

و مجيء البينة لهم هو البيان النبوي الذي تبين لهم في كتابهم أو أوضحه لهم أنبياءهم قال تعالى: **{وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأَبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ}** الزخرف: ٦٥.

فإن قلت: ما باله تعرض لاختلاف أهل الكتاب و تفرقهم في مذاهبهم و لم يتعرض لتفرق المشركين و إعراضهم عن دين التوحيد و إنكارهم الرسالة.

قلت: لا يبعد أن يكون قوله: **{وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ}** إنلح شاملا للمشركين كما هو شامل لأهل الكتاب فقد بدل أهل الكتاب - و هم في عرف القرآن اليهود و النصارى و الصابئون و المجوس أو اليهود و النصارى - من الذين أوتوا الكتاب، و التعبيران متغايران، و قد صرح تعالى بأنه أنزل الكتاب - و هو الشريعة المفروضة عليهم الحاكمة في اختلافاتهم في أمور الحياة - أول ما بدا الاختلافات الحيوية بينهم ثم اختلفوا في الدين بعد تبين الحق لهم و قيام الحججة عليهم فعامة البشر آتاهم الله كتابا ثم اختلفوا فيه فمنهم من نسي ما أوتيته، و منهم من أخذ به محرفا و منهم من حفظه و آمن به، قال تعالى: **{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ**

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ} البقرة: ٢١٣ و قد مر تفسير الآية.

و في هذا المعنى قوله تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} إلى أن قال {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اِخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ} البقرة: ٢٥٣.

و بالجملة فالذين أوتوا الكتاب أعم من أهل الكتاب فقوله: {وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} إلخ يشمل المشركين كما يشمل أهل الكتاب.

قوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ} إلخ ضمير {أُمِرُوا} للذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين أي لم يتضمن رسالة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) و الكتب القيمة التي في صحف الوحي إلا أمرهم بعبادة الله تعالى بقيد الإخلاص في الدين فلا يشركوا به شيئاً.

و قوله: {حُنَفَاءَ} حال من ضمير الجمع و هو جمع حنيف من الحنف و هو الميل عن جانبي الإفراط و التفريط إلى حاق وسط الاعتدال و قد سمي الله تعالى الإسلام ديناً حنيفاً لأنه يأمر في جميع الأمور بلزوم الاعتدال و التحرز عن الإفراط و تفريط.

و قوله: {وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ} من قبيل ذكر الخاص بعد العام أو الجزء بعد الكل اهتماماً بأمره فالصلاة و الزكاة على أركان الإسلام و هما التوجه العبودي الخاص إلى الله و إنفاق المال في الله.

و قوله: {وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ} أي دين الكتب القيمة على ما فسروا، و المراد بالكتب القيمة إن كان جميع الكتب السماوية أعني كتاب نوح و من دونه من الأنبياء (عليهم السلام) فالمعنى أن هذا الذي أمروا به و دعوا إليه في الدعوة المحمدية هو الدين الذي كلفوا به في كتبهم القيمة و ليس بأمر بدع فدين الله واحد و عليهم أن يدينوا به لأنه القيم.

و إن كان المراد به ما كان يتلوه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الكتب القيمة التي في الصحف المطهرة فالمعنى أنهم لم يؤمروا في الدعوة الإسلامية إلا بأحكام و قضايا هي القيمة الحافظة لمصالح المجتمع الإنساني فلا يسعهم إلا أن يؤمنوا بها و يتدينوا.

فالآية على أي حال تشير إلى كون دين التوحيد الذي يتضمنه القرآن الكريم المصدق لما بين يديه من الكتاب و المهيمن^١ عليه فيما يأمر المجتمع البشري قائماً بأمرهم حافظاً

لمصالح حياتهم كما يبينه بأوفى البيان قوله تعالى: **{فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}** الروم: ٣٠.

وبهذه الآية يكمل بيان عموم رسالة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وشمول الدعوة الإسلامية لعامة البشر فقوله: **{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ}** إخل يشير إلى أنه كان من الواجب في سنة الهداية الإلهية أن تتم الحجة على من كفر بالدعوة من أهل الكتاب و المشركين، وهؤلاء وإن كانوا بعض أهل الكتاب و المشركين لكن من الضروري أن لا فرق بين البعض و البعض في تعلق الدعوة فتعلقها بالبعض لا ينفك عن تعلقها بالكل.

وقوله: **{رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ}** إخل يشير إلى أن تلك البينة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وقوله: **{وَمَا تَفَرَّقَ}** إخل يشير إلى أن تفرقهم و كفرهم السابق بالحق أيضا كان بعد مجيء البينة.

وقوله: **{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ}** إخل يفيد أن الذي دعوا إليه و أمروا به دين قيم حافظ لمصالح المجتمع البشري فعليهم جميعا أن يؤمنوا به و لا يكفروا.

قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ}** لما فرغ من الإشارة إلى كفرهم بالبينة التي كانت توجبها سنة الهداية الإلهية و ما كانت تدعو إليه من الدين القيم أخذ في الإنذار و التبشير بوعيد الكفار و وعد المؤمنين، و البرية الخلق، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}** فيه قصر الخيرية في المؤمنين الصالحين كما أن في الآية السابقة قصر الشرية في الكفار.

قوله تعالى: **{جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ}** - إلى قوله - **{ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ}** العدن الاستقرار و الثبات فجئات عدن جنات خلود و دوام و توصيفها بقوله: **{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً}** تأكيد بما يدل عليه الاسم.

وقوله: **{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ}** الرضى منه تعالى صفة فعل و مصداقه الثواب الذي أعطاهموه جزاء لإيمانهم و عملهم الصالح.

وقوله: **{ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ}** علامة مضروبة لسعادة الدار الآخرة و قد قال تعالى: **{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}** فاطر: ٢٨ فالعلم بالله يستتبع الخشية منه، و الخشية منه تستتبع الإيمان به بمعنى الالتزام القلبي بربوبيته و ألوهيته ثم العمل الصالح.

و اعلم أن لهم في تفسير مفردات هذه الآيات اختلافا شديدا و أقوالا كثيرة لا جدوى في التعرض لها من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات.

(بحث روائي)

في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: البينة محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) .

وفي الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله من أكرم الخلق على الله؟ قال: يا عائشة أ ما تقرئين {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ}؟

وفيه، أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فأقبل علي فقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة ونزلت {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} فكان أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا أقبل علي قالوا: جاء خير البرية.

أقول: وروي هذا المعنى أيضا عن ابن عدي عن ابن عباس، وأيضا عن ابن مردويه عن علي (عليه السلام) ورواه أيضا في البرهان، عن الموفق بن أحمد في كتاب المناقب عن يزيد بن شراحيل الأنصاري كاتب علي عنه، وكذا في المجمع، عن كتاب شواهد التنزيل للحاكم عن يزيد بن شراحيل عنه، ولفظه: سمعت عليا يقول: قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنا مسنده إلى صدري فقال: يا علي ألم تسمع قول الله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} هم شيعتك وموعدي وموعدكم الحوض إذا اجتمع الأمم للحساب يدعون غرا مجملين.

وفي المجمع، عن مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس في قوله: {هُم خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} قال: نزلت في علي وأهل بيته.

(٩٩) سورة الزلزال مدنية وهي ثمان آيات (٨)

[سورة الزلزلة (٩٩): الآيات ١ الى ٨]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

(بيان)

ذكر للقيامة و صدور الناس للجزاء و إشارة إلى بعض أشراتها و هي زلزلة الأرض و تحديثها أخبارها. و
السورة تحمل المكية و المدنية.

قوله تعالى: **{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا}** الزلزال مصدر كالزلزلة، و إضافته إلى ضمير الأرض تفيد
الاختصاص، و المعنى إذا زلزلت الأرض زلزلتها الخاصة بها فتفيد التعظيم و التفخيم أي أنها منتهية في الشدة و
الهول.

قوله تعالى: **{وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا}** الأثقال جمع ثقل بفتح تين بمعنى المتاع أو خصوص متاع المسافر أو
جمع ثقل بالكسر فالسكون بمعنى الحمل، و على أي حال المراد بأثقالها التي تخرجها، الموتى على ما قيل أو الكنوز
و المعادن التي في بطنها أو الجميع و لكل قائل و أول الوجوه أقربها ثم الثالث لتكون الآية إشارة إلى خروجهم
للساب، و قوله: **{يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ}** إشارة إلى انصرافهم إلى الجزاء.

قوله تعالى: **{وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا}** أي يقول مدهوشا متعجبا من تلك الزلزلة الشديدة الهائلة: ما للأرض
تتنزل هذا الزلزال، و قيل: المراد بالإنسان الكافر غير المؤمن بالبعث، و قيل غير ذلك كما سيجيء.

قوله تعالى: **{يَوْمَئِذٍ نُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا}** فتشهد على أعمال بني آدم كما تشهد بها أعضاؤهم و
كتاب الأعمال من الملائكة و شهداء الأعمال من البشر و غيرهم.

و قوله: **{بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا}** اللام بمعنى إلى لأن الإيحاء يتعدى بإلى و المعنى تحدث أخبارها بسبب أن
ربك أوحى إليها أن تحدث فهي شاعرة بما يقع فيها من الأعمال خيرا و شرها متحملة لها يؤذن لها يوم القيامة
بالوحي أن تحدث أخبارها و تشهد بما تحملت، و قد تقدم في تفسير قوله تعالى: **{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ
لَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}** إسرء: ٤٤، و قوله: **{قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ}** حم السجدة: ٢١ أن
المستفاد من كلامه سبحانه أن الحياة و الشعور ساريان في الأشياء

وإن كنا في غفلة من ذلك.

وقد اشتد الخلاف بينهم في معنى تحديث الأرض بالوحي أ هو بإعطاء الحياة و الشعور للأرض الميتة حتى تخبر بما وقع فيها أو بخلق صوت عندها و عد ذلك تكلمها منها أو دلالتها بلسان الحال بما وقع فيها من الأعمال، و لا محل لهذا الاختلاف بعد ما سمعت و لا أن الحجة تتم على أحد بهذا النوع من الشهادة.

قوله تعالى: **{يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ}** الصدور انصراف الإبل عن الماء بعد وروده، و أشتات كشتى جمع شتيت بمعنى المتفرق، و الآية جواب بعد جواب لإذا.

و المراد بصدور الناس متفرقين يومئذ انصرفهم عن الموقف إلى منازلهم في الجنة و النار و أهل السعادة و الفلاح منهم متميزون من أهل الشقاء و الهلاك، و إراءتهم أعمالهم إراءتهم جزء أعمالهم بالحلول فيه أو مشاهدتهم نفس أعمالهم بناء على تجسم الأعمال.

و قيل: المراد به خروجهم من قبورهم إلى الموقف متفرقين متميزين بسواد الوجوه و بياضها و بالفرع و الأمن و غير ذلك لإعلامهم جزء أعمالهم بالحساب و التعبير عن العلم بالجزاء بالرؤية و عن الاعلام بالإراءة نظير ما في قوله تعالى: **{يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَ مَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ}** آل عمران: ٣٠، و الوجه الأول أقرب و أوضح.

قوله تعالى: **{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}** الميثقال ما يوزن به الأثقال، و الذرة ما يرى في شعاع الشمس من الهباء، و تقال لصغار النمل.

تفريع على ما تقدم من إراءتهم أعمالهم، فيه تأكيد البيان في أنه لا يستثني من الإراءة عمل خيرا أو شرا كبيرا أو صغيرا حتى ميثقال الذرة من خيرا أو شرا، و بيان حال كل من عمل الخير و الشر في جملة مستقلة لغرض إعطاء الضابط و ضرب القاعدة.

و لا منافاة بين ما تدل عليه الآياتان من العموم و بين الآيات الدالة على حبط الأعمال، و الدالة على انتقال أعمال الخير و الشر من نفس إلى نفس كحسنة القاتل إلى المقتول و سيئات المقتول إلى القاتل، و الدالة على تبديل السيئات حسنات في بعض التائين إلى غير ذلك مما تقدمت الإشارة إليه في بحث الأعمال في الجزء الثاني من الكتاب و كذا في تفسير قوله: **{لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}** الآية: الأنفال: ٣٧.

و ذلك لأن الآيات المذكورة حاكمة على هاتين الآيتين فإن من حبط عمله الخير محكوم بأنه لم يعمل خيرا فلا عمل له خيرا حتى يراه و على هذا القياس في غيره فافهم.

بحث روائي

في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل ما عمل على ظهرها وقرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} حتى بلغ {يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا} قال أ تدرّون ما أخبارها؟ جاءني جبريل قال: خبرها إذا كان يوم القيامة أخبرت بكل عمل عمل على ظهرها.**

أقول: وروي مثله عن أبي هريرة.

وفيه، أخرج الحسين بن سفيان في مسنده و أبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:

أيها الناس إن الدنيا عرض حاضرياً كل منه البر و الفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر يحق فيها الحق و يبطل الباطل.

أيها الناس كونوا من أبناء الآخرة و لا تكونوا من أبناء الدنيا فإن كل أم يتبعها ولدها عملوا و أنتم من الله على حذر، و اعلموا أنكم معروضون على أعمالكم و أنكم ملاقوا الله لا بد منه فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره و من يعمل مثقال ذرة شراً يره.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا}** قال: من الناس **{وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا}** قال: ذلك أمير المؤمنين (عليه السلام) **{يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا}** - إلى قوله - **{أَشْتَاتًا}** قال: يجيئون أشتاتاً مؤمنين و كافرين و منافقين **{لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ}** قال: يقفون على ما فعلوه.

وفيه، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله: **{فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ}** يقول: إن كان من أهل النار قد عمل مثقال ذرة في الدنيا خيراً (كان عليه ظ) يوم القيامة حسرة إن كان عمله لغير الله **{وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}** يقول: إن كان من أهل الجنة رأى ذلك الشريوم القيامة ثم غفر له.

(١٠٠) سورة العاديات مدنية و هي إحدى عشرة آية (١١)

[سورة العاديات (١٠٠): الآيات ١ الى ١١]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ ﴿٢﴾

{قَدْحاً ٢} فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ٤ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ٥ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٨ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمَاهُ فِي الْقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ١١}

(بيان)

تذكر السورة كفران الإنسان لنعم ربه و حبه الشديد للخير عن علم منه به و هو حجة عليه و سيحاسب على ذلك.

و السورة مدنية بشهادة ما في صدرها من الإقسام بمثل قوله: {وَالْعَادِيَاتِ صُبْحاً} إنخ الظاهر في خيل الغزاة المجاهدين على ما سيجيء، وإنما شرع الجهاد بعد الهجرة و يؤيد ذلك ما ورد من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) أن السورة نزلت في علي (عليه السلام) و سرية في غزوة ذات السلاسل، و يؤيده أيضا بعض الروايات من طرق أهل السنة على ما سنشير إليه في البحث الروائي التالي إن شاء الله.

قوله تعالى: {وَالْعَادِيَاتِ صُبْحاً} العاديات من العدو و هو الجري بسرعة و الضبح صوت أنفاس الخيل عند عدوها و هو المعهود المعروف من الخيل و إن ادعي أنه يعرض لكثير من الحيوان غيرها، و المعنى أقسم بالخيل اللاتي يعدون يضبحن ضبحا.

و قيل: المراد بها إبل الحاج في ارتفاعها بركبتها من الجمع إلى منى يوم النحر، و قيل: إبل الغزاة، و ما في الآيات التالية من الصفات لا يلائم كون الإبل هو المراد بالعاديات.

قوله تعالى: {فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً} الإبراء إخراج النار و القدح الضرب و الصك المعروف يقال: قدح فأورى إذا أخرج النار بالقدح، و المراد بها الخيل تخرج النار بحوافرها إذا عدت على الحجارة و الأرض المحصبة.

و قيل: المراد بالإبراء مكر الرجال في الحرب، و قيل: إيقادهم النار، و قيل: الموريات ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما تتكلم به، و هي وجوه ظاهرة الضعف.

قوله تعالى: {فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً} الإغارة و الغارة الهجوم على العدو بغتة بالخيل و هي

صفة أصحاب الخيل ونسبتها إلى الخيل مجاز، والمعنى فأقسم بالخيال المهاجمات على العدو بغتة في وقت الصباح.
وقيل: المراد بها الآبال ترتفع بركابها يوم النحر من جمع إلى منى والسنة أن لا ترتفع حتى تصبح، والإغارة
سرعة السير وهو خلاف ظاهر الإغارة.

قوله تعالى: **{فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا}** أثرن من الإثارة بمعنى تهيج الغبار ونحوه، والنقع الغبار، والمعنى فهيجن بالعدو و
الإغارة غبارا.

قيل: لا بأس بعطف **{فَأَثَرُنَ}** وهو فعل على ما قبله وهو صفة لأنه اسم فاعل وهو في معنى الفعل كأنه قيل:
أقسم باللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن.

قوله تعالى: **{فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا}** وسط وتوسط بمعنى، و ضمير **{بِهِ}** للصبح والباء بمعنى في أو الضمير للنقع والباء
للملابسة.

و المعنى فصرن في وقت الصباح في وسط جمع والمراد به كتيبة العدو أو المعنى فتوسطن جمعا ملاسين للنقع.
وقيل: المراد توسط الآبال جمع منى وأنت خبير بأن حمل الآيات الخمس بما لمفرداتها من ظواهر المعاني على إبل
الحاج الذين يفيضون من جمع إلى منى خلاف ظاهرها جدا.

فالمتمعن حملها على خيل الغزاة و سياق الآيات و خاصة قوله: **{فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا}** **{فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا}** يعطي أنها
غزاة بعينها أقسم الله فيها بخيل المجاهدين العاديات و الفاء في الآيات الأربع تدل على ترتب كل منها على ما قبلها.

قوله تعالى: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}** الكنود الكفور، والآية كقوله: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ}** الحج: ٦٦، وهو إخبار
عما في طبع الإنسان من اتباع الهوى والانكباب على عرض الدنيا والانقطاع به عن شكر ربه على ما أنعم عليه.
و فيه تعريض للقوم المغار عليهم، و كان المراد بكفرانهم كفرانهم بنعمة الإسلام التي أنعم الله بها عليهم وهي
أعظم نعمة أوتوها فيها طيب حياتهم الدنيا وسعادة حياتهم الأبدية الأخرى.

قوله تعالى: **{وَرِئَاءَهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لِشَهِيدٌ}** ظاهر اتساق الضمائر أن يكون ضمير **{وَرِئَاءَهُ}** للإنسان فيكون المراد بكونه شهيدا
على كفران نفسه بكفران نفسه علمه المذموم وتحملة له.

فالمعنى وإن الإنسان على كفرانه بربه شاهد متحمل فالآية في معنى قوله: **{بَل}**

الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ} القيامة: ١٤ .

وقيل: الضمير لله و اتساق الضمائر لا يلائمه.

قوله تعالى: **{وَأِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}** قيل: اللام في **{لِحُبِّ الْخَيْرِ}** للتعليل و الخير المال، و المعنى و إن الإنسان لأجل حب المال لشديد أي بخيل شحيح، و قيل: المراد أن الإنسان لشديد الحب للمال و يدعو ذلك إلى الامتناع من إعطاء حق الله، و الإنفاق في الله. كذا فسروا.

و لا يبعد أن يكون المراد بالخير مطلقة و يكون المراد أن حب الخير فطري للإنسان ثم إنه يرى عرض الدنيا و زينتها خيرا فتجذب إليه نفسه و ينسيه ذلك ربه أن يشكره.

قوله تعالى: **{أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ}** - إلى قوله - **{لِخَيْرٍ}** البعثة كالبحثة البعث و النشر، و تحصيل ما في الصدور تمييز ما في باطن النفوس من صفة الإيمان و الكفر و رسم الحسنة و السيئة قال تعالى: **{يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}** الطارق: ٩، و قيل: هو إظهار ما أخفته الصدور لتجازى على السر كما تجازى على العلانية.

و قوله: **{أَفَلَا يَعْلَمُ}** الاستفهام فيه للإنكار، و مفعول يعلم جملة قائمة مقام المفعولين يدل عليه المقام. ثم استؤنف فقيل: إذا بعث ما في القبور إلخ تأكيداً للإنكار، و المراد بما في القبور الأبدان.

و المعنى - و الله أعلم - أ فلا يعلم الإنسان أن لكونه و كفرانه بربه تبعة ستلحقه و يجازى بها، إذا أخرج ما في القبور من الأبدان و حصل و ميز ما في سرائر النفوس من الإيمان و الكفر و الطاعة و المعصية إن ربهم بهم يومئذ لخبير فيجازيهم بما فيها.

(بحث روائي)

في المجمع، قيل: بعث رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) سرية إلى حي من كنانة فاستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري أحد النقباء فتأخر رجوعهم فقال المنافقون: قتلوا جميعاً فأخبر الله تعالى عنها بقوله: **{وَأَلْعَادِيَاتِ صَبْحًا}** عن مقاتل.

و قيل: نزلت السورة لما بعث النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) علياً (عليه السلام) إلى ذات السلاسل فأوقع بهم و ذلك بعد أن بعث عليهم مرارا غيره من الصحابة فرجع كل منهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم). و هو المروي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث طويل.

قال: وسميت هذه الغزوة ذات السلاسل لأنه أسر منهم و قتل و سبي و شد أسراؤهم في الحبال مكتفين كأنهم في السلاسل.

و لما نزلت السورة خرج رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى الناس فضلى بهم الغداة و قرأ فيها {وَأَلْعَادِيَاتِ} فلما فرغ من صلاته قال أصحابه: هذه سورة لم نعرفها فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): نعم إن عليا ظفر بأعداء الله و بشرني بذلك جبريل في هذه الليلة فقدم علي (عليه السلام) بعد أيام بالغنائم و الأسارى.

(١٠١) سورة القارعة مكية و هي إحدى عشرة آية (١١)

[سورة القارعة (١٠١): الآيات ١ الى ١١]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ١١}

(بيان)

إنذار و تبشير بالقيامة يغلب فيه جانب الإنذار، و السورة مكية.

قوله تعالى: {الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ} مبتدأ و خبر، و القارعة من القرع و هو الضرب باعتماد شديد، و هي من أسماء القيامة في القرآن. قيل: سميت بها لأنها تقرع القلوب بالفرع و تقرع أعداء الله بالعذاب.

و السؤال عن حقيقة القارعة في قوله: {مَا الْقَارِعَةُ} مع كونها معلومة إشارة إلى تعظيم أمرها و تفخيمه و أنها لا تكتنه علما، و قد أكد هذا التعظيم و التفخيم بقوله بعد: {وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ}.

قوله تعالى: **{يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ}** ظرف متعلق بفعل مقدر نحو اذكر و تفرع و تأتي، و الفراش على ما نقل عن الفراء الجراد الذي ينفرش ويركب بعضه بعضا و هو غوغاء الجراد. قيل: شبه الناس عند البعث بالفراش لأن الفراش إذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة كسائر الطير و كذلك الناس إذا خرجوا من قبورهم أحاط بهم الفزع فتوجهوا جهات شتى أو توجهوا إلى منازلهم المختلفة سعادة و شقاء. و المبعوث من البث و هو التفريق.

قوله تعالى: **{وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ}** العهن الصوف ذو ألوان مختلفة، و المنفوش من النفس و هو نشر الصوف بندق و نحوه فالعهن المنفوش الصوف المنتشر ذو ألوان مختلفة إشارة إلى تلاشي الجبال على اختلاف ألوانها بزلزلة الساعة.

قوله تعالى: **{فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ}** إشارة إلى وزن الأعمال و أن الأعمال منها ما هو ثقيل في الميزان و هو ما له قدر و منزلة عند الله و هو الإيمان و أنواع الطاعات، و منها ما ليس كذلك و هو الكفر و أنواع المعاصي و يختلف القسمان أثرا فيستتبع الثقيل السعادة و يستتبع الخفيف الشقاء، و قد تقدم البحث عن معنى الميزان في تفسير السور السابقة.

و قوله: **{فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ}** العيشة بكسر العين كالجلسة بناء نوع، و توصيفها براضية - و الراضي صاحبها - من المجاز العقلي أو المعنى في عيشة ذات رضى.

قوله تعالى: **{وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ}** الظاهر أن المراد بهاوية جهنم و تسميتها بهاوية لهوي من ألقى فيها أي سقوطه إلى أسفل سافلين قال تعالى: **{ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}** التين: ٥٦.

فتوصيف النار بالهاوية مجاز عقلي كتوصيف العيشة بالراضية و عد هاوية إما للداخل فيها لكونها مأواه و مرجعه الذي يرجع إليه كما يرجع الولد إلى أمه.

و قيل: المراد بأمه أم رأسه و المعنى فأم رأسه هاوية أي ساقطة فيها لأنهم يلقون في النار على أم رأسهم، و يبعده بقاء الضمير في قوله: **{مَا هِيَ}** بلا مرجع ظاهر.

قوله تعالى: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ}** ضمير هي لهاوية، و الهاء في **{هِيَ}** للوقف و الجملة تفسير تفيد تعظيم أمر النار و تفخيمه.

قوله تعالى: **{نَارٌ حَامِيَةٌ}** أي حارة شديدة الحرارة و هو جواب الاستفهام في **{مَا هِيَ}** و تفسير لهاوية.

بحث روائي

في تفسير القمي في قوله تعالى: {كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} قال: العهن الصوف، وفي قوله: {وَأَمَّا مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ} قال: من الحسنات، وفي قوله: {فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} قال: أم رأسه، يقذف في النار على رأسه.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: إن نفس المؤمن إذا قبضت يلقاها أهل الرحمة من عباد الله كما يلقون البشير من أهل الدنيا فيقولون: انظروا صاحبكم يستريح فإنه كان في كرب شديد ثم يسألونه ما فعل فلان و فلانة؟ هل تزوجت؟ فإذا سأله عن الرجل قد مات قبله فيقول: هيات قد مات ذلك قبلي فيقولون: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم و بئست المربية.

أقول: وروي هذا المعنى عن أنس بن مالك و عن الحسن و الأشعث بن عبد الله الأعمى عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

(١٠٢) سورة التكاثر مكية و هي ثمان آيات (٨)

[سورة التكاثر (١٠٢): الآيات ١ الى ٨]

{يَسْمِ اللّٰهَ الرَّحْمٰنَ الرَّحِيْمَ ۝ اَلْهٰكُمُ التَّكٰوُثُ ۝ ۱ ۝ حَتّٰى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ ۲ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ۝ ۳ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُوْنَ ۝ ۴ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُوْنَ عِلْمَ الْيَقِيْنِ ۝ ۵ ۝ لَتَرُوْنَ الْجَحِيْمَ ۝ ۶ ۝ ثُمَّ لَتَرُوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِيْنِ ۝ ۷ ۝ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيْمِ ۝ ۸ ۝}

(بيان)

توبيخ شديد للناس على تلهيهم بالتكاثر في الأموال و الأولاد و الأعضاء و غفلتهم عما وراءه من تبعة الخسران و العذاب، و تهديد بأنهم سوف يعلمون و يرون ذلك و يسألون عن

هذه النعم التي أوتوها ليشكروا فتلوها بها و بدلوا نعمة الله كفرا.

و السورة بما لها من السياق تحمل المكية و المدنية، و سيأتي ما ورد في سبب نزولها في البحث الروائي إن شاء الله.

قوله تعالى: **{أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}** قال في المفردات: اللهو ما يشغل الإنسان عما يعنيه و يهمله. قال، و يقال: ألهاه كذا أي شغله عما هو أهم إليه، قال تعالى: **{أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ}** انتهى.

و قال: و المكاثرة و التكاثر التباري في كثرة المال و العز، انتهى. و قال: المقبرة - بكسر الميم - و المقبرة - بفتحها - موضع القبور و جمعها مقابر، قال تعالى: **{حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ}** كناية عن الموت، انتهى.

فالمعنى - على ما يعطيه السياق - شغلكم التكاثر في متاع الدنيا و زينتها و التسابق في تكثير العدة و العدة عما يهكمم و هو ذكر الله حتى لقيم الموت فعمتكم الغفلة مدى حياتكم.

و قيل: المعنى شغلكم التباهي و التباري بكثرة الرجال بأن يقول هؤلاء: نحن أكثر رجالا، و هؤلاء: نحن أكثر حتى إذا استوعبتم عدد الأحياء صرتم إلى القبور فعدتم الأموات من رجالكم فتكاثرتم بأموالكم.

و هذا المعنى مبني على ما ورد في أسباب النزول أن قبيلتين من الأنصار تفاخرتا بالأحياء ثم بالأموات، و في بعضها أن ذلك كان بمكة بين بني عبد مناف و بني سهم فنزلت السورة، و سيأتي القصة في البحث الروائي.

قوله تعالى: **{كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}** ردع عن اشتغالهم بما لا يههمهم عما يعنيههم و تخطئة لهم، و قوله: **{سَوْفَ تَعْلَمُونَ}** تهديد معناه على ما يفيد المقام سوف تعلمون تبعة تلهيكم هذا و تعرفونها إذا انقطعتم عن الحياة الدنيا.

قوله تعالى: **{ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}** تأكيد للردع و التهديد السابقين، و قيل: المراد بالأول علمهم بها عند الموت و بالثاني علمهم بها عند البعث.

قوله تعالى: **{كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ}** ردع بعد ردع تأكيد و اليقين العلم الذي لا يداخله شك و ريب.

و قوله: **{لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ}** جواب لو محذوف و التقدير لو تعلمون الأمر علم اليقين لشغلكم ما تعلمون عن التباهي و التفاخر بالكثرة، و قوله: **{لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ}** استئناف في

الكلام، و اللام للقسم، و المعنى أقسم لترون الحليم التي جزاء هذا التلهي كذا فسروا.

قالوا: و لا يجوز أن يكون قوله: **{لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ}** جواب لو الامتناعية لأن الرؤية محقق الوقوع و جوابها لا يكون كذلك.

و هذا مبني على أن يكون المراد رؤية الحليم يوم القيامة كما قال: **{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ}** النازعات: ٣٦ و هو غير مسلم بل الظاهر أن المراد رؤيتها قبل يوم القيامة رؤية البصيرة و هي رؤية القلب التي هي من آثار اليقين على ما يشير إليه، قوله تعالى: **{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}** الأنعام: ٧٥، و قد تقدم الكلام فيها، و هذه الرؤية القلبية قبل يوم القيامة غير محققة لهؤلاء المتلهين بل ممتعة في حقهم لامتناع اليقين عليهم.

قوله تعالى: **{ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ}** المراد بعين اليقين نفسه، و المعنى لترونها محض اليقين، و هذه بمشاهدتها يوم القيامة، و من الدليل عليه قوله بعد ذلك **{ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}** فالمراد بالرؤية الأولى رؤيتها قبل يوم القيامة و بالثانية رؤيتها يوم القيامة.

و قيل: الأولى قبل الدخول فيها يوم القيامة و الثانية إذ دخلوها.

و قيل: الأولى بالمعرفة و الثانية بالمشاهدة، و قيل: المراد الرؤية بعد الرؤية إشارة إلى الاستمرار و الخلود، و قيل غير ذلك و هي وجوه ضعيفة.

قوله تعالى: **{ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}** ظاهر السياق أن هذا الخطاب و كذلك الخطابات المتقدمة في السورة للناس بما أن فيهم من اشتغل بنعمة ربه عن ربه فأنساه التكاثر فيها عن ذكر الله، و ما في السورة من التوبيخ و التهديد متوجه إلى عامة الناس ظاهرا واقع على طائفة خاصة منهم حقيقة و هم الذين ألهاهم التكاثر.

و كذا ظاهر السياق أن المراد بالنعيم مطلقة و هو كل ما يصدق عليه أنه نعمة فالإنسان مسؤل عن كل نعمة أنعم الله بها عليه.

و ذلك أن النعمة - و هي الأمر الذي يلائم المنعم عليه و يتضمن له نوعا من الخير و النفع - إنما تكون نعمة بالنسبة إلى المنعم عليه إذا استعملها بحيث يسعد بها فينتفع و أما لو استعملها على خلاف ذلك كانت نقمة بالنسبة إليه و إن كانت نعمة بالنظر إلى نفسها.

و قد خلق الله تعالى الإنسان و جعل غاية خلقته التي هي سعادته و منتهى كماله التقرب العبودي إليه كما

قال: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** الذاريات ٥٦ و هي

الولاية الإلهية لعبده، وقد هياً الله سبحانه له كل ما يسعد و ينتفع به في سلوكه نحو الغاية التي خلق لها وهي النعم فأسبغ عليه نعمه ظاهرة و باطنة.

فاستعمال هذه النعم على نحو يرتضيه الله و ينتهي بالإنسان إلى غايته المطلوبة هو الطريق إلى بلوغ الغاية و هو الطاعة، و استعمالها بالجمود عليها و نسيان ما وراءها غي و ضلال و انقطاع عن الغاية و هو المعصية، و قد قضى سبحانه قضاء لا يرد و لا يبدل أن يرجع الإنسان إليه فيسأله عن عمله فيحاسبه و يجزيه، و عمله هو استعماله للنعم الإلهية قال تعالى: **{وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجِزَاءَ الْأَوْفَى وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى}** النجم: ٤٢، فالسؤال عن عمل العبد سؤال عن النعم كيف استعمله أ شكر النعمة أم كفر بها.

(بحث روائي)

في المجمع، قيل: نزلت في اليهود قالوا: نحن أكثر من بني فلان، و بنو فلان أكثر من بني فلان ألهام ذلك حتى ماتوا ضلالاً، عن قتادة.

و قيل: نزلت في نخذ من الأنصار تفاخروا، عن أبي بريدة، و قيل: نزلت في حين من قریش: بني عبد مناف بن قصي و بني سهم بن عمر و تكاثروا و عدوا أشرافهم فكثرتهم بنو عبد مناف. ثم قالوا: نعد موتانا حتى زاروا القبور فعدوهم و قالوا: هذا قبر فلان و هذا قبر فلان فكثرتهم بنو سهم لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية، عن مقاتل و الكلبي.

و في تفسير البرهان، عن البرقي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم **عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله تعالى: {لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ} قال: المعاينة.**

أقول: الرواية تؤيد ما قدمناه من المعنى.

و في تفسير القمي، بإسناده عن جميل عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **قلت له: {لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} قال: تسأل هذه الأمة عما أنعم الله عليها برسوله ثم بأهل بيته.**

و في الكافي، بإسناده عن أبي خالد الكابلي قال: **دخلت على أبي جعفر (عليه السلام) فدعا بالغذاء فأكلت معه طعاماً ما أكلت طعاماً أطيب منه قط و لا أطف فلما فرغنا من الطعام قال: يا أبا خالد كيف رأيت طعامك؟ أو قال: طعامنا؟ قلت: جعلت فداك**

ما أكلت طعاما أطيب منه قط ولا أنظف ولكن ذكرت الآية التي في كتاب الله عز وجل {ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ} فقال أبو جعفر (عليه السلام): إنما يسألكم عما أنعم الله عليكم من الحق.

وفيه، بإسناده عن أبي حمزة قال: كما عند أبي عبد الله (عليه السلام) جماعة فدعا بطعام ما لنا عهد بمثله لذاذة وطيبا وأتينا بتمر تنظر فيه أوجهنا من صفائه وحسنه فقال رجل: لتسألن عن هذا النعيم الذي تنعمتم به عند ابن رسول الله فقال أبو عبد الله إن الله عز وجل أكرم وأجل أن يطعم طعاما فيسوغكموه ثم نسألكم عنه إنما يسألكم عما أنعم عليكم بمحمد وآل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) .

أقول: وهذا المعنى مروى عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) بطرق أخرى و عبارات مختلفة وفي بعضها أن النعيم ولايتنا أهل البيت، ويؤول المعنى إلى ما قدمناه من عموم النعيم لكل نعمة أنعم الله بها بما أنها نعمة. بيان ذلك أن هذه النعم لو سئل عن شيء منها فليست يسأل عنها بما أنها لحم أو خبز أو تمر أو ماء بارد أو أنها سمع أو بصر أو يد أو رجل مثلا وإنما يسأل عنها بما أنها نعمة خلقها الله للإنسان وأوقعها في طريق كماله والحصول على التقرب العبودي كما تقدمت الإشارة إليه و ندبه إلى أن يستعملها شكرا لا كفرا.

فالمسئول عنها هي النعمة بما أنها نعمة، ومن المعلوم أن الدال على نعيمية النعيم و كيفية استعماله شكرا و المبين لذلك كله هو الدين الذي جاء به النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و نصب لبيانه الأئمة من أهل بيته فالسؤال عن النعيم مرجعه السؤال عن العمل بالدين في كل حركة و سكون و من المعلوم أيضا أن السؤال عن النعيم الذي هو الدين سؤال عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و الأئمة من بعده الذين افترض الله طاعتهم و أوجب اتباعهم في السلوك إلى الله الذي طريقه استعمال النعم كما بينه الرسول و الأئمة.

و إلى كون السؤال عن النعيم سؤالا عن الدين يشير ما في رواية أبي خالد من قوله: «إنما يسألكم عما أنعم الله عليكم من الحق».

و إلى كونه سؤالا عن النعيم الذي هو النبي و أهل بيته يشير ما في روايتي جميل و أبي حمزة السابقتين من قوله: «يسأل هذه الأمة عما أنعم الله عليها برسوله ثم بأهل بيته أو ما في معناه، و في بعض الروايات: النعيم هو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنعم الله به على أهل العالم

فاستنقذهم من الضلالة، وفي بعضها: أن النعيم ولايتنا أهل البيت، و المال واحد و من ولاية أهل البيت اقتراض طاعتهم و اتباعهم فيما يسلكونه من طريق العبودية.

و في المجمع، و قيل: النعيم الصحة و الفراغ: عن عكرمة، و يعضده ما رواه ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة و الفراغ.**

و فيه، و قيل: هو يعني النعيم الأمن و الصحة، عن عبد الله بن مسعود و مجاهد، و روي ذلك عن أبي جعفر و أبي عبد الله (عليهما السلام).

أقول: و في روايات أخرى من طرق أهل السنة أن النعيم هو التمر و الماء البارد و في بعضها غيرهما، و ينبغي أن يحمل الجميع على إيراد المثال.

و في الحديث النبوي من طرقهم أيضا: **ثلاث لا يسأل عنها العبد: خرقة يوارى بها عورته أو كسرة يسد بها جوعته أو بيت يكنه من الحر و البرد.** (الحديث)، و ينبغي أن يحمل على خفة الحساب في الضروريات و نفي المناقشة فيه و الله أعلم.

(١٠٣) سورة العصر مكية و هي ثلاث آيات (٣)

[سورة العصر (١٠٣): الآيات ١ الى ٣]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝٣}

(بيان)

تخلص السورة جميع المعارف القرآنية و تجمع شتات مقاصد القرآن في أوجز بيان، و هي تحتل المكية و المدنية لكنها أشبه بالمكية.

قوله تعالى: **{وَالْعَصْرِ}** إقسام بالعصر و الأنسب لما تتضمنه الآيات التاليتان من شمول الخسران للعالم الإنساني إلا لمن اتبع الحق و صبر عليه و هم المؤمنون الصالحون عملا، أن يكون المراد بالعصر عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و هو عصر طلوع الإسلام على المجتمع البشري و ظهور الحق على الباطل.

و قيل: المراد به وقت العصر و هو الطرف الأخير من النهار لما فيه من الدلالة على

التدبير الربوبي بإدبار النهار وإقبال الليل وذهاب سلطان الشمس، وقيل: المراد به صلاة العصر وهي الصلاة الوسطى التي هي أفضل الفرائض اليومية، وقيل الليل والنهار ويطلق عليهما العصران، وقيل الدهر لما فيه من عجائب الحوادث الدالة على القدرة الربوبية وغير ذلك.

وقد ورد في بعض الروايات أنه عصر ظهور المهدي (عليه السلام) لما فيه من تمام ظهور الحق على الباطل.

قوله تعالى: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ}** المراد بالإنسان جنسه، والخسر والخسران والخسار والخسارة نقص رأس المال قال الراغب: وينسب ذلك إلى الإنسان فيقال: خسر فلان وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارتك، انتهى. والتكثير في **{خُسْرٍ}** للتعظيم ويحتمل التنوع أي في نوع من الخسر غير الخسارات المالية والجاهية قال تعالى: **{الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}** الزمر ١٥.

قوله تعالى: **{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** استثناء من جنس الإنسان الواقع في الخسر، والمستثنون هم الأفراد المتلبسون بالإيمان والأعمال الصالحة فهم آمنون من الخسر.

وذلك أن كتاب الله يبين أن للإنسان حياة خالدة مؤبدة لا تنقطع بالموت وإنما الموت انتقال من دار إلى دار كما تقدم في تفسير قوله تعالى: **{عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}** الواقعة ٦١، وبين أن شطرا من هذه الحياة وهي الحياة الدنيا حياة امتحانية تتعين بها صفة الشطر الأخير الذي هو الحياة الآخرة المؤبدة من سعادة و شقاء قال تعالى: **{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}** الرعد ٢٦، وقال: **{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}** الأنبياء ٣٥.

وبين أن مقدمة هذه الحياة لتلك الحياة إنما هي بمظاهرها من الاعتقاد والعمل فالاعتقاد الحق والعمل الصالح ملاك السعادة الآخروية والكفر والفسوق ملاك الشقاء فيها قال تعالى: **{وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ}**، وقال: **{مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نُفْسِهِمْ يَمْهَدُونَ}** {الروم ٤٤، وقال: **{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا}** حم السجدة ٤٦، وقد سمي الله تعالى ما سيلقاه الإنسان في الآخرة جزاء وأجرا في آيات كثيرة.

ويتبين بذلك كله أن الحياة رأس مال للإنسان يكسب به ما يعيش به في حياته الآخرة فإن اتبع الحق في العقد والعمل فقد ربحت تجارتك وبورك في مكسبه وأمن الشر

في مستقبله، وإن اتبع الباطل و أعرض عن الإيمان و العمل الصالح فقد خسرت تجارته و حرم الخير في عقباه و هو قوله تعالى: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}**.

و المراد بالإيمان بالإيمان بالله و من الإيمان بالله الإيمان بجميع رسله و الإيمان باليوم الآخر فقد نص تعالى فيمن لم يؤمن ببعض رسله^١ أو باليوم الآخر إنه غير مؤمن بالله.

و ظاهر قوله: **{وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}** التلبس بجميع الأعمال الصالحة فلا يشمل الاستثناء الفساق بترك بعض الصالحات من المؤمنين و لازمه أن يكون الخسر أعم من الخسر في جميع جهات حياته كما في الكافر المعاند للحق الخلد في العذاب، و الخسر في بعض جهات حياته كالمؤمن الفاسق الذي لا يخلد في النار و ينقطع عنه العذاب بشفاعة و نحوها.

قوله تعالى: **{وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}** التواصي بالحق هو أن يوصي بعضهم بعضا بالحق أي باتباعه و الدوام عليه فليس دين الحق إلا اتباع الحق اعتقادا و عملا و التواصي بالحق أوسع من الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر لشموله الاعتقادات و مطلق الترغيب و الحث على العمل الصالح.

ثم التواصي بالحق من العمل الصالح فذكره بعد العمل الصالح من قبيل ذكر الخاص بعد العام اهتماما بأمره كما أن التواصي بالصبر من التواصي بالحق و ذكره بعده من ذكر الخاص بعد العام اهتماما بأمره، و يؤكد تكرار ذكر التواصي حيث قال: **{وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}** و لم يقل: و تواسوا بالحق و الصبر.

و على الجملة ذكر تواسيهم بالحق و بالصبر بعد ذكر تلبسهم بالإيمان و العمل الصالح للإشارة إلى حياة قلوبهم و انشراح صدورهم للإسلام لله فلهم اهتمام خاص و اعتناء تام بظهور سلطان الحق و انبساطه على الناس حتى يتبع و يدوم اتباعه قال تعالى: **{أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}** الزمر ٢٢.

و قد أطلق الصبر فالمراد به أعم من الصبر على طاعة الله، و الصبر عن معصيته، و الصبر عند النوائب التي تصيبه بقضاء من الله و قدره.

بحث روائي

في تفسير القمي، بإسناده عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في قوله تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا} إلخ، فقال: استثنى أهل صفوته من خلقه.

أقول: و طبق في ذيل الرواية الإيمان على الإيمان بولاية علي (عليه السلام)، و التواصي بالحق على توصيتهم ذرياتهم و أخلافهم بها.

و في الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: {وَ الْعَصْرَ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ} يعني أبا جهل بن هشام {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} ذكر عليا و سلمان.

(١٠٤) سورة الهمزة مكية و هي تسع آيات (٩)

[سورة الهمزة (١٠٤): الآيات ١ الى ٩]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَيُلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ① الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَ عَدَدَهُ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ③ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْأُخْطَمَةِ ④ وَ مَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ ⑤ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ⑥ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ⑨}

(بيان)

وعيد شديد للمغرمين بجمع المال المستعلين به على الناس المستكبرين عليهم فيزرون بهم و يعيبونهم بما ليس بعيب، و السورة مكية.

قوله تعالى: {وَيُلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ} قال في المجمع: الهمزة الكثير الطعن على غيره بغير حق العائب له بما ليس بعيب، و أصل الهمز الكسر. قال: و الهمز العيب أيضا و الهمزة و الهمزة بمعنى، و قد قيل: بينهما فرق فإن الهمزة الذي يعيبك بظهر الغيب، و الهمزة الذي يعيبك في وجهك. عن الليث.

و قيل: الهمزة الذي يؤدي جليسه بسوء لفظه، و الهمزة الذي يكسر عينه على جليسه

ويشير برأسه ويومئ بعينه. قال: و فعله بناء المبالغة في صفة من يكثر منه الفعل و يصير عادة له تقول: رجل نكحة كثير النكاح و ضحكة كثير الضحك و كذا همزة و لمزة انتهى.

فالمعنى ويل لكل عياب مغتاب، و فسر بمعان أخر على حسب اختلافهم في تفسير الهمزة و الهمزة.

قوله تعالى: **{الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَ عَدَّدَهُ يُحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ}** بيان لهمزة لمزة و تنكير **{مَالًا}** للتحقير فإن المال وإن كثر ما كثر لا يغني عن صاحبه شيئاً غير أن له منه ما يصرفه في حوائج نفسه الطبيعية من أكلة تشبعه و شربة ماء تروييه و نحو ذلك و **{عَدَّدَهُ}** من العد بمعنى الإحصاء أي أنه لحبه المال و شغفه بجمعه يجمع المال و يعده عدا بعد عد التذاذا بتكثره. و قيل: المعنى جعله عدة و ذخرا لنوائب الدهر.

و قوله: **{يُحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ}** أي يخلده في الدنيا و يدفع عنه الموت و الفناء فالماضي أريد به المستقبل بقرينة قوله: **{يُحْسِبُ}**.

فهذا الإنسان لإخلاده إلى الأرض و انغماره في طول الأمل لا يقنع من المال بما يرتفع به حوائج حياته القصيرة و ضروريات أيامه المعدودة بل كلما زاد مالا زاد حرصا إلى ما لا نهاية له فظاهر حاله أنه يرى أن المال يخلده، و لحبه الغريزي للبقاء يهتم بجمعه و تعديده، و دغاه ما جمعه و عدده من المال و ما شاهده من الاستغناء إلى الطغيان و الاستعلاء على غيره من الناس كما قال تعالى: **{إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطْفَى أَنْ رَأَهُ اسْتَفْتَى}** العلق ٧، و يورثه هذا الاستكبار و التعدي الهمز و الهمز.

و من هنا يظهر أن قوله: **{يُحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ}** بمنزلة التعليل لقوله: **{الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَ عَدَّدَهُ}**، و قوله: **{الَّذِي جَمَعَ}** إنح بمنزلة التعليل لقوله: **{وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ}**.

قوله تعالى: **{كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ}** ردع عن حسابانه الخلود بالمال، و اللام في **{لَيُنْبَذَنَّ}** للقسم، و النبد القذف و الطرح، و الحطمة مبالغة من الحطم و هو الكسر و جاء بمعنى الأكل، و هي من أسماء جهنم على ما يفسرها قوله الآتي: **{نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ}**.

و المعنى ليس مخلدا بالمال كما يحسب أقسم ليموتن و يقذفن في الحطمة.

قوله تعالى: **{وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ}** تفخيم و تهويل.

قوله تعالى: **{نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ}** إيقاد النار إشعالها و الاطلاع و الطلوع على الشيء الإشراف و الظهور، و الأفئدة جمع فؤاد و هو القلب، و المراد به في

القرآن مبدأ الشعور والفكر من الإنسان و هو النفس الإنسانية.

و كان المراد من اطلاقها على الأفتدة أنها تحرق باطن الإنسان كما تحرق ظاهره بخلاف النار الدنيوية التي إنما تحرق الظاهر فقط قال تعالى: **{وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}** البقرة ٥٢٤.

قوله تعالى: **{إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ}** أي مطبقة لا مخرج لهم منها و لا منجاء.

قوله تعالى: **{فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}** العمدة بفتح الحاء جمع عمود و التمديد مبالغة في المد قيل: هي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار، و قيل: عمدة ممددة يوثقون فيها مثل المقاطر و هي خشب أو جذوع كبار فيها خروق توضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص و غيرهم، و قيل غير ذلك.

(بحث روائي)

في روح المعاني في قوله تعالى: **{وَيُنزلُ لِكُلِّ هَمَزَةٍ لَمْرَةً}** نزل ذلك على ما أخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عمر في أبي بن خلف، و على ما أخرج عن السدي في أبي بن عمر و الثقفى الشهير بالأخنس بن شريق فإنه كان مغتابا كثير الوقعة.

و على ما قال ابن إسحاق في أمية بن خلف الجمحي و كان يهمز النبي (صلى الله عليه وآله و سلم).

و على ما أخرج ابن جرير و غيره عن مجاهد في جميل بن عامر و على ما قيل في الوليد بن المغيرة و اغتيا به لرسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و غضبه منه، و على قول في العاص بن وائل.

أقول: ثم قال: و يجوز أن يكون نازلا في جمع من ذكر. انتهى و لا يبعد أن يكون من تطبيق الرواة و هو كثير في أسباب النزول.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَيُنزلُ لِكُلِّ هَمَزَةٍ}** قال: الذي يغمز الناس و يستحققر الفقراء، و قوله: **{لَمْرَةً}** يلوي عنقه و رأسه و يغضب إذا رأى فقيرا أو سائلا **{الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَ عَدَّدَهُ}** قال: أعدده و وضعه.

و فيه، قوله تعالى: **{الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ}** قال: تلتهب على الفؤاد قال أبو ذر رضي الله عنه: بشر المتكبرين بكى في الصدور و سحب على الظهر. قوله: **{إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ}** قال: مطبقة **{فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ}** قال: إذا مدت العمدة عليهم أكلت و الله الجلود.

و في الجمع، روى العياشي بإسناده عن محمد بن النعمان الأحول عن حمران بن أعين عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: **إن الكفار و المشركين يعبرون أهل التوحيد في النار و يقولون:**

ما نرى توحيدكم أغنى عنكم شيئاً و ما نحن و أنتم إلا سواء قال: فيأنف لهم الرب تعالى فيقول للملائكة: اشفَعوا فيشفَعون لمن شاء الله ثم يقول للنبيين: اشفَعوا فيشفَعون لمن شاء الله ثم يقول للمؤمنين: اشفَعوا فيشفَعون لمن شاء الله ويقول الله: أنا أرحم الراحمين اخرجوا برحمتي فيخرجون كما يخرج الفراش.
قال: ثم قال أبو جعفر (عليه السلام): ثم مدت العمدة و أوصدت عليهم و كان و الله الخلود.

(١٠٥) سورة الفيل مكية و هي خمس آيات (٥)

[سورة الفيل (١٠٥): الآيات ١ الى ٥]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ۝٥}

(بيان)

فيها إشارة إلى قصة أصحاب الفيل إذ قصدوا مكة لتخريب الكعبة المعظمة فأهلكهم الله بإرسال طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول، و هي من آيات الله الجليلة التي لا سترة عليها، و قد أرخوا بها و ذكرها الجاهليون في أشعارهم، و السورة مكية.

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} المراد بالرؤية العلم الظاهر ظهور الحس، و الاستفهام إنكاري، و المعنى ألم تعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، و قد كانت الواقعة عام ولد فيه النبي (صلى الله عليه وآله و سلم).

قوله تعالى: {أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ} المراد بكيدهم سوء قصدهم بمكة وإرادتهم تخريب البيت الحرام، و التضليل و الإضلال واحد، و جعل كيدهم في تضليل جعل سعيهم ضاللا لا يهتدى إلى الغاية المقصودة منه فقد ساروا لتخريب الكعبة و انتهى بهم إلى هلاك أنفسهم.

قوله تعالى: **{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ}** الأبايل كما قيل جماعات في تفرقة زمرة زمرة، والمعنى و أرسل الله على أصحاب الفيل جماعات متفرقة من الطير والآية والتي تتلوها عطف تفسير على قوله: **{أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ}**.

قوله تعالى: **{تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ}** أي ترمي أبايل الطير أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، وقد تقدم معنى السجيل في تفسير قصص قوم لوط.

قوله تعالى: **{فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ أَلْعُوبِ}** العصف ورق الزرع و العصف المأكول ورق الزرع الذي أكل حبه أو قشر الحب الذي أكل لبه و المراد أنهم عادوا بعد وقوع السجيل عليهم أجسادا بلا أرواح أو أن الحجر بحرارته أحرق أجوافهم، وقيل:

المراد ورق الزرع الذي وقع فيها الأكال و هو أن يأكله الدود فيفسده و فسرت الآية ببعض وجوه آخر لا يناسب الأدب القرآني.

(بحث روائي)

في المجمع: أجمعت الرواة على أن ملك اليمن الذي قصد هدم الكعبة هو أبرهة بن الصباح الأشرم و قيل: إن كنيته أبو يكسوم و نقل عن الواقدي أنه جد النجاشي الذي كان على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم).

ثم ساق الكلام في قصة استيلائه على ملك اليمن إلى أن قال: ثم إنه بنى كعبة باليمن و جعل فيها قبابا من ذهب فأمر أهل مملكته بالحج إليها يضاهي بذلك البيت الحرام، و إن رجلا من بني كنانة خرج حتى قدم اليمن فنظر إليها ثم قعد فيها يعني لحاجة الإنسان فدخلها أبرهة فوجد تلك العذرة فيها فقال: من اجترأ علي بهذا؟ و نصرانيتي لأهدمن ذلك البيت حتى لا يحجه حاج أبدا و دعا بالفيل و أذن قومه بالخروج و من اتبعه من أهل اليمن، و كان أكثر من اتبعه منهم عك و الأشعرون و خثعم.

قال: ثم خرج يسير حتى إذا كان ببعض طريقه بعث رجلا من بني سليم ليدعو الناس إلى حج بيته الذي بناه فتلقيه أيضا رجل من الحمس من بني كنانة فقتله فازداد بذلك حنقا و حث السير و الانطلاق.

و طلب من أهل الطائف دليلا فبعثوا معه رجلا من هذيل يقال له نفيل فخرج بهم يهديهم حتى إذا كانوا بالمغمس نزله و هو من مكة على ستة أميال فبعثوا مقدماتهم إلى

مكة نخرجت قريش عباديد في رءوس الجبال و قالوا: لا طاقة لنا بقتال هؤلاء و لم يبق بمكة غير عبد المطلب بن هاشم أقام على سقايته و غير شيبية بن عثمان بن عبد الدار أقام على حجابة البيت فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادتي الباب ثم يقول:

لا هم أن المرء يمنع *** رحله فامنع جلالك
لا يغلبوا بصليهم *** ومحالمهم عدوا محالك
لا يدخلوا البلد الحرام *** إذا فأمر ما بدا لك

ثم إن مقدمات أبرهة أصابت نعماً لقريش فأصابت فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم فلما بلغه ذلك خرج حتى أتى القوم، و كان حاجب أبرهة رجلاً من الأشعرين و كان له بعبد المطلب معرفة فاستأذن له على الملك و قال له: أيها الملك جاءك سيد قريش الذي يطعم إنسها في الحي و وحشها في الجبل فقال له: ائذن له.

و كان عبد المطلب رجلاً جسيماً جميلاً فلما رآه أبو يكسوم أعظمه أن يجلسه تحته و كره أن يجلسه معه على سريريه فنزل من سريريه فجلس على الأرض و أجلس عبد المطلب معه ثم قال: ما حاجتك؟ قال: حاجتي مائتا بعير لي أصابتها مقدمتك فقال أبو يكسوم: و الله لقد رأيتك فأعجبني ثم تكلمت فزهدت فيك فقال: و لم أيها الملك؟ قال: لأني جئت إلى بيت عزكم و منعكم من العرب و فضلكم في الناس و شرفكم عليهم و دينكم الذي تعبدون فجئت لأكسره و أصيبت لك مائتا بعير فسألتك عن حاجتك فكلمتني في إبلك و لم تطلب إلي في بيتكم.

فقال له عبد المطلب: أيها الملك أنا أكلمك في مالي و لهذا البيت رب هو يمنعه لست أنا منه في شيء فراع ذلك أبو يكسوم و أمر برد إبل عبد المطلب عليه ثم رجع و أمست ليلتهم تلك الليلة كالحلة نجومها كأنها تكلمهم كلاماً لا اقتربها منهم فأحست نفوسهم بالعذاب.

إلى أن قال: حتى إذا كان مع طلوع الشمس طلعت عليهم الطير معها الحجارة فجعلت ترميهم، و كل طائر في منقاره حجر و في رجليه حجران و إذا رمت بذلك مضت و طلعت أخرى فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلا خرقة و لا عظم إلا أوهاه و ثقبه، و ثاب أبو يكسوم راجعاً قد أصابته بعض الحجارة فجعل كلما قدم أرضاً انقطع له فيها إرب حتى إذا انتهى إلى اليمن لم يبق شيء إلا باده فلما قدما تصدع صدره و انشق بطنه فهلك و لم يصب من الأشعرين و خثعم أحد. (الحديث).

أقول: وفي الروايات اختلاف شديد في خصوصيات القصة من أراد الوقوف عليها فعليه بمطولات السير و التواريخ.

(١٠٦) سورة قريش مكية وهي أربع آيات (٤)

[سورة قريش (١٠٦): الآيات ١ الى ٤]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝}

(بيان)

تتضمن السورة امتنانا على قريش بإيلافهم الرحلتين و تعقبه بدعوتهم إلى التوحيد و عبادة رب البيت، و السورة مكية.

و لمضمون السورة نوع تعلق بمضمون سورة الفيل و لذا ذهب قوم من أهل السنة إلى كون الفيل و لإيلاف سورة واحدة كما قيل بمثله في الضحى و أم لم نشرح لما بينهما من الارتباط كما نسب ذلك إلى المشهورين الشيعة و الحق أن شيئا مما استندوا إليه لا يفيد ذلك.

أما القائلون بذلك من أهل السنة فإنهم استندوا فيه إلى ما روي أن أبي بن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة، و بما روي عن عمرو بن ميمون الأزدي قال: صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب فقرا في الركعة الأولى و التين و في الثانية أ لم تر و لإيلاف قريش من غير أن يفصل بالبسملة.

و أجيب عن الرواية الأولى بمعارضتها بما روي أنه أثبت البسملة بينهما في مصحفه، و عن الثانية بأن من المحتمل على تقدير صحتها أن يكون الراوي لم يسمع قراءتها أو يكون قرأها سرا. على أنها معارض بما روي عن النبي (صلى الله عليه وآله و سلم): **« أن الله فضل قريشا بسبع خصال و فيها «و نزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم: لإيلاف قريش».** (الحديث) على أن الفصل متواتر.

و أما القائلون بذلك من الشيعة فاستندوا فيه إلى ما في المجمع، عن أبي العباس عن أحدهما (عليهما السلام) قال: **« أ لم تر كيف فعل ربك و لإيلاف قريش سورة واحدة، و ما**

في التهذيب، بإسناده عن العلاء عن زيد الشحام قال: **صلى بنا أبو عبد الله (عليه السلام) الفجر فقرأ الضحى وألم نشرح في ركعة،**

و ما في المجمع، عن العياشي عن المفضل بن صالح عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سمعته يقول: **لا تجمع بين سورتين في ركعة واحدة إلا الضحى وألم نشرح وألم تر كيف وإيلاف قریش.** و رواه المحقق في المعتمد، نقلا من كتاب الجامع لأحمد بن محمد بن أبي نصر عن المفضل مثله.
أما رواية أبي العباس فضعيف لما فيها من الرفع.

و أما رواية الشحام فقد رويت عنه بطريقتين آخرين: **أحدهما ما في التهذيب، بإسناده عن ابن مسكان عن زيد الشحام قال: صلى بنا أبو عبد الله (عليه السلام) فقرأ بنا بالضحى وألم نشرح، و ثانيهما عنه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن زيد الشحام قال: صلى بنا أبو عبد الله (عليه السلام) فقرأ في الأولى الضحى و في الثانية ألم نشرح لك صدرك.**

و هذه أعني صحيحة ابن أبي عمير صريحة في قراءة السورتين في ركعتين و لا يبقى معها لرواية العلاء ظهور في الجمع بينهما، و أما رواية ابن مسكان فلا ظهور لها في الجمع و لا صراحة، و أما حمل ابن أبي عمير على النافلة فيدفعه قوله فيها: «صلى بنا» فإنه صريح في الجماعة و لا جماعة في نفل.

و أما رواية المفضل فهي أدل على كونهما سورتين منها على كونهما سورة واحدة حيث قيل: **لا تجمع بين سورتين ثم استثنى من السورتين الضحى وألم نشرح و كذا الفيل وإيلاف.**

فالحق أن الروايات إن دلت فإنما تدل على جواز القرآن بين سورتي الضحى و ألم نشرح و سورتي الفيل و إيلاف في ركعة واحدة من الفرائض و هو ممنوع في غيرها، و يؤيده رواية الراوندي في الخرائج، عن داود الرقي عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث قال: **فلما طلع الفجر قام فأذن و أقام و أقامني عن يمينه و قرأ في أول ركعة الحمد و الضحى و في الثانية بالحمد و قل هو الله أحد ثم قنت ثم سلم ثم جلس.**

قوله تعالى: **{إِيْلَافٍ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ}** الألف بكسر الهمزة اجتماع مع التثام كما قاله الراغب و منه الألفة، و قال في الصحاح: و فلان قد ألف هذا الموضع بالكسر يألفه ألفا و آلفه إياه غيره، و يقال أيضا: آلفت الموضع أولفه إيلافا، انتهى.

و قریش عشيرة النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و هم ولد النضر بن كنانة المسمى قریشا، و الرحلة حال السير على الراحلة و هي الناقة القوية على السير كما في المجمع، و المراد بالرحلة خروج قریش

من مكة للتجارة و ذلك أن الحرم واد جديب لا زرع فيه و لا ضرع فكانت قريش تعيش فيه بالتجارة، و كانت لهم في كل سنة رحلتان للتجارة رحلة في الشتاء إلى اليمن و رحلة بالصيف إلى الشام، و كانوا يعيشون بذلك و كان الناس يحترمونهم لمكان البيت الحرام فلا يتعرضون لهم بقطع طريقهم أو الإغارة على بلدهم الأيمن. و قوله: **{إِيْلَافٍ قُرَيْشٍ}** اللام فيه للتعليل، و فاعل الإيلاف هو الله سبحانه و قريش مفعوله الأول و مفعوله الثاني محذوف يدل عليه ما بعده، و قوله: **{إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَ الصَّيْفِ}** بدل من إيلاف قريش، و فاعل إيلافهم هو الله و مفعوله الأول ضمير الجمع و مفعوله الثاني رحلة إنح، و التقدير لإيلاف الله قريشا رحلة الشتاء و الصيف.

قوله تعالى: **{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}** الفاء في **{فَلْيَعْبُدُوا}** لتوهم معنى الشرط أي شيء كان فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافه أيام الرحلتين أو لتوهم التفصيل أي مهما يكن من شيء فليعبدوا رب هذا البيت إنح، فهو كقوله تعالى: **{وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ}** المدثر: ٧.

و محصل معنى الآيات الثلاث ليعبد قريش رب هذا البيت لأجل إيلافه إياهم رحلة الشتاء و الصيف و هم عاشون بذلك في أمن.

هذا بالنظر إلى كون السورة منفصلة عما قبلها ذات سياق مستقل في نفسها، و أما على تقدير كونها جزء من سورة الفيل متممة لها فذكروا أن اللام في **{إِيْلَافٍ}** تعليلية متعلقة بمقدر يدل عليه المقام و المعنى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش مضافة إلى نعمتنا عليهم في رحلة الشتاء و الصيف فكأنه قال: نعمة إلى نعمة و لذا قيل: إن اللام مؤدية معنى إلى و هو قول الفراء.

و قيل: المعنى فعلنا ذلك بأصحاب الفيل لتألف قريش بمكة و يمكنهم المقام بها أو لتؤلف قريشا فإنهم هابوا من أبرهة لما قصدها و هربوا منه فأهلكناهم لترجع قريش إلى مكة و يألفوا بها و يولد محمد (صلى الله عليه وآله و سلم) فيبعث إلى الناس بشيرا و نذيرا هذا، و الكلام في استفادة هذه المعاني من السياق.

قوله تعالى: **{الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ أَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}** إشارة إلى ما في إيلافهم الرحلتين من منه الواضح و نعمته الظاهرة عليهم و هو الإطعام و الأمن فيعيشون في أرض لا خصب فيها و لا أمن لغيرهم فليعبدوا ربا يدير أمرهم أحسن التدبير و هو رب البيت.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{إِلْيَافٍ قُرَيْشٍ إِيْلَافِهِمْ}** قال: نزلت في قريش لأنه كان معاشهم من الرحلتين رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، و كانوا يحملون من مكة الأدم واللب و ما يقع من ناحية البحر من الفلفل وغيره فيشترون بالشام الثياب والدرمك والحبوب، و كانوا يتألفون في طريقهم و يثبتون في الخروج في كل خرجة رئيسا من رؤساء قريش و كان معاشهم من ذلك.

فلما بعث الله نبيه استغنوا عن ذلك لأن الناس وفدوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و حجوا إلى البيت فقال الله: **{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ}** لا يحتاجون أن يذهبوا إلى الشام **{وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}** يعني خوف الطريق.

أقول: قوله: فلما بعث الله إله خفي الانطباق على سياق آيات السورة، و لعله من كلام القمي أخذه من بعض ما روي عن ابن عباس.

(١٠٧) سورة الماعون مدنية أو مكية و هي سبع آيات (٧)

[سورة الماعون (١٠٧): الآيات ١ الى ٧]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ٢ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ٣ وَ لَا يُحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ٤ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ٥ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٦ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ٧ وَ يَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ٧}

(بيان)

وعيد لمن كان من المنتحلين بالدين متخلقا بأخلاق المنافقين كالسهو عن الصلاة و الرياء في الأعمال و منع الماعون مما لا يلائم التصديق بالجزاء.

و السورة تحمل المكية و المدنية، و قيل: نصفها مكية و نصفها مدني.

قوله تعالى: **{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ}** الرؤية تحتمل الرؤية البصرية و تحتمل أن تكون بمعنى المعرفة، و الخطاب للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بما أنه سامع فيتوجه إلى كل سامع، و المراد بالدين الجزاء يوم الجزاء فالكذب بالدين منكر المعاد و قيل المراد به الدين بمعنى الملة.

قوله تعالى: **{فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ}** الدع هو الرد بعنف و جفاء، و الفاء في **{فَذَلِكِ}** لتوهم معنى الشرط و التقدير أ رأيت الذي يكذب بالجزاء فعرفته بصفاته اللازمة لتكذيبه فإن لم تعرفه فذلك الذي يرد اليتيم بعنف و يحفوه و لا يخاف عاقبة عمله السيئ و لو لم يكذب به لخافها و لو خافها لرحمه.

قوله تعالى: **{وَلَا يَخُصُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ}** الحض الترغيب، و الكلام على تقدير مضاف أي لا يرغب الناس على إطعام طعام المسكين قيل: إن التعبير بالطعام دون الإطعام للإشعار بأن المسكين كأنه مالك لما يعطى له كما في قوله تعالى: **{وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}** الذاريات: ١٩ و قيل: الطعام في الآية بمعنى الإطعام. و التعبير بالحض دون الإطعام لأن الحض أعم من الحض العملي الذي يتحقق بالإطعام.

قوله تعالى: **{فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}** أي غافلون لا يهتمون بها و لا يباليون أن تفوتهم بالكلية أو في بعض الأوقات أو تتأخر عن وقت فضيلتها و هكذا.

و في الآية تطبيق من يكذب بالدين على هؤلاء المصلين لمكان فاء التفرع و دلالة على أنهم لا يخلون من نفاق لأنهم يكذبون بالدين عملا و هم يتظاهرون بالإيمان.

قوله تعالى: **{الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ}** أي يأتون بالعبادات لمراعاة الناس فهم يعملون للناس لا لله تعالى.

قوله تعالى: **{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}** الماعون كل ما يعين الغير في رفع حاجة من حوائج الحياة كالقرض تفرضه و المعروف تصنعه و متاع البيت تعيره و إلى هذا يرجع متفرقات ما فسر به في كلماتهم.

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: **{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ}** قال: نزلت في أبي جهل و كفار قريش، و في قوله: **{الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}** قال: عنى به تاركون لأن كل إنسان يسهو في الصلاة قال أبو عبد الله (عليه السلام): **تأخير الصلاة عن أول وقتها غير عذر.**

وفي الخصال، عن علي (عليه السلام) في حديث الأربعمائة قال: ليس عمل أحب إلى الله عز وجل من الصلاة فلا يشغلنكم عن أوقاتها شيء من أمور الدنيا فإن الله عز وجل ذم أقواما فقال: **{الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}** يعني أنهم غافلون استهانوا بأوقاتها.

وفي الكافي، بإسناده عن محمد بن الفضيل قال: سألت عبدا صالحا (عليه السلام) عن قول الله عز وجل: **{الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}** قال هو التضييع.

أقول: وفي هذه المضامين روايات أخر.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب **{الَّذِينَ هُمْ يُرَأُونَ}** قال: يراءون بصلاتهم.

وفيه، أخرج أبو نعيم والديلمي وابن عساكر عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله: **{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}** قال: ما تعاون الناس بينهم الفأس والقدر والدلو وأشباهه.

وفي الكافي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) في حديث قال: وقوله عز وجل: **{وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}** هو القرض تقرضه والمعروف تصنعه ومتاع البيت تعيره ومنه الزكاة.

أقول: وتفسير الماعون بالزكاة مروى من طرق أهل السنة أيضا عن علي (عليه السلام) كما في الدر المنثور، ولفظه: الماعون الزكاة المفروضة يراءون بصلاتهم ويمنعون زكاتهم.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن قانع عن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: المسلم أخو المسلم إذا لقيه حياة بالسلام ويرد عليه ما هو خير منه لا يمنع الماعون قلت: يا رسول الله ما الماعون؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم): الحجر والحديد والماء وأشباه ذلك.

أقول: وقد فسر (صلى الله عليه وآله وسلم) في رواية أخرى الحديد بقدر النحاس وحديد الفأس والحجر بقدر الحجارة.

(١٠٨) سورة الكوثر مكية وهي ثلاث آيات (٣)

[سورة الكوثر (١٠٨): الآيات ١ الى ٣]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝}

(بيان)

امتنان على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بإعطائه الكوثر وتطيب لنفسه الشريفة بأن شأته هو الأبتَر، وهي أقصر سورة في القرآن وقد اختلفت الروايات في كون السورة مكية أو مدنية، والظاهر أنها مكية، وذكر بعضهم أنها نزلت مرتين جمعا بين الروايات.

قوله تعالى: **{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}** قال في الجمع، الكوثر فوعل وهو الشيء الذي من شأنه الكثرة، و الكوثر الخير الكثير، انتهى.

وقد اختلفت أقوالهم في تفسير الكوثر اختلافا عجيبا فقليل: هو الخير الكثير، وقيل نهر في الجنة، وقيل: حوض النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الجنة أو في المحشر، وقيل: أولاده وقيل: أصحابه وأشياعه (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى يوم القيامة، وقيل: علماء أمته (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقيل القرآن وفضائله كثيرة، وقيل النبوة وقيل: تيسير القرآن وتخفيف الشرائع وقيل: الإسلام وقيل التوحيد، وقيل: العلم والحكمة، وقيل: فضائله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وقيل المقام المحمود، وقيل: هو نور قلبه (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى غير ذلك مما قيل، وقد نقل عن بعضهم أنه أنهى الأقوال إلى ستة وعشرين.

وقد استند في القولين الأولين إلى بعض الروايات، وباقي الأقوال لا تخلو من تحكم و كيفما كان فقوله في آخر السورة: **{إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}** و ظاهر الأبتَر هو المنقطع نسله و ظاهر الجملة أنها من قبيل قصر القلب أن كثرة ذريته (صلى الله عليه وآله وسلم) هي المرادة وحدها بالكوثر الذي أعطيه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو المراد بها الخير الكثير و كثرة الذرية مرادة في ضمن الخير الكثير و لو لا ذلك لكان تحقيق الكلام بقوله: **{إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}** خاليا عن الفائدة.

وقد استفاضت الروايات أن السورة إنما نزلت فيمن عابه (صلى الله عليه وآله وسلم) بالبتر بعد ما مات ابنه القاسم و عبد الله، و بذلك يندفع ما قيل: إن مراد الشأني بقوله: **{الْأَبْتَرُ}** المنقطع عن قومه أو المنقطع عن الخير فرد الله عليه بأنه هو المنقطع من كل خير.

و لما في قوله: **{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ}** من الامتنان عليه (صلى الله عليه وآله وسلم) جيء بلفظ المتكلم مع الغير الدال على العظمة، و لما فيه من تطيب لنفسه الشريفة أكدت الجملة بأن و عبر بلفظ الإعطاء الظاهر في التملك.

و الجملة لا تخلو من دلالة على أن ولد فاطمة (عليها السلام) ذريته (صلى الله عليه وآله وسلم)، و هذا في نفسه من ملاحم القرآن الكريم فقد كثر الله تعالى نسله بعده كثرة لا يعادلهم فيها أي نسل آخر مع ما نزل عليهم من النوائب و أفنى جموعهم من المقاتل الذريعة.

قوله تعالى: **{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ}** ظاهر السياق في تفريع الأمر بالصلاة و النحر على الامتنان في قوله: **{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثُرَ}** إنه من شكر النعمة و المعنى إذا مننا عليك بإعطاء الكوثر فاشكر لهذه النعمة بالصلاة و النحر.

و المراد بالنحر على ما رواه الفريقان عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) و عن علي (عليه السلام) و روته الشيعة عن الصادق (عليه السلام) و غيره من الأئمة هو رفع اليدين في تكبير الصلاة إلى النحر.

و قيل: معنى الآية صل لربك صلاة العيد و انحر البدن، و قيل: يعني صل لربك و استوقأماً عند رفع رأسك من الركوع و قيل غير ذلك.

قوله تعالى: **{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}** الشانئ هو المبغض و الأبتَر من لا عقب له و هذا الشانئ هو العاص بن وائل.

و قيل: المراد بالأبتَر المنقطع عن الخير أو المنقطع عن قومه، و قد عرفت أن روايات سبب نزول السورة لا تلائمهُ و ستجيء.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج البخاري و ابن جرير و الحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: الكوثر الخير الذي أعطاه إياه قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير فإن ناسا يزعمون أنه نهر في الجنة قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه.

و فيه، أخرج ابن أبي حاتم و الحاكم و ابن مردويه و البيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه السورة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) **{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثُرَ}** قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لجبريل: ما هذه النخيرة التي أمرني بها ربي؟ قال: إنها ليست بنخيرة و لكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت و إذا ركعت و إذا رفعت رأسك من الركوع فإنها صلاتنا و صلاة الملائكة الذين في السماوات السبع، و أن لكل شيء زينة و زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة.

قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله: **{فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ}**

وَمَا يَتَضَرَّعُونَ.

أقول: ورواه في المجمع، عن المقاتل عن الأصبع بن نباتة عنه (عليه السلام) ثم قال: أورده الثعلبي و الواحدي في تفسيرهما، و قال أيضا: إن جميع عترته الطاهرة رووا عنه (عليه السلام): أن معنى النحر رفع اليدين إلى النحر في الصلاة.

وفيه، أخرج ابن جرير عن أبي جعفر في قوله: **{فَصَلِّ لِرَبِّكَ}** قال: الصلاة **{وَإِنْحَرْ}** قال يرفع يديه أول ما يكبر في الافتتاح.

وفيه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: **{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَإِنْحَرْ}** قال: إن الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرك إذا كبرت للصلاة فذاك النحر.

وفي المجمع، في الآية عن عمر بن يزيد قال سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول في قوله: **{فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَإِنْحَرْ}** هو رفع يديك حذاء وجهك.

أقول: ثم قال: وروى عنه عبد الله بن سنان مثله، وروي أيضا قريبا منه عن جميل عنه (عليه السلام).

وفي الدر المنثور، أخرج ابن سعد و ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كان أكبر ولد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) القاسم ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية فمات القاسم و هو أول ميت من ولده بمكة ثم مات عبد الله فقال العاص بن وائل السهمي قد انقطع نسله فهو أبتى فأنزل الله **{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}**.

وفيه، أخرج الزبير بن بكار و ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: توفي القاسم بن رسول الله بمكة فرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و هو آت من جنازته على العاص بن وائل و ابنه عمرو فقال حين رأى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): إني لأشئوه فقال العاص بن وائل: لا جرم لقد أصبح أبتى فأنزل الله **{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}**.

وفيه، أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل بتر فلان فلها مات ولد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال العاص بن وائل: بتر و الأبتى الفرد.

أقول: وفي بعض الآثار أن الشانئ هو الوليد بن المغيرة، و في بعضها أبو جهل و في بعضها عقبه بن أبي معيط، و في بعضها كعب بن الأشرف، و المعتمد ما تقدم.

ويؤيده ما في الاحتجاج الطبرسي، عن الحسن بن علي (عليهما السلام): في حديث يخاطب فيه عمرو بن العاصي: و أنك ولدت على فراش مشترك فتحاكمت فيك رجال قريش

منهم أبو سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة و عثمان بن الحارث والنضر بن الحارث بن كعدة و العاص بن وائل كلهم يزعم أنك ابنه فعلبهم عليك من بين قريش الأهم حسبا وأخبثهم منصبا وأعظمهم بغية. ثم قت خطيبا و قلت: أنا شاني محمد و قال العاص بن وائل: إن محمدا رجل أبترا ولا ولد له قد مات انقطع ذكره فأنزل الله تبارك و تعالى: **{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}**. (الحديث).

و في تفسير القمي: **{إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ}** قال: الكوثر نهر في الجنة أعطى الله محمدا (صلى الله عليه وآله و سلم) عوضا عن ابنه إبراهيم.

أقول: الخبر على إرساله وإضماره معارض لسائر الروايات و تفسير الكوثر بنهر في الجنة لا ينافي التفسير بالخير الكثير كما تقدم في خبر ابن جبير.

(١٠٩) سورة الكافرون مكية و هي ست آيات (٦)

[سورة الكافرون (١٠٩): الآيات ١ الى ٦]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ٦}

(بيان)

فيها أمره (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يظهر للكفار براءته من دينهم و يخبرهم بامتناعهم من دينه فلا دينه يتعداه إليهم و لا دينهم يتعداهم إليه فلا يعبد ما يعبدون أبدا و لا يعبدون ما يعبد أبدا فليأسوا من أي نوع من المداهنة و المساهلة.

و اختلفوا في كون السورة مكية أو مدنية، و الظاهر من سياقها أنها مكية.

قوله تعالى: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ}** الظاهر أن هؤلاء قوم معهودون لا كل كافر و يدل على ذلك أمره (صلى الله عليه وآله و سلم) أن يخاطبهم ببراءته من دينهم و امتناعهم من دينه.

قوله تعالى: **{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}** الآية إلى آخر السورة مقول القول، و المراد بما

تعبدون الأصنام التي كانوا يعبدونها، و مفعول **{تَعْبُدُونَ}** ضمير راجع إلى الموصول محذوف لدلالة الكلام عليه و لرعاية الفواصل، و كذا مفاعيل الأفعال التالية: **{أَعْبُدُ}** و **{عَبَدْتُمْ}** و **{أَعْبُدُ}**.

و قوله: **{لَا أَعْبُدُ}** نفي استقبالي فإن لا لنفي الاستقبال كما أن ما لنفي الحال، و المعنى لا أعبد أبدا ما تعبدونه اليوم من الأصنام.

قوله تعالى: **{وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** نفي استقبالي أيضا لعبادتهم ما يعبده (صلى الله عليه وآله وسلم) و هو إخبار عن امتناعهم عن الدخول في دين التوحيد في مستقبل الأمر.

و بانضمام الأمر الذي في مفتتح الكلام تفيد الآيات إن الله سبحانه أمرني بالدوام على عبادته و أن أخبركم أنكم لا تعبدونه أبدا فلا يقع بيني و بينكم اشتراك في الدين أبدا.

فالآية في معنى قوله تعالى: **{لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** يس: ٧، و قوله: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** البقرة: ٦.

و كان من حق الكلام أن يقال: و لا أتم عابدون من أعبد. لكن قيل: ما أعبد ليطابق ما في قوله: **{لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}**.

قوله تعالى: **{وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** تكرر لمضمون الجملتين السابقتين لزيادة التأكيد، كقوله: **{كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ}** التكاثر: ٤ و قوله: **{فَقَتِيلٌ كَيْفَ قَدَّرْتُمْ قَتِيلٌ كَيْفَ قَدَّرَ}** المدثر: ٢٠.

و قيل: إن ما في **{مَا عَبَدْتُمْ}** و **{مَا أَعْبُدُ}** مصدرية لا موصولة و المعنى و لا أنا عابد عبادتكم و لا أتم عابدون عبادتي أي لا أشرككم و لا تشاركوني لا في المعبود و لا في العبادة فعبودي هو الله و معبودكم الوثن و عبادتي ما شرعه الله لي و عبادتكم ما ابتدتموه جهلا و افتراء، و على هذا فالآيات غير مسوقتين للتأكيد، و لا يخلو من بعد و سيأتي في البحث الروائي التالي وجه آخر للتكرار لطيف.

قوله تعالى: **{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}** تأكيد بحسب المعنى لما تقدم من نفي الاشتراك، و اللام للاختصاص أي دينكم و هو عبادة الأصنام يختص بكم و لا يتعداكم إلي و ديني يختص بي و لا يتعداني إليكم و لا محل لتوهم دلالة الآية على إباحة أخذ كل بما يرتضيه من الدين و لا أنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يتعرض لدينهم بعد ذلك فالدعوة للحقة التي يتضمنها القرآن تدفع ذلك أساسا.

و قيل: الدين في الآية بمعنى الجزاء و المعنى لكم جزاؤكم و لي جزائي، و قيل: إن هناك مضافا محذوفا و التقدير لكم جزاء دينكم و لي جزاء ديني، و الوجهان بعيدان عن الفهم.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن الأنباري في المصاحف عن سعيد بن ميناء مولى أبي البخري قال: لقي الوليد بن المغيرة و العاص بن وائل و الأسود بن المطلب و أمية بن خلف رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد و تعبد ما نعبد و لنشترك نحن و أنت في أمرنا كله فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظا و إن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كما قد أخذنا منه حظا فأنزل الله: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}** حتى انقضت السورة.

أقول: و روى الشيخ في الأمالي، بإسناده عن ميناء عن غير واحد من أصحابه قريبا منه.

و في تفسير القمي، عن أبيه عن ابن أبي عمير قال: سأل أبو شاهر أبا جعفر الأحول عن قول الله: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}** فهل يتكلم الحكيم بمثل هذا القول، و يكرر مرة بعد مرة؟ فلم يكن عند أبي جعفر الأحول في ذلك جواب.

فدخل المدينة فسأل أبا عبد الله (عليه السلام) عن ذلك فقال: **كان سبب نزولها و تكرارها أن قريشا قالت لرسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهك سنة و تعبد آلهتنا سنة و نعبد إلهك سنة فاجابهم الله بمثل ما قالوا فقال فيما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ}، و فيما قالوا: نعبد إلهك سنة: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ}، و فيما قالوا: تعبد آلهتنا سنة: {وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ} و فيما قالوا: نعبد إلهك سنة: {وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَلِي دِين}.**

قال: فرجع أبو جعفر الأحول إلى أبي شاهر فأخبره بذلك فقال أبو شاهر: هذا حملته الإبل من الحجاز.

أقول: مفاد التكرار في كلام قريش الاستمرار على عبادة آلهتهم سنة و عبادة الله تعالى سنة.

(١١٠) سورة النصر مدنية و هي ثلاث آيات (٣)

[سورة النصر (١١٠): الآيات ١ الى ٣]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝}

(بيان)

وعد له (صلى الله عليه وآله وسلم) بالنصر والفتح وأنه سيرى الناس يدخلون في الإسلام فوجا بعد فوج وأمره بالتسبيح حينئذ والتحميد والاستغفار، والسورة مدنية نزلت بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة على ما سنستظهر.

قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} ظهور «إذا» المصدرية بها الآية في الاستقبال يستدعي أن يكون مضمون الآية إخبارا بتحقق أمر لم يتحقق بعد، وإذا كان المخبر به هو النصر والفتح وذلك مما تقر به عين النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو وعد جميل وبشرى له (صلى الله عليه وآله وسلم) ويكون من ملاحم القرآن الكريم.

وليس المراد بالنصر والفتح جنسهما حتى يصدقا على جميع المواقف التي أيد الله فيها نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) على أعدائه وأظهر دينه على دينهم كما في حروبه ومغازيه وإيمان الأنصار وأهل اليمن كما قبل إذ لا يلائمه قوله بعد: {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا}.

وليس المراد بذلك أيضا صلح الحديبية الذي سماه الله تعالى فتحا إذ قال {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا} الفتح: ١ لعدم انطباق الآية الثانية بمضمونها عليه.

وأوضح ما يقبل الانطباق عليه النصر والفتح المذكوران في الآية هو فتح مكة الذي هو أم فتوحاته «(صلى الله عليه وآله وسلم)» في زمن حياته والنصر الباهر الذي انهدم به بنيان الشرك في جزيرة العرب.

ويؤيده وعد النصر الذي في الآيات النازلة في الحديبية {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا} الفتح: ٣ فإن من القريب جدا أن يكون ما في الآيات وعدا بنصر عزيز يرتبط بفتح الحديبية وهو نصره تعالى نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) على قريش حتى فتح مكة بعد

مضي سنتين من فتح الحديبية.

و هذا الذي ذكر أقرب من حمل الآية على إجابة أهل اليمن الدعوة الحقّة و دخولهم في الإسلام من غير قتال، فالأقرب إلى الاعتبار كون المراد بالنصر و الفتح نصره تعالى نبيه «ص» على قريش و فتح مكة، و أن تكون السورة نازلة بعد صلح الحديبية و نزول سورة الفتح و قبل فتح مكة.

قوله تعالى: **{وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا}** قال الراغب: الفوج الجماعة المارة المسرعة، و جمعه أفواج. انتهى. فعنى دخول الناس في دين الله أفواجا دخولهم فيه جماعة بعد جماعة، و المراد بدين الله الإسلام قال تعالى: **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}** آل عمران: ١٩.

قوله تعالى: **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}** لما كان هذا النصر و الفتح إذلالا منه تعالى للشرك و إعزازا للتوحيد و بعبارة أخرى إبطالا للباطل و إحقاقا للحق ناسب من الجهة الأولى تنزيهه تعالى و تسييحه، و ناسب من الجهة الثانية التي هي نعمة الثناء عليه تعالى و حمده فذلك أمره «(صلى الله عليه وآله و سلم)» بقوله: **{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ}**.

و هاهنا وجه آخر يوجه به الأمر بالتسبيح و التحميد و الاستغفار جميعا و هو أن للرب تعالى على عبده أن يذكره بصفات كماله و يذكر نفسه بما له من النقص و الحاجة و لما كان في هذا الفتح فراغه «(صلى الله عليه وآله و سلم)» من جل ما كان عليه من السعي في إمطة الباطل و قطع دابر الفساد أمر أن يذكره عند ذلك بجلاله و هو التسبيح و جماله و هو التحميد و أن يذكره بنقص نفسه و حاجته إلى ربه و هو طلب المغفرة و معناه فيه «(صلى الله عليه وآله و سلم)» و هو مغفور سؤال إدامة المغفرة فإن الحاجة إلى المغفرة بقاء كالحاجة إليها حدوثا فافهم ذلك، و بذلك يتم شكره لربه تعالى و قد تقدم^١ كلام في معنى مغفرة الذنب في الأبحاث السابقة.

و قوله: **{إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}** تعليل للأمر بالاستغفار لا يخلو من تشويق و تأكيد.

(بحث روائي)

في المجمع، عن مقاتل: لما نزلت هذه السورة قرأها (صلى الله عليه وآله و سلم) على أصحابه ففرحوا و استبشروا و سمعها العباس فبكى فقال: (صلى الله عليه وآله و سلم) ما يبكيك يا عم؟ قال: أظن أنه قد

^١ في آخر الجزء السادس من الكتاب.

نعت إليك نفسك يا رسول الله فقال: إنه لكما تقول فعاش بعدها سنتين ما رئي بعدها ضاحكا مستبشرا.

أقول: وروي هذا المعنى في عدة روايات بألفاظ مختلفة وقيل في وجه دلالتها أن سياقها يلوح إلى فراغه ((صلى الله عليه وآله وسلم)) مما عليه من السعي والمجاهدة وتمام أمره، وعند الكمال يرقب الزوال.

وفيه، عن أم سلمة قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالآخرة لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال: سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه فسألناه عن ذلك فقال: إني أمرت بها ثم قرأ {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}.

أقول: وفي هذا المعنى غير واحد من الروايات مع اختلاف ما فيما كان يقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) و

وفي العيون، بإسناده إلى الحسين بن خالد قال: قال الرضا (عليه السلام): سمعت أبي يحدث عن أبيه (عليه السلام): أن أول سورة نزلت {بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} اقرأ باسم ربك {وآخر سورة نزلت {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ}.

أقول: لعل المراد به أنها آخر سورة نزلت تامة كما قيل.

وفي المجمع، في قصة فتح مكة: لما صالح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قريشا عام الحديبية كان في أشراطهم أنه من أحب أن يدخل في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) دخل فيه فدخلت خزاعة في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وكان بين القبيلتين شر قديم. ثم وقعت فيما بعد بين بني بكر وخزاعة مقاتلة ورفدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفيا، وكان ممن أعان بني بكر على خزاعة بنفسه عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو. فركب عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة وكان ذلك مما هاج فتح مكة فوقف عليه وهو في المسجد بين ظهراي القوم وقال:

لا هم إني ناشد^١ محمدا *** حلف أينا وأبيه الأتلا^٢

إن قريشا أخلفوك الموعدا *** ونقضوا ميثاقلك المؤكدا

... *** وقاتلونا ركعا وسجدا

^١ الناشد: الطالب والمذكر.

^٢ الأتلا: القديم.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): حسبك يا عمرو ثم قام فدخل دار ميمونة و قال: اسكبي لي ماء فجعل يغتسل وهو يقول: لا نصرت إن لم أنصر بني كعب وهم رهط عمرو بن سالم ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأخبروه بما أصيب منهم و مظاهره قريش بني بكر عليهم ثم انصرفوا راجعين إلى مكة و قد كان (صلى الله عليه وآله وسلم) قال للناس: كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشدد العقد و يزيد في المدة و سيلقى بديل بن ورقاء فلقوا أبا سفيان بعسفان و قد بعثته قريش إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليشدد العقد.

فلما لقي أبو سفيان بديلا قال: من أين أقبلت يا بديل قال: سرت في هذا الساحل و في بطن هذا الوادي قال: ما أتيت محمدا؟ قال: لا فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء من المدينة لقد علف بها النوى فعمد إلى مبرك ناقته و أخذ من بعرها ففته فرأى فيها النوى فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمدا.

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا محمد احقن دماء قومك و أجر بين قريش و زدنا في المدة فقال: أ غدرتم يا أبا سفيان؟ قال: لا فقال: فنحن على ما كنا عليه نفرج فلقي أبا بكر فقال: أجر بين قريش قال: ويحك و أحد يجير على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ ثم لقي عمر بن الخطاب فقال له مثل ذلك ثم خرج فدخل على أم حبيبة فذهب ليجلس على الفراش فأهوت إلى الفراش فطوته فقال: يا بنية أ رغبت بهذا الفراش عني؟ فقالت: نعم هذا فراش رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ما كنت لتجلس عليه و أنت رجس مشرك.

ثم خرج فدخل على فاطمة (عليها السلام) فقال يا بنت سيد العرب تجيرين بين قريش و تزيدين في المدة فتكونين أكرم سيدة في الناس؟ فقالت: جوارى جوار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) . قال: أ تأمرين ابنيك أن يجيرا بين الناس؟ قالت: و الله ما بلغ ابناي أن يجيرا بين الناس و ما يجير على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليه وآله و سلم) أحد فقال: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحنى فقال علي (عليه السلام): إنك شيخ قريش - فقم على باب المسجد و أجر بين قريش ثم الحق بأرضك قال: و ترى ذلك مغنيا عني شيئا؟ قال: لا و الله ما أظن ذلك و لكن لا أجد لك غير ذلك فقام أبو سفيان في المسجد فقال: يا أيها الناس إني قد أجزت بين قريش ثم ركب بعيره فانطلق.

فلما قدم على قريش قالوا: ما وراءك؟ فأخبرهم بالقصة فقالوا: والله إن زاد علي بن أبي طالب على أن لعب بك فما يغني عنا ما قلت؟ قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

قال: فأمر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالجهاز لحرب مكة وأمر الناس بالتهيئة وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبعثها في بلادها، وكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش فأتى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الخبر من السماء فبعث عليا (عليه السلام) والزبير حتى أخذوا كتابه من المرأة وقد مضت هذه القصة في سورة الممتحنة.

ثم استخلف رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أبا ذر الغفاري وخرج عامدا إلى مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان في عشرة آلاف من المسلمين ونحو من أربعمئة فارس ولم يتخلف من المهاجرين والأنصار عنه أحد.

وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب و عبد الله بن أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة فالتسا دخول عليه فلم يأذن لهما فكلمته أم سلمة فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمك قال لا حاجة لي فيهما أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهرى فهو الذي قال لي بمكة ما قال فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بني له قال: والله ليأذن لي أو لأخذن بيد بني هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشا وجوعا فلما بلغ ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) رق لهما فأذن لهما فدخلا عليه فأسلما.

فلما نزل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مر الظهران وقد غمت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خبر خرج في تلك الليلة أبو سفيان بن حرب و حكيم بن حزام و بديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار وقد قال العباس ليلتئذ: يا سوء صباح قريش والله لئن بغتها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في بلادها فدخل مكة عنوة أنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر نخرج على بغلة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال: أخرج إلى الأراك لعلي أرى خطابا أو صاحب لبن أو داخلا يدخل مكة فيخبرهم بمكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيأتونه فيستأمونه.

قال العباس فوالله إني لأطوف في الأراك ألتمس ما خرجت له إذ سمعت صوت أبي سفيان و حكيم بن حزام و بديل بن ورقاء و سمعت أبا سفيان يقول: والله ما رأيت كالليلة قط نيرانا فقال بديل: هذه نيران خزاعة فقال أبو سفيان: خزاعة الأم من ذلك

قال: فعرفت صوته فقلت: يا أبا حنظلة يعني أبا سفيان فقال: أبو الفضل؟ فقلت: نعم قال: لبيك فذاك أبي وأمي ما وراءك؟ فقلت: هذا رسول الله وراءك قد جاء بما لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين.

قال: فما تأمرني؟ قلت: تركب عجز هذه البغلة فاستأمن لك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فوالله لئن ظفرك بك ليضربن عنقك فردفني فخرجت أركض به بغلة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فكلها مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: هذا عم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) على بغلة رسول الله حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال يعني عمر: يا أبا سفيان الحمد لله الذي أمكن منك بغير عهد ولا عقد ثم اشتد نحو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وركضت البغلة حتى اقتحمت باب القبة وسبقت عمر بما يسبق به الدابة البطيئة الرجل البطيء.

فدخل عمر فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد فدعني أضرب عنقه فقلت: يا رسول الله إني قد أجرته ثم إني جلست إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأخذت برأسه وقلت: والله لا يناجيه اليوم أحد دوني فلما أكثر فيه عمر قلت: مهلا يا عمر فوالله ما يصنع هذا الرجل إلا أنه رجل من آل بني عبد مناف ولو كان من عدي بن كعب ما قلت هذا قال: مهلا يا عباس لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): اذهب فقد آمنه حتى تغدو به علي في الغداة.

قال: فلما أصبح غدوت به على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان أ لم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي ما أوصلك وأكرمك وأرحمك وأهلك والله لقد ظننت أن لو كان معه إله لأغنى يوم بدر ويوم أحد فقال: ويحك يا أبا سفيان أ لم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي أما هذه فإن في النفس منها شيئاً قال العباس: فقلت له: ويحك أشهد بشهادة الحق قبل أن يضرب عنقك فتشهد.

فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) للعباس: انصرف يا عباس فاحبسه عند مضيق الوادي حتى يمر عليه جنود الله قال: فحبسته عند خطم الجبل بمضيق الوادي ومر عليه القبائل قبيلة قبيلة وهو يقول: من هؤلاء؟ وأقول: أسلم وجهينة وفلان حتى مر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في الكتيبة الخضراء من المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق فقال:

من هؤلاء يا أبا الفضل؟ قلت: هذا رسول الله في المهاجرين و الأنصار فقال: يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً، فقلت: ويحك أنها النبوة فقال: نعم إذا.

و جاء حكيم بن حزام و بديل بن ورقاء رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و أسلمها و بايعاه فلما بايعاه بعثهما رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) بين يديه إلى قريش يدعونهم إلى الإسلام و قال: من دخل دار أبي سفيان و هي بأعلى مكة فهو آمن، و من دخل دار حكيم و هي بأسفل مكة فهو آمن، و من أغلق بابه و كف يده فهو آمن.

و لما خرج أبو سفيان و حكيم من عند رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) عامدين إلى مكة بعث في أثرهما الزبير بن العوام و أمره على خيل المهاجرين و أمره أن يغرز رايته بأعلى مكة بالحجون و قال له: لا تبرح حتى آتيك ثم دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) مكة و ضربت هناك خيمته، و بعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمته، و بعث الخالد بن الوليد فيمن كان أسلم من قضاة و بني سليم و أمره أن يدخل أسفل مكة و يغرز رايته دون البيوت.

و أمرهم رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) جميعاً أن يكفوا أيديهم و لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، و أمرهم بقتل أربعة نفر عبد الله بن سعد بن أبي سرح و الحويرث بن نفيل و ابن خطل و مقبس بن ضبابة و أمرهم بقتل قينتين كانتا تغنيان بهجاء رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و قال: اقتلوهما و إن وجدتموهما متعلقين بأستار الكعبة فقتل علي (عليه السلام) الحويرث بن نفيل و إحدى القينتين و أفلتت الأخرى، و قتل مقبس بن ضبابة في السوق، و أدرك ابن خطل و هو متعلق بأستار الكعبة فاستبق إليه سعيد بن حريث و عمار بن ياسر فسبق سعيد عماراً فقتله.

قال: و سعى أبو سفيان إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و أخذ غرزه أي ركابه فقبله ثم قال: بأبي أنت و أمي أ ما تسمع ما يقول سعد إنه يقول:

اليوم يوم الملحمة *** اليوم تسي الحرة

فقال (صلى الله عليه وآله و سلم) لعلي (عليه السلام): أدركه و خذ الراية منه و كن أنت الذي يدخل بها و أدخلها إدخالاً رفيقاً فأخذها علي (عليه السلام) و أدخلها كما أمر.

و لما دخل رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) مكة دخل صناديد قريش الكعبة و هم يظنون أن السيف لا يرفع عنهم و أتى رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) و وقف قائماً على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده أنجز وعده و نصر عبده و هزم الأحزاب وحده ألا إن كل مال أو مائة و دم يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سداة الكعبة و سقاية الحاج فإنهما مردودتان إلى أهليهما، ألا إن

مكة محرمة بتحريم الله لم تحل لأحد كان قبلي ولم تحل لي إلا ساعة من نهار وهي محرمة إلى أن تقوم الساعة لا يختلي خلاها، ولا يقطع شجرها ولا ينفرد صيدها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد.

ثم قال: ألا لبئس جيران النبي كنتم لقد كذبتم وطردتم وأخرجتم وأذيتهم ثم ما رضيتم حتى جئتموني في بلادي تقاتلونني فاذهبوا فأنتم الطلقاء نفرج القوم فكأنما أنشروا من القبور ودخلوا في الإسلام، وكان الله سبحانه أمكنه من رقابهم عنوة فكانوا له فيئا فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء.

وجاء ابن الزبيري إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأسلم وقال:

يا رسول الإله إن لساني *** راتق ما فتقت إذ أنا بور^١ إذ أباري^٢

الشیطان في سنن^٣ *** الغي و من مال ميله مشبور

أمن اللحم والعظام لربي *** ثم نفسي الشهيد أنت النذير

قال: وعن ابن مسعود قال: دخل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم الفتح و حول البيت ثلاثمائة وستون صنما فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: {جَاءَ الْحَقُّ وَ مَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَ مَا يُعِيدُ} {جَاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}.

وعن ابن عباس قال: لما قدم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى مكة أبي أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت و صورة إبراهيم وإسماعيل (عليه السلام) و في أيديهما الأزلام فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) قاتلهم الله أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط.

أقول: و الروايات حول قصة الفتح كثيرة من أراد استقصاءها فعليه بكتب السير و جوامع الأخبار و ما تقدم كالملخص منها.

(١١١) سورة تبت مكية و هي خمس آيات (٥)

[سورة المسد (١١١): الآيات ١ الى ٥]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ

^١ البور: المالك.

^٢ المبارة: المباهاة.

^٣ السنن: وسط الطريق.

عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ⑤ سَيَصْلِي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ⑥ وَإِمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ⑦ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ⑧

(بيان)

وعيد شديد لأبي لهب بهلاك نفسه وعمله وبنار جهنم ولامرأته، و السورة مكية.

قوله تعالى: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}** التّب والتباب هو الخسران والهلاك على ما ذكره الجوهري، و دوام الخسران على ما ذكره الراغب، وقيل: الخيبة، وقيل الخلو من كل خير والمعاني - كما قيل - متقاربة فيد الإنسان هي عضوه الذي يتوصل به إلى تحصيل مقاصده وينسب إليه جل أعماله، و تباب يديه خسرانها فيما تكتسبانه من عمل وإن شئت فقل: بطلان أعماله التي يعملها بهما من حيث عدم انتهائها إلى غرض مطلوب و عدم انتفاعه بشيء منها و تباب نفسه خسرانها في نفسها بحرمانها من سعادة دائمة و هو هلاكها المؤبد.

فقوله: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}** أي أبو لهب، دعاء عليه بهلاك نفسه و بطلان ما كان يأتيه من الأعمال لإطفاء نور النبوة أو قضاء منه تعالى بذلك.

و أبو لهب هذا هو أبو لهب بن عبد المطلب عم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان شديد المعادة للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مصرا في تكذيبه مبالغا في إيذائه بما يستطيعه من قول و فعل و هو الذي قال للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم): تبا لك لما دعاهم إلى الإسلام لأول مرة فنزلت السورة و رد الله التباب عليه.

و ذكر بعضهم أن أبا لهب اسمه وإن كان في صورة الكنية، و قيل: اسمه عبد العزى و قيل: عبد مناف و أحسن ما قيل في ذكره في الآية بكنيته لا باسمه إن في ذلك تهكما به لأن أبا لهب يشعر بالنسبة إلى لهب النار كما يقال أبو الخير و أبو الفضل و أبو الشر في النسبة إلى الخير و الفضل و الشر فلها قيل: **{سَيَصْلِي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ}** فهم منه أن قوله: **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}** في معنى قولنا: تبت يدا جهنمي يلازم لهبا.

و قيل: لم يذكر باسمه و هو عبد العزى لأن عزى اسم صنم فكره أن يعد بحسب اللفظ عبدا لغير الله و هو عبد الله وإن كان الاسم إنما يقصد به المسمى.

قوله تعالى: **{مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}** ما الأولى نافية و ما الثانية موصولة

و معنى **{مَا كَسَبَ}** الذي كسبه بأعماله و هو أثر أعماله أو مصدرية و المعنى كسبه بيديه و هو عمله، و المعنى ما أغنى عنه عمله.

و معنى الآية على أي حال لم يدفع عنه ماله و لا عمله أو أثر عمله تباب نفسه و يديه الذي كتب عليه أو دعي عليه.

قوله تعالى: **{سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ}** أي سيدخل نارا ذات لهب و هي نار جهنم الخالدة، و في تكبير لهب تفخيم له و تهويل.

قوله تعالى: **{وَأَمْرَأْتُهُ حَمَّالَةَ الْخَطْبِ}** عطف على ضمير الفاعل المستكن في **{سَيَصْلَىٰ}** و التقدير: و ستصلي امرأته إنلخ و **{حَمَّالَةَ الْخَطْبِ}** بالنصب وصف مقطوع عن الوصفية للذم أي أذم حمالة الخطب، و قيل: حال من **{أَمْرَأْتُهُ}** و هو معنى لطيف على ما سيأتي.

قوله تعالى: **{فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ مَّسَدٍ}** المسد حبل مفتول من الليف، و الجملة حال ثانية من امرأته.

و الظاهر أن المراد بالآيتين أنها ستمثل في النار التي تصلاها يوم القيامة في هيئتها التي كانت تتلبس بها في الدنيا و هي أنها كانت تحمل أغصان الشوك و غيرها تطرحها بالليل في طريق رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم) تؤذيه بذلك فتعذب بالنار و هي تحمل الخطب و في جيدها حبل من مسد.

قال في مجمع البيان: و إذا قيل: هل كان يلزم أبا لهب الإيمان بعد هذه السورة و هل كان يقدر على الإيمان و لو آمن لكان فيه تكذيب خبر الله سبحانه بأنه سيصلي نارا ذات لهب.

فالجواب أن الإيمان يلزمه لأن تكليف الإيمان ثابت عليه و إنما توعدده الله بشرط أن لا يؤمن انتهى موضع الحاجة.

أقول: مبني الإشكال على الغفلة من أن تعلق القضاء الحتمي منه تعالى بفعل الإنسان الاختياري لا يستوجب بطلان الاختيار و اضطرار الإنسان على الفعل فإن الإرادة الإلهية - و كذا فعله تعالى - إنما يتعلق بفعله الاختياري على ما هو عليه أي إن يفعل الإنسان باختياره كذا و كذا فلو لم يقع الفعل اختياريًا تخلف مراده تعالى عن إرادته و هو محال و إذا كان الفعل المتعلق للقضاء الموجب اختياريًا كان تركه أيضًا اختياريًا و إن كان لا يقع فافهم و قد تقدم هذا البحث في غير موضع من المباحث السابقة.

فقد ظهر بذلك أن أبا لهب كان في اختياره أن يؤمن ويخجو بذلك عن النار التي كان من المقضي المحتوم أن يدخلها بكفره.

و من هذا الباب الآيات النازلة في كفار قريش أنهم لا يؤمنون كقوله: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** البقرة: ٦، وقوله: **{لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** يس: ٧، و من هذا الباب أيضا آيات الطبع على القلوب.

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى: **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}** عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية صعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الصفا فقال: يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ما لك؟ فقال: أ رأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم ومسيكم ما كنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد قال أبو لهب: تبا لك أ لهذا دعوتنا جميعا؟ فأنزل الله عز وجل **{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ}**.

أقول: و رواه أيضا في تفسير السورة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس و لم يذكر فيه كون الدعوة عند نزول آية **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ}** الآية.

و فيه، أيضا عن طارق الحاربي قال: بينما أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا بشاب يقول أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وإذا برجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه و عرقوبيه ويقول: يا أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه فقلت: من هذا؟ فقالوا: هو محمد يزعم أنه نبي و هذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب.

و في قرب الإسناد، بإسناده إلى موسى بن جعفر (عليه السلام) في حديث طويل يذكر فيه آيات النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: من ذلك أن أم جميل امرأة أبي لهب أتته حين نزلت سورة تبت و مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أبو بكر بن أبي قحافة فقال: يا رسول الله هذه أم جميل محفضة أي مغضبة تريدك و معها حجر تريد أن ترميك به فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): إنها لا تراني فقالت لأبي بكر: أين صاحبك؟ قال: حيث شاء الله قالت: جئته و لو أراه لرميته فإنه هجاني و اللات و العزى إني لشاعرة فقال أبو بكر: يا رسول الله لم ترك؟ قال (صلى الله عليه وآله وسلم): لا. ضرب الله بيني و بينها حجابا.

أقول: و روي ما يقرب منه بغير واحد من طرق أهل السنة.

و في تفسير القمي في قوله تعالى: **{وَأَمْرَأْتُهُ حَمَّالَةَ الْخَطْبِ}** قال: كانت أم جميل بنت صخر و كانت تم على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) و تنقل أحاديثه إلى الكفار.

(١١٢) سورة الإخلاص مكية و هي أربع آيات (٤)

[سورة الإخلاص (١١٢): الآيات ١ الى ٤]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝}

(بيان)

السورة تصفه تعالى بأحدية الذات و رجوع ما سواه إليه في جميع حوائجه الوجودية من دون أن يشاركه شيء لا في ذاته و لا في صفاته و لا في أفعاله، و هو التوحيد القرآني الذي يختص به القرآن الكريم و يبني عليه جميع المعارف الإسلامية.

و قد تكاثرت الأخبار في فضل السورة حتى ورد من طرق الفريقين أنها تعدل ثلث القرآن كما سيجيء إن شاء

الله.

و السورة تحتمل المكية و المدنية، و الظاهر من بعض ما ورد في سبب نزولها أنها مكية.

قوله تعالى: **{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}** هو ضمير الشأن و القصة يفيد الاهتمام بمضمون الجملة التالية له، و الحق أن لفظ الجلالة علم بالغلبة له تعالى بالعربية كما أن له في غيرها من اللغات اسما خاصا به، و قد تقدم بعض الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة.

و أحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد غير أن الأحد إنما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجا و لا ذهنا و لذلك لا يقبل العد و لا يدخل في العدد بخلاف الواحد فإن كل واحد له ثانيا و ثالثا إما خارجا و إما ذهنا بتوهم أو بفرض العقل فيصير بانضمامه كثيرا، و أما الأحد فكل ما فرض له ثانيا كان هو لم يزد عليه شيء.

و اعتبر ذلك في قولك: ما جاءني من القوم أحد فإنك تنفي به مجيء اثنين منهم و أكثر كما تنفي مجيء واحد منهم بخلاف ما لو قلت: ما جاءني واحد منهم فإنك إنما تنفي به مجيء واحد منهم بالعدد و لا ينافيه مجيء اثنين منهم أو أكثر، و لإفادته هذا المعنى لا يستعمل في الإيجاب مطلقا إلا فيه تعالى و من لطيف البيان في هذا الباب قول

علي (عليه أفضل السلام) في بعض خطبه في توحيدته تعالى: **كل مسمى بالوحدة غيره قليل**، وقد أوردنا طرفاً من كلامه (عليه السلام) في التوحيد في ذيل البحث عن توحيد القرآن في الجزء السادس من الكتاب.

قوله تعالى: **{اللَّهُ الصَّمَدُ}** الأصل في معنى الصمد القصد أو القصد مع الاعتماد يقال: صمده يصمده صمداً من باب نصر أي قصده أو قصده معتمداً عليه، وقد فسروا الصمد - وهو صفة - بمعاني متعددة مرجع أكثرها إلى أنه السيد المصمود إليه أي المقصود في الحوائج، وإذا أطلق في الآية ولم يقيد بقيد فهو المقصود في الحوائج على الإطلاق.

وإذا كان الله تعالى هو الموجد لكل ذي وجود مما سواه يحتاج إليه فيقصده كل ما صدق عليه أنه شيء غيره، في ذاته وصفاته وآثاره قال تعالى: **{الْأَلَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}** الأعراف: ٤٥ وقال وأطلق: **{وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى}** النجم: ٤٢ فهو الصمد في كل حاجة في الوجود لا يقصد شيئاً إلا وهو الذي ينتهي إليه قصده وينجح به طلبته ويقضي به حاجته.

ومن هنا يظهر وجه دخول اللام في الصمد وأنه لإفادة الحصر فهو تعالى وحده الصمد على الإطلاق، وهذا بخلاف أحد في قوله **{اللَّهُ أَحَدٌ}** فإن أحداً بما يفيد من معنى الوحدة الخاصة لا يطلق في الإثبات على غيره تعالى فلا حاجة فيه إلى عهد أو حصر.

وأما إظهار اسم الجلالة ثانياً حيث قيل: **{اللَّهُ الصَّمَدُ}** ولم يقل: هو الصمد، ولم يقل: الله أحد صمد فالظاهر أن ذلك للإشارة إلى كون كل من الجملتين وحدها كافية في تعريفه تعالى حيث إن المقام مقام تعريفه تعالى بصفة تختص به فقيل: الله أحد الله الصمد إشارة إلى أن المعرفة به حاصلة سواء قيل كذا أو قيل كذا.

والآيتان مع ذلك تصفانه تعالى بصفة الذات وصفة الفعل جميعاً فقوله: **{اللَّهُ أَحَدٌ}** يصفه بالأحادية التي هي عين الذات، وقوله: **{اللَّهُ الصَّمَدُ}** يصفه بانتفاء كل شيء إليه وهو من صفات الفعل.

وقيل: الصمد بمعنى المصمت الذي ليس بأجوف فلا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يلد ولا يولد و على هذا يكون قوله: **{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}** تفسيراً للصمد.

قوله تعالى: **{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}** الآيتان الكريمتان تنفيان عنه تعالى أن يلد شيئاً بتجزئته في نفسه فينفضل عنه شيء سنخه بأي معنى أريد من الانفصال

والاشتقاق كما يقول به النصارى في المسيح (عليه السلام) إنه ابن الله و كما يقول الوثنية في بعض آلهتهم أنهم أبناء الله سبحانه.

و تنفيان عنه أن يكون متولدا من شيء آخر و مشتقا منه بأي معنى أريد من الاشتقاق كما يقول الوثنية ففي آلهتهم من هو إله أبواله و من هو آلهة أم إله و من هو إله ابن إله.

و تنفيان أن يكون له كفؤ يعدله في ذاته أو في فعله¹ و هو الإيجاد و التدبير و لم يقل أحد من الملمين و غيرهم بالكفؤ الذاتي بأن يقول بتعدد واجب الوجود عز اسمه، و أما الكفؤ في فعله و هو التدبير فقد قيل به كآلهة الوثنية من البشر كفرعون و نمرود من المدعين للألوهية و ملاك الكفاءة عندهم استقلال من يرون ألوهيته في تدبير ما فوض إليه تدبيره كما أنه تعالى مستقل في تدبير من يدبره و هم الأرباب و الآلهة و هو رب الأرباب و إله الآلهة.

و في معنى كفاءة هذا النوع من الإله ما يفرض من استقلال الفعل في شيء من الممكنات فإنه كفاءة مرجعها استغناؤه عنه تعالى و هو محتاج من كل جهة و الآية تنفيها.

و هذه الصفات الثلاث المنفية و إن أمكن تفريع نفيها على صفة أحديته تعالى بوجه لكن الأسبق إلى الذهن تفرعها على صفة صمديته.

أما كونه لم يلد فإن الولادة التي هي نوع من التجزي و التبعض بأي معنى فسرت لا تخلو من تركيب فيمن يلد، و حاجة المركب إلى أجزائه ضرورية و الله سبحانه صمد ينتهي إليه كل محتاج في حاجته و لا حاجة له، و أما كونه لم يولد فإن تولد شيء من شيء لا يتم إلا مع حاجة من المتولد إلى ما ولد منه في وجوده و هو سبحانه صمد لا حاجة له، و أما أنه لا كفؤ له فلأن الكفؤ سواء فرض كفوا له في ذاته أو في فعله لا تتحقق كفاءته إلا مع استقلاله و استغناؤه عنه تعالى فيما فيه الكفاءة و الله سبحانه صمد على الإطلاق يحتاج إليه كل من سواه من كل جهة مفروضة.

فقد تبين أن ما في الآيتين من النفي متفرع على صمديته تعالى و مآل ما ذكر من صمديته تعالى و ما يتفرع عليه إلى إثبات توحيده تعالى في ذاته و صفاته و أفعاله بمعنى أنه واحد لا يناظره شيء و لا يشبهه فذاته تعالى بذاته و لذاته من غير استناد إلى غيره و احتياج إلى من سواه و كذا صفاته و أفعاله، و ذوات من سواه و صفاتهم و أفعالهم بإفاضة منه على ما يليق بساحة كبريائه و عظمته فمحصل السورة وصفه تعالى بأنه أحد واحد.

¹ لم نذكر الصفة لأنها إما صفة الذات فهي عين الذات و إما صفة الفعل منتزعة عن الفعل، منه.

و مما قيل في الآية إن المراد بالكفوؤ الزوجة فإن زوجة الرجل كفؤه في معنى قوله: **{تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً}** وهو كما ترى.

(بحث روائي)

في الكافي، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **إن اليهود سألوا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالوا: انسب لنا ربك فلبث ثلاثا لا يجيبهم ثم نزلت {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} إلى آخرها.**

أقول: وفي الاحتجاج، عن العسكري (عليه السلام): إن السائل عبد الله بن صوريا اليهودي، وفي بعض روايات أهل السنة: أن السائل عبد الله بن سلام سأله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك بمكة ثم آمن و كتم إيمانه، وفي بعضها أن أناسا من اليهود سألوه ذلك، وفي غير واحد من رواياتهم: أن مشركي مكة سألوه ذلك، و كيف كان فالمراد بالنسبة النعت و الوصف.

و في المعاني، بإسناده عن الأصبع بن نباتة عن علي (عليه السلام) في حديث: **نسبة الله عز و جل قل هو الله.**

و في العلل، بإسناده عن الصادق (عليه السلام) في حديث المعراج: **أن الله قال له أي للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم): اقرأ قل هو الله أحد كما أنزلت فإنها نسبتني و نعتي.**

أقول: و روي أيضا بإسناده إلى موسى بن جعفر (عليه السلام) ما في معناه.

و في الدر المنثور، أخرج أبو عبيد في فضائله عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **قل هو الله أحد ثلث القرآن.**

أقول: و قد تكاثرت الروايات من طرقهم في هذا المعنى روه عن عدة من الصحابة كابن عباس و قد مر و أبي الدرداء و ابن عمر و جابر و ابن مسعود و أبي سعيد الخدري و معاذ بن أنس و أبي أيوب و أبي أمامة و غيرهم عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، و ورد أيضا في عدة من الروايات عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، و قد وجهوا كون السورة تعدل ثلث القرآن بوجه مختلفة أعد لها أن ما في القرآن من المعارف تنحل إلى الأصول الثلاثة: التوحيد و النبوة و المعاد و السورة تتضمن واحدا من الثلاثة و هو التوحيد.

و في التوحيد، عن أمير المؤمنين (عليه السلام): **رأيت الخضر (عليه السلام) في المنام قبل بدر بليلة فقلت له: علمني شيئا أنصر به على الأعداء فقال: قل: يا هويأ من لا هو إلا هو فلما أصبحت قصصتها على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال لي: يا علي علمت الاسم الأعظم فكان على**

لساني يوم بدر.

وإن أمير المؤمنين (عليه السلام) قرأ قل هو الله أحد فلما فرغ قال: يا هوياء من لا هو إلا هو اغفري لي وانصرتني على القوم الكافرين.

وفي نهج البلاغة: **الأحد لا بتأويل عدد.**

أقول: ورواه في التوحيد، عن الرضا (عليه السلام) ولفظه: أحد لا بتأويل عدد.

وفي أصول الكافي، بإسناده عن داود بن القاسم الجعفري قال: **قلت لأبي جعفر الثاني (عليه السلام): ما الصمد؟ قال (عليه السلام): السيد المصمود إليه في القليل والكثير.**

أقول: وفي تفسير الصمد معان أخر مروية عنهم (عليه السلام) فعن الباقر (عليه السلام): الصمد السيد المطاع الذي ليس فوقه أمر وناه،

وعن الحسين (عليه السلام): **الصمد الذي لا جوف له و الصمد الذي لا ينام، و الصمد الذي لم يزل ولا يزال.**

و عن السجاد (عليه السلام): **الصمد الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، و الصمد الذي أبداع الأشياء نخلقها أضداداً وأشكالاً و أزواجاً و تفرد بالوحدة بلا ضد و لا شكل و لا مثل و لا ند.**

و الأصل في معنى الصمد هو الذي روينا عن أبي جعفر الثاني (عليه السلام) لما في مادته لغة في معنى القصد فالمعاني المختلفة المنقولة عنهم (عليهم السلام) من التفسير يلازم المعنى فإن المعاني المذكورة لوازم كونه تعالى مقصوداً يرجع إليه كل شيء في كل حاجة فإليه ينتهي الكل من دون أن تتحقق فيه حاجة.

و في التوحيد، عن وهب بن وهب القرشي عن الصادق عن آبائه (عليه السلام) أن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي (عليه السلام) يسألونه عن الصمد فكتب إليهم: **بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فلا تخوضوا في القرآن و لا تجادلوا فيه و لا تتكلموا فيه بغير علم فقد سمعت جدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار، و إن الله سبحانه فسر الصمد فقال: الله أحد الله الصمد ثم فسره فقال: لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد.**

و فيه، بإسناده إلى ابن أبي عمير عن موسى بن جعفر (عليه السلام) أنه قال: **واعلم أن الله تعالى واحد أحد صمد لم يلد فيورث و لم يولد فيشارك.**

و فيه، في خطبة أخرى لعلي (عليه السلام): **الذي لم يولد فيكون في العز مشاركا و لم يلد فيكون موروثا هالكا.**

و فيه، في خطبة له (عليه السلام): **تعالى أن يكون له كفؤ فيشبهه به.**

أقول: وفي المعاني المتقدمة روايات أخرى.

(١١٣) سورة الفلق مكية وهي خمس آيات (٥)

[سورة الفلق (١١٣): الآيات ١ الى ٥]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤}

(بيان)

أمر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يعوذ بالله من كل شر ومن بعضه خاصة و السورة مدنية على ما يظهر مما ورد في سبب نزولها.

قوله تعالى: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ}** العوذ هو الاعتصام و التحرز من الشر بالالتجاء إلى من يدفعه، و الفلق بالفتح فالسكون الشق و الفرق، و الفلق بفتحين صفة مشبهة بمعنى المفعول كالقصص بمعنى المقصوص، و الغالب إطلاقه على الصبح لأنه المشقوق من الظلام، و عليه فالمعنى أعوذ برب الصبح الذي يفلقه و يشقه و مناسبة هذا التعبير للعوذ من الشر الذي يستر الخير و يحجب دونه ظاهر.

و قيل: المراد بالفلق كل ما يفطر و يفلق عنه بالخلق و الإيجاد فإن في الخلق و الإيجاد شقا للعدم و إخراجا للموجود إلى الوجود فيكون مساويا للمخلوق، و قيل هو جب في جهنم و يؤيده بعض الروايات.

قوله تعالى: **{مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ}** أي من شر من يحمل شرا من الإنس و الجن و الحيوانات و سائر ما له شر من الخلق فإن اشتمال مطلق ما خلق على الشر لا يستلزم الاستغراق.

قوله تعالى: **{وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}** في الصحاح: الغسق أول ظلمة الليل و قد غسق الليل يغسق إذا أظلم و الغاسق الليل إذا غاب الشفق. انتهى، و الوقوب الدخول فالمعنى و من شر الليل إذا دخل بظلمته. و نسبة الشر إلى الليل إنما هي لكونه بظلمته يعين

الشريير في شره لستره عليه فيقع فيه الشر أكثر مما يقع منه بالنهار، والإنسان فيه أضعف منه في النهار تجاه هاجم الشر، وقيل: المراد بالغاسق كل هاجم يهجم بشره كائنا ما كان.

و ذكر شر الليل إذا دخل بعد ذكر شر ما خلق من ذكر الخصاص بعد العام لزيادة الاهتمام وقد اهتم في السورة بثلاثة من أنواع الشر خاصة هي شر الليل إذا دخل و شر سحر السحرة و شر الحاسد إذا حسد لغلبة الغفلة فيهن .

قوله تعالى: **{وَمِنْ شَرِّ اللَّفَّاتِ فِي الْعُقَدِ}** أي النساء الساحرات اللاتي يسحرن بالعقد على المسحور و ينفثن في العقد. و خصت النساء بالذكر لأن السحر كان فيهن و منهم أكثر من الرجال، و في الآية تصديق لتأثير السحر في الجملة، و نظيرها قوله تعالى: في قصة هاروت و ماروت **{فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}** البقرة: ١٠٢ و نظيره ما في قصة سحرة فرعون.

و قيل: المراد باللفافات في العقد النساء اللاتي يملن آراء أزواجهن إلى ما يرينه و يردنه فالعقد هو الرأي و النفث في العقد كناية عن حله، و هو بعيد.

قوله تعالى: **{وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ}** أي إذا تلبس بالحسد و عمل بما في نفسه من الحسد بترتيب الأثر عليه.

و قيل: الآية تشمل العائن فعين العائن نوع حسد نفساني يتحقق منه إذا عاين ما يستكثره و يتعجب منه.

(بحث روائي)

في الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد عن زيد بن أسلم قال: **سحر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) رجل من اليهود فاشتكى فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين و قال: إن رجلا من اليهود سحرك و السحر في بئر فلان فأرسل عليا فجاء به فأمره أن يحل العقد و يقرأ آية فجعل يقرأ و يحل حتى قام النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كأنما نشط من عقال.**

أقول: و عن كتاب طب الأئمة، بإسناده إلى محمد بن سنان عن المفضل عن الصادق (عليه السلام): مثله و في هذا المعنى روايات كثيرة من طرق أهل السنة باختلاف يسيرة، و في غير واحد منها أنه أرسل مع علي (عليه السلام) زبيرا و عمارا و فيه روايات أخرى أيضا من طرق أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

و ما استشكل به بعضهم في مضمون الروايات أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان مصونا من تأثير السحر كيف؟ و قد قال الله تعالى: **{وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا أَنْظُرْ}**

كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا} الفرقان: ٩.

يدفعه أن مرادهم بالمسحور و المجنون بفساد العقل بالسحر و أما تأثره عن السحر بمرض يصيبه في بدنه و نحوه فلا دليل على مصونيته منه.

و في المجمع، و روي: **أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان كثيرا ما يعوذ الحسن و الحسين (عليه السلام) بهاتين السورتين.**

و فيه، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **أنزلت علي آيات لم ينزل مثلهن المعوذتان،** أورده في الصحيح.

أقول: و أسندها في الدر المنثور، إلى الترمذي و النسائي و غيرهما أيضا، و روي ما في معناه أيضا عن الطبراني في الأوسط عن ابن مسعود، و لعل المراد من عدم نزول مثلهن أنهما في العوذة فقط و لا يشاركهما في ذلك غيرهما من السور.

و في الدر المنثور، أخرج أحمد و البزار و الطبراني و ابن مردويه من طرق صحيحة عن ابن عباس و ابن مسعود أنه كان يحك المعوذتين من المصحف و يقول: لا تخلطوا القرآن بما ليس منه إنهما ليستا من كتاب الله إنما أمر النبي أن يتعوذ بهما، و كان ابن مسعود لا يقرأ بهما.

أقول: ثم قال السيوطي قال البزار: و لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة و قد صح عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قرأ بهما في الصلاة و قد أثبتنا في المصحف انتهى.

و في تفسير القمي، بإسناده عن أبي بكر الحضرمي قال: **قلت لأبي جعفر (عليه السلام) إن ابن مسعود كان يحجو المعوذتين من المصحف. فقال: كان أبي يقول: إنما فعل ذلك ابن مسعود برأيه و هو [هماظ] من القرآن.**

أقول: و في هذا المعنى روايات كثيرة من طرق الفريقين على أن هناك تواترا قطعيا من عامة المنتحلين بالإسلام على كونهما من القرآن، و قد استشكل بعض المنكرين لإعجاز القرآن أنه لو كان معجزا في بلاغته لم يختلف في كون السورتين من القرآن مثل ابن مسعود، و أجيب بأن التواتر القطعي كاف في ذلك على أنه لم ينقل عنه أحد أنه قال بعدم نزولهما على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أو قال بعدم كونهما معجزتين في بلاغتهما بل قال بعدم كونهما جزء من القرآن و هو محجوج بالتواتر.

و في الدر المنثور، أخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **الفلق جب في جهنم مغطى.**

أقول: و في معناه غير واحد من الروايات

في بعضها: قال (صلى الله عليه وآله وسلم): باب في النار إذ

فتح سعرت جهنم: رواه عقبة بن عامر، وفي بعضها: بئر في جهنم إذا سعرت جهنم ففنه تسعرت، رواه عمرو بن عنبسة إلى غير ذلك.

وفي المجمع، وقيل: الفلق جب في جهنم يتعوذ أهل جهنم من شدة حره: عن السدي ورواه أبو حمزة الثمالي وعلي بن إبراهيم في تفسيرهما.

وفي تفسير القمي، عن أبيه عن النوفلي عن السكوني عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): كاد الفقر أن يكون كفرا و كاد الحسد أن يغلب القدر.**

أقول: الرواية مروية بلفظها عن أنس عنه (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي العيون، بإسناده عن السلطي عن الرضا عن أبيه عن آبائه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: **كاد الحسد أن يسبق القدر.**

وفي الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبة عن أنس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): **إن الحسد لياكل الحسنات كما يأكل النار الحطب.**

(١١٤) سورة الناس مدنية وهي ست آيات (٦)

[سورة الناس (١١٤): الآيات ١ الى ٦]

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ ۝ إِلَهِ النَّاسِ ۝ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝
الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝}

(بيان)

أمر للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يعوذ بالله من شر الوسواس الخناس و السورة مدنية كسابقها على ما يستفاد مما ورد في سبب نزولها بل المستفاد من الروايات أن السورتين نزلتا معا.

قوله تعالى: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ}** من طبع الإنسان إذا أقبل عليه شر يحذره و يخافه على نفسه و أحسن من نفسه الضعف أن يلتجئ بمن يقوى على دفعه و يكفيه وقوعه و الذي يراه صالحا للعوذ و الاعتصام به أحد ثلاثة إما رب يلي أمره و يدبره و يربيه يرجع إليه في حوائجه عامة، و مما يحتاج إليه في بقاءه دفع ما يهدده من

الشر، وهذا سبب تام في نفسه، وإما ذو قوة و سلطان بالغة قدرته نافذ حكمه يجيره إذا استجاره فيدفع عنه الشر بسلطته كملك من الملوك، وهذا أيضا سبب تام مستقل في نفسه.

و هناك سبب ثالث و هو الإله المعبود فإن لازم معبودية الإله و خاصة إذا كان واحدا لا شريك له إخلاص العبد نفسه له فلا يدعو إلا إياه و لا يرجع في شيء من حوائجه إلا إليه فلا يريد إلا ما أراد و لا يعمل إلا ما يشاؤه.

و الله سبحانه رب الناس و ملك الناس و إله الناس كما جمع الصفات الثلاث لنفسه في قوله: **{ذَلِكُمْ** **اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}** الزمر: ٦ و أشار تعالى إلى سببية ربوبيته و ألوهيته بقوله: **{رَبُّ** **الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}** المزل: ٩، و إلى سببية ملكه بقوله: **{لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ** **إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}** الحديد: ٥ فإن عاذ الإنسان من شر يهدده إلى رب فالله سبحانه هو الرب لا رب سواه و إن أراد بعوده ملكا فالله سبحانه هو الملك الحق له الملك و له الحكم^١ و إن أراد لذلك إلهها فهو الإله لا إله غيره.

فقوله تعالى: **{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ}** إنلخ أمر لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يعوذ به لأنه من الناس و هو تعالى رب الناس ملك الناس إله الناس.

و مما تقدم ظهر أولا وجه تخصيص الصفات الثلاث: الرب و الملك و الإله من بين سائر صفاته الكريمة بالذكر و كذا وجه ما بينها من الترتيب فذكر الرب أولا لأنه أقرب من الإنسان و أخص ولاية ثم الملك لأنه أبعد منلا و أعم ولاية يقصده من لا ولي له يخصه و يكفيه ثم الإله لأنه ولي يقصده الإنسان عن إخلاصه لا عن طبعه المادي.

و ثانيا وجه عدم وصل قوله: **{مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ}** بالعطف و ذلك للإشارة إلى كون كل من الصفات سببا مستقلا في دفع الشر فهو تعالى سبب مستقل لكونه ربا لكونه ملكا لكونه إلهها فله السببية بأي معنى أريد السبب و قد مر نظير الوجه في قوله **{اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ}**.

و بذلك يظهر أيضا وجه تكرار لفظ الناس من غير أن يقال: ربهم و إلههم فقد أشير به إلى أن كلا من الصفات الثلاث يمكن أن يتعلق بها العوذ وحدها من غير ذكر الآخرين لاستقلالها و لله الأسماء الحسنى جميعا، و للقوم في توجيه اختصاص هذه الصفات

و سائر ما مر من الخصوصيات وجوه لا تغني شيئاً.

قوله تعالى: **{مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ}** قال في الجمع: الوسواس حديث النفس بما هو كالصوت الخفي انتهى فهو مصدر كالوسوسة كما ذكره و ذكروا أنه سماعي و القياس فيه كسر الواو كسائر المصادر من الرباعي المجرد و كيف كان فالظاهر كما استظهر أن المراد به المعنى الوصفي مبالغة، و عن بعضهم أنه صفة لا مصدر.

و الخناس صيغة مبالغة من الخنوس بمعنى الاختفاء بعد الظهور قيل: سمي الشيطان خناساً لأنه يوسوس للإنسان فإذا ذكر الله تعالى رجع و تأخر ثم إذا غفل عاد إلى وسوسته.

قوله تعالى: **{الَّذِي يُوسِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ}** صفة للوسواس الخناس، و المراد بالصدر هي النفوس لأن متعلق الوسوسة هو مبدأ الإدراك من الإنسان و هو نفسه و إنما أخذت الصدر مكاناً للوسواس لما أن الإدراك ينسب بحسب شيوع الاستعمال إلى القلب و القلب في الصدر كما قال تعالى: **{وَ لَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبِ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}** الحج: ٤٦ قوله تعالى: **{مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ}** بيان للوسواس الخناس و فيه إشارة إلى أن من الناس من هو ملحق بالشياطين و في زمريتهم كما قال تعالى: **{شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ}** الأنعام: ١١٢.

(بحث روائي)

في الجمع: أبو خديجة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: **جاء جبرئيل إلى النبي (صلى الله عليه وآله و سلم) و هو شاك فرقاه بالمعوذتين و قل هو الله أحد و قال: بسم الله أرقيك و الله يشفيك من كل داء يؤذيك خذها فلتهنيك فقال: بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الناس إلى آخر السورة.**

أقول: و تقدم بعض الروايات الواردة في سبب نزول السورة.

و فيه، روي أن أنس بن مالك قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس و إذا نسي التقم فذلك الوسواس الخناس.**

و فيه، روى العياشي بإسناده عن أبان بن تغلب عن جعفر بن محمد (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله و سلم): **ما من مؤمن إلا و لقلبه في صدره أذنان أذن ينفث فيها الملك و أذن ينفث فيها الوسواس الخناس فيؤيد الله المؤمن بالملك، و هو قوله سبحانه: {وَ أَيْدَهُمْ يَرُوجُ مِنْهُ}.**

و في أمالي الصدوق، بإسناده إلى الصادق (عليه السلام) قال: لما نزلت هذه الآية {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ} صعد إبليس جبلا بمكة يقال له ثوير فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا: يا سيدنا لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفرية من الشياطين فقال: أنا لها بكذا و كذا. قال: لست لها فقام آخر فقال مثل ذلك فقال لست لها. فقال الوسواس الخناس: أنا لها. قال: بما ذا؟ قال: أعدمهم و أمنهم حتى يواقعوا الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتم الاستغفار فقال: أنت لها فوكله بها إلى يوم القيامة.

أقول: تقدم بعض الكلام في الشيطان في أوائل الجزء الثامن من الكتاب.

تم الكتاب و الحمد لله و اتفق الفراغ من تأليفه في ليلة القدر المباركة الثالثة و العشرين من ليالي شهر رمضان من شهر سنة اثنتين و تسعين و ثلاثمائة بعد الألف من الهجرة و الحمد لله على الدوام، و الصلاة على سيدنا محمد و آله و السلام.

بعض المواضيع المبحوث عنها في الكتاب

الصحيفة	نوع البحث	الموضوع	السورة
٣٩	قرآني	كلام في الجن	سورة الجن
٩٠	»	ذنابة لما تقدم من الكلام في النفاق	سورة المدثر
١٣٨	»	كلام في هوية الإنسان على ما يفيد القرآن	سورة الدهر
١٤٧	»	كلام في اقسامه تعالى في القرآن	سورة المرسلات
١٧٣	»	كلام فيما هو الروح في القرآن	سورة النبأ
١٨٢	»	كلام في ان الملائكة وسائط في التدبير	سورة النازعات